حرية الفكر
حرية المعتقد
حرية النشر

عدد خاص

العصور الجديدة

السنة الثانية - العدد الثالث عشر - سبتمبر 2000

أمريكا.. روما الجديدة.. إمبريالية القبيلة

تصدر عن
« العصور الجديدة للنشر والتوزيع »
١٢ جمال الدين أبو المحاسن
جاردن سيتي القاهرة ج . م . ع
تلفاكس ٧٩٥٩١٣٢ - ٧٩٦٤٠٩٨
email : Alousour @ Intouch. com.

المدير العام: راوية عبد العظيم
المحرر العام: مهدي مصطفى
هيئة التحرير: سمير أمين
فكري حسن
محمود إسماعيل
فيصل الخيري
عبد الهادي عبد الرحمن
رشاد سلام
أحمد فؤاد سليم
وائل غالي
محمد يوسف
محمد عرابي
عزمي عبد الوهاب

سكرتير التحرير: هشام عبد العزيز
الجمع التصويري والتنفيذ: « العصور الجديدة »
لوحة الغلاف الأمامي: سلفادور دالي
اللوحات الداخلية: فنانون أمريكيون
الإشراف الفني والتصميم للأعداد من ١ / ١٢: إيناس حسني

هيئة المستشارين
أدونيس
حسين العودات
فاروق وادي

المراسلون
إنجلترا : أمجد ناصر
المغرب : عبد الرحيم الرحوتي
روسيا : أشرف الصباغ
السودان: نورالهدى محمد
هاتف: ٧٨٧٢٠٠ - الخرطوم

• المواد المنشورة مكتوبة خصيصاً لـ « العصور الجديدة » وتعبّر عن آراء أصحابها
• المراسلات باسم المحرر العام . الإعلانات يتفق بشأنها مع الإدارة .
توزيع مؤسسة الأخبار
التوزيع خارج ج – م – ع الشركة القومية للتوزيع

الأسعار

مصر ٥ جنيهات – السعودية ١٥ ريالاً – الكويت ٥٠٠,١ دينار – قطر ١٥ ريالاً – البحرين ٥٠٠,١ دينار – سوريا ١٥٠ ليرة – لبنان ٥٠٠٠ ليرة – تونس ٥ دينارات – المغرب ٤٠ درهماً – الجزائر دولاران – اليمن ٢٠٠ ريال ليبيا ٣ دينارات – الإمارات ٢٠ درهماً – الأردن ديناران – سلطنة عمان ريالان – العراق ٣٠٠ دينار – السودان ٤٠٠ جنيه القدس وغزة ٣ دولارات – الولايات المتحدة ١٠ دولارات – دول أوروبا الغربية ٨ دولارات – روسيا ما يعادل ٨ دولار والصين ما يعادل ١٠ دولار .

I. S. B. N. 1110 - 7405
رقم الإيداع : ٦٩٤٧ / ٩٩

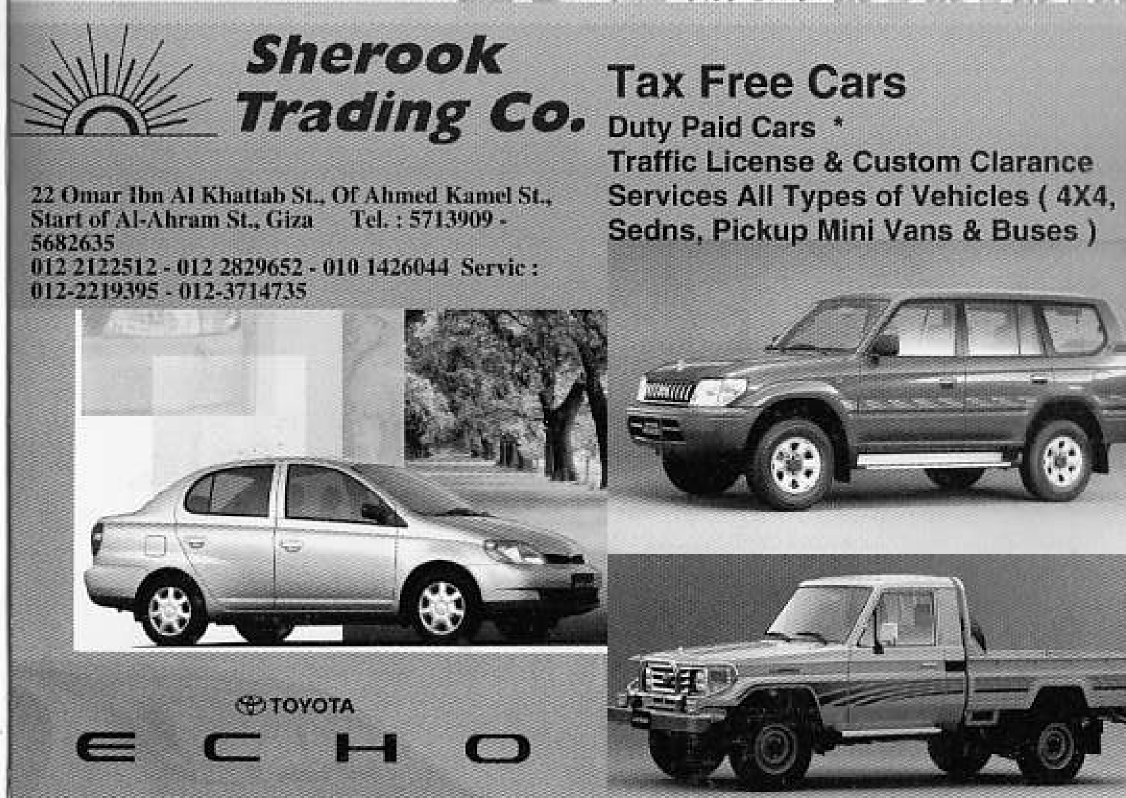

الفهرست

● **العصور الجديدة**	مهدي مصطفى	٤
● **جامع الفراشات**		٩
الاستملاك الإمبريالي للمسلات المصرية	فكري حسن ت: طارق أبو الحسن	١٠
عبيد «روما الثانية» من المثقفين	علاء اللامي	١٨
تأملات في ثلاثية الحق والعنف والثقافة	عادل سمارة	٢٨
أمريكا التوحش واقتلاع الجذور	أحمد عز الدين	٦٤
القرن الأمريكي الجديد		
● **أشباح جديدة**		٧٥
أمريكا لذة الاستبداد (ملف)		٧٦
[1] أمريكا تجتاح العقول	هنري لورانس	٧٧
[2] سيدة الرموز	إنياسيو رامونيه	٧٨
[3] اللغة الكونية الجديدة	بيير بورديو ولويك فاكان	٨٤
[4] إمبريالية الفضيلة	إيف ديزاليه وبراين جارث	٩٠
هيروشيما.. تتذكر الهوية	محمد عبد الشفيع عيسى	٩٦
من الصهيونية إلى نهاية التاريخ	أشرف الصباغ	١٠٦
أمريكا.. ومحو برج بابل	عادل الألوسي	١٢٨
من فيتنام إلى يونية ١٩٦٧	يسري خميس	١٤٢
● **العصب العاري**		١٥٥
فن بلا ماض	محمد عرابي	١٥٦
الأغبياء وسيدهم (شعر)	الن جنسبرج ت: أحمد عمر شاهين	١٦٠
من مفكرة العصفور (نص)	محمد يوسف	١٦٢
● **بلد تحت الشمس**		١٧٣
بابل.. قصة سيدة المدن وسيد الملوك	فيصل الخيري	١٧٤
● **الآخر**		١٩٣
أسطورة العنف والدم من أوروبا إلى أمريكا	آرثر هيرمان ت: طلعت الشايب	١٩٤
● **المسكوت عنه**		٢٢٧
ذلك الأمريكي الجالس في الظلمات (ملف)		٢٢٨
[1] أحلم	مارتن لوثر كينج الابن ت: علاء شاهين	٢٢٩
[2] الجالس في الظلمات	مارك توين ت: إيهاب عبد الحميد	٢٣٣
[3] من ووتر جيت إلى ريجان	ديفيد فروم ت: عبير الفخراني	٢٤٨

العصور الجديدة

مهدي مصطفى

إهداء إلى المفكر البغدادي الراحل هادي العلوي.

بعض الناس يولدون
بعد وفاة آبائهم.
نيتشه

في القرن السادس عشر كان الآخر في المخيلة العامة الأوروبية، شخصًا مقطوع الراس، يظهر ذلك جليًا في بعض الرسوم الشعبية، وفي بعض كتابات هيجل بعد ذلك، الذي كان يرى الهندي الأحمر ليس كائنًا بشريًا، والأفريقي الزنجي كائنًا إنسانيًا لكن بلا عقل على الإطلاق، وبفضل هذه النظرة التي أشاعتها الثقافة (الرفيعة) الاستعلائية كانت مبررات الغزو والمحو مترسبة في أعماق أي أوروبي، وهو ما مهّد لإفناء «الهنود الحمر» وجلب العبيد من «أفريقيا» ولا يزال العبيد يتدفقون إليها، ليس عن طريق نصب الفخاخ في الغابات الأفريقية، بل عبر إغراءات (الحرية) الأمريكية المطلقة، (العديد من الأمريكيين من حائزي نوبل في مختلف المجالات ليسوا امريكيين).

أما في القرن العشرين، فثقافة المحو الأورو – أمريكية اتخذت شكلاً آخر، الموت عن بعد، ولأن رؤية الدم كانت معتادة، فقد تكوّن الأمريكي من مزيج من العنف والتدين والهمجية والمغامرة والشعور بعقدة الذنب، بسبب سيطرة الرجل الأبيض على القارة الجديدة، ومحاولة تبرير ما حدث للهنود الحمر والزنوج عبر خمسة قرون من الغزو المستمر فإنه ملّ رؤية الدماء، دون التخلي عن أعماقه في محو الآخر، وهو ما يتجلى في قذف هيروشيما ونجازاكي بالقنابل النووية عام 1945، وإلقاء الأسلحة الفسفورية على الفتناميين العزّل في الستينيات، ومحو ملجأ العامرية العراقي 1991 بالقنابل العنقودية وصواريخ كروز، بغضّ النظر عن غزو هاييتي وجرينادا وإفقار البرازيل وفنزويلا البترولية ونزح الأموال العربية وتحويل روسيا إلى شعب من المتسولين وإخصاء النخب في العالم الثالث.

وإذا كان اكتشاف امريكا، قد مثّل مفاجأة للإنسان كما يقول الشاعر الأمريكي فيتزجيرالد، فإن العالم يعيش هذه المفاجأة الهمجية منذ القرن السادس، فالمغامر الأوروبي كريستوفر كولومبس الباحث عن الذهب، لم ولن يتوقف حتى الآن، كما يقول ويتمان الشاعر الأمريكي: «إننا لم نعش أهوال الماضي، ونعبر المحيط لنأتي إلى هنا.. ونتوقف» فذلك الأمريكي الخليط، الذي تكوّن من الهجرات من جميع العالم، بخلفيات ثقافية متعددة، عرقية، وإثنية، غير ذائبة إلا تحت إلحاح القوة والرعب والخوف، وقد مثل ذلك جيدًا جورج أورويل في رواية عام (1984) التي لا تنطبق إلا على حياة الأمريكيين وليست على الحياة الروسية أو كما أراد المثقف (الرفيع) أورويل.

وبسبب كل هذه العقد الإثنية واللغوية تتطرف أمريكا وتحاول أن تجعل العالم على نموذجها ويعبر عن ذلك «فريدمان قائلاً»: «إن المجتمع العالمي المزدهر هو المجتمع الذي يستطيع أن يحدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على الدوام، ولا يوجد نموذج لذلك على الأرض اليوم أفضل من أمريكا».

هذه هي أمريكا، البورصات، والعولمة، والإثنيات والديانات المتعددة، والمافيا، والإنترنت، والبنتاجون والقنابل النووية والقتل في الشوارع، وهي لغة أصبحت شائعة في العالم، بفضل الانتصار المدّوي في الحرب العالمية الثانية، فمنذ عام 1945 وأمريكا تصمم المجتمعات كيفما تريد، يبدو هذا بديهيًا ومعروفًا، وعديد من البشر في العالم يعرفونه حق المعرفة، لكن من أين تأتي هذه القدرة الأمريكية على «الغزو النيوليبرالي» دون أدنى مقاومة؟ هل لأن نموذجها قوي وقادر وفاعل وحقيقي أم لأن (المغزو) مستعد «للغزو»؟، وإذا كان الهنود الحمر، على كثرة عددهم، تم إفناؤهم بسبب صراعاتهم القبلية، فهل سيكون مصيرنا شبيه بمصيرهم، أم أن هناك مقاومة كامنة في الأعماق، وإذا وجدت ما السبيل إليها، وإذا كانت أمريكا معروفة بكل هذا للداني والقاصي، هل هناك طريق إلى ثقافة مقاومة تحفظ كرامة الشعوب والأوطان دون التداعي تحت أقدام السيد الأمريكي ؟

نستطيع أن نشير إلى كتابات «إدوارد سعيد» خاصة في «الثقافة والإمبريالية»، وتشومسكي في «501 الغزو مستمر» وتيري إيجلتون في «فكرة الثقافة» والذي يدعو فيه أوروبا إلى الاعتذار عن الإبادة والعبودية اللتين لم تنفصلا عن ثقافتها سواء (الرفيعة) أم

(الشعبية) كما نشير إلى الأصوات المتصاعدة في العالم، خاصة فرنسا والمانيا، ضد الهيمنة الثقافية الأمريكية، وأصوات العالم الثالث المحتفظة ببعض ظلال المقاومة.

غير أننا هنا سننظر إلى الجوهر دون الظواهر، إلى الأعماق لا الأشكال، بعيداً عن عولمة السوق وعن ثقافة المحو دون تردد، وهو ما يتجلى في الظاهرة المرئية الأمريكية، في القنوات التليفزيونية والسينما والأقمار الاصطناعية.

ونتوقف أمام ظاهرة المازوخية الثقافية العربية، والانسحاق امام النموذج الأمريكي، منذ صعود جورباتشوف وتفكك الاتحاد السوفيتي ومحو العراق 1991 وإفناء يوغسلافيا، تحوّل كثير من (المثقفين) خاصة مالكي مراكز (النخبة) الإستراتيجية، والعاملين في الشركات متعدية الجنسية إلى أنبياء جدد للتبشير بالنموذج الأمريكي (المعولم) والإغراق في الحلم الأمريكي، والغريب أن بعض هذه النخب كانت اكثر راديكالية سواء قومية ام يسارية في الأزمنة الغابرة.

وهو ما يجعلنا نتساءل عن تكوين هذه النخب في العقود الثلاثة الأخيرة، وعن مصداقيتها السابقة، وعن مدى التصاقها بثقافتها وانفتاحها ومعرفيتها، فإذا كان الأمريكي العادي يبحث بعد خمسة قرون من اكتشاف أمريكا عن جذوره في قارات العالم، ومن اين اتى، الا يدعو هذا البعض إلى إعادة النظر فيما يبشرون به ؟ أم أنهم مجرد «سماسرة افكار» ونحن نخدع طوال الوقت باعتبارهم «الأفندية» الذين لا يأتيهم الباطل من بين ايديهم ؟

من حسن الحظ أن التقنية الحديثة، التي هي جماع الخيال البشري، وليس أمريكا منفردة، تستطيع أن تستقبل وترسل في نفس الوقت، وعبرها قد نستطيع أن نستخدمها في بث آرائنا وفضح أساليب القهر الأمريكي أو غيره، وإعادة الاتزان إلى الثقافة الإنسانية، بحيث تقود وتتفاعل وتتلاقح، دون سيطرة ثقافية واحدة، ودون «المحو عن بعد» مثلما حدث عندما أطلق الطيار الأمريكي عام 1945 القنبلة النووية فوق هيروشيما ونجازاكي وعاد ليتسلم وساماً للبطولة الفائقة، دون أن يدري أنه محا في لحظة واحدة 200 الف إنسان بمن فيهم الأطفال والنساء، مثلما حدث في حرب الخليج الثانية عندما كانت صواريخ توما هوك، وكروز تنطلق من صحراء الأريزونا وبعدها يذهب القاتل دون أن يرى الدم إلى مرقص ليراقص عشيقته، فقط كان يرى كتلاً ترتفع وتنهار ودخاناً أزرق رومانسياً.

من هنا تحاول الثقافة الأمريكية أن تنهي المجتمعات الإنسانية عن بعد، عن طريق فوكوياما، وهنتنجتون وتوماس فريدمان، ورجالهم (من المجتمعات المحلية) حاملي أختامهم إلى الشعوب المقهورة، التي لابد أن تدخل النموذج أو تنتهي ليتم الغزو دون رؤية الدماء، التي اعتادها الأمريكي طويلاً.

كل هذا تداعى ونحن نعد هذا العدد من «العصور الجديدة» إذ طفت على السطح ظواهر، كانت كامنة، أو مختفية لدى عديد من مثقفي امريكا في المجتمعات المحتلة حديثاً، بالتبعية ورؤوس الأموال، والشركات متعدية الجنسية، تحت شعار حرية السوق، والعولمة، والإثنيات، والعرقيات، والتعدد الثقافي، والأقليات، اقول تداعى لأن أحدهم كتب عن أنه مصدوم بسبب ما حدث في قضية سعدالدين إبراهيم، لأن حرية البحث اصبحت في خطر، وحياة الباحث نفسه معرضة للإفناء، وهو يتناسى عامداً ان حرية البحث تلك هي حرية بحث الأمريكيين في أعماق الشعوب الأخرى، وأنهم لن يتوقفوا عند حدود الاكتشاف، إذا كان يعرف شيئاً عن نشأة أمريكا، وتكوين النخبة الأمريكية البيضاء، وتلبسها بأساطير العهد القديم، والثقافة الأوروبية الاستعلائية مع هجنة غير طبيعية في مسيرة البشرية.

ولنكن اكثر تحديداً ونقول: إن ما حدث من كشف لمثقفين كانوا راديكاليين في عقود سابقة، بعد أزمة الخليج وتجفيف البترول العربي وهروب رؤوس الأموال يجعلنا نتساءل عن دور بعض المؤسسات والقائمين عليها الذين لا يألون جهداً في إزاحة الثقافة الجادة وإظهار ما يعدّ استهلاكياً وتكبير ظواهر عابرة، وإغراء بالقرب من مواقع القرار الثقافي، ومحاولة تفتيت ما كونته الثقافة والمثقفون عبر نضالات طويلة ومن خلال انتقاء نخب تمتلك من الضعة والهشاشة ما لا يمكن تصوره، كل هذا يجعلنا نقف حائرين أمام تلك الظواهر التي تمتاز بالإزاحة والقمع وعدمية الذاكرة، برغم من خطابها التنويري وأدواتها المنهجية، اللذين لا يكرسان للتنوير بقدر ما يكرسان لمركزية امريكية على جثة العالم، والغريب أن هذا العصر الأمريكي هو الذي انتج عدداً اكبر من اللاجئين والمهاجرين والمنفيين والمشردين، ولننظر إلى حالة السودان، والعراق، وافغانستان ودول أوروبا الشرقية السابقة، فمعظم نخب هذه الدول جرّفت وانتهى المطاف بها إلى منافي الشمال، في لندن وباريس ونيويورك، وهو نفس العصر الذي يبشرنا به فريدمان وذيوله في ثقافة العالم الثالث.

ورغم ضبابية الصورة إلاّ أننا متفائلون بعصر آخر، غير ريجانيّ، أو مكارثيّ، أو متعدي الجنسية أو حملة لوائه من قليلي الموهبة أو المسيطرين على الثقافة بكل ابعادها من عديمي الذاكرة ونلفت الانتباه هنا إلى أن كثيرين من المبهورين بأمريكا والحرية الغربية تركوا لنا أذنابًا كثيرة بوعي أو غير وعي جعلت الحياة الإنسانية غير محتملة على الإطلاق، هذه الأذناب هي التي تشوه نضالات وكفاح الإنسان عبر القرون الطويلة، هؤلاء ينتشرون بكثافة، إلا أنهم قليلو العمق الإنساني ويتنقلون سريعًا من فكرة إلى فكرة دون وعي، وأظن أن عند لحظة معينة ستغيب هذه الأذناب كما سيغيب سادتهم.

ورغم أن حركات التحرر الوطني والأفكار الإنسانية المتقدمة تعاقب بشدة الآن، وأحيانًا «تعاير» إلاّ حجية ومنطقية الثقافة «النيوليبرالية» لا تصمد طويلاً وما حدث في سياتل 1999، وجنيف 1999، وثورة فلاحي فرنسا ضد ماكدونالدز والمطاعم الأمريكية الأخرى خير دليل على أن خلال الدخان الأمريكي ثقافةً إنسانية أخرى أكثر حرية وتعددية وإنسانية.

فـ «على مدى جيلين كاملين من الزمان وقفت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط غالبًا إلى جانب الطغيان والظلم ولم تساند رسميًا أيًا من الصراعات من أجل الديمقراطية، أو حقوق المرأة، أو العلمانية، أو حقوق الأقليات، وبدلاً من ذلك فقد قامت إدارة أمريكية بعد أخرى بتدعيم الأتباع والمذعنين المقوتين وأشاحت بوجهها عن جهود الشعوب الصغيرة» كما يقول إدوارد سعيد.

جامع الفراشات

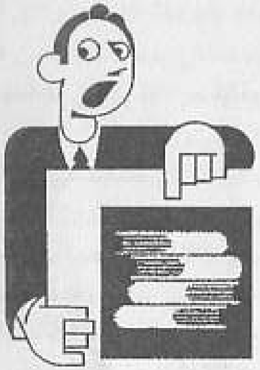

الاستملاك الإمبريالي للمسلات المصرية
فكري حسن

عبيد روما الثانية من المثقفين تأملات في ثلاثية الحق والعنف والثقافة
علاء اللامي

أمريكا التوحش واقتلاع الجذور
عادل سمارة

القرن الأمريكي الجديد
أحمد عز الدين

فكري حسن
ت: طارق ابو الحسن

حاولت اوروبا وبعدها امريكا أن ترث الحضارات القديمة، عبر سرقة كنوزها الأثرية، وإقامة المتاحف لها في عواصمها الكبرى، باريس، ولندن ونيويورك، لتؤكد انها صاحبة التنوير في العالم، الذي يجب أن يحذو حذوها ذلك العالم، خاصة غير الغربي الموصوف من قبل مثقفيها بانه عالم بربري، ومن أجل تحديثه لابد أن يدخل نسق الحضارة بوصفها شكلاً غربياً أخيراً، أو نهاية للتاريخ، وما عداه اشكال بائدة، ويجب أن تعاد صياغتها من خلال التدخل الإمبريالي عبر أدوات نشر قيم الحضارة الغربية، خاصة الأمريكية، لا من أجل العدالة وحقوق الإنسان المزعومتين، بل من أجل الهيمنة على دول العالم غير الغربي، صاحب الثقافة الرفيعة.

والكاتب هنا يتخذ زاوية شديدة الدقة من خلال علم الآثار الذي لعب دوراً مهماً في تشكيل العالم الجديد، عبراقتلاع المسلات المصرية القديمة ووضعها في ميادين عواصم الغرب الثقافية من أجل الاستعلاء على دول العالم.

المحرر

كانت المسلات المصرية الموجودة في وسط روما، هي الأولى في استملاكها بواسطة الأباطرة الرومان لكي يبرهنوا على قوتهم الإمبراطورية، وتفوقهم واستعلائهم على باقي الحضارات الأخرى عن طريق الغزو المسلح.

وقد ادعى باباوات الكنيسة – بعد ذلك – نفس الحق في ادعاء تملكهم للمسلات لكي يبجلوا قوة البلاد المسيحية.

ومع بزوغ القوميات الحديثة في أوروبا، بدأت كل من فرنسا وإنجلترا في التنافس والتطاحن من أجل امتلاك المسلات لكي تأكدا زعامتيهما وسيادتيهما كإمبراطوريتين عالميتين.

وأخيراً حصلت نيويورك على مسلاتها لكي تدلل على مكانتها ومنزلتها كمدينة عالمية.

إن امتلاك المسلات المصرية عبر عدة أزمنة مختلفة يرتبط جزئياً بالشكل المادي الذي تم اختياره بواسطة المصريين كرمز يدلل على القوى الكونية، وقدسية الملكة المصرية.

وبغض النظر عن النصوص المختلفة التي تحتويها المسلات، إلا أن المسلات تمنح لمقتنيها نسيم القوة والمجد، وعبق ما وراء التاريخ، والنظر إلى عدة ثقافات مختلفة.

وقد يرجع ذلك إلى اتزانها المذهل، وشكلها الانسيابي، ومادتها الخام القوية والغنية، وكذلك إلى أهميتها المتزايدة في الكتابات القديمة كدليل على السيطرة والزعامة التقليدية.

إن قيام الدولة القومية، وظهور ثورة التصنيع في أوروبا الحديثة، والهيمنة الإمبريالية للقوميات الأوروبية قد غيرّ العالم بشكل جذري طوال المائتي عام الأخيرة، فقد تم تكريس تقسيم أساسي بين الدول الصناعية الغنية، وأغلبية دول العالم المتخلفة والفقيرة. وقد بلغ هذا التقسيم الآن أوجه ببزوغ نظام عالمي جديد تهيمن عليه مؤسسات عالمية عملاقة ينطلق نشاطها من مدن العالم الغربي و(طوكيو).

في مثل هذا المناخ السياسي والمتغير، فإن اختبار مدى الصلة بين القومية، والكولونيالية، والأركيولوجيا (علم الآثار القديمة) قد يمكن تجربتها كوسيلة لإيضاح الدور الذي يمكن أن يؤديه علم الآثار القديمة أو الذي لعبه بالفعل في تشكيل نظام عالمي جديد (انظر على سبيل المثال: Atkinson, Banks, and O'Sullivan 1996, Diaz. Andreu and Champion 1996, Gathercole and Lowenthal 1990, Hamilakis 1996, Hassan 1998, Hill 1992, Hobsbawn 1990, Kohland and Faecett 1995, Lamberg - Karlovsky 1997, 1998, Meskell 1998).

وفي هذه المساهمة، فإنني آمل في تقديم دراسة عن ادعاء ملكية الآثار والنصب التذكارية من قبل القوى الاستعمارية بغرض إضفاء صبغة القداسة على هيمنتها العالمية.

وتهدف القوى الإمبريالية إلى تبرير دورها الاستعماري بافتراس الحضارات الأخرى، وخلق وضع استعلائي في نظام العالم.

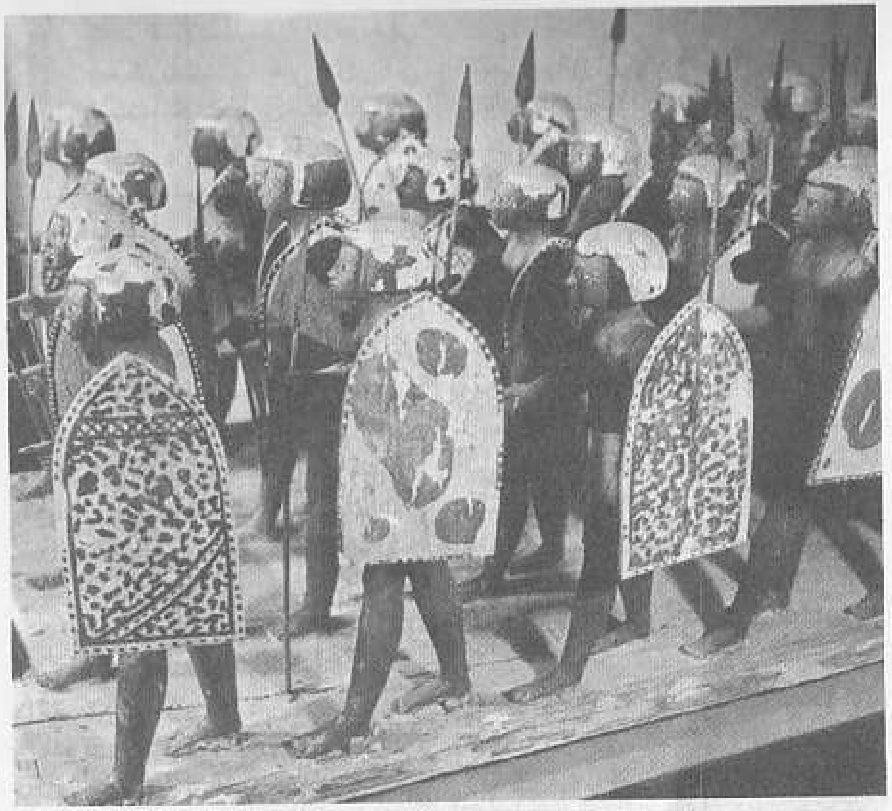

تماثيل لجنود من أسيوط الأسرة الثانية عشرة تقريبًا

ومن أجل تحقيق ذلك، تم اصطناع مفهوم «نهاية العالم»، وأصبح استعلاء الإمبريالية على العالم يرتكز الآن على إعادة توجيه مسار الحضارة الإنسانية من أجل اعتبارها (أي الإمبرياليات) كنهاية ومصير أخير والغاية القصوى للمراحل التاريخية.

بتلفيق روايات إمبريالية، اغتصب المستعمرون الآثار القديمة، والنصب التذكارية، وكنوز التراث الإنساني من الحضارات الأخرى بادعاء أنها ملكية مؤكدة وخالصة لهم!! (عن طريق اختلاق صلة أسطورية بأصحاب هذه الحضارات)، أو كغنيمة مكتسبة عن طريق الغزو والحرب. بهذا التلفيق الإمبريالي، وتنفيذ هذا الفعل، تم تهميش الأصحاب الحقيقيين للحضارات الأخرى، وطرحهم جانبًا باعتبارهم رافضين لمسار وحركة التاريخ. أي تاريخ!! التاريخ المعتمد على المسار الذي وضعته الإمبريالية. لقد انتهى تاريخ أصحاب الحضارات. فقد تم تجاوزه في هذا المسار.

(على سبيل المثال، انظر: Fannon 1968, Prakash 1995, Said 1993, Young 1990, Wolf 1982).

لقد نشأ علم الأركيولوجيا الحديث، وتطور في أثناء التوسع الإمبريالي الأوروبي في القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ومن هنا تم تضفيرهما وجدلهما معًا. فالتدافع من أجل السيادة على الدول الأخرى من قبل فرنسا وإنجلترا قد تم بنجاح أكثر بسبب ارتباطه بالعمل الثابر والكدود من المبشرين والمكتشفين وعلماء النبات والآثار. إن غرضي من المساهمة بهذه الدراسة ليس الذم والزجر أو المطالبة بالعقاب، بل إنني بدلاً عن هذا أهدف إلى التوصل إلى بعض الاستدلالات عن أسباب ادعاء الإمبرياليات بحقها في تملك بعض الأشياء، والتعليل العقلي المحتمل لمثل هذه الأعمال، بغرض الارتقاء برأي تاريخي راسخ عما يجب تدبره بخصوص ميراث الآثار القديمة في العالم الكوني الحالي.

بحث أنتوني سميث (1986) في كتابه: «الأصول العرقية للأمم» كيف أن الماضي يلجأ إليه، ويستشهد به من أجل المستقبل، خصوصًا في أوقات التغيير السريع، أو الأحداث الكبرى مثل قيام القوميات، وتأسيس نظام سياسي جديد، هنا يكتسب الماضي أهمية خاصة، ويتطلب معالجة جديدة.

وبما أن الإمبريالية السياسية والقوى الاقتصادية تشكلان الآن نظامًا عالميًا جديدًا باستخدام قوى ونظم تكنولوجية جديدة، فإنه يجب على علماء الأركيولوجيا أن يفحصوا، ويتناولوا المعالجات السياسية للماضي عن طريق وسائل الإعلام، والإنترنت، والسياحة، والشركات عابرة القارات.

ودراسات مثل هذه لا يجب اعتبارها قصصًا تحقيرية أو نقدًا للحداثة والمعاصرة، بل مصدرًا للتبصير بتكتيكات واستراتيجيات تكوين وبناء الإمبريالية.

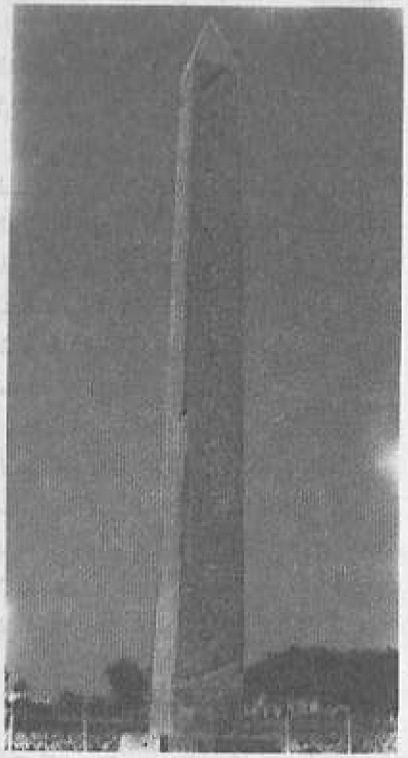

مسلة سنوسرت الأول في هليوبوليس وهي من الجرانيت، ارتفاعها عشرون مترًا تقريبًا

الإمبريالية والكولونيالية والاغتصاب

لقد كان عمري عدة أعوام قليلة، عندما أراني والدي ثكنات قصر النيل العسكرية، في المكان الذي يشغله الآن فندق النيل هيلتون ومبنى جامعة الدول العربية.

لقد كانت ثكنات قوات الاحتلال الإنجليزية.

لقد كانت إنجلترا إمبراطورية مترامية الأطراف، وكانت تمتلك مستعمرات في مصر، والهند، والعراق، ودول أخرى عديدة لا أستطيع – في تلك السن – أن أحصيها نظرًا لمعلوماتي الجغرافية المحدودة.

لقد اكتشفت بعد ذلك، في إنجلترا وأوروبا أن كلمتي «الإمبراطورية» و«الإمبريالية» كانتا ترادفان معاني الفخر والتكبر (ومازالتا كذلك عند البعض حتى الآن).

وفي مصر، وفي أول احتكاك لي بالسياسة من خلال صفحات «الاثنين والدنيا» – وهي مجلة أسبوعية مصرية – كان للإمبراطورية مضامين ومعان أخرى مختلفة فقد كانت هناك تقارير عن حركة المقاومة الوطنية في منطقة قناة السويس، تتحدث عن الاحتلال البريطاني.

عند المصريين، كان هذا التعبير «الاحتلال» يعني أن إنجلترا بآلتها العسكرية ومناورتها السياسية قد تحكمت في شئون الدولة المصرية، والأعمال الاقتصادية، والنظم الاجتماعية بدون أدنى حق لها في ذلك أو رضاء شرعي وقانوني لمثل هذا التحكم من المصريين.

بالرغم من أن كلمة «مستعمرة» في اليونان القديمة كانت تعود إلى استيطان مواطنين يونانيين في أماكن بعيدة مثل إيطاليا أو شمال أفريقيا، إلا أن «الاستعمار» قد أصبح مصطلحًا شائع التداول بواسطة حركات التحرر الوطني في مختلف أنحاء العالم، كدليل على الاحتلال بواسطة القوى العسكرية لكي تتسيد دولة على أخرى.

وفي أثناء الفترة التالية للحرب العالمية الثانية، وبعد إعلان ميثاق حقوق الإنسان، وحق الأمم في السيادة، أصبحت كلٌ من «الإمبريالية» و«الاستعمار» تستعملان على نطاق واسع من الدول كمرادف للظلم واغتصاب الحقوق الإنسانية، والخضوع، والاستغلال.

وقد تبنت حركات الحقوق المدنية – خلال فترة الستينيات – وبعد ذلك حركات التحرر النسائية، حق الشعوب في الحرية من خلال إقامة الندوات ورفع الشعارات وإلقاء الخطب، بل أحيانًا باستخدام تكتيكات الصراع مقدمين بذلك منظورًا غير شائع في الغرب الإمبريالي عن الاستعمار، ومفضلين استعمال مصطلح «الاستعمار» على مصطلح «الإمبريالية».

وقد تم مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر بشكل فعال بواسطة رجال الدين ورثة تقاليد وتعاليم إسلامية عريقة وممتدة «كالجهاد»، ومحامين من أصحاب ثقافة وتعليم فرنسي، وأساتذة جامعات يمثلون طليعة مصر الحديثة منذ عام 1850.

وفي 16 أكتوبر من عام 1954، نجح ضباط الجيش المصري بزعامة جمال عبدالناصر في إجلاء قوى الاحتلال (بعد مفاوضات ناجحة وافقت بريطانيا خلالها على سحب جيوشها من منطقة قناة السويس).

وطوال فترة حكم عبدالناصر كان المصطلح المعروف بـ«الكولونيالية» يرادف «الاستعمار» في مقابل «الاستقلال» و«التحرير».

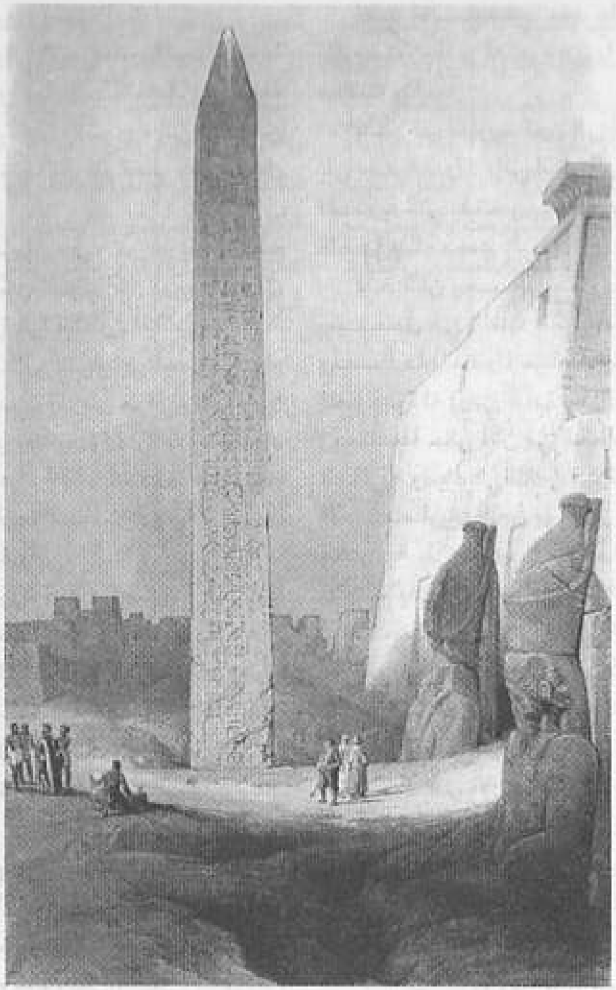

معبد الپيلون كما رسمه الفنان الاسكتلندي ديفيد روبرتس عام 1838 بعد نقل المسلة الشمالية

لم يكن احتلال المصريين يعني استيطانًا لمواطنين بريطانيين أو وجـــودًا لـهم على الأراضي المصـرية. فـبعكس الجـزائر، لم يستقر الإنجليز في مصر، بل كان ينظر إلى الاستعمار على أنه من أعمال الاغتصاب لسيادة المصريين واستقلالهم.

لقد كان يعني الاستعباد والتبعية، ونوعًا من الخضوع والعبودية الحقيقية. ففي اللغة العربية تنتمي كلمة «التحرر» إلى عائلة من المفردات التي تتضمن كلمة «حر» في مقابل كلمة «عبد».

لقد كان حرمان مصر من حريتها يتضح من خلال التدخل السافر من قوى الاحتلال في السيطرة وإدارة الشئون المصرية.

قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر في عام 1882، تم تنصيب وفرض مراقبين أوروبيين (فرنسيين وبريطانيين) لإدارة الاقتصاد المصري في عام 1879 كمقدمة وإرهاص لاستعمال القوة العسكرية لإملاء شروط الدول الاستعمارية.

هذه الشروط كانت لمصلحة إنجلترا وفرنسا الاقتصادية للعبث بمصر والإضرار بمصالحها الاقتصادية، فمصر كان يجب المحافظة عليها كمزرعة قطن للغرب. (Stavrianos 1981, P.224)

لقد بدأ التصنيع الحديث في مصر في عهد محمد على خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وقد قاومته بضراوة وعنف القوى الأوروبية، وعملت على تحجيمه أولاً ثم تقويضه بعد ذلك. وأكثر من ذلك فقد تم وأد برنامج التعليم الطموح الذي بدأه محمد على لإمداد مصر بالمهندسين والمخترعين والأطباء.

لقد استحسن الوزير الإنجليزي الأجنبي اللورد بالمريستون في عام 1837 وضع مصر هذا الذي لا يسمح لها أن تكون بلدًا صناعيًا، بل عليها أن تطور من قدرتها الزراعية بما يجعلها مفيدة لكل الأطراف!!

لقد أصبح محمد على لعنة على بالمريستون الذي اعتبره بربريًا جاهلاً يجب معاقبته وتأديبه.

لقد ذهب بالمريستون إلى أبعد من ذلك إلى حد القول: «إني أنظر إلى حضارته المصرية التي يفتخر بها كمحتال شرير» قاصدًا بذلك محمد علي.

لقد كان يجب على مثل هذا الوزير أن يستعمل في خطابه السياسي عبارات ومصطلحات منقولة من مصادره الثقافية المعاصرة له (وهي عادة مازالت مستمرة ومستعملة حتى الآن في الخطاب السياسي العالمي)، ونجد في ذلك إشارة إلى «بلاغة» الاستعماريين الذين يهدفون إلى إضفاء الشرعية على دورهم الاستعماري بتنصيب أنفسهم بأنفسهم كمراقبين محايدين وعادلين للحضارات، وفي نفس الوقت ينوهون بأنفسهم بعيدًا عن «البرابرة» الآخرين!!

لقد تم تفويض رسالة عصر النهضة والتنوير العالمي عن طريق إرسالياتهم التي انتشرت على الأرض لكي تساعد العالم الفقير على «التمدن» و«التحضر» باسم إلههم وباسم بلادهم عما كانوا يزعمون.

إن هذه الإرساليات قد كشفت زيف الدعاوى السياسية ومغامرات رجال الأعمال، فقد كان هدفهم وغرضهم الوحيد هو السيطرة على العالم ولم يكن أبدًا من أجل المساواة والعدالة بين البشر.

لقد اعتمد المشروع الاستعماري الأوروبي على الاستغلال الاقتصادي للدول الأخرى عن طريق القوة العسكرية أو التلويح باستخدامها عند الضرورة. ولكن الاعتماد الأكبر والأكثر أهمية هو تجريد الدول الأخرى من وصف نفسها بأنها «متحضرة» أو «صاحبة حضارة»، وتقديم أنفسهم كأوصياء على تركة العالم القديم الثقافي.

(انظر أيضًا: Bernal 1994, P.126)

إن تبني القوى الأوروبية للإستراتيجية الخطابية الثقافية قد تلازمت وتوافقت مع استخدام الإنجازات المادية للماضي كتأكيد وتدعيم لسيادتها على العالم.

فالمتاحف القومية الأوروبية والأمريكية بدلاً من أن تعرض مخلفات أثرية تعبر عن ماضيها وتراثها الأركيولوجي، فإننا نجدها على العكس تعرض نماذج من مقتنيات الشعوب المستعبدة، فالمتحف البريطاني، على سبيل المثال – لا يعتبر متحفًا للآثار أو الأشياء المادية التي صنعها البريطاني – القديم بل نجده مكدسًا بكنوز أثرية من مصر والعراق والهند ودول أخرى كثيرة من أصحاب الحضارات الكبرى، وتعود هذه الآثار إلى العصر الإمبريالي البريطاني عندما اعتبرت هذه الكنوز كتركة وميراث شرعي لقوى الاحتلال.

علاء اللامي

يرى الأوروبي السلام على طريقته، أو على طريقة روما القديمة، السلام الروماني الذي لا يقدر بثمن، وهو الذي يعني أن قتل الآخر أو محوه هو خير عالمي، خاصة إذا مارسه هو، بينما يرى أن الدفاع عن الذات شر مطلق إذا مارسه هذا الآخر.

وقد أصبحت الحربان الغربيتان عالميتين بفضل هذه النظرة الأوروبية، خاصة من قبل المثقفين الذين تحولوا إلى عبيد في آلة الإعلام الأوروبي، فانظر ماذا رأى فرويد في رده على رسالة اينشتاين إبان الحرب الأوروبية الثانية، وهنا يعالج الكاتب هذه المسألة منطلقاً من فكرة المثقف المُضلل الذي يتحول إلى عبد خاصة هؤلاء الذين ينظرون إلى الجلاد بامتنان.

المحرر

مهداة لذكرى عدو الإمبريالية الأول: هادي العلوي في الذكرى الثانية لرحيله التي تمر هذا الشهر.

عبقري ولكن

تطرقت ذات مرة في دراسة متخصصة حول ظاهرة العنف المجتمعي والجماعاتي (نشرت في مجلة دراسات عربية العدد 1\2 السنة السادسة والثلاثون 1999) إلى موقف مؤسس علم التحليل النفسي سيجموند فرويد من عصر العولمة الرومانية الأولى على العالم آنذاك. وأرى مفيداً الآن، طرق الموضوع ثانية، ومن زاوية مختلفة وضمن إطار آخر، هو الدور الخطير للمثقف المعاصر في خضم القيامة الهمجية الثانية لروما الجديدة. ومن الجدير بالتذكير، أن أستاذي وصديقي المفكر المشاعي هادي العلوي البغدادي كان قد سبقني في وضع الصور والخطوط العريضة التنظيرية الأولى، للمفهوم العام الذي أتبناه وتنهض على أساسه هذه المقالة المتواضعة والمبتسرة.

ورد موقف فرويد في رسالة جوابية مسهبة، أرسلها إلى البروفيسور الألماني، وصاحب النظرية النسبية: اينشتاين وتضمنها كتاب (The Dynamics of aggression) لمجموعة من الباحثين الأجانب، ترجمه إلى العربية تحت عنوان «سيكولوجية العدوان» عبدالكريم ناصيف ص20 وما بعدها). فقد كان هذا الأخير قد طرح على فرويد سؤالاً خطيراً فيما كانت سحب الحرب «الغربية» الثانية السوداء تتجمع في الآفاق، يقول: ما الذي يمكن فعله لحماية الجنس البشري من الحرب ولعنتها؟

ويعترف سيجموند فرويد بأنه شعر بالفزع لشعوره بالعجز عن معالجة ما كان يعتبره مشكلة عملية من اختصاصات رجال الدولة. ولكنه على الرغم من ذلك، قدم في تلك الرسالة مساهمة تفسيرية أولية وعميقة تماماً من الناحية العلمية البحتة والتخصصية، مردوفة بموقف سياسي ساذج وخاطئ على طول الخط، من عصر الهيمنة الرومانية على العالم في ذلك العصر إلى درجة أنه يسمى كبت أنفاس الشعوب بالعنف والهمجية الرومانية بـ (السلام الروماني الذي لا يقدر بثمن. ص23. م.1). تعميقاً للفهم، وتوطئة لتأسيس موقف من أنموذج المثقف المعاصر المضلل والداخل في زمرة عبيد روما الجدد لا بأس من عودة وجولة قصيرة في مفاهيم فرويد الواردة في تلك الرسالة.

جدلية الحق والقوة

يطرح اينشتاين وجهة نظره عبر تلك الرسالة في موضوع الحرب من خلال تجادل وتناقض موضوعي الحق والقوة، فيقترح فرويد في رسالته الجوابية عليه استبدال مفردة «قوة» بمفردة أخرى أكثر صراحة تعبيرية هي «عنف» وهو محق تماماً هنا. ثم يمضي – فرويد – يناقش موضوعه على ضوء ما يمكن تسميته البديهيات المهملة رغم أهميتها، من ذلك مثلاً: أن المبدأ العام لاستخدام العنف هدفه حل النزاعات بين الناس حول مصالح معينة. وإضافة إلى أن استخدام العنف يؤدي إلى إنهاء وتحطيم أحد طرفي الصراع وقتله فإن قتل الخصم – يوضح فرويد – يرضي ميلاً غريزياً لدى

فرويد يرد على اينشتاين

القاتل. وبمرور الزمن «والصراع» يقتنع (يكتفي؟) عنف المنتصر بإخضاع الخصم واستخدامه للقيام ببعض الخدمات وهنا – تقريباً – حل الاستعباد محل القتل والإبادة. وكان ذلك تطوراً إيجابياً من حيث المحتوى التاريخي الموضوعي. تتصاعد تحليلات فرويد وصولاً إلى الإعلان التالي (الحالة الأصلية للأشياء: السيادة لمن يملك القوة الأكبر. السيادة للقوة الوحشية أو للعنف الذي يدعمه التفكير). وضمن جدلية الحق والقوة، يتابع فرويد هذا التحليل، ليتوصل إلى أن العنف الذي بدأ فردياً، أي بقوة شخص واحد يملك حقاً معيناً في مصلحة معينة، كف عن أن يكون: قوة، حين توحد الأفراد ونتج عن اتحادهم قوة الجماعة.

بمعنى أن الحق – يوضح فرويد – هو قوة الجماعة الموحدة، والمضادة لعنف الفرد، ويضيف: (السيادة لم تعد لعنف الفرد، بل لعنف الجماعة. لكن، لكي يكون بالإمكان الانتقال من العنف – الفردي؟ – إلى هذا الحق الجديد أو العدالة الجديدة، كان لابد من تحقيق شرط سيكولوجي هو: يجب أن تكون وحدة الأكثرية ثابتة ودائمة. ص. 21.م.ا.)

يمكننا في الحقيقة النظر إلى مجموعة التحليلات والإعلانات السابقة والتي سبق أن دعوناها «**بديهيات مهملة ولكنها مهمة**» بكثير من الحذر النقدي. فالواقع أن الأمر لا يتعلق بحقائق أو اكتشافات علمية طرحها فرويد، بل بعرض ذي طابع أقرب إلى الطابع الوصفي منه إلى التحليلي يشتمل على مجموعة من الافتراضات. ومادامت هذه الافتراضات، والتي لبعضها شكل وزخم البديهة، خصوصاً في ما يتعلق بأصل العنف الفردي وبداياته، نتاج الوصف والتحليل التاريخي لا الدراسة الإمبريقية أو «العلم نفسية» المختبرية، خصوصاً أن الأمر يتعلق ببدايات تأسيس هذا العلم، إنها ستحافظ على طابعها النسبي والمتغير حتى النهاية، ودون أن يعني ذلك قطعاً، رفض

المزج والدمج بين أساليب تحليل مركبة، من ميدان علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع.. إلخ، كما قد يفهم أو يؤول كلامنا خطأ. غير أن ما يمكن الخلوص إليه كاستنتاج منطقي من خلال المتابعة التحليلية التي تؤمن وتعول على التطور الإنساني الموجب، يتناقض شديد التناقض مع واقع الحال التاريخي والحضاري الراهن. فإذا كان الإنسان قد مر بطور العنف الفردي صعوداً إلى العنف الجماعي المتوحد لقمع التمرد والخروج، وإذا كان عصر استعباد الأسرى قد حل بديلاً عن تقتلهم المجاني كتطور إيجابي، فقد كانت الثمرة المنتظرة لتيار التطور الصاعد هو التخلي التدريجي عن العنف وشكليه الأفظع أي الحرب والحصار، واللجوء لحل المنازعات والخلافات بين الدول والمجتمعات على أسس أخرى لا عنفية.

هرطقات إعلام روما

إن الخطاب السياسي للغرب الإمبريالي المعلن عنه في الميديا السائدة والمحتكرة لعيون وآذان وعقول ملايين البشر، يحفل في الحقيقة بهذه الأوصاف للثمرة السلامية ويتبناها لفظاً. ولقد صار السلام واللاعنف واللجوء لأسلوب الحوار والمفاوضات لحل النزاعات..إلخ، مفردات أساسية ومكرورة في

هذا الخطاب. غير أن واقع الحال كما انفنا، غير ذلك تمامًا. فالحروب خصوصًا التي شنها الغرب المقود «بروما الجديدة» على العراق ويوغوسلافيا، اتخذت أشكالاً أكثر إجرامًا ومهابدة ضد الخصوم في مغامرة العنف غير المتكافئة. وأصبحت شعوب بأكملها مهددة بالفناء جوعًا ومرضًا، إما بحصارات معلنة وشاملة كما هي الحال في العراق وكوبا وليبيا والسودان..إلخ أو احتكار معدة الشعب المستهدف، ومصادر الطعام بواسطة سياسة المعونات والبرامج الاقتصادية المبرمجة في كواليس صندوق النقد الدولي، والأمثلة أكثر من أن تحصى (المغرب، مصر، النمور الآسيوية الورقية..إلخ) أو من خلال نهب ثروات الشعوب الثمينة كالنفط، مقابل حماية الأسر والعشائر المتخلفة التي تحكم تلك الشعوب بالسيف والسوط والفكر والقوانين السلفية، كما هي الحال في الجزيرة العربية. وأخيرًا فهناك اسلوب تدمير البنى الاقتصادية القديمة لأسباب العداء الأيديولوجي والطائفي الديني حيث منع الغرب (عبر تحالف الحركتين الصهيونية والماسونية والفاتيكان ودول عربية نفطية قائمة على اساس طائفي ديني) محاولات إصلاح وتجديد الاتحاد السوفيتي السابق وكتلته، وافلح اخيرًا وبعون من الأخطاء الخاصة والهائلة لتلك التجارب في تحويل تلك الدول إلى خراب شامل، واغرق - الغربُ الإمبريالي - شعوب اوروبا الشرقية في بحار الحروب الأهلية والمجاعات حيث يتوقع الباحثون الديموجرافيون أن ينخفض العدد السكاني للأمة الروسية إلى الثلثين في غضون عشرين عامًا.

إن موقف فرويد الذي سلفت الإشارة إليه، من الهيمنة الرومانية والإرهاب الهمجي الذي شنته روما على شعوب حوض البحر المتوسط اولاً، ليشمل اغلب العالم المعمور ثانيًا، لا يختلف عن موقف اي شخص من الطبقة الوسطى في أوروبا الغربية أو امريكا، يعتبر العنف الذي تمارسه دولته خيرًا عميمًا على العالم، والعنف الذي يمارسه الآخرون للدفاع عن انفسهم شرًا مطلقًا. وان السلام العالمي الوحيد والممكن الذي يتصوره الأوروبي الغربي هو صمت البشرية المفروض بقوة السلاح.

فلنستمع لفرويد مباشرة: (من المستحيل ان نتخذ اي موقف حاسم من حروب الفتح، فبعضها، كتلك التي شنها المغول والأتراك (ربما يعني فرويد بكلمة الأتراك جميع المسلمين في جميع عصورهم كما هو سائد في بعض البلدان في امريكا اللاتينية.) لم ينجم عنها سوى الشر. والبعض الآخر، في المقابل، اسهم في تحويل العنف إلى قانون وذلك بإقامة وحدات بشرية اكبر إذ استخدام العنف فيها امر مستحيل، وأدى احتلال الرومان للبلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط إلى إعطاء هذه البلدان السلام الروماني الذي لا يقدر بثمن. ص23م. 1) والسؤال الذي يمكن أن يوجهه المرء إلى فرويد أو تلامذته من المثقفين الانتهازيين والمتغربنين عندنا هو: الا يحق للعنصريين النازيين الألمان ان يزعموا بأن سلامًا نازيًا «لا يقدر بثمن هو الآخر» كان سيحل لو قدر لهتلر ان ينتصر في الحرب الغربية الثانية ويكتم انفاس شعوب الأرض بقوة السلاح؟

المثقف العضوي والآخر النرجسي

مع الانتصار الغربي الروماني الأخير، انهارت قوى ودول انهيارًا ذاتيًا، وانكشفت

دول اخرى على حقيقتها ككيانات مفتعلة ليس لها من مقومات الدولة إلا الاسم، لأن سبب استمرارها كدول هو دورها ككاكياس رمال وحواجز بمواجهة المد التحرري التقدمي الذي انطلق أواره مع الثورة العمالية في روسيا القيصرية سنة 1917. لقد كفت هذه الدول عن أن تكون مفيدة «لروما الجديدة»، بعد تدمير الكتلة الشرقية، واصبحت عالة اقتصادية عاجزة حتى عن تسديد رواتب موظفيها او توفير الماء الصالح للشرب لمواطنيها. اما الأحزاب والتنظيمات السياسية المحسوبة على اليسار، فلم يتماسك منها ويثبت على جوهره الثوري وقيمه الأساسية في المساواة والحرية والدفاع عن السيادة الوطنية، ويستخلص العبر والدروس من الانهيار الكبير تحضيرًا لمرحلة جديدة وضارية من الكفاح من أجل الإنسان إلا القليل والقليل جدًا. اما الغالب

الأعم من هذه الأحزاب، فقد سيطر عليه الفاسدون والليبراليون شكلاً ومضمونًا والمهادنون والمروجون لقيم ومبادئ البربرية والبهيمية الراسمالية فحل الدفاع عن الشواذ جنسيًا محل النضال من أجل المساواة الاشتراكية والدفاع عن إسرائيل والحركة الصهيونية محل توزيع الخبرات على الفقراء وإشباع الجياع.

لقد اخترقت جحافل «روما الجديدة» قلاع وميادين الاقتصاد والسياسة والأمن والشأن المجتمعي والأخلاقي، وتمكنت من إحراز نجاحات مهمة، لدرجة أننا رأينا دولاً مفتعلة تتوسل بالمراكز المالية والاقتصادية الغربية لتتدخل وتدمر اقتصادها عن طريق تعميم قيم ومبادئ السوق الفالتة والراسمالية الوحشية!

ميدان واحد لم تحرز فيه روما الجديدة نجاحات باهرة وكثيرة وهو ميدان الثقافة على الرغم من إنجازها لبعض الخروق في قلعة الإبداع والثقافة. إن هذه القلعة هي آخر حصن إنساني بوجه البهيمية اللاأخلاقية ونمط الحياة الأمريكي التافه، والذي يراد له أن يكون عالميًا قسرًا وعسفًا. ولكننا ينبغي أن نعلن التحفظ التالي لئلا يساء فهمنا: فالمثقف الإيجابي الذي نعنيه، وندعوه للدفاع عن قلعة الإنسان هو المثقف العضوي كما سماه المفكر الشيوعي الإيطالي جرامشي، وليس المثقف النرجسي المتهالك على الخساسات الثلاث: المال والشهرة والجنس.

إن مثقفًا يسمي نفسه يساريًا ويشتغل خلال قصف وتدمير مدينته بغداد بالصواريخ الأطلسية موظفًا في إذاعة «صوت الكويت» ومثقفًا يدعي التقدمية ويترجم بالقطعة تفاهات هذا الأمير الخليجي أو ذاك، ومثقفًا يسمى يساريًا وشاعرًا سرياليًا وهو في حالة (راح جاي) من وإلى الكيان الصهيوني، إن مثقفًا كهذا أسوأ ألف مرة من قائد دبابة امريكي، لأن هذ الأخير معروف للناس، ويمكن التعامل معه مباشرة وبسهولة بالطريقة المناسبة لخطره. أما المثقف الفاسد فمن الصعب اكتشافه من قبل الجمهور العريض لخبرته ودهائه وتغليفه لسمومه الثقافية بالعسل اللفظي. وختامًا فإن من المفيد كما أعتقد، أن أستعيد وأتذكر مع القارئ الشريف ما كتبه الراحل الباقي وعدو الإمبريالية الأول المفكر العربي العراقي هادي العلوي على الصفحة 118 من كتابه (المرئي واللامرئي) لأنه ينطبق تمامًا على ما نحن في صدده:

«لابد أن كلامي هذا - بصدد المثقفين الفاسدين - سيثير اشمئزاز مثقفينا وفنانينا بحيث تكزبر (تقشعر) جلودهم لكني غير مضطر لمراعاة الأمزجة النسيمية. فأنا فلاح ابن فلاح ولا يهمني أبدًا شعور الأفندية الذين كنت أشاهدهم يخرجون من قصور آل الجلبي والدامرجي فأهرب منهم مع زملائي حين نكون في طريقنا لجمع النوى «نوى التمر» وبيعه للحدادين حتى نشتري به حلوى. ولأني لم أكتسب ثقافة ومعرفة زائدة على معرفتي الفلاحية فقد بقي طبعي جافًا، جافيًا، جلفًا ولله الحمد. على أني أعذر المثقفين إذا دافعوا عن أنفسهم فلكل فئة مصالحها وحقوقها وإنما أعترض على الابتزاز. فالمثقفون يريدون ابتزاز الحركة الشيوعية التي يسعون إلى تحويلها إلى حركة ثقافية تخدم الأدب والثقافة. والحركة الشيوعية هي حركة اجتماعية لا ثقافية وهي تتاصل بقدر ما تبتعد عن الثقافة (..)

ومثلما يخوض المثقفون صراعهم الطبقي نخوض نحن صراعنا الطبقي. وساحتنا اوسع لانها تضم العمال والفلاحين والعاطلين والمكادي (الشحاذين) والارامل والمطلقات والمرضى في المستشفيات الحكومية الذين يضطهدهم الأطباء والمرضات ويسيئون علاجهم (..) وسكان الريف والاهوار الذين يعيشون في الصرايف مع الجرذان والصراصير وياكلون خبز الشعير وتفتك بهم الطفيليات.. جبهتنا اوسع وإمكانات نضالنا اكبر (..) إننا (يقصد في الحركة المشاعية العراقية والتي مازالت في طور التاسيس) نسعى لتحويل المثقفين الطبقيين إلى فلاحين حتى يتاصلوا اكثر ولا نسعى لتحويل الفلاحين إلى مثقفين لئلا يفقدوا شرفهم الوطني والطبقي».

إن المثقف الذي يسميه العلوي «المثقف الطبقي» هو ذاته الذي سماه جرامشي «المثقف العضوي» وعلى هذا المثقف ذي الوجدان المشاعي والوعي الصاحي والإبداع الحي تقع مسئولية فضح الهمجية الرومانية الجديدة وحماية قلعة الحياة والقيم الإنسانية وفي مقدمتها المساواة والحرية. لقد ركزنا على المثقفين من أدعياء اليسار واهملنا أهل اليمين الليبرالي أو الديني لأن هؤلاء ومنذ ولادتهم السياسية كانوا ومازالوا في الخندق الآخر إلا من عصم الله من بعض الوطنيين الإسلاميين والتنويريين المعادين للإمبريالية. أما حديث بعض أقطاب الحركات الدينية المكرور والممل عن العداء الجذري الذي يكنه الغرب للإسلام فليس له أية صدقية لعدة أسباب منها:

1- الغرب الإمبريالي ليس له دين أو للدقة دينه المال والربح الأقصى، قد نجد بعض المتعصبين الأوروبيين دينيًا ولكن هؤلاء أفراد قلة وليسوا نظامًا ولا يشكلون ظاهرة عامة.

2- الغرب الإمبريالي وبالتحديد بريطانيا هي أول من أقام نظامًا إسلاميًا يطبق الشريعة الإسلامية حرفيًا في الجزيرة العربية وتحالفت معه وحمته وأطلقت عليه اسم أحد أصدقائها من شيوخ وبيوتات نجد وهو الشيخ «آل سعود». وكانت عينها في الحقيقة على النفط لا على سواه.

3- خاضت «روما الجديدة» على أرض أفغانستان جهادًا ضاريًا وأفلحت في تدمير ذلك البلد وشعبه وأوصلت الأحزاب الإسلامية إلى السلطة لتواصل المذبحة باسم الإسلام.

الأمثلة كثيرة والعبرة في معناها لا في أعدادها، والحمقى فقط من لا يرون ما تفعله يد وسكين الصياد الروماني بالحمامة بل يركزون نظرهم على عينيه المغرورقتين بدموع سببها البرد والريح.

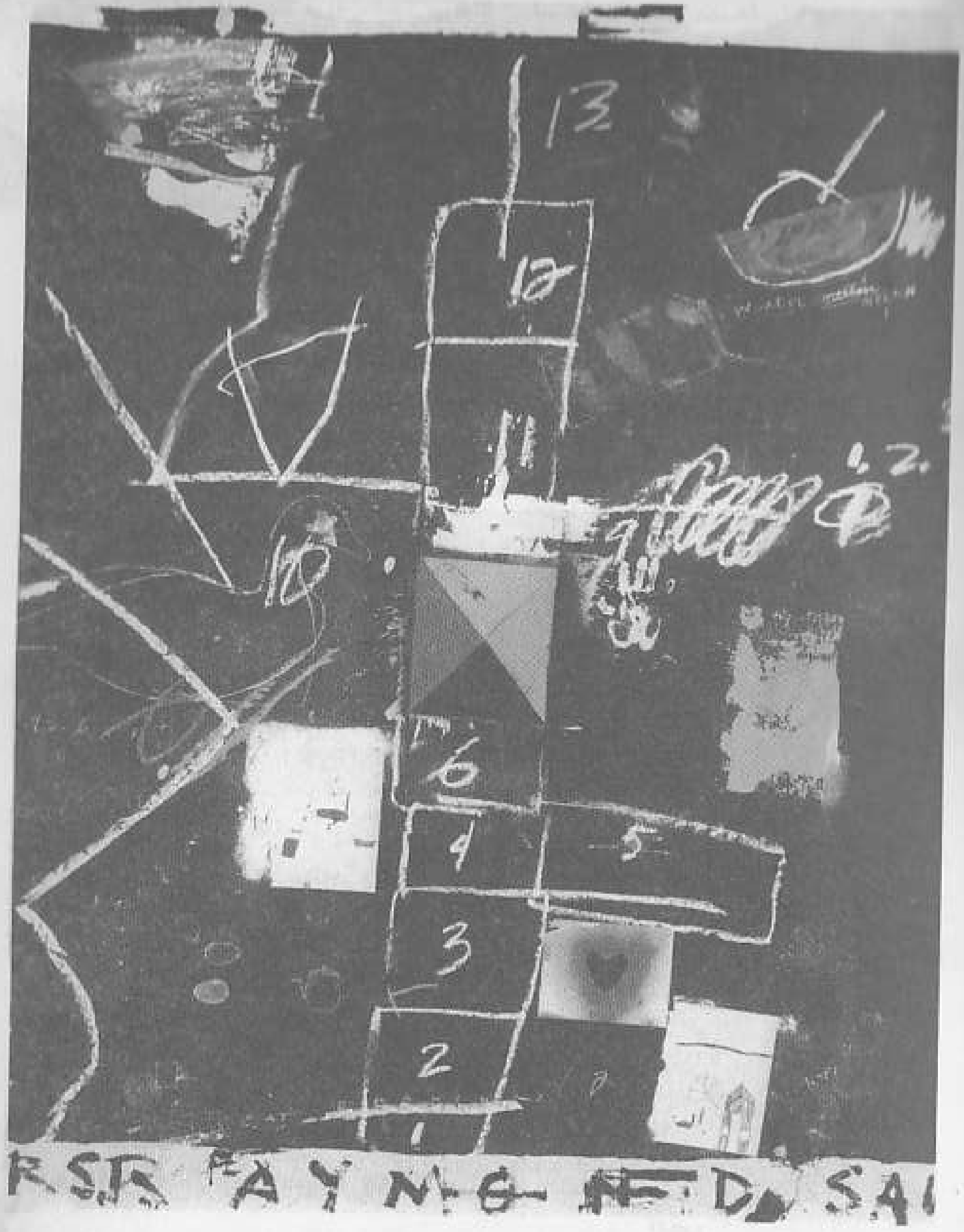

العمر السامي 5 مدعو على حفلة شاي للفنان الأمريكي ريموند ساندرز 1986

في العدد القادم
استكمال ملف أمريكا، ومقالات الكتاب

تشومسكي

أحمد عمر شاهين

احمد صبري الدبش

محمد حسن عبدالحافظ

فاتن احمد حسين

رشاد سلام

اليس مونرو

السيد رشاد

ضياء حسني

أحمد خليل

ويواصل الفنان أحمد فؤاد سليم

مذكراته بعد عودته من الخارج.

أمريكا.. التوحش واقتلاع الجذور

عادل سمارة

في ظل أمركة العولمة، ينتهي دور الشعوب، التي خرجت توًا من الاستقلال، وأصبحت مجرد حارس للأسواق، وانفتاحها على السلع الأمريكية، وفي ظل تلك العولمة أيضًا تحاول أمريكا أن تفتح أسواقًا كبيرة كالصين والهند أمام منتجاتها خاصة بعد أن استطاعت أن تفكك النمور الآسيوية، ودول العالم الثالث، التي تحولت إلى تابع اقتصادي ينتظر مصيره المجهول.

وفي الوطن العربي بعد حربي الخليج الأولى والثانية استطاعت أن تتغلغل عبر نخب منتقاة تبشر بالعولمة الأمريكية عبر المنتجات الغربية الأمريكية، وتقليص دور الاقتصاد الوطني، من خلال نشر شبكة الشركات متعددة الجنسية أو متعدية الجنسية التي بشرت بها أمريكا وأصبحت واقعًا مريرًا.

وهنا يعالج الكاتب تلك المسألة وانعكاسها على الوطن العربي في محاولة لإيقاف الطوفان الأمريكي القادم.

المحرر

أزعم أنني أعددت هذه الدراسة كمقترحات بناء على رؤية لطبيعة تطورات النظام العالمي بكل ما فيها من مخاطر التغوّل والوحشية الرأسمالية الإمبريالية. وهي ورقة ترمي لمعالجة أربعة تطورات مترابطة على صعيد النظام العالمي. تطورات تمثل الصورة التي يتخذها أو يؤول إليها هذا النظام. ممثلة في اتضاح تبلور مراتبية طبقية سياسية على مستوى الطبقات الحاكمة على صعيد عالمي، وتبلور مصالحه الاقتصادية في تكوين قطاع عام رأسمالي/ دولاني معولم تهيمن عليه دول المركز وتخدمه دول المحيط، وتسخير هذين التطورين لصالح بلورة أيديولوجيا ومن ثم سلطة حكم فاشية على الصعيد العالمي تحل محل «الديمقراطية» البرجوازية في المركز وحكم النخب والزمر العسكرية في المحيط. وأخيراً، تحاول الدراسة تقديم تصور لدور القومية الكامنة للطبقات الشعبية في مواجهة «القومية» الحاكمة، أو الطبقات الشعبية في مواجهة البرجوازية الكمبرادورية ومثقفي هذا الكمبرادور. لقد أكثرنا من استخدام ملاحظات ومعطيات من الوطن العربي في هذه الورقة باعتباره المنطقة التي ننتمي إليها والتي تتوافر منها معلومات أكثر.

مؤتمر يالطا لتقسيم العالم

نهاية سيادة الدولة الوطنية في المحيط

مع انقضاء عقدين من الزمن على فرض السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة، وبعد أن أخضعت معظم الدول لأيديولوجيا السوق وأصبح شعار «تحرير التجارة الدولية» مثابة المبعوث الإلهي لتخليص العالم من الفقر والأزمات الاقتصادية ولاسيما تلك التي في جانب العرض، وتحديداً بعد أن طبقت أنظمة الحكم في العالم الثالث هذه الوصفات «وهي في جوهرها أوامر»، يكتشف المواطن في هذه البلدان بأنها غدت أمماً بلا سيادة، أو هي على الطريق. فلم يعد الاقتصاد الوطني محمياً من حكومة البلاد، ولم تعد البرجوازية القومية حامية السوق القومية والمدافعة عنها باعتبارها سوق منتجاتها. هذا وكأن محاولة بناء اقتصاد وطني لم يكن سوى بروفة لتأهيل اقتصاداتها للاندماج التابع في النظام الراسمالي العالمي، اندماجاً يلائم المستجدات. لقد تفكك التحليل الكلاسيكي القائل بأن كل برجوازية قومية لابد أن تحصر بيدها سوقها القومية تحت شعار حماية الاقتصاد الوطني، ومن اجل مصلحة البرجوازية المحلية أساساً وتحديداً. لقد تدهورت معظم أنظمة بلدان العالم الثالث، خاصة، إلى مستوى حكومات حكم ذاتي ليس اكثر، فأسواقها مفتوحة للمنتجات الأجنبية (منتجات المركز) كمواقع وأسواق، واضطرت صناعاتها إما للتعاقد من الباطن مع الشركات الكبرى، أو ذابت وتلاشت فيها أو إلى جانبها، وبيعت شركات القطاع العام الناجحة لشركات أجنبية بأسعار تافهة، كما امتلك راسمال المركز ما رغب من الأصول الاقتصادية القومية ولا سيما في بلدان النمور المكلومة اخيراً. اما اكثر الأمثلة وضوحاً فهو نظام الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث اكتشفت الراسمالية الكمبرادورية الفلسطينية عجزها عن تحقيق الاستقلال والسيادة[1] فاكتفت بحكم ذاتي سياسياً وبحصة اقتصاد التساقط اقتصادياً Trickle Down Economy مقتنعة أن بوسع الحكم الذاتي تحقيق هامش من الربح يغنيها عن النضال من اجل الاستقلال الوطني الكامل ويوفر عليها الدخول في مشروع نضال مستمر وصولاً إلى الاستقلال الفعلي حتى لو ترافق مع تحقيق الربح الأقصى.

على أن الوجه الآخر للمشكلة كامن في أن ضعف حركات التحرر الوطني في هذه البلدان، لم يولد قوى معارضة ومناضلة ضد هذه الطبيعة الأكثر جدّة من العولمة، مما حصر الاعتراض على فقدان السيادة في المستوى الرسمي وليس النضالي الشعبي! فإذا به اعتراض من الطبقة التي اقترفت يداها تلك الفعلة الملعونة، وهو بالتالي اعتراض من مستوى العتاب[2].

لم ينحصر دور الليبرالية الجديدة في الاقتصاد بالطبع، بل اقترن مع هذا دور في السياسة والثقافة. ففي معرض «نجاح» الرأسمالية في التكيف مع التطورات وتجديد الذات، استوعبت رأسمالية المركز تحديداً خطورة حصول موجة جديدة من حركات التحرر الوطني في العالم الثالث. وبالتالي كان عليها أن تعمل بما يحول دون تطور شكل جديد من حركة عدم الانحياز وحركة

التحرر الوطني والاستقلال الفعلية بعد أن أجهضت معظم حركات الاستقلال إلى مجرد استقلالات شكلية وتحولت هذه الاستقلالات أخيراً إلى مستويات من الحكم الذاتي أو أقل.

من هنا أطلق العنان «لمارينز» الثقافة الأمريكية ممثلاً في المنظمات غير الحكومية وأشكال مشوهة لمنظمات «تعليم» الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلخ هذا إضافة إلى تنشيط دور الحكومات الخبيثة، الحكومات غير الحكومية «السويد والنرويج والدنمارك...»[3] اي الحكومات التي ليس لها تاريخ إمبريالي واضح وبالتالي تختارها الإمبريالية الأمريكية والبريطانية والفرنسية لمهام اختراق جبهة الثقافة اليسارية والماركسية والقومية في بلدان المحيط على اعتبار أن أوجه حكوماتها ليست ممجوجة في بلدان المحيط ولا سيما الوطن العربي. أطلق لها العنان لتعمل جميعاً باتجاه خصي مثقفي وكوادر القوى الماركسية واليسارية والقومية وذلك عبر تجنيدهم للعمل في هذه المنظمات برواتب مغرية، وتذاكر سفر ومكاتب وغيرها. أما هدفها من ذلك فهو الحيلولة دون إسهام هؤلاء في حركة ثورية جديدة في العالم الثالث. اي بعبارة اخرى، تخريب الطليعة المثقفة، وصولاً إلى تخريب عقول الأمم. وأبعد من هذا، فقد تم استخدام المثقفين كأدوات لمشروع الإمبريالية في إعادة تثقيف مجتمعاتهم بثقافة الخضوع للنظام العالمي والاستهلاكية الراسمالية. ومرة ثانية، فإن مناطق الحكم الذاتي الفلسطينية حالة دراسية مناسبة لهذا التطور.

وبهذا تكون الإمبريالية قد ضربت التنمية الاقتصادية والتنمية الثقافية والثورية، وهذا ما اسهم في وصول العالم الثالث، أو الثورة في هذا العالم إلى ما هي عليه الآن. كانت هذه التطورات مثابة ضربة استباقية لبلدان العالم الثالث وانطلاقها في موجة تحرر وطني جديدة. أما الحالات المتبقية من الحقبة السوفيتية أو المتسربة منها (العراق

ويوغوسلافيا) فقد عالجتها الإمبريالية بالعدوان العسكري المباشر مطبقة النظرية العسكرية الجديدة المثلة في استخدام مستوى متطور ومتفوق من الأسلحة الكلاسيكية وبطاقة تدميرية هائلة. وهكذا، فإن من يُفلت من التفكيك والخصي بالسياسة والاقتصاد والثقافة، يتم النيل منه بالقوة العسكرية.

ربما، لهذه الأسباب جاءت الموجة القومية الحالية في روسيا والدول المنفكة عنها وأوروبا الشرقية عرقية إثنية تابعة ويحمل بعضها سمات فاشية. ففي حين جاءت الموجة القومية في أوروبا في القرن الماضي الأولى مقدمة للنمو الاقتصادي الراسمالي والديمقراطية البرجوازية وفي العالم الثالث في العقود الستة الأولى للقرن العشرين مقدمات لإقامة دول وطنية ذات ميول إنتاجية وحتى اشتراكية، جاءت موجة «القوميات» الأخيرة في أوروبا الشرقية تحديداً رجعية وعرقية!

وهكذا على صعيد عالمي، أدى احتجاز مستقبل وتطور المشروع البرجوازي القومي وتباطؤ نمو الراسمالية وتدهور الشيوعية إلى واقع راسمالي جديد مفاده أن البرجوازية القومية في ترديها الكمبرادوري لم تعد ذات مصلحة في لعب دور تنموي وهو ما فتح الباب لانتشار هائل لصراعات الإثنيات والأصوليات والطائفيات لتتحول قوة العمل فيها إما لميليشيات تحترف القتل المفتوح أو لقوة عمل رخيصة وبدون حقوق في صناعات اقامها المركز في بلدانها.

ولكن، رغم اننا نشهد موجة قومية باهتة وتابعة ورغم أن العالم الثالث مازال يراوح بين مازق الخضوع لسلطة راس المال المالي المعولم، ورغم أن خروجه على هذه السلطة يتطلب معركة ضخمة، ورغم تدهور المشروع القومي الشعبوي، إلا أن المشروع القومي للطبقات الشعبية على مستوى المحيط وربما العالم لم يفقد زخمه ومصداقيته.

عولمتان

ما من شك أن رأسمالية المركز قد نجحت إلى حد كبير في هدفها القديم المثل في إعادة دول الاشتراكية المحققة إلى حظيرة النظام العالمي. فبعد نجاحها تجاه الاتحاد السوفيتي مازالت تخوض حرباً اقتصادية هائلة لاحتواء الصين الشعبية التي دخلت أخيراً منظمة التجارة العالمية. اما هذا التطور، فقاد عملياً إلى عولمتين (رغم الادعاءات الهائلة بأن هذا كان تحقيقاً للعولمة التي تصور العالم كقرية واحدة...) عولمة المركز وعولمة المحيط. فعولمة المركز قائدة ومهيمنة ومستغلة، أما عولمة المحيط فتابعة، تقوم بدور في تقسيم العمل الراسمالي العالمي للعمل هو الذي ترسمه لها برجوازية المركز.

هذا التقسيم تحديداً هو الذي يدفعنا إلى رفض العولمة، وتحديداً رفض ادعاءات مروجي العولمة في بلدان المحيط من باب انها امر لا يمكن إيقافه، أو أن رفضها يعني انغلاقاً عن العالم وخاصة عن التطور العلمي...إلخ. فعولمة المركز هي عولمة إنتاجية وتمويلية. هي عولمة إنتاجية بمعنى أنها موقع الإنتاج العالمي الأساسي ومالك صناعات حولّها إلى المحيط، وبالتالي بمعنى تحرير

«تجارته» باسم تحرير التجارة الدولية لتصل منتجاته كل أسواق العالم الثالث وتخنق انويته الصناعية، «وتقنعه» بعدم التصنيع ولاسيما الثقيل. وعلى اية حال، فإن نقل الكثير من الصناعة من المركز إلى المحيط عبر الاستثمار الأجنبي المباشر يقود عملياً إلى الاستغناء بدرجة ما عن لزوم تحرير التجارة الدولية، كما انه يطعن مبدا الاعتماد الإقليمي على الذات في بلدان المحيط في نفس الوقت. وهي عولمة تمويلية تجعل من حكومات بلدان المحيط وكلاء تحويل الفوائض من بلدانها إلى المركز ناهيك عن اقساط وخدمات الديون. وهي عولمة مضارباتية حيث يفوق فيها راس المال المالي حجم الاقتصاد الفعلي ويتزايد حجم فقاعة المال عبر تواصل الاستثمار في الأسهم لاعتقاد المستثمرين ان اسعارهم تواصل الارتفاع. كما تستخدم بعض اموال المضاربات هذه في شراء المركز للأصول في المحيط(4) ولا سيما عند وقوع بلدانه في ازمات مالية كما حصل في جنوب شرق اسيا أخيراً وروسيا بالطبع.

اما عولمة المحيط فهي عولمة تسويقية استهلاكية تفتح اسواق المحيط للمركز. عولمة تسويقية حتى وهي تنتج! فبدل أن تقام صناعات محلية تمكن راس المال المركزي من غزو قوة عمل ومصادر خام هذه البلدان بإقامة «صناعات» ولا سيما التقليدية في هذه البلدان عبر ما سماه توماس سنتش منذ السبعينيات بـ «راس المال العامل الإنتاجي». وهو ما اوحى لـ بيل وارين وأرجيري إيمانويل ان هذا لحاق أو موافقة المركز على تلحيق المحيط به لكن هذا لا يزال ضمن مراتبية التقسيم التابع للعمل سواء في مستوى نشر الاستهلاك المرسمل بتصدير البضائع ام نشر الإنتاج المرسمل. ورغم أن تجربة النمور والتنينات، قد اوضحت ان رؤوس الأموال الساخنة يمكن عند الأزمة ان تترك وراءها خراباً بلقعاً كما حصل في ازمة 1997 في جنوب شرق اسيا إلا انها تنتقل إلى بلد آخر، كما أن ظاهرة شراء الأصول بأسعار بخسة تناقض الاعتقاد بهروبها الكلي من المحيط. والأهم انه في هذه وتلك، تحوّل هذه التطورات المزيد من الملايين إلى ما دون خط الفقر. إن الاستثمار الأجنبي المباشر ظاهرة تحمل في طياتها عدم «أصالة» تصنيع المحيط. فهو استثمار اجنبي وليس اهلياً، وبالتالي قراره الإداري والمالي وتحديد موقعه الجغرافي في وقت ما وبلد ما هو في المركز. وعليه، فهو نقل صناعات ما إلى المحيط وليس تصنيع المحيط. ولكي يمكننا تسميته «تصنيع المحيط» فهذا امر يتطلب ذوبان دولة المحيط خاصة في دولة عالمية واحدة يقودها المركز بالطبع، ومواطنة واحدة وبالتالي حقوقاً عمالية موحدة، وهذا امر قابل للنقاش إلى أن يحصل. وقد تكون الميول الفاشية والاحتكارية لراسمالية المركز بداية هذه الدولة، وهو أمر يستدعي مناقشة (ربما في معرض آخر) رد الطبقات الشعبية في المحيط والطبقة العاملة بشكل خاص في المركز على هذا التوجه.

في سياق هذه العولمة، تتم عملية القضاء على فرص تنمية المحيط، او تصنيعه ذاتياً إن شئت، وعلى نماذج أو مدارس التنمية

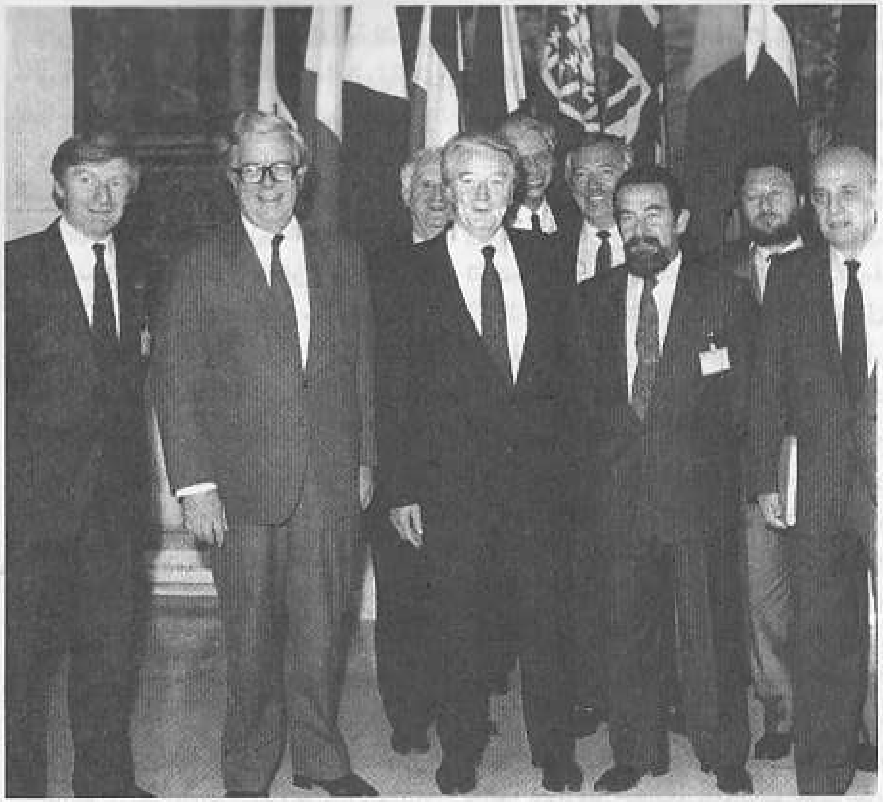

الدول الصناعية السبع تحالف ضد الجنوب

والتحديث أو النمو فيه أو بشكل عام يتم القضاء على أحلام المدرسة التي تعتقد بلحاق المحيط بالمركز من مدخل التحديث الرأسمالي المستقل. هذا ما أكدته تجربة النمو الرأسمالي في جنوب شرق آسيا، وهو أيضاً ما نراه في احتجاز التطور التنموي البطيء والتدريجي في الهند(5) إلى طريق مسدود. ولم يعد المعروض سوى توزيع وإعادة توزيع صناعات من المركز في المحيط حسب توفر قوة العمل والمادة الخام الرخيصة والحكومة الكمبرادورية التي تقمع قوة العمل وتوفر التسهيلات القصوى.

ويُضاف أخيراً عاملٌ مهم هو الحجم العددي للمستهلكين. هذا ما يوضحه التركيز الأمريكي لعلاقتها بالصين والهند كأسواق واسعة لكل ما يُنتج في امريكا او يُنتج لشركات أمريكية في البلدين نفسيهما. ولا تخرج زيارة كلينتون الأخيرة للهند 20 – 23 آذار 2000 عن هذا التوجه. يمثل كلينتون في هذه الزيارة مبعوث القطاع العام الرأسمالي

الأمريكي المعولم اكثر مما يمثل الدبلوماسية الأمريكية، بل يمثل تكامل الدورين.

مبنى اجتماعي «عالمي» للتراكم كآلية لنظام عالمي فاشي

ترافق مع الأزمة الاقتصادية الجديدة التي مرت بها العوالم الثلاثة، المركز الإمبريالي وبلدان الاشتراكية المحققة وبلدان العالم الثالث «لا سيما التجارب القومية الشعبوية... ومجموعة النمور والتنينات» تغيرات في المبنى الاجتماعي للتراكم على الصعيد العالمي بأسره، وهي تغيرات اتجهت نحو تبلور مركز طبقي عالمي للتراكم يمتد من أقصاه إلى أقصاه، لكنه لم يصبح سلطة عالمية واحدة بعد. فهو مازال بمستوى تحالف طبقي واسع من الطبقات الحاكمة كل حسب طاقته وموقعه وقوته وثقافته مقابل اتساع هائل لنطاق الفقر في المحيط خاصة، وفي المركز أيضاً. فمن جهة أولى، تواصل تركيز التراكم في بلدان المركز الإمبريالي بأيدي الطبقات الرأسمالية الحاكمة نفسها. إلا أن المتغير الأساسي في هذا الصدد تم على أرضية الاعتداء على مكتسبات الطبقات العاملة هناك ولا سيما في فترة ما بعد الحرب الثانية. فجرى تقويض دولة الرفاه، والسماح ببطالة متزايدة، والاعتداء على أجور العمال، وتحرش الأصولية الكنسية بالمرأة حيث تدعوها للانحصار في البيت وتربية الأطفال لتكون مسيحية ورعة. وهي النتائج التي يؤيدها تزايد الفقر وتدني حصة العمل من الدخل القومي على صعيد عالمي. كما لم يتبلور مركز نضالي أممي للعمال أيضاً.

«على مدار العقد الماضي تمت إعادة توزيع بشكل ملموس من الأجور والمداخيل لصالح الأرباح. ولو لم تحصل إعادة التوزيع هذه للكعكة، فإن العامل العادي يمكن أن يحصل كل سنة على 1200 دولار أكثر مما يحصل عليه اليوم»(6).

«في الحقيقة، فإن لدى الولايات المتحدة الحصة الأكبر مما تسميه منظمة الدول الصناعية المتقدمة بالعمال ذوي الأجر الهابط، وهم الأفقر من بين عمال البلدان التي درستها المنظمة»(7).

هناك ثلاثون مليون شخص فقراء في امريكا... تشير الإحصاءات (8) إلى أن مستوى الفقر يشمل 15٪، ولكن إذا عرفنا أن 24,000 دولار هي أقل من نصف ما هو مطلوب للأسرة الواحدة... فإن أكثر من 60 مليون امريكي هم تحت خط الفقر. أي ربع الشعب(9).

لقد تدهورت حصة الأجور من الدخل القومي في مجموعة من بلدان امريكا اللاتينية كما يلي:

البلد	1970	1980	1985	1989	1992	
ارجنتين		40.9	31,5	31,9	24,9	.....
تشيلي	47,7	43,4	37,8	19,0	....	
اكوادور		34,4	34,8	23,6	16,0	15,8
المكسيك	37,5	,39	31,6	28,4	27,3	
بيرو	40,0	32,8	30,5	25,5	16,8 (10)	

«في حالة تشيلي في ظل النظام الاشتراكي برئاسة الليندي، كان يحصل العمل على 60٪ من الدخل المستخلص من الإنتاج الاجتماعي. لكن هذا التقدم تراجع فور سقوط نظام الليندي أي بعد 17 سنة من السياسات الليبرالية الجديدة، حيث قلصت حصة العمل من الدخل القومي إلى 19٪ عام

1989، وهو احد ادنى المستويات في العالم»[11].. اما في مصر، فقط هبط نصيب الأجور من الدخل القومي المصري من 48٪ في الآونة الأخيرة [12]».

«حسب تقرير التنمية البشرية عام 1996 كانت ثروة 358 بليونير (مقاسة بالدولار الأمريكي) تتجاوز مجموع دخل 45٪ من سكان العالم. وورد في طبعته لعام 1998 ان ثروة اغنى 225 شخص عام 1997 بلغت اكثر من 1 تريليون دولار، وهو ما يساوي الدخل السنوي لأفقر 47٪ في العالم». وفي امريكا فإن حصة اغنى 1٪ قفزت من 20٪ من الثروة عام 1975 إلى 36٪ عام 1990 [13] وطبقًا لمجلة الأيكونوميست، 30 آيار 1998، «فإن الولايات المتحدة تستضيف 170 بليونيرًا، و250,000 ديكا مليونير (يملك من عشرة ملايين فما فوق) و4,8 مليون مليونيرًا. ينتقل الفقراء من الريف إلى المدن الكبرى مثل القاهرة، ونيو مكسيكو وكراتشي... فالمهاجرون في الأحياء الفقيرة يصلون إلى 800 مليون نصفهم جوعى ويفتقرون إلى الخدمات الصحية، و1200 مليون لا يجدون ماءً نظيفًا للشرب. إضافة إلى انتشار الإيدز. في عام 1994 كان توزيع الشركات المائة الكبرى (مقدرًا بحصتها من الموجودات الأجنبية) 44 اوروبية، و32 امريكية، 19 يابانية، و3 كندية، واثنتين استراليتين. وتملك مجتمعة 1,4 تريليون من الأصول في الخارج وتقدر بثلث راسمال الاستثمار الأجنبي المباشر. وقد شغلت هذه المائة شركة عابرة القارات عام 1993 احد عشر مليون شخص او 16٪ من بين ال 72 مليون مستخدم المشغلين من قبل كل الشركات عابرة القومية في كل العالم[14].

ومع أن هذه الشركات مقودة بالربح وليس بالوطنية، إلا ان لها جذورًا قومية قوية.[15]

كما فرّخ هذا المبنى الاجتماعي للتراكم على صعيد عالمي امتدادًا له في بلدان الاشتراكية المحققة. ففي اعقاب قيام شرائح النومنكلاتورا في الاتحاد السوفيتي ومثيلاتها في اوروبا الشرقية بانقلاباتها في السلطة من الأعلى، اتضح ان هذه الشرائح كانت تعمل منذ بضعة عقود على تفكيك النظام قاعديًا على أن تحتفظ لنفسها بقمة الهرم. وبالتالي، تبلور في هذه البلدان مبنى اجتماعيًا للتراكم ممثلاً في راسمالية المضاربات والمافيا والاستيلاء على القاعدة الصناعية في بلد مثل روسيا باقل التكاليف. والمهم أن هذا المبنى الاجتماعي المتحكم بالتراكم والسلطة في هذه البلدان ليس مجرد مثيل، مع الاحتفاظ بخصائص محلية، لنظيره في المركز الإمبريالي، بل إن هذا المبنى مدعوم من راسمالية المركز التي سمح لها هذا المبنى بالتملك في الموجودات الصناعية الأساسية في تلكم البلدان. اي باختصار، اصبح ما يجمع هذه الطبقات ليس فقط الملكية الراسمالية في البلد الواحد، بل التشارك في الملكية على صعيد عالمي، مع لزوم التنبه إلى ان هذا التشارك هو لصالح راسمالية المركز التي تستملك من جانب واحد في بلدان الاشتراكية المحققة سابقًا وليس العكس.

وبهذا، نجد ان عالمية راس المال، او امميته، تغطي كلاً من الصناعة، راس المال

الصناعي، وراس المال المالي، وكل هذا مقود بالدور القيادي السياسي والعسكري لحكومات المركز الإمبريالي ولاسيما الولايات المتحدة، او بتحديد اكثر بقيادة راسمالية الانجلوساكسون والصهيونية الاشكنازية.

وفي قاع هذا الهرم من المبنى الاجتماعي للتراكم، نجد برجوازيات العالم الثالث التي يتمثل موقعها في هذا المبنى من خلال الدور السياسي القمعي الذي تقوم به محليًا بما يمكنها من الاستيراد المفتوح ولعب دور الوكيل لتحويل الفوائض او تسهيل ذلك التحويل مقابل ريع عن دورها. وهنا ايضًا يعتبر الحكم الذاتي نموذجًا على ريع يتقاضاه بناءً على دوره السياسي في تمرير التسوية.

فالكثير من انظمة الحكم في المحيط تعيش حقيقة من دورها السياسي في بلدها ومنطقتها بمعنى الحفاظ على المصالح الإمبريالية في مناطقها، والترويج لأيديولوجيا حرية السوق وتحرير التجارة الدولية، ومقاومة «الإرهاب»، وإطفاء بؤر «التوتر»، والمشاركة في مناورات مشتركة مع القوات الأمريكية...[16].

وربما «يتفرد» الوطن العربي بأنظمة تعيش من دورها من جهة، ومن ريع النفط الموجود فيها، مما يوفر على الإمبريالية

الأراضي الفلسطينية انتهاكات دائمة

مساعدة هذه البلدان، بل إن حكومات هذه البلدان تتبرع بمقادير هائلة من ثروات وطنها لتهدر في قيام الإمبريالية باستحلاب بلدان العالم الثالث التي تسربت من تحت عباءة النظام الإمبريالي العالمي. هذا المبنى الاجتماعي الثلاثي للتراكم على الصعيد العالمي هو النواة الفعلية لتبلور حكومة أو سلطة فاشية في العالم أو دور فاشي لحكومة عالمية حتى لو لم تتبلور. أما البليونيرات والمليونيرات في العالم فهم المثلون الأفراد لهذه الحكومة.

هيمنة راس المال المالي تعزز تبلور نظام فاشي عالمي

لعل اهم التطورات التي تلت فترة ازدهار ما بعد الحرب المنتهية عام 1973 هو بروز رأس المال المالي، في تجسد جديد، في حالة من الهيمنة. إن قصة هذا الصعود تحتاج إلى وقفة منا هنا. إن احد اجزاء هذه السلسلة، يخص العجز الكبير في الحساب الجاري للولايات المتحدة في الخمسينيات والستينيات والذي ازداد تدهوراً في الفترة من 1974 وحتى 1983. تعود بداية ازمة الاقتصاد الأمريكي إلى تبني سياسة مجتمع ما بعد الصناعة، عام 1967 حيث تجاوز الدولار المستوى الذهبي، محطمًا نظام سعر الصرف المحدد.

«كان السبب في الازدياد الحاد في عجز الميزانية في الفترة 1975 – 1976 هو الإنفاق الحكومي الهائل، اما في الفترة الثانية 1982 – 83 فكان بسبب كل من زيادة النفقات والنقص في ما تتسلمه الميزانية»[17]. وقد تواكب مع هذا تدفق دولار الولايات المتحدة إلى الخارج الذي أصبح بموجب مرسوم من نظام بريتون وودز «ذا قيمة مساوية للذهب». لقد قادت هذه إلى تكون سوق اليورودولار، وفي النهاية إلى انهيار نظام بريتون وودز نفسه. وجزء اخر من السلسلة هو ارصدة البترو دولار التي تكونت في اعقاب صدمات النفط (انظر لاحقًا)، التي وضعت ارصدة هائلة تحت تصرف البنوك المتروبولية، مما جعل هذه البنوك اللاعب الرئيسي في عملية «إعادة التدوير» وصغَّرت صندوق النقد الدولي إلى مجرد جندرما عند راس المال المالي. والنقطة الأساسية هي، انه عبر هذه السلسلة تمكن راس المال المالي المعولم من الارتفاع إلى موقع امامي[18].

فمثلاً بينما تجاوز مؤشر داوو جونز الـ 11,000 نقطة خلال 24 يومًا تجاريًا في آذار 2000 محققًا قفزة بمقدار 1000 نقطة، اعلن الاتحاد الأمريكي لتكنولوجيا التصنيع (تصنيع الماكينات) أن مبيعاته قد انخفضت بنسبة 51٪ في الفترة ما بين آذار هذا العام وآذار من العام الماضي. إذن نحن امام نمو هائل في المستوى المالي وانخفاض هائل على مستوى صناعة واستهلاك وسائل الإنتاج[19].

هناك ثلاثة مستويات للمبنى المالي/ الاقتصادي لابد أن تعمل معًا وبشكل متداخل، اي غير منفصل لكل على حدة وهي التجميع المالي، والتجميع النقودي والمدخلات والمخرجات المادية الاقتصادية. إن عملية تمويل أو تقييم كل الأسهم في الولايات

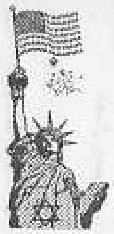

المتحدة تربو على 16 تريليون دولار. لكن اخر الأرقام المتوفرة عن قيمة المسحوبات على ضوء هذه الأسهم، وهي مراهنات بالطبع، تصل إلى 55 تريليون دولار وهذا يكشف الفجوة الهائلة بينها وبين الاقتصاد الفعلي، ويبين، كما اشرنا أعلاه، اندفاع المستثمرين في الأسهم وكأنها في اتجاه صعودي مضمون.

ولكن تقول بتنايك «يختلف راس المال المالي هذا عن الذي كتب عنه لينين، في ثلاثة طرق على الأقل. **أولاً** : ان راس المال المالي بمفهوم لينين هو راسمال قومي الارتكاز قائم على اساس قومي ولكن راس المال المالي الجديد اممي... على ان ما نقوله هنا، لا ينفي الدور المهيمن لراس المال المالي المتروبولي،» **وثانيًا**: لا يعمل راس المال المالي هذا في سياق منافسة بين – إمبريالية، كما كان الأمر في فترة لينين، وإن كان لا يخلو من منافسة **وثالثًا**: هذا الراسمال ليس اندماجًا بين راسي المال البنكي والصناعي لكنه تمويل معولم حيث الكثير منه من اصول مضارباتية وتدفقات ساخنة[20].

لا ينحصر الأمر هنا في وجود كتلة مالية «اممية» التكوين، بل يجسد وجود شبكة طبقية راسمالية واممية ايضًا، وهذه الشبكة ليست بدون مشترك معين «اممي» على حساب القومي. ربما من هنا يمكننا فهم أن راس المال العربي المرصود في البنوك التجارية الغربية ولدى الحكومات هناك تم استخدامه للإنفاق على تدمير العراق وغزو الصومال ومساعدة إسرائيل..إلخ. وهكذا لا يفقد راس المال وحده انتماءه القومي بل يفقد الراسماليون ذلك الانتماء. على أن الراسماليين من بلدان المحيط يفقدون من الانتماء القومي أكثر مما يحققون من مواقع في مراتبية هذا المبنى الراسمالي «الأممي». بمعنى أن مبنى اجتماعيًا من التراكم على صعيد عالمي يحصل جراء هذا التطور المالي الضخم، وهو مبنى يضم من مختلف القوميات اناسًا يصبح موقعهم الطبقي هو رقم الحساب البنكي. ولكن، ليس شرطًا أن يكون موقع كل شخص متناسبًا مع مقدار ما له من رصيد، حيث إن القرار الإداري والموقع الإداري هما في المركز وبيد الراسماليين الغربيين.

على أن الآلية السياسية والأيديولوجية التي خدمت أو سهلت الدفوقات المالية من المحيط إلى المركز، هي تبني العديد من بلدان العالم الثالث لليبرالية الجديدة ولا سيما الخصخصة وبيع الكثير من شركات القطاع العام للراسمال المالي من المركز[21]. فقد ادخلت هذه التطورات بعدًا جديدًا على مسألة الهوية في المركز والمحيط معًا. بل على مراتبية الهوية. فهل بقي ثمة هوية أو ثقافة مشتركة بين الطبقات التابعة في المحيط وبين الطبقات الشعبية؟ وما هوية الشركات متعدية الجنسية والقطاع الراسمالي الدولاني العام المعولم. وهل هناك افضل من تسمية الحقبة بأسرها بحقبة العولمة كي تخفي كل هذه الاختراقات لجسم المحيط؟

إن الليبرالية باختصار هي ميكانيزم لتركيز راس المال على الصعيد العالمي: فراس المال المتروبوليتاني في الإنتاج يطرد منتجي العالم الثالث حتى من أسواقهم القومية، بينما راس المال المتروبوليتاني في التمويل (الذي هو المكون المهيمن للتمويل

العمال يدفعون ثمن سطوة الأيديولوجيات

العالمي) يسيطر على موارد ومشاريع العالم الثالث (التي بُنيت في فترة مبكرة ككلفة عامة) بأسعار مجانية.

«مساهمة» الفوائض النفطية العربية في تكوين وهيمنة راس المال المالي

تخدمنا الإشارة إلى دور الأنظمة العربية النفطية التي زودت البنوك والمضاربين في المركز بالسيولة التي مكنتهم من استغلالها كمديونية من جهة وساعدت بالتالي على هيمنة راس المال المالي عالميًا من جهة ثانية وأعطت صورة رديئة عن العرب من جهة ثالثة ليس بسبب الركون إلى الدخل الريعي وإنفاقه بشكل حتى ما قبل راسمالي باذخ، بل ايضًا لأن العرب صُوِّروا كمستغلين لفقراء العالم بسبب فاتورة النفط، التي فشل العرب أنفسهم في استخدام او الاحتفاظ بمداخليها.

يقول د. سعدون حمادي، نظرًا لبيع النفط العربي بأسعار تقل عن السعر الذي يجب ان يكون للمحافظة على القوة الشرائية كما كانت عام 1974 وللسنوات 1987 – 1995 فإن مجموع ما خسرته الدول العربية منذ عام 1978 – 1995 هو 519860 مليار دولار. حتى تونس وهي أصغر مصدر عربي للنفط خسرت 443 مليون دولار عام 1995 وحده، وخسرت خلال المدة المذكورة 2688 مليون دولار اما للمحافظة على القوة الشرائية للبرميل كما كانت عام 1981 فإن الدول العربية قد خسرت وحدها 225266 مليون دولار بسبب ذلك. أما مجمل خسائرها خلال الفترة من 1987– 1995 فكانت 15546907 مليون دولار أي اكثر من تريليون وخمسمائة مليار دولار. وقد ذهبت هذه المبالغ لصالح الدول العشر التي تتعامل معها بتصدير النفط واستيراد السلع والخدمات»(22).

بمعنى آخر، فإن فوائض النفط وخاصة العربي كانت جزءًا كبيرًا من السيولة التي قدمتها البنوك الغربية كمديونية لبلدان العالم الثالث، أي أن الأموال العربية استغلت العالم الثالث لصالح العالم الأول!، فأي دور!!!

«ففي الوقت الذي كانت تشهد فيه اسعار النفط هبوطًا حادًا عامًا وقامت السعودية بزيادة صادراتها من 3438 الف برميل في اليوم في 1987 إلى 7388 الف برميل في اليوم عام 1994 وفعلت نفس الشيء الكويت والإمارات.. واتبعت السعودية سياسة مزدوجة فكانت في اجتماعات المنظمة توافق على تحديد الإنتاج وتوزيع الحصص ولكن بعد ان تقوم الكويت والإمارات بزيادة إنتاجها الفعلي تعود هي لزيادة إنتاجها بحجة ان نظام الحصص لم يعد مجديًا وانها إن التزمت به فستفقد أسواقها للآخرين الذين لم يلتزموا بحصصهم. وهكذا، تدهور سعر النفط لما دون السعر الذي حددته الاوبك وهو 18 دولارًا للبرميل إذ وصل خلال النصف الثاني من 1990 إلى 7 دولارات وربما اقل من ذلك»(23).

ولا شك أن هناك مجموعة عوامل تسببت في هذا الموقف الرسمي العربي البائس. الأول: إن المركز الإمبريالي يتحكم بقرار دول النفط العربية. نقول هذا للتمييز بين كونها تقوم بذلك طوعًا او انها ليست صاحبة قرار. والثاني: وهو أن هذه الكيانات الصغيرة عاجزة عن استيعاب مشروعات تنمية إقليمية، إضافة لافتقارها لديناميات التنمية سياسيًا وفكريًا وقوميًا معًا، وجزء من هذا الافتقار عائد إلى ركونها إلى الاطمئنان إلى تواصل تدفق الدخل الريعي جعلها تعتبر تراكم الفوائض المالية لديها مشكلة فسهُل عليها التخلص منها لصالح الغرب الرأسمالي.

والثالث: لأن هذه الأنظمة تابعة، وتعرف من هو ولي نعمتها، فهي لم تلجأ إلى قيادة مشروع تنموي عربي مع أقطار عربية كبيرة، بل لجأت إلى البنوك الغربية. وهذا مؤشر على غياب البعد القومي. (24) والرابع ان حصول هذا دليل على ضعف الحركة السياسية عامة فيها والقومية بشكل خاص.

ولا تخرج بنية المساعدات العربية عن مصير فوائض العرب النفطية ففي الفترة ما بين 1962– 1983 بلغت المساعدات التي وزعتها الدول العربية 9426,73 مليون دولار وزعت كما يلي، 51٪ للبلدان العربية و19,7٪ لبلدان افريقية، و27٪ لبلدان اسيوية، و1,9٪ لبلدان من امريكا اللاتينية، و0,6٪ لبلدان اخرى.(25)

اما حصة المساعدات من الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم التي تقدم على شكل مساعدات خارجية، فكانت نسبة مساعدات التنمية إلى الناتج المحلي الإجمالي من قبل الدول التي قدمت مساعدات عام 1983 كما يلي:

«امريكا 0,24٪، دول السوق الأوروبية المشتركة 0,51٪، السعودية 3,53٪ الكويت 4,46٪ معدل دول الأوبك 1,05٪ الكوميكون 0,19٪»(26). اي أن المساعدات العربية فاقت بكثير «كنسبة» مساعدات دول المركز!. «بلغ مجمل المساعدات المقدمة من اللجنة الدولية لإغاثة مناطق الجفاف في الساحل الأفريقي 800 مليون دولار عام 1975، ووصلت إلى 1,25 بليون دولار عام 1979، اما حصة ما قدمه العرب منها فقفزت من الثمن اي 100 مليون دولار إلى الربع اي 300 مليون دولار لنفس الفترة اعلاه. وقد بلغت حصة هذه المساعدات من مجموع المساعدات المقدمة إلى العالم الثالث من 39 – 51٪»(27).

ويضيف د. سمير أمين «إن هذه

المساعدات العربية لم تذهب لمشاريع تطويرية وإنما للاستهلاك وتسديد الديون والمساعدات الغذائية الطارئة. ومع أن توجيه الدعم للزراعة والغذاء أمر أساسي، إلا أن هذا يجب أن يرتبط بصناعة غير إحلال الواردات، أي التي تزيد استهلاك الطبقات الغنية. ولأن شيئًا من هذا لم يحصل، فإن المساعدات العربية لم تخرج عن نطاق المساعدات الغربية بل كانت تابعة لها»(28).

والمفارقة أنه نظرًا للبنية الصدقاتية والتابعة لهذه المساعدات وخلوها من مشروع إستراتيجي عربي موحد لخلق محيط مؤيد للقضايا العربية على أساس براجماتي على الأقل، فإن ارتفاع فواتير النفط ألبّ دول العالم الثالث ضد العرب! وهذا ما نخشى تكراره اليوم سواء من حيث عودة نفس الأنظمة العربية للعب دور المنتج المرجِّح، أو زيادة فاتورة النفط دون الاستفادة منها تنمويًا وسياسيًا.

ومع ذلك يمارس المركز تمييزًا واضحًا ضد منتجات هذه الدول: «فمن الناحية النظرية تتمتع صادرات المنطقة العربية من البتروكيماويات بنظام الأفضليات المعمم CSP في الاتحاد الأوروبي الذي يسمح لها بدخول دول الاتحاد دون دفع رسوم جمركية. لكن واقع الحال يشير إلى أن 10٪ فقط من صادرات الدول العربية تتمتع بمزايا هذا النظام. أما الكميات التي تزيد على ذلك فإنها تخضع لرسوم جمركية تتراوح ما بين 22-33٪»(29). إن فرض الحماية من قبل المركز حتى ضد أتباعه دليل على أن هؤلاء الأتباع مجرد وكلاء تحويل الفائض من بلدانهم إلى المركز وليسوا أندادًا له.

هنا تبرز في الذهن مرة ثانية مسألة الوحدة العربية والدول العربية المركزية، أو حتى القرار العربي المركزي. فنظرًا للدور المهم الذي يلعبه النفط على الصعيد العالمي، فإن المتحكم بأسعاره يتحكم إلى حد كبير بالفوائض المالية الدولية. وبالتالي يصبح هو مصدر الإقراض وممول التنمية أو المتحكم بالنمو الاقتصادي على مستوى العالم الثالث على الأقل. بالتالي فلو كان هناك حد أدنى من الوحدة العربية لكان بوسع العرب أن ينشئوا صندوقًا تنمويًا للإقراض الدولي يخلق حالة تنموية غير استغلالية أو نهبوية مما يعطي العرب وجهًا حضاريًا بعكس ما عليه حالهم اليوم، بدل أن ينتهي العرب وفوائضهم إلى مجرد أداة لنهب العالم من قبل البنوك التجارية وحكومات المركز الإمبريالي. هذا ناهيك عن أنه ليس لدى العرب أيًا من البنوك الدولية الكبرى ولا الشركات الدولية الكبرى أيضًا التي تشكل بالنسبة لبلدان المحيط مقومات قطاع عام عالمي معولم محتكر بيد الأقوياء.

قطاع عام رأسمالي معولم كمكون آخر لنظام فاشي عالمي

تنسب الليبرالية والليبرالية الجديدة لنفسيهما فتح أبواب لتنقل حر لرأس المال والبضائع والخدمات وقوة العمل. وقد ازداد تردد هذه الأمور تحت يافطة «تحرير التجارة الدولية» كغطاء يتخذ مظهر المساواة بين كل دول العالم في الانفتاح التبادلي. ولا يخفى أن هذا التحرير إنما تستفيد منه كل دولة بقدر ما لديها من قوة عمل تنتج سلعًا قادرة على المنافسة دوليًا وليس من الميزة النسبية

التي تحدث عنها ريكاردو. وواضح بالطبع أن هذا الأمر محتكر بين دول المركز التي بالإضافة إلى احتكارها للقدرة التنافسية، توفر لاقتصاداتها حماية أمام منتجات الدول الأخرى ولا سيما من العالم الثالث. وهكذا، فإن المنتجات السلعية لدول المركز هي التي تتمتع بالنتائج الفعلية لتحرير التجارة هذا. أما رأس المال المالي فهو الأكثر استفادة سواء بسبب تبني بلدان العالم الثالث الليبرالية الجديدة أو بسبب التسهيلات التي توفرها باستمرار التطورات الجديدة في مجالات الاتصال والإنترنت. لقد وجد رأس المال المالي في العقود الأخيرة من القرن العشرين مناخًا مناسبًا للهيمنة حيث العالم الثالث مناطق مفتوحة للاستثمار الأجنبي المباشر الذي لا تعني التسهيلات المتوفرة أنه قادم حقًا، أو أنه سوف يستمر! لكن حرية تنقل راسمال الاستثمار الأجنبي المباشر هو مثابة تطوير دور دولة المركز لتحرك رأس المال في كافة أنحاء العالم بمرونة وكأنها تحركه أو تعطي ترخيصًا لشركة داخل بلدها وهذا يعزز تسميتنا لهذا الدور بأنه قطاع عام معولم. فالدولة هنا وراء الاستثمار الأجنبي المباشر كسلطة سياسية.

وعليه، لا تعدو هذه الليبرالية الجديدة كونها تحكمًا «ديكتاتوريًا» من رأس المال في المركز ببلدان المحيط. ويتضح الأمر أكثر عندما نرى التواكب ما بين زيادة تسلّط المركز على اقتصادات المحيط وإرغام هذه الدول على التنازل عن سيادتها القومية، وتصغير دور الدولة ليتم تسيير اقتصادها طبقًا لقوى القطاع العام المعولم الذي هو البنك والصندوق ومنظمة التجارة ومنظمة الاستثمار وحكومات المركز ولا سيما حكومة أمريكا. مطلوب من المحيط تقليص دور الدلة وإلغاء القطاع العام الذي يشغل قوة العمل المحلية، أما تحويل الفائض عبر الوكلاء إلى المركز فيسهل تشغيل قوة عمل المركز!. لكن دور الدولة الإداري والسلطوي يتقوى بحيث تتحكم ببلدان المحيط أنظمة دكتاتورية، لها

البطالة في الهند تهدد الاستقرار

بوليس وليست لها سيادة، وهذا يتقاطع في التحليل الأخير مع ديكتاتورية راس المال عالميًا.

وهكذا، فإنه بقدر ما هناك من لا مركزية في داخل بلدان المركز الإمبريالي فإنها تدير الاقتصاد العالمي بمركزية شديدة. فالمركز يدير الاقتصاد العالمي عبر الصندوق والبنك ومنظمة التجارة والمنظمة العالمية للاستثمار بشكل مركزي. وكل هذه تدار بالأساس من حكومة الولايات المتحدة مما يجعل من الاقتصاد العالمي في المحيط قطاعًا عامًا معولمًا تحكمه شبكة منظمات مالية/ سياسية «البنك والصندوق الدوليين ومنظمة التجارة العالمية» حيث تشكل الأساس الاقتصادي لحكومة فاشية عالمية. لا بل إن التطورات التي حصلت على بنية المركز الداخلية ولا سيما في نطاق علاقته بالمحيط لم تزد عن كونها إعادة هيكلة الجوهر نفسه، إعادة ترتيب الأدوار بما يحقق النجاعة الإنتاجية القصوى والربح الأقصى مستثنية البعد الإنساني تمامًا، وهذه بالطبع سمة أساسية في الرأسمالية «تمهد لميل فاشي».

هناك تغير في دور الدولة في المركز، لا نسميه تراجعًا. إنه قيام راس المال بإعادة ترتيب صفوفه طبقيًا، إعادة توزيع الأدوار في المؤسسة الواحدة. فإذا كان غزو المحيط اقتصاديًا تم ويتم على يد الشركات متعددة الجنسية التي «تدعى» من قبل انظمة كمبرادور المحيط لتستغل القوى العاملة هناك والثروات، وتحظى بتسهيلات لم تحلم بها الدولة الاستعمارية نفسها وهي في عز الهيمنة على هذه المستعمرة أو تلك. إنها تدير القطاع العام المعولم كما لو انه شأن داخلي.

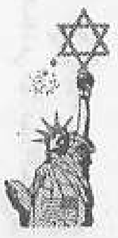

لا بل تدير شئونًا داخلية في بلدان المحيط لدرجة عدم الرضى عن تعيين هذا الوزير أو ذاك، فما هو لزوم استخدام دبلوماسية وزير خارجية امريكا مثلاً أو جيش وزير دفاعها؟. فما يبغيه راس المال يتحقق على يد متعددة الجنسية بسهولة قصوى. إذن فلتحل الشركة هذه محل الدولة في الخارج، ولتقم بتحويل الأرباح إلى المركز حيث القرار الإداري وموقع الأرصدة والتراكم الراسمالي والاحتكار التكنولوجي كله هناك. فلتستمر هذه الشركات بما تقوم به، فهي تحمل عن الدولة مسئولية إقامة «قطاع عام» على مستوى عالمي. إن دورها هو النهب باسم التعاون والاعتماد المتبادل عالميًا وتحويل الفائض إلى المركز. وعند عملية التحويل تحديدًا، أو فقط عند عملية التحويل هذه يتضح معنى هذا الشكل الجديد للقطاع العام الذي هو تحويل الفائض من المحيط إلى المركز يعني تمويل الدولة داخل المركز، وتشغيل القطاع المالي بما فيه من موظفين، وتوفير سيولة للإنفاق على البحث والتطوير والضمانات الاجتماعية وتعويض البطالة..إلخ. وإذا لم يكن هذا دور القطاع العام فما هو القطاع العام إذن. أما جوهر المسألة فلا يزال راسماليًا حقًا. إنه بقاء القطاع الخاص هو السيد، راس المال الخاص سواء الإنتاجي أو المالي أو المضارب، واستمرار سلطة دولة راس المال هذا داخل البلاد وتحكمها بالجيش، وتقديم تسهيلات للقطاع الخاص (قانونية ودبلوماسية وعسكرية من الدولة). إنه إحداث قطاع عالمي ممول من الخارج ليطفئ بؤر التوتر الداخلي. وهذا يعني انه حتى في ظل

التوجه العالمي نحو فاشية رسمية عالمية، تظل علاقة عمل/ راسمال في المركز أقل توترًا منها في المحيط، لأن استفادة الطبقات الفقيرة والعاملة عامة في المركز من القطاع العام المعولم أعلى من استفادة نظيراتها في المحيط (إن استفادت هذه شيئًا). وهذا أمر منسجم مع استقطابية راس المال ومع وجود عولمتين أيضًا.

ولكي تخدم دول العالم الثالث ومنها الدول العربية، سياسات المركز في عولمة القطاع العام الذي يملكه المركز، فقد سارعت إلى تفكيك القطاع العام المحلي في بلدانها لصالح القطاع الخاص مدعية التشبه بوضع ودور وتاريخ القطاع الخاص في دول المركز، وهو الأمر الذي لا صحة فيه. فالقطاع الخاص في المركز إنتاجي، بدأ ذاتيًا أو داخلي التوجه متمحورًا على ذاته، وتطور إلى متمحور على ذات المركز بشكل عام. وهو تمحور ما فوق مناطقي. أما القطاع الخاص في العالم الثالث، فبدأ تابعًا، منفصلاً مع الخارج، استيراديًا وليس إنتاجيًا، مستثمرًا في مشاريع التجارة والخدمات سريعة المردود وليس في المستوى الإنتاجي مقودًا بحكومات تفتقر للمشروعية تبحث عن التمويل الشهري لبيروقراطيتها مما يدفعها للاعتماد على المساعدات الخارجية التي تتجلى في فتح الأسواق وبالنهاية خنق محاولات الاستثمارات الإنتاجية للبرجوازيات قومية التوجه مقابل دورها.

وهكذا، يشكل تفكيك القطاع العام في بلدان المحيط جزءًا من الهجمة على مقدرات بلدانه، وتجريدًا لكل من الدول والشعب من مقدرات الاستقلال، وتجريد الدولة من مصدر دخل لها، كان يساعدها، إذا رغبت، في تقليل الاستحلاب الضريبي ودعم السلع الأساسية، لتصبح معتمدة أكثر على الضرائب التي تجعلها متذيلة لراس المال الخاص الذي يحظى منها مقابل ذلك بإطلاق يده في الاستغلال وتمكينه من التهرب الضريبي مما يلقي بالعبء الضريبي على الطبقات الشعبية ويزيد التوتر الاجتماعي لتنتهي الأمور إلى اعتماد أكبر للدولة على البوليس إداريًا وعلى المساعدات الأجنبية التي ليست سوى جزءًا تافهًا مقارنة بما تنهبه الشركات متعددة الجنسية أو التبادل اللامتكافئ. فأية حلقة مفرغة تعيد تكرار وإنتاج نفسها!. كما يؤدي تفكيك القطاع العام إلى بطالة واسعة ولا سيما بين عمال القطاع العام الذي لم يعد من السهولة بمكان إعادة تأهيلهم لأعمال جديدة إن وجدت. هذا إلى جانب كون هذه البلدان ذات معدلات توالد عالية. وبالتالي فإن الطبقات الفقيرة هي التي تدفع الثمن الاجتماعي والصحي والمعنوي لتصفية القطاع العام.

يعطي الجدولان التاليان صورة عن تراجع دور الدولة في المحيط:

«نسبة الإنفاق الإنمائي العربي إلى:

	الناتج المحلي الإجمالي %	مجموع الإنفاق العام %
1980 - 1975	80	60
1985 - 1981	23	52
1990 - 1986	14	40
1995 - 1991	11	33

(30)

وكان الوضع في:

«نسبة الإنفاق الإنمائي لبعض البلدان العربية إلى :

السنة	الناتج المحلي الإجمالي %		مجموع الإنفاق العام %
	مصر	الأردن	سوريا
1975	60	48	47
1991	37	20	23

نلاحظ ان نسبة الإنفاق الإنمائي من الدولة (لمجموع الدول العربية او لدول بمفردها) قد تراجعت سواء من الناتج المحلي الإجمالي أو من الإنفاق العام وفي كلا المستويين بشكل حاد. وهذا طبيعي أمام تقلص إمكانياتها وصلاحياتها الاقتصادية. وهنا ينحصر اعتماد الإنفاق العام اساساً في القطاع الخاص الذي يقرر، طبقاً للمصالح الفردية، اين ينفق، ويحدد أولوياته بناءً على الربحية التي تكون في اغلب الأحيان في الخدمات وفي إقامة شركات الاستيراد والتصدير وليس الاستثمار الإنتاجي(31)، تاركاً مجالات مهمة في الاقتصاد للاستثمار الأجنبي المباشر الذي تغريه الدولة بشراء الأصول القومية. والنتيجة، ان الدول العربية تلميذ كمبرادوري مثالي في تطبيق وصفات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بمعزل عن الآثار الاجتماعية والقومية المترتبة على ذلك. اي أن المؤسسات المالية الدولية هي التي توجه الاقتصادات الوطنية العربية. كما يتضح الأمر اكثر من التزامات هذه الدول التي تهندسها الإمبريالية الأمريكية والأوروبية لإسرائيل ليتم اندماجها على أساس مهيمن على الوطن العربي، كما تحض على الشراكة بين راس المال الخاص والنخب السياسية الحاكمة، بدل «المرونة» التي كان يمثلها القطاع العام في بعض الدول العربية بين النخبة الحاكمة والطبقات الفقيرة..

تسمية «القطاع الراسمالي العام المعولم» محاولة لتفسير دور من أدوار الدولة في المركز على الصعيد العالمي وفي أعقاب تساقط دولة الرفاه. هو قطاع عام لأن إحدى نتائج أدائه الاقتصادي يقود إلى تشغيل فائض قوة العمل داخل الدولة الأم، وهو أمر لا يقلق القطاع الخاص الذي يحتفظ بدوره المحلي. لكنه يجبر الدولة على خدمته ليقوم بدور عالمي. إذن جوهر هذا القطاع خاص، لكن طابع انتشاره وامتداده وعلاقته بالدولة تبرر تسميته قطاع عام معولم. إنه تقوية للقطاع الخاص على حساب العام الذي وإن كان في دول المركز منفصلاً عن الخاص، إلا انه كان يقوم بامتصاص احتمالات التوتر الاجتماعي الداخلي. أما القطاع الجديد فيبين توجه الدولة والقطاع الخاص لتحكم فاشي من جهة، ويحاول في الوقت نفسه لعب دور القطاع العام السابق، ولكن هذه المرة بطابع عالمي. إنه دور جديد للدولة يتسق مع القطاع الخاص في النهب من الخارج، ولا يلزم القطاع الخاص بامتصاص البطالة في الداخل. قطاع مرتبط بدول المركز الإمبريالية ممثل في عدة مستويات: **الأول:** هو الشركات متعدية الجنسية وعابرة القارات التي حولت الكثير من صناعاتها إلى المحيط معطية دوراً إنتاجياً للنظام العالمي على صعيد عالمي، **والثاني:** انه، ورغم ارتباطه بالدولة القومية، إلا انه لا يتوزع بالتساوي بين هذه الدول القومية كما كان الأمر في السابق، **وثالثاً:** انه خاص بدول المركز الإمبريالي، هذا القطاع تحديداً هو الذي حفز دول المركز على تدمير العراق ثم يوغسلافيا باعتبارهما دولتين متسربتين بعد

انهيار كتلة عدم الانحياز ولاحقاً الكتلة الشرقية. **ورابعاً:** يأتي هذا القطاع مترافقاً مع موت دولة الرفاه والقطاع العام في دول المركز **وخامساً:** هذا القطاع هو الذي يمول هذه الدولة بعائدات بديلة عن القطاع العام الوطني، فهو الية نهب من المحيط إلي المركز، والدولة في المحيط ككمبرادور هي وكيل تحويل او تسهيل التحويل من خلال تبني الليبرالية الجديدة. اما تحويلات هذا القطاع إلى المركز فتلعب دوراً في تشغيل الكثير من اليد العاملة في خدمات بنكية ومالية وتامينات.. ولعل احدث مجال فتح فرص عمل جديدة هو «اقتصاد شبكة الإنترنت» التي تشغل في امريكا وحدها 1,2 مليون فرصة عمل وتدر ارباحاً تزيد على 300 مليار دولار في عام 1998 (32). **وسادساً:** هذا القطاع ذو طابع مضارباتي، حيث يحول عبر المضاربات مبالغ هائلة من المحيط إلى المركز ويصفي الكثير من دول المحيط مالياً، **وسابعاً** هذا القطاع هو الذي ورّث رصيد المديونية التي تحوّلُ مبالغ هائلة من المحيط إلى المركز. **وثامناً**، فإن تكوين هذا القطاع مثابة محاولة تبريد احتكاك بين سلطة رأس المال والطبقات الشعبية في المركز. وهذا لا يعني ان هذه السلطة لن توقف توجهها الفاشي، ولكن، لماذا لا تمارسه بأقل صراع طبقي ممكن؟.

إن الهجوم الحالي من المركز على العالم الثالث الذي يتخذ شكل فرض الليبرالية، لابد ان يفهم في هذا السياق. إن فتح اسواق العالم الثالث بشكل تفصيلي ومُلحف امام سلع وخدمات البلدان المركزية قد ساعد الأخيرة على تجاوز الكساد لاسيما أمريكا وبريطانيا. هذا العمل بالنسبة لها مثمر جداً وبشكل استثنائي، لسببين: **الأول،** انه يضع تدخل الدولة في إدارة الطلب في موقف حرج، إضافة إلى كبح الميل نحو راديكالية سياسية، **وثانياً**، عبر تقليص تصنيعية العالم الثالث وإرغامه على المزيد من الاعتماد على الإنتاج الأولي، مما يحافظ على الضغوط التضخمية في المركز ضمن حد مضبوط.

يصل د. حميد الجميلي إلى نفس استنتاجنا من حيث الجوهر لكنه لم يدفع الأمر إلى ما دفعه تحليلنا، اي تكون قطاع عام راسمالي معولم تتحكم فيه حكومات المركز الإمبريالي.» (33).

وبإيجاز، إن مكونات هذا القطاع من جهة المركز وجود دولة مركزية تقوم بتسهيل حراك راس المال وتصديره عالمياً لاستثماره في:

إقامة مشاريع إنتاجية
بيع خدمات
خلق شبكات تسويق لما تنتجه الشركات في المركز والمحيط
تمويل الحفاظ على انظمة التبعية

اما من جهة دولة المحيط، فيتطلب:

انظمة كمبرادورية مكونة من راسمالية كمبرادورية، وكبرادور ثقافي ايضاً للتنظير للعولمة التابعة.
قوة عمل محيطية مرنة الحراك، مؤهلة، وغير نقابية
قوانين انفتاحية لتسهيل الاستثمار الأجنبي المباشر

تسهيل عملية التخليع الاقتصادي التي تتم على حساب التماسك الوطني للبنية الإنتاجية لكل بلد.

لا حاجة بعد للديمقراطية
التمهيد النظري للفاشية

لكي تكتمل مقومات الدولة الفاشية العالمية، وإن كانت لا مركزية في المركز وشديدة المركزية في المحيط، وإن كانت انظمة الحكم في دول المحيط أقرب إلى المستعمرات او الحكم الذاتي من حيث صغر دورها وقلة إمكاناتها، إلا أن المركز يسمح لها بالاحتفاظ بجيوش وشرطة ومخابرات قادرة على القمع. ولكي تكتمل المقومات الاقتصادية والسياسية لابد من المقومات الثقافية والفكرية التي تفرش للأخريات وتوصلها. تتجسد هذه المقومات في نشر هائل لأدبيات ايديولوجية عن السوق الحرة، والديمقراطية وحقوق الإنسان..إلخ. وهي أمور تنحصر في نطاق الأيديولوجيا. أما من حيث الواقع، «فالحكومة» الاقتصادية – السياسية العالمية تقوم بتقويض الديمقراطية في المركز والمحيط. ففي المركز تتركز الثروة بيد اقل عدد ممكن من الناس، وتتضاءل الأجور، ويتم تقويض مكتسبات الطبقة العاملة وتسلب المراة حق العمل الجسدي والذهني، مادامت تنافس الرجل في ظروف البطالة العالية، لينحصر عملها في ما لا يصلح الرجل له وهو بيع الجسد واستخدامه عارياً قدر الإمكان لتسويق منتجات راس المال. اما في المحيط، فيتم استلاب المثقفين العضويين في ضربة استباقية كي لا يكونوا القوة الفكرية لحركة تحرر وطني جديدة.

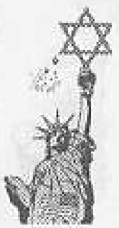

هكذا وصل مفكرو الإمبريالية إلى «ما بعد» الديمقراطية. لقد جاء كل من هنتنجتون وبريجنسكي إلى إدارة كارتر بل وكارتر نفسه من اللجنة الثلاثية، وهي منظمة اوجدها ومولها ديفيد روكفلر منذ عام 1974. وفي عام 1975 شارك هنتنجتون في وضع تقرير بعنوان، ازمة الديمقراطية: تقرير عن الحكم في الديمقراطيات للجنة الثلاثية. وهي دراسة وضعت قيد التشكيك مسألة إمكانية او جدوى الإبقاء على ديمقراطيات تمثيلية واستمرار المؤسسات والحركات القائمة على الديمقراطية في الوقت الذي يتم فيه تطبيق معايير تقشفية تتطلب حكومات وانظمة «ما بعد ديمقراطية»، او لا ديمقراطية». كان هنتنجتون احد ثلاثة من اللجنة الثلاثية التي وضعت دراسة ازمة الديمقراطية، التي تولد عنها البرنامج المسمى «مشروع الديمقراطية».

لكن مشروع الديمقراطية يعتبر اليوم اكثر مشاريع الاختراق الإمبريالي في العالم الثالث ولا سيما في الوطن العربي، وخاصة في الضفة الغربية وقطاع غزة. فهناك العديد من المؤسسات التي تمولها امريكا ودول غربية اخرى، والتي تزعم انها تقوم بتعليم الناس الديمقراطية. ينشط مستخدمو هذا المشروع الامريكي في المدارس وفي الجامعات ويتمولون عبر منظمات غير حكومية محلية الكوادر اجنبية الأهواء والمشروع والأهداف. فلا تكاد تخلو جريدة في كل يوم من خبر عن ندوة أو ورشة أو مقال عن «تعليم» شعبنا الديمقراطية!

والحقيقة أن هذا المشروع والمنظمات غير الحكومية المحلية والأجنبية التي تنفذه إنما

عربة تحت السلاح

يصبون جميعاً في مشروع «إعادة تثقيف» الطبقات الشعبية في العالم الثالث بالتبعية لرأس المال ممثلاً أساساً بأمريكا. أما أدواته فمنتقاة من كوادر اليسار والقوى القومية والوطنية في مشروع مكمل لعملية خصي روافع الحركات الوطنية. فالأداة الأساسية لهذا المشروع هي المثقفون. إن قيام المنظمات غير الحكومية باسم الإمبريالية وبتمويل منها ونيابة عنها باختراق المثقفين وتجنيدهم، إنما تقوم بحرب استباقية ضد تبلور موجة جديدة من حركات التحرر الوطني. وباختصار، إنهم يعلموننا درساً قديماً، قاموا بتجاوزه، إلا أنه كأيديولوجيا مازال يخدمهم في تشويه وعينا وتسخيره لخدمة رأس المال.

يقول هنتنجتون في أزمة الديمقراطية: إنه مع مجيء مجتمعات ما بعد الصناعية، تصبح الأمم غير قابلة لأن تحكم بوسائل ديمقراطية. وعليه، «لكي يصبح مرشح ما رئيساً عليه أن يجمع ما بين تحالف انتخابي يضم أغلبية من المصوتين موزعين نسبياً على كل البلاد.. ومنذ الثلاثينيات... على أي حاله، أصبح الأهم هو قدرته على تجنيد دعم قادة المؤسسات الرئيسية في المجتمع والحكومة»(34).

ومن هنا سر التركيز على المثقفين والنشطاء السياسيين وخاصة في اليسار وإقامة مؤسسات لهم ليتم احتواء المؤسسات عبر احتوائهم. وهكذا، فإن الديمقراطية التي يحاولون تلقيننا إياها، تصبح بنظرهم يوماً بعد يوم لبوساً قديماً، ويصبح اعتماد من يريد الوصول إلى السلطة السياسية ليس على الجماهير، وإنما على من يقودون المؤسسات الجماهيرية. وفي هذا بالطبع تعزيز لديكتاتورية النخب الاقتصادية السياسية الثقافية مما يقود العالم أخيراً نحو فاشية في ثوب ديمقراطي.

آليات التجاوز

ما هي آليات تصدي بلدان المحيط لهذا المشروع الرأسمالي الرهيب؟ كيف يمكن للعالم الثالث الخروج على الاستقطاب الرأسمالي الذي يفرضه المركز. استقطاب رأسمالي بقيادة أنجلو ساكسونية/ صهيونية اشكنازية. وهل أنظمة الحكم في المحيط، وربما جميعها رأسمالية كمبرادورية غير منتمية قومياً مؤهلة لاختراق حاجز الاستقطاب واحتجاز التطور. هل هي الحصان المناسب لدخول هذا المعترك؟ أم أن الخيار شعبي بالدرجة الأولى؟ كيف يمكن لأنظمة الحكم في المحيط المندمجة في المبنى الاجتماعي للتراكم على صعيد عالمي أن تلعب دوراً معاكساً لارتباطها المتخارج أجنبياً، ما الذي يغريها أو يجبرها على ذلك؟. كيف يمكن لهذه الأنظمة أن تتبنى برنامجاً اقتصادياً بديلاً يقوم على دمقرطة المجتمع والسياسة بما يمكّن الناس من صنع القرار مباشرة. أسئلة كثيرة تبرز في كل كلمة تكتب في هذا السياق. لكنها تتلخص في إما البديل الرسمي وإما البديل الشعبي، وهل من وسط وسيط بينهما؟

بغياب دولة البرجوازية القومية أو باستنفاد دورها، وأمام محاولات رأس المال تفريغ مجتمعات المحيط من قوة الدفع الفكري والأخلاقي التي تمثلها شريحة المثقفين العضويين وأحزابها، لابد أن يكون البديل مضاداً للإمبريالية وأن تكون حاملته هي الطبقات الشعبية لاسيما العمال والفلاحين. ولابد من مزاوجة النظرة القومية الجذرية، قومية الطبقات الشعبية، بالأممية المرتبطة وليس الكوزموبوليتية.

انتهت تجربة دول عدم الانحياز إلى التلاشي وذلك بانتقال أنظمة الحكم هناك من وضعية حركات تحرر وطني إلى برجوازيات حاكمة، فمحتجزة التطور، فتابعة، فكمبرادورية، فعدوة لشعوبها في التحليل الأخير.

وضاعت دعوات السبعينيات لنظام عالمي جديد. وانتهت طفرتا النفط بعودة الفوائض النفطية إلى بنوك ودول وشركات المركز لتصبح هي نفسها عبء المديونية على بلدان المحيط ومنه بلدان عربية، أو ربما البلدان العربية. أما تجربة الدول الخمس فما تزال تراوح في مكانها منذ بدايتها عام 1990. واليوم، إثر الارتفاع الملموس في سعر برميل النفط، نجد أن نفس الدول العربية التي لعبت دور المنتج المرجّح في طفرتي النفط السابقتين، ونفس الدول التي دهورت فوائضها النفطية إلى المركز، سواء كبنوك تجارية أو غيرها، تعود نفس هذه الدول لتكون حصان طروادة للمركز لزيادة ضخ النفط بهدف تقليل سعره! ولعل الدرس المستفاد هنا، هو أن الطبيعة السياسية وليس الإمكانيات الاقتصادية لهذا النظام أو ذاك هي التي تحدد فيما إذا كان مناسباً لأي مستوى من التعاون الإقليمي في مواجهة الإمبريالية أم لا. فمن يتحكم بالسياسة يتحكم بالمجتمع.

ولكن في المقابل، وعلى المستوى الرسمي أيضاً، فقد ولدت أزمة جنوب شرق أسيا الأخيرة تجربة ماليزيا التي تثبت حتى الآن نجاعة ما وإن كانت لا تزال ضمن المستوى الحكومي، إضافة إلى أنه ما من دولة في المحيط بعد تقوم بتجريب التجربة أو دعمها. وعليه، يظل للمناخ الاجتماعي الداخلي في ماليزيا دور تجذيرها من أعلى إلى أسفل! لكن المهم أنها إثبات بأن هناك إمكانية ما.

في تحديده لما يجب أن يتم عربياً فيما يخص العولمة، يرتكز صادق جلال العظم على تحليل د. مفيد حلمي القائل: «...فالقضية الجوهرية بالنسبة للدول العربية الآن ليس توقف زحف العولمة أو التعلق بركابها، وإنما أن تتعامل مع هذه الظاهرة أو النظرية المعلنة المجسدة بالنظام الاقتصادي العالمي المعاصر، بمنتهى الحكمة والمسئولية والواقعية والموضوعية منطلقة من اعتمادها على الذات الوطنية أولاً وعلى الذات العربية الأوسع شمولاً وعمقاً ثانياً وعلى تعاملها مع الظواهر الاقتصادية العالمية الأساسية، ومنها الآن ظاهرة العولمة(35).

لعل مشكلة هذا الموقف كامنة في كونه استمراراً عادياً جداً لأطروحة الاعتماد المتبادل على النفس بين الدول الوطنية في المحيط. ولكن، في حين أن هذه الأطروحة عانت نفسها من اختلال المراهنة على الأنظمة البرجوازية القومية، فإن استمرار د. العظم ود. حلمي في اعتماد هذه الأطروحة لتكون ناقلتها الدولة الكمبرادورية هو خلل خطير ليس لعدم واقعيته وحسب، بل لأنه يشكل تثقيفاً مشوهاً لجيل القراء الجدد حيث يعطي عن هذه الدول صورة جيدة. لا شك أن دعاة

التنمية بالاعتماد على الذات وفك الارتباط، والحماية الشعبية مازالوا أمام طريق مسدود تجاه تبلور ناقلة هذه الأطروحات. لكن هذا لا يعني العودة للمراهنة على دولة البرجوازية القومية التي ربما لم تعد قائمة أو المراهنة على دولة الكمبرادور البرجوازي والثقافي.

يمكن لمجموعة من دول المحيط أن تطبق معايير وإجراءات معينة من نمط الاعتماد الإقليمي (المناطقي) على الذات، وهو مدخل يبدأ بالمستوى الرسمي، أي الدولة «نظام الحكم الوطني» التي هي شرطه الأساسي. إلا أن تطورات النظام العالمي لا تشي بأن هناك أنظمة حكم في العالم الثالث جاهزة أو لها مصلحة في الاعتماد على الذات إقليمياً، بما هو مستوى معين من فك الارتباط بالنظام العالمي. هذا علماً بأن هذا المدخل ليس كافياً حتى لو توفرت له الأنظمة التي يتحدث عنها سمير أمين وفوزي منصور[36] وآخرون من المفكرين المتميزين. نلاحظ أن هذه الخطوط العامة (انظر الهامش) لا تخرج من جهة على مدرسة فك الارتباط التي تقودها الدولة الوطنية بزعامة الحزب الحاكم الواحد. ومن جهة ثانية، فإنها تظل في نطاق حسن النية وبالتالي الرغبة في عدم رؤية التطورات الطبقية البيروقراطية التي يمكن أن تنمو في أوساط الحزب والحكم كما لاحظنا في دول الاشتراكية المحققة وحتى في الصين الشعبية بعد ماو. في ظل الطبيعة الطبقية لأنظمة الحكم في المحيط، فإن مطالبتها بالاعتماد على الذات إقليمياً مثابة اللجوء إلى سلطة الكمبرادور للعب دور الدولة الوطنية!

في هذا المستوى، يقترح فوزي منصور متاجرة مباشرة بين دول العالم الثالث، وإلغاء الوسطاء بين هذه الدول، وتبادل الأفضليات وتعويض المنتجين الذين تضر بهم هذه الترتيبات وتبادل الخبرة التكنولوجية..إلخ [37].

لكن هذا الطرح لا يفيدنا فيما يخص كيف سوف ترسم هذه البلدان علاقات التبادل بينها وبين المركز الإمبريالي هذا إذا كانت هناك أنظمة تؤمن بتعزيز التبادل المحيطي البيني، ولا كيف ستعالج المديونية التي تقع على أعضاء فيها، هل سترفض دفعها، أم تجدولها بشكل ملائم. وهل ستقيم علاقات تخصص وتكامل فيما بينها. ثم هل يمكن لمجموعة من بلدان المحيط أن تطبق هذه المقترحات الجيدة فيما بينها ما لم تنجز كل واحدة منها ترتيبات داخلية فيها بحيث تكون جاهزة لمثل هذا التعاون الإقليمي. لا يفيدنا مؤسسو مدرسة فك الارتباط عن الضمانات التي لابد من توفرها لسير الحكم في هذا الاتجاه وعدم الارتداد عنه.

وهكذا، تظل هذه المعايير في نطاق رغائبي يتصور وجود أنظمة حكم وطنية في المحيط التي هي إلى حد كبير إما غائبة أو تشدها روابط تجاه مراتبية المبنى الاجتماعي للتراكم على صعيد عالمي أكثر مما يشدها من روابط محلية. إنها سلطة طبقية متخارجة بالتركيب والدور والمصالح. لا تخرج معايير مدرسة فك الارتباط عن المراهنة على الدولة (البرجوازية) القومية وحزبها الحاكم. وهي مراهنة لا توجد أية ضمانات لحمايتها من التبقرط، وبالتالي قيام البيروقراطية الحزبية والسلطوية الحاكمة بالارتداد نحو حضن المركز الراسمالي الإمبريالي ثانية.

من هنا لا بديل سوى الخيار الشعبي، خيار التنمية بالحماية الشعبية الذي يرتكز أساساً على مدرسة فك الارتباط، ولكن يتجاوز هذه المدرسة[38]. وهو نموذج تنموي استقفناه من تجربة الانتفاضة الفلسطينية العربية. وهو أيضاً نموذج لم يكتمل بعد، ولا أخال أن نموذجاً تنموياً يمكن أن يكتمل بمجهود فردي، هذا إذا كان لنموذج تنموي أن يكتمل أصلا. يعمل هذا النموذج في شرطه الأول بعيداً وبمعزل عن السياسة الاقتصادية لسلطة رأس المال الكمبرادوري، بل يفترض في الأساس عداء السلطة له، وكاستثناء محايدتها تجاهه. ويستمر هذا الموقف إلى:

1- أن تتغير السلطة. 2- أو تغير موقفها وسياستها بما ينسجم مع هذا النموذج أو يكمله.

يرتكز هذا النموذج في **شرطه الثاني** على المبادرة الشعبية، أي دون لزوم شرّاح ليفهموها ذلك، بمعنى قناعة الطبقات الشعبية ممثلة بالنقابات والأطر الجماهيرية والنسوية والطلابية والحزبية بالشروع بالانسحاب إلى الداخل استهلاكياً، بمعنى التركيز على استهلاك المنتجات المحلية أو منتجات مستوردة من العالم الثالث الصديق وبالتالي مقاطعة منتجات المركز الإمبريالي وتوابعه مثل (إسرائيل)، وهذا يشتمل ضمناً ضغطاً على السلطة للقيام بأمرين أساسيين:

الأول: الاضطرار إلى تعديل البنية الإنتاجية في البلد خضوعاً للضغط أو الطلب الشعبي في الاستهلاك.

الثاني: التبادل مع بلدان عالمثالثية وصديقة على مستوى مناطقي أو عالمي.

وينتقل هذا النموذج في **شرطه الثالث** إلى شروع القوى الطبقية الشعبية بممارسة الأنشطة التعاونية لإنتاج ما تحتاجه السوق المحلية. والمقصود تعاونيات إنتاجية صناعية وزراعية. وبهذا تنتقل إلى الانسحاب إلى الداخل إنتاجياً شريطة أن يتم ذلك بمشاركة كل عضو استثمارياً بأية إمكانات مالية ليكون مواكباً لبناء التعاونية، أو الشركة التعاونية، وهذا يجعل منه مستهلكاً لإنتاجها وعاملاً فيها، أي يكون جزءاً من مكونات نجاحها الثلاثة، كونه قوة عمل، وقوة استهلاك ومساهمة استثمارية. ثم ينتقل ليكون احتكاراً شعبياً أي جزءاً من مكونها. **شرطها الرابع**، وهو التعاون مع الشبكة التسويقية التي تبلورها هذه الحركة الشعبية وذلك للتخلص من التاجر كوسيط طفيلي.

لا يعتمد هذا النموذج في **شرطه الخامس** على تمويل أجنبي أو غير حكومي لأن في هذا تأسيساً للتبعية واستئصال التنمية (ولكن يمكن دراسة استثناءات تمويلية ثورية بدقة). وهنا تكمن أهمية التمويل الشعبي المساهم الذي لا يعني فقط مساهمة الجميع، بل يعني بالأساس الإدارة، إن هذه المساهمة تؤسس للإدارة الشعبية أي العمالية للمشروع ومن ثم للاقتصاد.

يتطور النموذج، في شرطه السادس بعد ذلك من الوعي بالاستهلاك إلى الاستهلاك الواعي، بحيث يصبح كل مواطن موجه جيد لنفسه في ماذا يستهلك ومن أي إنتاج. وهذا يعني قيام المواطن بمقاطعة بضائع منتجات الأعداء القوميين والطبقيين بما في ذلك رأس المال المحلي المتعاون مع الأجنبي سواء

كوكيل استيراد أو متعاقد من الباطن..إلخ. وهذا الاستهلاك الواعي هو نفسه عودة أخرى لتحديد مجالات الاستثمار، فهو موجه استثماري. فبمقاطعة الطبقات الشعبية، أي جمهور هذا النموذج لمنتجات محلية مرتبطة بالأجنبي أو تم إنتاجها بما لا يخدم الحاجات الأساسية للناس، يضطر رأس المال لتعديل توجهه الاستثماري نحو هذه الحاجات وهذا هو المدخل لإعادة تركيب المبنى الإنتاجي للاقتصاد. إنه مدخل لأن إعادة تركيب شاملة للمبنى الإنتاجي مشروط بإرغام سلطة رأس المال على ذلك. هذا يستغرق زمنًا، نعم، ومن قال إن تغيير المبنى الثقافي والسياسي والاقتصادي والفكري للمجتمعات ينجح سريعًا بالأوامر العليا!.

حتى الآن تظل السلطة السياسية خارج السياق. هذه الأنشطة لا تستطيع السلطة الكمبرادورية منعها ببساطة. أما **شرطه السابع**، فهو الحزب الثوري، الذي يكون ثوريًا بمقدار كون أعضائه ناشطين ورياديين في تطوير هذا النموذج دون أن يفرضوا أنفسهم عليه بيروقراطيًا. وهذا تمهيد لحالة وصول الحزب إلى السلطة ليكون ديمقراطيًا بمعنى الخضوع لمتطلبات التنمية من تحت أي من برلمان ممثل ل، ومكون من، الطبقات الشعبية حيث تقوم مختلف المؤسسات الجماهيرية نقابات اتحادات (نسائية ورجالية).. بنقاشات موسعة فيما بينها لتحديد رؤيتها للسياسة الاقتصادية المطلوبة. وقد يكون تبني الحزب لسياسة اقتصادية خاصة به، (اقتصاد الحزب) نموذجًا أوليًا لقدرته على الاندماج والريادة في نموذج التنمية بالحماية الشعبية، على أن للحزب دورًا إضافيًا هو الوعي بضرورة تجاوز البنى الفلاحية، قبل الرأسمالية والأبوية في مجتمعات العالم الثالث التي، حتى وهي تنخرط في المحطات الثورية في النضال السياسي والاجتماعي وحتى الطبقي، فإنها لا تلبث أن ترتد إلى البنى الحمائلية والعشائرية لاسيما وأنها لم تتجاوز الملكية الخاصة والفردية بوعي مناسب. هذا الدور هو ما يميز الحزب عن الطبقات الشعبية بشكل عام.

لتجديد هذه السياسة الاقتصادية، **الشرط الثامن**، يتم عقد مؤتمر وطني سنوي لممثلي الطبقات الشعبية التي صاغتها لمراجعتها وتقييمها وتطويرها. وهنا يكون دور الحزب الثوري، حاكمًا أو غير حاكم دور الأداة ذات الشبكة الجماهيرية لتعميم الحوار والأفكار والمقررات الناتجة عن هذا المؤتمر الوطني الشعبي، لتنتقل الخطة بعد ذلك إلى التنفيذ القطاعي والميداني. هذا النموذج للعمل على **الشرط التاسع** أي استيعاب القطاع غير الرسمي أو التقاطع معه. وحتى هذا المستوى، يظل هذا النموذج بعيدًا عن السياسة الاقتصادية الرسمية للسلطة.

يعني هذا النموذج وقوف قوة اجتماعية وراء الاقتصاد تدافع عنه في وجه البقرطة والتبعية وسياسات الباب المفتوح: وعليه، فالتنمية بالحماية الشعبية هي قوة ضغط على السلطة ضد الانفتاح وهي أيضًا مستوى من النضال الطبقي ضد الطبقات المستفيدة من التبعية. وهي مشروع أولي لاقتصاد اشتراكي حقيقي، أي من تحت.

أما في علاقته بالدولة، فيعمل هذا

النموذج التنموي أساسًا بمعزل عن الدولة. ولكن، في حالة الدولة الوطنية وحزبها الحاكم، فيعمل هذا النموذج بمعزل عن أو بترابط مع دور الدولة في الاقتصاد بمقدار تقاطع فلسفة وخطة الدولة الاقتصادية وسياستها الاجتماعية مع هذا النموذج، وبمقدار قيام الدولة وعدم قيامها بتهميش الطبقات الشعبية إنتاجيًا وسياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا. أما معيار التقاطع فيبدأ بالضغط على الدولة للقيام بإعادة تدوير الفائض لصالح الطبقات الشعبية، وتوجيه الاستيراد والتصدير نحو بلدان أقرب إلى هذا النموذج، وحماية الاقتصاد المحلي، والاستثمار التشغيلي بما يحقق إعادة تركيب البنية الإنتاجية بما يخدم متطلبات وحاجات الأكثرية الشعبية ، والحد من نزيف الفائض إلى الخارج، والتمرد على دفع الديون..إلخ.

هذا الخيار هو خيار ديمقراطي تلعب الدولة فيه دور خدمة وحماية الاقتصاد وليس التسليم بقوة السوق ولا الدور البيروقراطي للدولة في الاشتراكية المحققة. من هنا نعتبر هذا النموذج أبعد من فك الارتباط الذي هو مشروع الدولة الوطنية وحزبها الواحد الذي غالبًا ما ينتهي إلى دكتاتورية بيروقراطية.

عندما تتقاطع السياسة الاقتصادية للدولة الوطنية مع هذا النموذج يصبح بالإمكان القول إن هناك مناخًا للانتقال إلى تعاون واعتماد متبادلين إقليميًا أو عالميًا، **شرطه العاشر**، وبغير هذا يكون العالم الثالث قد حكم على نفسه بالدخول في مغامرات تجريبية لا نهاية لها (ومع ذلك، لا يمكن إغلاق الباب بالمطلق أمام محاولات تعاون حذرة بين الدول). وفي هذه الحال أيضًا، يصبح بالإمكان الحديث ومن ثم العمل على تعاون نضالي للطبقات الشعبية على صعيد عالمي في مواجهة فاشية رأس المال وهذا خارج نطاق هذه الورقة.

ملاحظة أخيرة

في زيارتي للعراق الشقيق في أواخر

العام الماضي 1999، تمكنت من الاطلاع على بعض الكتابات المهمة لمفكرين/ ات عراقيين مميزين. كما اطلعت، جزئيًا بالطبع، على الوضع الاقتصادي في العراق. ومع انني لا اسمح لنفسي بعد بتقييم التجربة، إلا انني لا ارى مستقبل العراق قطريًا ولا موقعه قوميًا في الانفتاح الراسمالي. أورد هذه الملاحظة لانني قرات دعوات لاقتصاديين عراقيين يدعون للانفتاح ويمجدون «قدرات» القطاع الخاص العراقي ويقارنونه بذلك الذي في جنوب شرق آسيا، مغفلين (الشروط الإمبريالية الخاصة) التي ساعدت جنوب وجنوب شرق آسيا، ومغفلين كذلك المأساة التي حاقت هناك بالطبقات الشعبية بعد الهزة الأخيرة، حيث اضافت لمن هم تحت خط الفقر 60 مليونًا من الناس، ناهيك عن تمكين الشركات عابرة القومية من شراء الأصول والموجودات القومية هناك!.

يقول د. احمد اريحي العلي:

«واثبتت الأيام أن رجال الأعمال والتجارة في العراق ومنهم حديثو التجربة يضمرون قدرات خلاّقة تتضاءل امامها ما نسمعه ونقراه عن امثالهم في جنوب شرقي آسيا ولو قدر لهؤلاء أن يعملوا في ظل وضع اقتصادي مماثل لما هو عليه في اليابان أو ماليزيا ليصنعوا العجائب في مدة قصيرة من الزمن»(39).

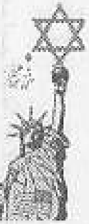

يعني انفتاح العراق راسماليًا، تعريض تضحياته وصموده وخاصة الاجتماعي الطبقي الشعبي للتلاشي، ومن ثم إعادة الطبقات الشعبية، وهي حاملة المشروع القومي الحقيقي، إلى براثن الاستغلال!. اقول صمود الطبقات الشعبية، لانها هي مادة النضال القومي والطبقي،، ولأن الصمود ليس عسكريًا فقط وإنما بالأساس صمود الطبقات الشعبية وتضحياتها المعيشية. فكيف ولماذا نعود ونسلمها لراس المال. هذا علمًا بأن العراق، لابد أن يكون طوّر مستوى مهمًا من الاعتماد على الذات، بمعزل عن النفط خلال فترة الحصار الحاقد. فكيف نفكك هذا الإنجاز بدل ان نطوره. فالانفتاح الراسمالي سيجرف كل هذا. اذكر في حديث عام 1985 قدمه د.عبدالعزيز حجازي (وزير الاقتصاد المصري عام 1975) في ندوة «عرب بلا نفط» في لندن انه قال: «كان هدفنا فتح الباب بشكل جزئي، لكن العاصفة خلعت الأبواب». وطبعًا جرفت النجار ولم يعد هناك مجال لأي باب!؟. سيطيح هذا بكل محاولات الاعتماد على الذات، وهنا لن يقدم العراق نموذجًا للوطن العربي بل سيلحق بالمبهورين بطريق اللحاق براسمالية المركز، وهو طريق السراب. ولا اعتقد ان هناك اقدر منا نحن العرب، أهل الصحاري، على معرفة ما هو السراب!.

وباختصار، إن طريق الانفتاح الراسمالي في حقبة الفاشية الراسمالية والقطاع العام الراسمالي المعولم، ومن بلد كالعراق دفع ثمن التنمية المستقلة والمشروع القومي دمًا حقيقيًا، ومن قطر كالعراق لديه

إمكانية تطوير الاعتماد على الذات من مدخلين متميزين هما:

تجربته في الاعتماد على الذات ووجود النفط كمساعد تمويلي (بعد فك الحصار).

إن طرح الانفتاح بعد كل هذا، مأساة حقيقية.

الهوامش

1- انظر عادل سمارة الحكم الذاتي الفلسطيني: نموذج على السيادة المحتجزة، المستقبل العربي عدد 211 رقم 9 العام 1996 ص66-80.

2- يعتبر اعتراض الرئيس المصري في مؤتمر دافوس لعام 1999 نموذجًا على الاعتراض الخجول الذي يحذر من تغول العولمة دون أن يقترح مخرجًا. «هناك شعور مر بعدم العدالة في العالم الذي يبرز الآن، شعور بأن خطأ ما في النظام الذي أودى بسنوات من التنمية التي انجزت بصعوبة... لا يمكن إنكار ان عددًا اكثر من الناس يعانون الفقر اليوم مقارنة مع ما قبل عامين،... النار تطول قريتنا العالمية. لقد أ طفئنا معظمها، ولكن هناك جيوبًا ما تزال تهددنا.... ان الأوان لإعادة التفكير في الاتجاه الذي يمضي إليه كوكبنا». انظر: Marica Merry Baker, The 'Experts' meet in davos aShipload of frozen fools, ik Executive Intelligence Review, 12 Feb 1999, p.6

3- من اللافت للنظر ان دور الترويج «غير الحكومي» إن صح التعبير قديم جدًا. في لقاء مع قناة Art الفضائية قالت السيدة حكمت أبو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية المصرية الأسبق، ان وزيرة نرويجية جاءت للقائها بعد حرب 1967 لتقنعها بدخول مصر التسوية واستعادة سيناء بشكل منفرد. وقد بدأ النقاش في مطار القاهرة وقد رفضت الوزيرة المصرية الاقتراح، ورجعت النرويجية من المطار!.

4- قاد تدني ارباح النفط كلاً من المكسيك وفنزويلا إلى بيع الأصول العامة المربحة لتسديد دفعات الديون الخارجية. انظر جيمس بتراس وهنري فلتماير في مونثلي ريفيو المجلد 51 عدد تموز وآب 1999 ص 41. في حالة المكسيك فإن امريكا التي قدمت لها بقجة الإنقاذ قد حازت مقابل ذلك على رهنية مداخيل النفط لصالح إدارة الخزينة الأمريكية. See Jamse Petras and Henry Veltmeyer, Latin America at the end of theMillennium, in Monthly Review, Vol. 51 July August 1999, p.39.

لقد ات هذه الرهينة اكلها هذه الأيام (شباط وآذار عام 2000) حيث كانت فنزويلا والمكسيك أول الدول التي خضعت للضغط الأمريكي لزيادة إنتاج النفط كي يهبط بسعر البرميل عن 27 دولار.

وحسب بنك البرازيل عام 1998، فإن 30٪ من الأصول المخصخصة في البرازيل قد امتلكها مستثمرون أجانب (اغلبهم من امريكا) على الرغم من أن حصص هؤلاء، في الاتصالات والإلكترونيات وصلت 39 و40٪. وتقول دراسة عن البلدان المتطورة صناعيًا عن مزادات

الفاوشر (مستندات ضمان): إن الشركات الروسية قد بيعت بأسعار لا علاقة لها بقيمها «فالقيمة السوقية للشركات الصناعية الأمريكية تقارب 100,000 دولار للمستخدم. بينما للشركات الصناعية الروسية تصل القيمة السوقية إلى 100 دولار للمستخدم».

Daniel Singer, Whos Millennium?, Monthly Review Press 1999, p.38.

«... في هذا السياق فإن تقريراً حديثًا عن الأزمة المالية في البرازيل يشير إلى الأرباح الهائلة التي تتحقق لعدد من بيوت الاستثمار والبنوك مثل تشيس منهاتن الذي ضاعف في سياق الأزمة البرازيلية بل ربح اربع أضعاف الربح العادي»

See James Petras and Henry Veltmeyer, Latin America at the end of Millennium, in Monthly Review, Vol. 51 July / August 1999, p.39

«تقوم معظم الاستثمارات الأجنبية المباشرة في أمريكا اللاتينية بشراء موجودات المشاريع العامة المخصخصة والمشاريع «الخاصة» التي تعاني مشكلات مالية في المنطقة، وذلك بأقل رأسمال ممكن...»

See James Petras and Henry Veltmeyer, Latin America at the end of Millennium, in Monthly Review, Vol. 51 July / August 1999, p.38

إن 68- 75٪ من رأس المال الأجنبي المباشر يعمل بهذه الطريقة وتوجهه بالطبع غير إنتاجي.

كما قاد تدني المداخيل من النفط في المكسيك وفنزويلا إلى بيع الموجودات العامة المربحة لتلبية متطلبات الديون.

5- كانت الهند حالة كلاسيكية نموذجية البرجوازية الاقتصادية القومية. كانت البرجوازية أكثر تطوراً كطبقة عند الاستقلال عن الحكم الاستعماري مقارنة بغيرها في مناطق آسيا الأخرى: كانت لديها قاعدة إنتاجية أقوى، مطلوب منها تصنيع أعظم في الفترة الاستعمارية ووزن اجتماعي أكبر بسبب ذلك، وترافق معها نضال ضد الاستعمار. وبالتطابق مع هذا، على أية حال، واجهت بروليتاريا أكثر تنظيماً، وبرجوازية صغيرة وكسبت رواتب ذوي صوت مسموع، وفلاحين ذوي دور نضالي بسبب الكساد القائد إلى الإفقار. لقد استخدمت الدولة من أجل تنمية رأسمالية مستقلة نسبياً وأكدت نفسها سياسياً واقتصادياً في مواجهة الإمبريالية: عبر الحماية ضد رأس المال والمنتجات الأجنبية (حتى خلال وهي تتعاون مع هذا الرأسمال) وبعدم الانحياز، وسياسة ديمقراطية، وقطاع دولة رأسمالي قوي، هو الصفة العامة للاستراتيجية الهندية.

إلا أن غياب إصلاح زراعي نظراً للموقف المساوم بين البرجوازية الهندية وكبار ملاك الأراضي، أبقى على قوى الإنتاج في الزراعة هناك مكبوحة. وبقي السوق للاستهلاك الجماهيري مكبوحاً وذا نمو بسيط لهذا السبب بالذات. وأبعد من هذا فإن قدرة قطاع الدولة الرأسمالي على الاحتفاظ بتوسعه، وبالتالي قدرته على الاستمرار في توسيع السوق للقطاع

الرأسمالي الخاص، قد تآكل بتسارع. فقد وضع النمو الزراعي المتدني سقفًا على المعدل الذي به يمكن للاستثمار العام أن ينمو بدون اعتصار مستوى المعيشة للجماهير إلى حد غير محتمل في بلد ديمقراطي، هذا إضافة إلى أن الطبقات الغنية قد أثرت نفسها من الخزينة القومية، على شكل «تراكم أولي لرأس المال» الذي قام بدور أعمق في احتجاز نمو الاستثمار العام. إن استراتيجية dirigiste للاستثمار الرأسمالي بالاعتماد على استثمار عام متوسع قد دخل طريقًا مسدودًا وفقد الدعم الاجتماعي حتى كرأسمال متروبولي، وبشكل خاص، كرأسمال مالي حيث زاد هجومه على هذه الاستراتيجية من خلال مؤسسات بريتون وودز ولاحقًا منظمة التجارة العالمية، في العالم حيث الدعم الحاسم كان يأتي من الدول الاشتراكية التي اختفت.

Prabhat Patnaik, Capitalism in Asia at the end of the Millennium, in Monthly Review, Vol 51, no 3 July/ August, p. 53 - 71.

في كوريا الجنوبية لعبت الدولة دور عميل للغرب، لمواجهة الشيوعية، وهذا سمح لمنتجاتها بدخول الغرب، بسبب دورها. أما مشكلتها فكانت بظهور اقتصادات تصديرية أخرى في جنوب شرق آسيا والصين ومن ثم زوال الشيوعية.

6- Mark Weibsbrot, weisbrot@cepr.net. 16 March 2000

7- Doug Henwood, "Up and Down ladder", Left Business Observer,, no 84, July 1998.

8- U.S Department of Commerce, Bureau of the Census.

9- American's Economic Recovery in Myth, Richard Freeman, in Executive Intelligence Review, Vol, 26, no 21, May 21, 1999.

10- James Petras and Henry Veltmeyer, Latin American at the end of the Millennium, in Monthly review Vol 5, no 3 July/ August 1999 p.44.

11- See James Petras and Henry Veltmeyer, Latin America at the end of Millennium, in Monthly Review, Vol. 51 July / August 1999,p.34.

12- د. رمزي زكي: لا للمضاعفة على طريق صندوق النقد الدولي، جريدة الأهالي المصرية 17-11-1994.

13- Human Development Report, 1996 p.20.

14- عن تقرير الاستثمار العالمي 1996، رقم 26 ص ص29-32.

15- الاستثناء بالنسبة للإدارة العليا هو في المندمجات الكبيرة من البلدان الصغيرة مثل هولندا (شل، يونيلفر، فيليبس)، وسويسرا، (نستلة) أو السويد (إلكترولوكس، إي. بي. بي) انظر

Daniel Singer, Whosw Millennium, Monthly Review 1999, p.185

16- هذه العلاقات بالمركز، مثابة تطبيع الشعبية للقبول بالموقع التابع تجاه المركز الإمبريالي وهو بالطبع «مساهمة» لإجهاض اي تحول ثوري او تنموي.

17- وصل العجز الفعلي في الميزانية الأمريكية ببلايين الدولارات إلي 1، 6 بليون عام 1974، و53,2 عام 1975، و1980 و207,8 عام 1983، 150,4 عام 1987. انظر:

The Budget Deficit: The Caues, the Costs, the Outlook. By Leonard Jay Santow, 1998. p3.

18- Prabhat Patnaik, Capitalism in Asia at thr end of Millennium, in Monthly Review, Vol51 no3 July/August 1999, p.p 53 - 71.

19- Richard Freeman, America's Economic Recovert is a Myth in, Executive Intelligence Review, Vol. 26, no. 21, May 21. 1999 p.4 - 18.

20- Patnaik, 1999, ibid.

21- طبقاً لـ ناطق باسم وزارة الداخلية، فإن جماعات الجريمة المنظمة يسيطرون على 550 بنكاً، اي نصف المؤسسات المالية الروسية، واكثر من 40,000 مشروع اعمال. وتتضمن هذه اكثر من 500 من المشاريع الكبيرة المملوكة للدولة، و4000 شركة خاصة و500 شركة مختلطة و700 شركة قطّاعي وجملة، عن:

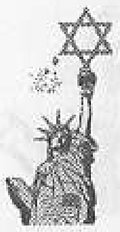

Interfax, Moscow, 26 November 1997

كان القائد المبكر لأصحاب العلاج بالصدمة، ييجور جيدار، وهو من الجيل الأرستقراطي الشيوعي الثالث. كانت المشكلة الأساسية هي كيف تتم عملية خصخصة وسائل الإنتاج، الشركات المتوسطة والكبيرة. فمن بين الأساليب المتنوعة للخصخصة الشاملة، انتقت الحكومة الروسية نموذج الفاوشر (ورقة تمليك). في عام 1992، بموجب ولاته كسوفيتي اخذ كل روسي فاوتشر بقيمة عشرة الاف روبل، اي اجرة بضعة اسابيع عمل في ذلك الوقت. اما قيمتها فلم تتنامى إلى جانب الارتفاع السريع في الأسعار. لقد باع الفقراء الروس الفاوتشر ليعيشوا بينما قامت صناديق الاستثمار المضاربة بشراء هذه الفاوتشر بشكل قانوني لتطبق قبضتها على مشاريع الدولة في المزاد....

تقول دراسة للبلدان المتقدمة صناعياً عن مزاد الفاوتشر:

«إن القيمة السوقية لكل مستخدم في الشركات الصناعية الأمريكية هي 100 الف دولار. اما الشركات الروسية فالقيمة السوقية للعامل هي 100 دولار»

«واحد من الأمثلة هو ان مبلغ 170 مليون دولار دفعت من قبل اونكسيمبنك، الذي يملكه فلاديمير بوتاين، المساعد الاقرب إلى تشوبايس، وذلك عن حصة بنسبة 38٪ من نوريلسك نيكل، التي تنتج 20٪ من النيكل في العالم او الكوبالت و42٪ من بلاتونيوم العالم، والتي درت ربحاً قدره ما يقارب 700 مليون

دولار في السنة التي سبقت الصفقة وحدها. انظر- Business Central Europe, February 1996.

22- د. سعدون حمادي: الخسائر الناجمة عن تدهور اسعار النفط العربي، مجلة الحكمة، السنة الأولى العدد 3 تموز 1998. 14، 15.

23- نفس المصدر ، ص19

24- حول سياسات الأنظمة العربية الموجهة ضد التكامل العربي انظر عادل سمارة، مقالة في تطوير اللاتكافؤ في الوطن العربي: المواجهة مستمرة بين القومية الحاكمة والقومية الكامنة، في المستقبل العربي عدد 197، شهر 7 لسنة 1995 ص 16- 27، وكذلك في مجلة كنعان، العدد 91 لسنة 1998.

25- التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 1984:296.

26- التقرير الاقتصادي العربي الموحد، 1985:399.

27- Sami r Amin , in Arab & Africa, (Conuference) edithed by K. Hasseb. Published by Arab Unity Studies, and Croom helm, London 1985: 438.

28- Samir Amin, ibid, p. 438.

29- منظمة التجارة العالمية اتفاقية الجات وعلاقتها بتجارة النفط، شمخي حويط فرج، في سلسلة المائدة المستديرة رقم 32 الاقتصاد العراقي في ظل الحصار وآفاق المستقبل تشرين الثاني 1998 ص89.

30- د. احمد اريحي العلي، الاعتماد على الذات والتغير في حجم ووظيفة القطاع الاشتراكي والخاص، في سلسلة المائدة المستديرة رقم 32 الاقتصاد العراقي في ظل الحصار وآفاق المستقبل، تشرين الثاني 1998

31- انظر بهذا الصدد كتاب د. شحاتة صيام، ما بعد الليبرالية: بنية العقل الراسمالي في مصر، منشورات رامتان، القاهرة 1996

32- The World Bank Quarterly for the West Bank and Gaza January 2000, p.1.

33- «إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تنادي بالمركزية السياسية ولكن في الظاهر فإن التوجهات هي تركيز المركزية الاقتصادية اي إدارة الاقتصاد العالمي إدارة شديدة انية المركزية وربما مركزية عاتية من الخارج(اي من خارج الأطر الداخلية). وفي الوقت ذاته تنادي وتطالب بلا مركزية شديدة من الداخل فمجريات الأمور الاقتصادية في داخل البلد المعني (ضمن موجة التخصصية والتحررية وصندوق النقد الدولي ومشروطيته) كلها تهدف إلى لا مركزية اقتصادية شديدة من الداخل. إن إدارة الاقتصاد العالمي من الخارج عبر صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وعبر منظمة التجارة العالمية وعبر المنظمة الجديدة التي هي قيد التشكيل حالياً (المنظمة العالمية للاستثمارات والتي قطعت اشواطاً بعيدة الآن في هذا الإطار) تعني أن الاقتصاد العالمي قد اصبح يدار الآن على اربعة اضلع. وبذلك تم إحكام السيطرة على الاقتصاد العالمي وينطبق على هذه السيطرة وصف احد الاقتصاديين التي اسماها «بدكتاتورية اقتصادية شديدة» هذا من

ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المفارقة الكبيرة هي تسويق هذه المفاهيم للبلدان النامية (أي مفاهيم اللامركزية الاقتصادية) والكثير من البلدان النامية أخذت بهذه المفاهيم وهي في حقيقتها تعني رأسمالية بلا رأسماليين وتعني اقتصاد سوق بلا مؤسسة سوق فمؤسسة السوق مستوردة والرأسماليون لا يعبرون عن الرأسمالية الوطنية بل عن رأسمالية أجنبية وهي رأسمالية الشركات ورأسمالية الاحتكار الأجنبي.

هذه هي النقطة الأولى، أما النقطة الثانية فهي أن هذا التطور يحتاج إلى آلية جديدة لتنفيذه على المستوى العالمي فظهر لنا ما يسمى بالعولمة. والعولمة عبارة عن نقطة لإحكام المركزية الاقتصادية على المستوى العالمي ونقل الاقتصادات من الاقتصادات الدولية القائمة على وحدات مستقلة متنافسة إلى اقتصادات مندمجة تؤدي وظائف محددة طبقاً لشروط المنظومة الرأسمالية فالعولمة لها وظيفتان: وظيفة داخلية ووظيفة خارجية. فالوظيفة الخارجية هي إحكام المركزية الاقتصادية من الخارج وتركيز الاحتكارات ورأس المال وحماية الأسواق التي تسيطر عليها الاحتكارات ونقل مقومات السيادة والآن ظهرت لنا نظريات جديدة ضمن العولمة تؤكد على أن البلدان النامية بحاجة إلى حكومة أصغر ولكن بدور أكثر فاعلية. وهذا مجرد التفاف لتقليص دور الدولة وتقليص القطاع العام وبالتالي تقليص حجم التدخل الحكومي في الداخل. فالعولمة إذن لها وظيفة خارجية تستهدف إحكام السيطرة على الاقتصاد العالمي وتمكين المنظومة الرأسمالية من الإدارة الاقتصادية الشديدة المركزية وفي نفس الوقت تتطلب تحررية اقتصادية طليقة في هذا الإطار.

د.حميد الجميلي في مناظرة فكرية: المركزية السياسية ونظام اقتصاد السوق، إعداد د. عماد عبداللطيف، في مجلة الحكمة العدد 9 السنة الثانية أيار 1999، ص ص 38 - 39.

34- Mark Burdamn and Scott Thompson, Harvard's Huntington promotes descent into barbarism Executive Intelligence Review, Vol. 26, no. 36 Sep 10. 1999 p.50

35- د. مفيد حلمي، تحديات العولمة وضرورات التكامل الاقتصادي العربي، مجلة النهج شتاء 1999 ص120 . مقتطف من كتاب «ما العولمة»، وهو حوار بين د. صادق جلال العظم ود. حسن حنفي، منشورات دار الفكر المعاصر، دمشق، 1999، ص ص 200- 201.

36- فهو يطرح على المستوى الداخلي دقد يختلف المشروع القومي من بلد لبلد ولكن الإصلاح الزراعي وإنعاش الاستثمار العام وخاصة في البنية التحتية الريفية ومشاريع التشغيل الواسع أو التمويل بفرض ضرائب على الأغنياء وتقليص فوارق الدخل من أجل توليد طلب محلي على أكبر عدد ممكن من السلع البسيطة التي لا تستورد ولا مركزية الموارد ووضع اتخاذ القرار بأيدي أجسام منتخبة مباشرة على المستوى المحلي وتقوية المؤسسات الديمقراطية وتقوية أكبر ومصداقية للدولة هذه مقومات برنامج بديل. ولابد من رقابة على تدفق رأس

المال على القطاع المالي (ولا سيما الرقابة السياسية على البنك المركزي) وبهذا فإنه يخدم متطلبات التنمية. وعلى التجارة لكي لا ينقص الغذاء المحلي عبر التصدير الزراعي، وكي لا يتم تدمير الصناعة المحلية عبر إغراق دون تمييز بالواردات، كنعان العدد 100 كانون ثاني 2000. هذا باعتقادنا يمكن أن يتم بعد الخطى الأولى للحماية الشعبية إذا وجدت الدولة الوطنية التي ترغمها على هذه البداية.

37- كنعان العدد 100 كانون ثاني 2000

38- انظر عادل سمارة، كتاب لحتجاز التطور، مركز المشرق العامل للدراسات الثقافية والتنموية رام الله 1987 وطبعة دار كنعان، دمشق لاحقاً (بدون تاريخ)، وكتاب الحماية الشعبية، منشورات الأسوار عكا، 1988 ودار كنعان، دمشق لاحقاً بدون تاريخ. وكتاب التنمية بالحماية الشعبية منشورات مركز الزهراء، القدس 1990.

39- د. أحمد أريحي العلي، الاعتماد على الذات والتغير في حجم ووظيفة القطاع الاشتراكي والخاص، في سلسلة المائدة المستديرة رقم 32 الاقتصاد العراقي في ظل الحصار وآفاق المستقبل، تشرين الثاني 1998 ص142.

القرن الأمريكي الجديد

أحمد عز الدين

إبان محاكمته في فضيحة مونيكا لوينسكي سقطت عبارة من فم كلينتون، ليس وقتها آنذاك، وهي «القرن الأمريكي الجديد» خاصة وأنه كان مشغولاً في فضيحته، التي كان يضحك منها الفرنسيون، وفي تلك اللحظة، التي نطق بها تلك العبارة، كانت الصواريخ تدك السودان وأفغانستان والأخيرة صناعة أمريكية خالصة وقد استقبلت هذه الضربات بحفاوة بالغة، من نفس الأعضاء، الذين كانوا يحاكمونه.

هنا معالجة فكرية يحاول فيها الكاتب قراءة الخطط الإستراتيجية الأمريكية، ويبين مدى خطورتها على العالم، خاصة دول الشرق الأوسط التي ستدفع الثمن غاليًا من أجل استمرار وصعود الإمبراطورية الأمريكية في القرن الجديد.

المحرر

1

يبدو أن الذين قرأوا خطاب الرئيس الأمريكي «بيل كلينتـون» ـ قبل عامين بالضبط ـ والذي اعترف فيه بعلاقته بالمتدربة السابقة في البيت الأبيض، وتوقفوا طويلاً أمام مفردات الخطاب، قد سقطت منهم مفردة واحدة، دون أن تسترعي انتباههم، ربما لأنها جاءت في ذيله، وربما لأنها بدت خارج سياقه وروحه، أما هذه المفردة فقد تحدثت بالحرف الواحد عن التوجه نحو «القرن الأمريكي الجديد».

غير أن توقيت الخطاب المذكور، كان سابقًا على توقيت توجيه الضربتين الصاروخيتين إلى السودان وأفغانستان، ولكنه كان تاليًا على وصول الإدارة الأمريكية إلى قرار باستخدام هذا القصف الصاروخي، وكان الفاصل بين استخدام تعبير «القرن الأمريكي الجديد» وبين قذف مائة صاروخ من طراز «بلوك 30» الذي لم يستخدم طرازه المطور في مسرح عمليات فعلي من قبل، هو خمسة أيام بالضبط. أي أن افتتاحية «القرن الأمريكي الجديد» قد أخذت نمط «التدمير الإبداعي» ـ بالتعبير الأمريكي ـ لمصنع في السودان، وبضعة مواقع في أفغانستان، باستخدام القصف من الفضاء. وينبغي أن نلاحظ في هذا السياق أمرين:

الأول: أنه على الجانب النظري الخالص فإن جميع الدراسات التي أجريت لتحديد دور العامل الشخصي في صياغة التوجه الإستراتيجي الأمريكي، قد انتهت إلى أن هذا العامل قائم وموجود بالفعل، ولكنه ضامر وضعيف، وهو قد يتدخل في تحديد التفاصيل أو التوقيت أو الأسلوب، ولكنه لا يستطيع منفردًا أن يقدم على صياغة توجه إستراتيجي جديد، على نحو يخرج به عن القاعدة الإستراتيجية، التي تتم صياغة مفرداتها بشكل معقد، وتسهم فيها كتائب من الأجهزة الأمريكية المختصة.

أي أن الصدى الشخصي للرئيس الأمريكي وأركان إدارته، موجود وقائم، ولكن حدوث تأثيره لا تطول منهجية التوجه الإستراتيجي نفسه، وهذا يعني أن الرئيس الأمريكي، وأيًا كانت الدوافع والأسباب الشخصية، لا يستطيع منفردًا، أن يستخدم خيارًا إستراتيجيًا، لم يتم بناؤه وهضمه وتسكينه في شبكة أولويات الإستراتيجية الأمريكية المركبة بشكل مسبق.

الثاني أنه قد يعزز من التفسير السابق أن الإدارة الأمريكية نفسها، وكل الأجهزة المختصة بالتوجه الإستراتيجي الأمريكي. لا تستطيع أن تقدم على صياغة خيار، إلا وقد سبق هضمه بشكل مجتمعي كامل. والدليل على ذلك أن الكونجرس الأمريكي قد استقبل قرار الرئيس الأمريكي بالقصف الصاروخي بدرجة عالية من الاستحسان، بل إن سيناتور مثل جوين ماكلين رأى ساعتها أن هذا النمط القوي ينبغي أن يعمم في كل شئون السياسة الخارجية الأمريكية وضرب أكثر من مثل على شاكلة «تلكؤ العراق في التفتيش الدولي» أما الاستطلاعات التي قامت بها شبكات الإعلام الأمريكية المختلفة، فقد أكدت أن ثمانين بالمائة من مجموع الأمريكيين قد أعطوا تأييدهم كاملاً للهجوم الصاروخي،

بينما ترقب خمسة وسبعون في المائة منهم هجمات صاروخية إضافية.

2

لقد سبق أن شدد (بول كنيدي) في أطروحته عن صعود وسقوط القوى العظمى، وهو يتحدث عن متوالية القوى الاقتصادية والقوى العسكرية. والدور الإمبراطوري. والاضمحلال، على أنه لا يحاول أن يبرهن على أن الاقتصاد يحدد نصيب كل حدث، وأنه السبب وراء نجاح كل دولة أو فشلها، فهناك دلائل كثيرة ـ حسب تعبيره ـ تشير إلى أشياء أخرى منها، الجغرافيا، والتنظيم العسكري، والروح المعنوية القومية. ولذلك عندما يتحدث عن النجاح الصيني أو الياباني، يدمج. هذا النجاح فيما يطلق عليه «الحس الوطني الرفيع».

غير أن ما يقوله عن أن القوى العظمى تستجيب بالفطرة لزيادة نفقاتها على الأمن في مرحلة التدهور، ينطبق حرفيًا على الولايات المتحدة، فالدولة الكبرى عنده تنفق على الدفاع، وهى في حالة أكثر تأزمًا، وأقل نهوضًا أزيد مما تنفقه في مرحلة فتوتها، وازدهارها، وصعودها الاقتصادي، وربما يفسر هذا ما فعله «غليوم الثاني» بمدافعه، حيث أمر بأن تحفر عليها هذه الحكمة: «الحجة الأخيرة للملوك».

«وبول كنيدي» هو الذي لاحظ ـ مثلا ـ تلك العلاقة السببية، التي يمكن رصدها، بين التحولات التي طرأت بمرور الزمن على الموازين الإنتاجية والاقتصادية العامة، وبين المكانة التي تحتلها قوة منفردة في النظام الدولي. فالتحولات الاقتصادية كانت إرهاصًا لقيام القوة الكبرى الجديدة، التي قد يكون لها يومًا أثر حاسم على النظام العسكري الجغرافي، وهذا هو السبب ـ في تقديره ـ في أن تحرك الموازين الإنتاجية العالمية في اتجاه المحيط الهادي، ينطوي على إرهاصات واضحة بولادة قوى كبرى جديدة ، وبالتالي فإنه ليس تعبيرًا اقتصاديًا فقط.

غير أن بقاء القوى الكبرى في موقعها الإمبراطوري المنفرد، هو في النهاية حسابات تكلفة، وإذا عجزت الفوائد عن الوفاء بالتكاليف، فإن الانهيار سيأتي في الطريق. وما يقوله كنيدي عن صعود وسقوط الدول العظمى ينطبق حرفيًا على الولايات المتحدة، فكيف يمكن أمريكيًا، تقليل حسابات التكلفة، ودفع الفوائد للوفاء بالتكاليف، لبقاء الدور الإمبراطوري الأمريكي، على امتداد «القرن الأمريكي الجديد»؟ لقد استلزم ذلك إعادة بناء كل المفاهيم، من توصيف القوة إلى مبادئ الحرب، إلى العلاقة بين السياسة والحرب.

3

على مستوى هذه الإستراتيجية الأمريكية لاستمرار الدور الإمبراطوري الأمريكي على امتداد «القرن الأمريكي الجديد»، فإنني لا أجد تعبيرًا أكثر إحاطة بها. ودقة في وصفها، من ذلك الذي صاغه مفكر عسكري صيني قبل عدة قرون (صان تشو). وكان نصه يصفها بأنها «إستراتيجية قذف البيض بالأحجار». أوما يعني بالمفردات الجديدة. التحول من «إستراتيجية الردع» بأركانها

الثلاثة المعروفة: (وجود القوة الرادعة ـ الاستعداد لاستخدامها ـ إقناع الخصم بالأمرين السابقين) إلى إستراتيجية جديدة هي «إستراتيجية القسر»، أي الكسر المطلق لإرادة الخصم باستخدام القوة المطلقة.

وفي هذا السياق، قد يكون مفيدًا التوقف عند بعض مضامين هذا التحول:

أولاً: إن توصيف القوة يعود مرة ثانية إلى معناها الاصطلاحي في أوج الظاهرة الاستعمارية، أي القوة العسكرية المطلقة المباشرة، كما أن المسافة بين تعبيري «القوة» و«الحقيقة» تتم إزالتها فالحقيقة هى القوة، والحقيقة المطلقة هى القوة المطلقة، التي تعتبر نفسها مطلقة الإرادة، مطلقة الحق، وأنها

مرجعية نفسها، باعتبارها - وليست الليبرالية كما قال فوكوياما - الكلمة الأخيرة في تاريخ البشرية.

ثانيًا: إن هذه الحقيقة أو القوة المطلقة تؤهل نفسها ودورها لأن تتحول من أوج أزمة اقتصادية دولية خانقة إلى شكل جديد من الاستثمار الاقتصادي، أي تحويل القوة العسكرية إلى منفعة اقتصادية، وبالتالي يتم توظيفها لمعالجة الأزمات، وفرض المصالح، بما في ذلك فتح الأسواق بالقوة، وفرض التخلف التكنولوجي بالقوة، أي أننا أمام بلورة شكل جديد متقدم، من الراسمالية العدوانية على المستوى الدولي.

ثالثًا: إن هذا التحول في مفهوم القوة والحقيقة، قد أنشأ لنفسه بالتالي، منظومة قيم مستقلة جديدة، تفسر تلك النزعة الاستعلائية الفوقية، التي لا تعبأ لا بضيق السلطات ولا بغضب الشعوب، ولا بإضافة مزيد من الإجهاد إلى أنظمة يكاد الإجهاد أن يبلغ بها مداه، كما أنها على المستوى العملي لا تتوقف أمام حجم الهدم، أو مقدار نزيف الدم، ما دامت بنيته المادية أو البشرية تنتسب إلى الجنوب، علمًا بأن الجنوب في مفهوم هذا التحول، ما ليس «شمالا» لا بالمعنى الجغرافي، وإنما بالمعنى الحضاري الغربي.

رابعًا: يترتب على ذلك، ليس فقط تكثيف القوة ومصادر نيرانها على المستوى العملي، وإنما - وهو الأكثر تطورًا، وتميزًا وتأثيرًا - خلط الحدود بين ما هو عسكري، وما هو مدني وبالتالي فإن مواثيق الحروب. التي جاهدت البشرية قرونًا طويلة، لأن تخلق من خلالها نوعًا من «أنسنة الحرب». في طريقها إلى الأفول.

مما يعني العودة إلى حدود ما كانت علية المواجهات العسكرية، قبل ثلاثة قرون ونصف القرن (أي قبل عام ١٦٤٨) عندما كانت المسافة غير قائمة بين الحكومات والشعوب، والعسكري والمدني.

خامسًا: إن تغيرًا أكثر أهمية يلحق بالعلاقة بين السياسة والحرب، فالحرب لن تظل «امتدادًا للسياسة بوسائل أخرى»، وإنما بدلا من أن تصبح القوة العسكرية أداة في يد الدولة - في مفهومها ذاته - تصبح الدولة أداة في يد القوة العسكرية - ويختفي لغير رجعة، تعريف «هيجل» الأثير للدولة بأنها «جوهر أخلاقي يعي ذاته»، أو يتم تغييره على غرار إعادة صياغة مفهوم «القوة»، و«الحقيقة»، فتصبح الدولة «جوهر غير أخلاقي يعرف مصلحته».

ثم إنه بدلاً من أن تصبح القوة العسكرية أداة في يد المجتمع الدولي، يصبح المجتمع الدولي أداة في يد القوة العسكرية المطردة، ويترتب على ذلك. إما إعادة صياغة مواثيق المنظمات الدولية، أو إعادة تفسيرها وفقًا للحالة الجديدة، أو تعطيلها بشكل جزئي أو كامل، حسب الحاجة إلى ذلك.

سادسًا: إن الصياغات المتتالية لقوانين الحرب كانت توسع دائمًا من حدود أمرين، المواد المستخدمة كأسلحة، والبشر الاستثنائيين الذين لا يحق إلحاق الضرر بهم، ولكن الحالة الجديدة تلغي الأمرين معًا. كما ألغت الإمبراطورية البريطانية، في الهند، محرمات استخدام الغازات السامة، في إخضاع القوى الهامشية - لكن الأمر قد اختلف، ويصعب التعامل معه منهجيًا باستخدام نفس أدوات القياس، فتطور تكنولوجيا السلاح، جعل الخروج على القوانين (التي كابدت الإنسانية طويلا لصياغتها، ودفعت ثمنها دمًا وخسائر) ذا تأثير واسع الأذى والتدمير وشديد العداوة لكل ما هو إنساني.

يكفي القول إنه قبل مائة عام فقط، كانت أكثر قدرات المدفعية البحرية تطورًا وقوة نيران، وعمق مسافة، لا تزيد على إطلاق قذيفة «تزن طنًا واحدًا لمسافة لا تزيد على 15 ميلاً».

سابعًا: لقد ظل تطوير مسافات الرمي والقتل، على امتداد التطور الإنساني، يمثل عيبًا على قيم الإنسانية.ولذلك، من «أرسطو» إلى «شكسبير» مرورًا «بسيرفانتس»، تم اعتبار الأسلحة النارية من اختراع الشيطان، وجرى احتقارها حد التحريم.

ولنلاحظ أن «الإلياذة» - التي يقول الغرب إنه ورثها في منظومته الفكرية والقيمية - ظلت تصف «باريس» الذي اختطف «هيلين»، وقتل «أخيل»، بأنه «بغيض»، و«ضعيف» و«امرأة». لأنه كان يستخدم القوس من بعيد ولا يستخدم السيف كالفرسان.

وباختصار فإننا مع الاستخدام المسرف في القوة، وانهيار الحدود بين ما هو عسكري ومدني، أمام ظاهرة لتحويل الحرب - عكس اتجاه التاريخ - إلى عنف مطلق أعمى، وكأنها عودة غير حميدة إلى كلمات «كلاوز فيتنر»: «إن قانون الحرب، يتكون من القيود التي تفرضها المصلحة الذاتية». مع أنه نفسه هو القائل: «إن استخدام أقصى درجات القوة، يلغي تمامًا استخدام العقل».

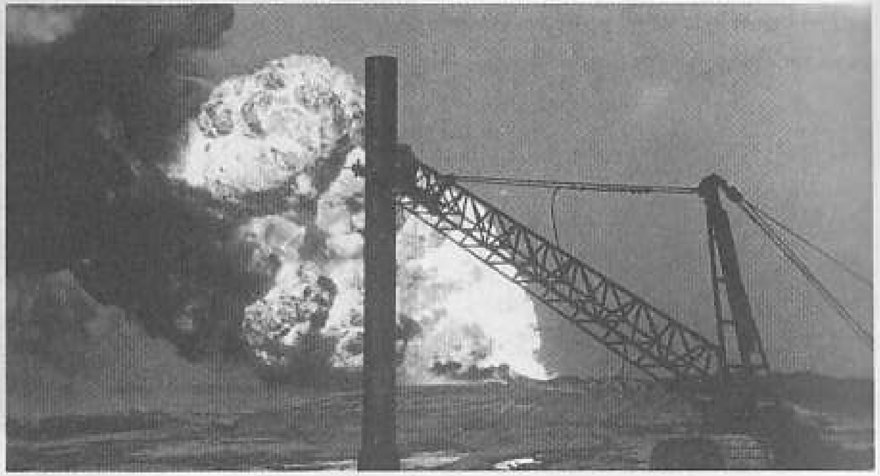

احتراق النفط العربي

أمريكا والسيطرة على البحار

4

ذات يوم قال الجنرال ديجول: «إذا أردت أن تحيط بأبعاد موقف إستراتيجي، فلابد أن تبسط أمامك خرائط الجغرافيا». فكما ينطوي الموقف الإستراتيجي على بعد زمني، ينطوي أيضا على بعد مكاني، ولا يمكن بالتالي الإحاطة به دون هذين البعدين معًا، حيث يبدو في الأغلب الأعم محصلة تفاعل بينهما: قد يساعد على تأكيد وتعميق هذا الفهم ذاته، إعادة قراءة الخرائط، وتفسير دلالات المكان طبيعيًا وإستراتيجيًا:

أولاً: لتأكيد البعد المكاني بشكل عام (وإذا استثنينا حرب البلقان) فإن الأغلب الأعم للعمليات العسكرية التي نفذتها القوات الأمريكية، منذ أن وضعت الحرب الباردة أوزارها. تمت في الدائرة الإستراتيجية للشرق الأوسط بتخومه الآسيوية الأفريقية. وأن جميع الوحدات السياسية التي طالها هذا التدخل العسكري كانت عربية وإسلامية. (هجمة طرابلس – عاصفة الصحراء وتداعياتها المستمرة – التدخل بالقوة في الصومال – قصف السودان – وحتى الهجوم على أفغانستان كان هدفه المعلن ضرب «الأفغان العرب»). وذلك أمر قد يشكل مفارقة مكانية واضحة بحكم أن هناك مواقع أخرى – كانت أولى بالتدخل العسكري باستخدام نفس مقاييس الذرائع والتبريرات.

ثانيًا: إن هذه الدائرة الإستراتيجية الواسعة نفسها، شهدت خلال العقد الأخير، أكثر المعدلات ارتفاعًا على مستوى العالم سواء على صعيد شراء وتكديس الأسلحة، أو على صعيد سعي القوات الأمريكية إلى فتح جسور لها، وتهيئة بنية أساسية لوجود طويل وفاعل، وهي عملية تشبه «حفر الخنادق» الذي يسبق معركة تصادمية.

ثالثًا: إن الماكينة البحثية في الولايات المتحدة، بدت من خلال اهتماماتها وإصداراتها وكأن هذه الدائرة الإستراتيجية بتخومها الآسيوية والإفريقية، تشكل جل اهتمامها، حتى وهي معنية ببناء هيكل إستراتيجية أمريكية جديدة للقرن القادم تتيح لها كما ترغب وتريد، أن تبقى حاكمة ومنفردة على قمة النظام الدولي. وذلك بدءًا من المطروحات «هنتنجتون» عن الصدام القادم والحتمي بين الحضارة الغربية وبين خط التلاحم والتفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الآسيوية، أو الكونفوشيوسية. وانتهاءً بسلسلة تقارير بحثية، قد تجدر الإشارة إلى واحد منها، لاعتبارات التوضيح والأهمية في وقت واحد. ويمكن من بينها اختيار دراسة «تشارلز وليم» تحت عنوان الشرق الأوسط في القرن الحادي والعشرين والتي أصدرها مركز دراسات الشرق الأوسط في واشنطن وتتميز خطوطها بأنها ناطقة بالأبعاد المكانية لهذا الوجود الإستراتيجي الأمريكي الجديد سعيًا نحو «القرن الأمريكي».

تقول هذه الخطوط.

1- إن التحولات الديموجرافية السكانية في الشرق الأوسط في أفقها المنظور، ستبدل تاريخ المنطقة، وستمثل أحد أهم تحولات التاريخ الضخمة. ففي عام 1980 كان المسلمون يشكلون 18٪ من سكان العالم، وبحلول الربع الأول من القرن الحادي والعشرين سيشكلون أكثر من 30٪ فمصر تقفز إلى حدود 120 مليونًا قبل حلول منتصف هذا القرن وسوريا ستصبح قوة سكانية بوصولها إلى 150 مليونًا والسعودية ستتضاعف ثلاث مرات فتقفز من 21 مليونًا إلى 61 مليونًا. أما إيران فإن نموها سيكون انفجاريًا، وسيتجاوز مائة وستين مليونًا يضاعف من تأثير ذلك، تضخم البنية

إسهام عربي في غزو أمريكا على الفضاء

السكانية الشابة في الهيكل السكاني لهذه الدول. التي ستصبح أعمدتها تحت ضغط هائل لأجيال جديدة شابة، تتميز بوعي وطني متصاعد يرفض التدخل الأجنبي، ويقوي روح المقاومة ضد سيطرة الشمال. وذلك ما يمثل - بألفاظ الدراسة - أكبر تحدٍ للوضع الأمريكي في الشرق الأوسط خلال القرن الحادي والعشرين.

2 - إن اتساع الفجوة التكنولوجية بين الشرق الأوسط والشمال سيتزايد باطراد. ولكن قدرة الشمال على استخدام ميزته وتفوقه التكنولوجي من اجل السيطرة، ستنخفض من الناحية العملية. ولذلك فإن الشمال يستطيع أن يوظف هذه الفجوة المتسعة من اجل أن يلحق العقاب بمن يريد لا من اجل أن يتمكن من تحقيق سيادته. كما أنه سيكون قادراً على ممارسة العقاب، لا أن يسود. وسوف يكون مرد ذلك إلى أمرين: زيادة الوعي المتصاعد في الجنوب، والمقاومة المتنامية لخسائر التدخل العسكري في الشمال، والذي سيصبح في المحصلة النهائية، ورغم توفر كل أسباب القوة، مقيداً على نحو أشد.

3 - أمام تزايد المقاومة في الشمال للخسائر البشرية، التي يمكن أن تترتب على إخضاع الجنوب بالقوة، فإن الخيار الوحيد عسكرياً أمام الشمال هو استخدام القصف الجوي من الفضاء وإذا كان ذلك سيمثل قدرة جديدة على العقاب فإنه لن يشكل أداة فعالة من أجل التغيير أو السيادة. «فالشمال يمكنه أن يعاقب الجنوب بالقصف من الجو. ولكن لن يمكنه أن يفرض إرادته، إنه يستطيع أن ينتصر في حرب الخليج ولكنه لا يقدر على تغيير السلطة في العراق، ويستطيع أن يمهد «جروزني» بالأرض، لكنه لا يستطيع أن ينتزع روح الاستقلال من الشيشان، ويستطيع أن يقصف المدن في جنوب لبنان. لكنه يعجز عن إيقاف مقاومة الاحتلال».

4 - في وقت ما من القرن الحادي والعشرين. سوف تحصل دولة شرق أوسطية بجانب إسرائيل على أسلحة تدمير شامل، فتلك مسألة وقت فحسب وعندما يحدث ذلك ستتضاعف المخاطر على نحو فريد. لأن الدول الشرق أوسطية تميل إلى أن تكون أكثر هياجاً وإضطراباً من الداخل، بسبب طبيعتها الخاصة، وبنائها السكاني. وهذا ما يعني أن تكون أكثر عدوانية على المستوى الدولي.

ويمكننا أن نلاحظ أن هذا التفسير الديموجرافي المستحدث لنمو مخاطر الشرق الأوسط، يغفل أساساً طبيعة المصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة فيه، ويلحق الشر بدول الجنوب كمعطى بنائي فالشر كامن وأصيل في هذه البنية الجغرافية السكانية، وهو متصاعد النمو، وبغض النظر عن اتجاه وطبيعة تطورها، ومصالحها، وتوجهاتها الأيديولوجية. أي أن صراع المصالح أو صدام المصالح على وجه أدق لا علاقة له بنمط النمو الاقتصادي، أو التوجه الاجتماعي، فالصدام الحتمي على هذا النحو بين الشمال والجنوب، ليس صداماً سياسياً أو اقتصادياً وإنما صدام حضاري، تتسبب

فيه البنية الشرق أوسطية نفسها، التي تنحو إلى إظهار طبيعة أكثر عدوانية على المستوى الدولي.

5

«القرن الأمريكي الجديد»، إذن ليس مجرد تعبير عابر، صاغه رئيس أمريكي عابر. في ظروف عابرة، ولكنه رؤية إستراتيجية مكتملة. صاغها العقل الإستراتيجي الأمريكي. مستهدفاً أن يبقى دوره الإمبراطوري مسيطراً ومنفرداً على قمة النظام الدولي، و أن يقلل في الوقت نفسه حسابات التكلفة التي تتطلبها إدامة هذا الدور وبقاؤه.

لكن تعظيم المكاسب، وتقليل الخسائر في حسابات التكلفة الإمبراطورية. يتطلب أن يدفع العالم، وفي مقدمته الشرق الأوسط. الثمن من دمه وخصوصيته وسيادته وفي سبيل ذلك ينبغي أن تتغير الأدوار والمفاهيم والقوانين وأن تتم صياغة جديدة، لعدو جديد، كأنه إعادة ناطقة عصرية لرواية «فرانكشتين»..!

قبعات صلبة للفنان الأمريكي روبرت كاوسكوت 1987

أشباح جديدة

أمريكا لذة الاستبداد (ملف)

1 أمريكا تجتاح العقول

هنري لورانس

2 سيدة الرموز

إنياسيو رامونيه

3 اللغة الكونية الجديدة

بيير بورديو ، ولويك فاكان

4 إمبريالية الفضيلة

إيف ديزاليه، وبراين جارث

هيروشيما تتذكر الهوية

محمد عبد الشفيع عيسى

من الصهيونية إلى نهاية التاريخ

أشرف الصباغ

أمريكا.. ومحو برج بابل

عادل الألوسي

من فيتنام إلى يونية 1967

يسري خميس

«إنياسيو رامونيه، وهنري لورانس، وبيير بورديو، ولويك فاكان، وإيف دیزالیه، وبراين جارث، يأخذوننا إلى عوالم أمريكا السحرية، من شارع وول ستريت إلى صناعة النخب، ومن جنرالات المخدرات في أمريكا اللاتينية، إلى تكوين الخبراء والمثقفين في العالم للتبشير بمفردات مثل: العولمة، الليونة، حقوق الإنسان، الفضيلة، الإنترنت، التعددية، الإثنية، وذلك في ظلال أساطيل البحار وسلاح الجو، وغموض الأقمار الاصطناعية التي تجوب الآفاق متنصتة على الكوكب الأرضي، وفي هذا العالم نستطيع أن نرى بعضهم يستلذ بـ: «جاذبية الهيمنة»، كما يقول ماكس فيبر.

المحرر

1

أمريكا تجتاح العقول

هنري لورانس

كيف لا تسحرنا؟ فكي تغوي القلوب والعقول، تملك أمريكا وسائل هائلة وثمينة. فعلى الصعيد السياسي أولاً، تتقدم بالمحيا اللطيف لأقدم ديمقراطية مرحِّبة للجميع، وارثة ثورة ذات بعد عالمي وثقافة غنية. ويمثل رمزها الشهير - الحرية تضيء العالم بالنسبة

إلى ملايين المضطهدين في الأرض - رسالة أمل قوية ووعد بحياة أفضل. وعلاوة على خروجها منتصرة من الحرب الباردة، انتصرت أمريكا أيضاً في حرب الخليج وحرب كوسوفو. وكانت انتصاراتها هذه باسم المبادئ الإنسانية، وفي كل مرة، ضد أنظمة متسلطة وديكتاتوريات عدوانية. وببلوغها ذروة عظمتها العسكرية، باتت أمريكا الآن القوة العظمى الوحيدة التي تسيطر بهدوء على العالم كما لم يسبق لأي دولة أن سيطرت في التاريخ. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن المدة التي لا سابق لها لدورة نموها الحالي توحي وكأن الله حتماً مع أمريكا ألم تخترع الإنترنت؟ ألم تبتدع الاقتصاد الجديد؟

ألا تقود العولمة؟ في كل أصقاع العالم، يتم تبني نموذجها المتجدد ومناهجها في الإدارة ونصوصها القانونية وتقنياتها التجارية وإرشاداتها في الاتصالات وطبعاً أهوائها ونجومها

وأساطيرها . وفي كل المجالات، تبسط الشركات الامريكية – من مايكروسوفت إلى ياهو، من والت ديزني إلى مونسانتو – نجاحاتها الباهرة. وبفضل حملاتها الدعائية البارعة، تقتحم هذه الشركات العالم. ولكن مهما كان راي محبي امريكا الساذجين فليس من المستغرب ان يتساءل مواطنون، هنا وهناك وفي الولايات المتحدة أولاً بأول (كما حصل في سياتل خلال شهر كانون الأول/ ديسمبر 1999 وفي واشنطن خلال نيسان – أيار/ ابريل – مايو 2000)، حول معنى هذا الغزو الجديد، حول المظهر الجديد الذي تلبسه الإمبراطورية الأمريكية، حول قوتها الأيديولوجية وحول استراتيجيات الإقناع التي في حوزتها .

2

سيـــدة الرمـــــوز

إتياسيو رامونيه

افضل أنواع الهيمنة هو الذي يبقى فيه الخاضع للهيمنة غافلاً عما هو فيه. المستعمرون ومضطهدوهم يعلمون ان علاقة الهيمنة لا تقوم على القوة المتفوقة وحسب. فما إن يولي زمن الفتوح يحل أوان التحكم بالأذهان فلذلك فإن الرهان الكبير على المدى الطويل بالنسبة إلى اي إمبراطورية يرمي إلى الاستمرار يكمن في تدجين النفوس.

لا شك في أن الولايات المتحدة التي مارست الإبادة الجماعية (ضد الهنود) والاستعباد (ضد السود الأفارقة) والتوسع (ضد المكسيكيين) والاستعمار (ضد البورتوروبكيين)، باتت تطمح، بعدما أرهقتها هذه الوحشية البالغة، إلى ترسيخ صورتها سلمياً في رؤوس كل من ليسوا أمريكيين، وإلى اجتذاب القلوب.

الغريب ان المقاومة الأضعف التي يلقاها هذا المشروع الإمبريالي هي في أوروبا الغربية. ولهذا أسبابه السياسية أولاً، فالولايات المتحدة أنشأت نتيجة أول ثورة ديمقراطية، هي ثورة العـــام 1776 التي سبقت الثورة الفرنسية بثلاثة عشر عاماً . ثم اسبابه التاريخية، فباستثناء إنجلترا في القرن الثامن عشر واسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر، لم يحدث أن عادت أي دولة أوروبية أمريكا في مواجهة ثنائية. بل بالعكس فإن «دولة الحرية هذه استقبلت بالترحاب ملايين اللاجئين والمنفيين الأوروبيين. كما انها في الحربين العالميتين (1914– 1918 و1939 – 1945) تصرفت على انها صديقة القارة العجوز، وذلك عبر مشاركتها الحاسمة إلى جانب الحريات ضد القوى العسكرتارية أو الفاشية.

ما بين العامين 1989، 1991 حسمت أمريكا الحرب الباردة بالضربة القاضية في مواجهة الاتحاد السوفيتي مما أدى إلى سقوط جدار برلين، وإلى إقامة الديمقراطية، كيفما كان، في أنظمة أوروبا الوسطى والشرقية. وأما على المستوى الجيوسياسي، فإن الولايات المتحدة تتمتع بوضع مؤات لفرض الهيمنة لم تشهده اي دولة من قبل. فمن الناحية العسكرية هي تملك قوات

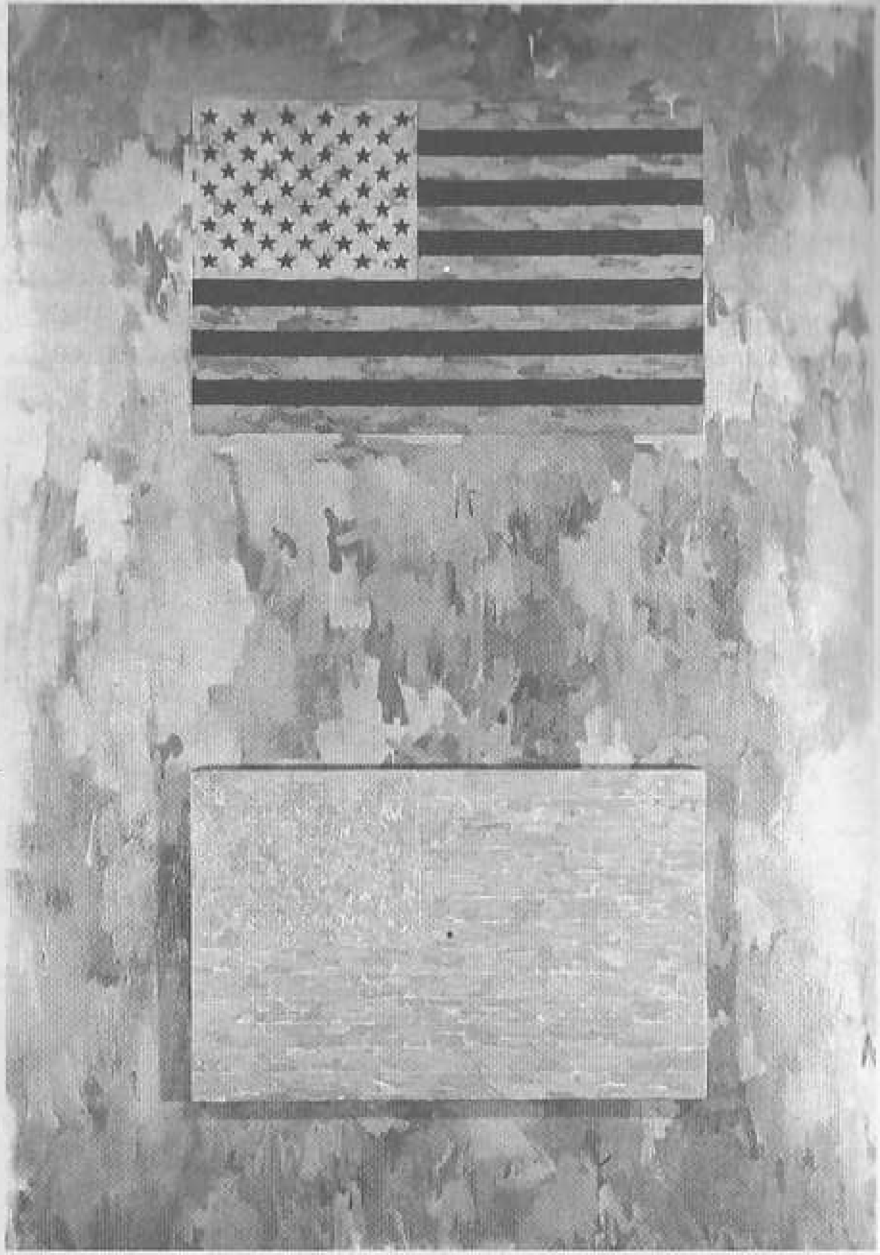

لوحة أعلام للفنان جيسبر جونز 1965

كاسحة، وليست القوة النووية والفضائية الأولى وحسب، بل القوة البحرية الأولى أيضاً. فهي الوحيدة التي تملك اسطولاً حربياً في كل المحيطات وفي البحار الرئيسية على الكرة الأرضية، والوحيدة التي تحظى، في جميع القارات، بقواعد للأعمال العسكرية والإمداد والتنصت.

ينفق البنتاجون على الأبحاث العسكرية فقط حوالي 31 مليار دولار، اي ما يوازي مجمل موازنة وزارة الدفاع الفرنسية، وقد حقق تطوراً عسكرياً فوق غيره بأجيال عدة، وتستطيع قواته المسلحة (1,4 مليون جندي) أن تحدد وتتتبع وتسمع كل شيء في أي وسط، جواً وبراً وبحراً. وفي إمكانها أن ترى كل شيء تقريباً من دون أن تُرى، وأن تدمر بدقة متناهية أي هدف كان، ليلِ نهار، من دون أن تواجه هي أي تهديد.

إضافة إلى ذلك، تملك واشنطن سلسلة مهمة جداً من وكالات الاستخبار تستخدم ما يزيد على100,000 موظف وتتجاوز موازنتها 26 مليار دولار (وكالة الاستخبارات المركزية، وكالة الأمن القومي، مكتب الرصد القومي، وكالة الاستخبارات الدفاعية). وينشط جواسيسها في كل مكان وكل زمان، في أوساط الحلفاء كما في أوساط الأعداء، ولا يسرقون أسراراً دبلوماسية وعسكرية فحسب، بل أسراراً صناعية أو تكنولوجية أو علمية.

أما على جبهة العلاقات الخارجية، فإن القوة الأمريكية المتفوقة تتحكم بالسياسة الدولية، وتبقى عينها ساهرة على الأزمات في جميع القارات، إن لها مصالح في كل مكان وتبقى الوحيدة القادرة على التصرف على مجمل الساحة العالمية، من الشرق الأدنى إلى كوسوفو، من تيمور إلى تايوان، من باكستان إلى القوقاز، من الكونغو إلى أنجولا ومن كوبا إلى كولومبيا.

طبيعة صامتة رقم 33، توم ويسلمن 1963

كما أن لواشنطن دورها الحاسم أيضاً على مستوى السلطات الدولية كما أن أمريكا هي أيضاً القوة الأولى في مجال التواصل الافتراضي. فهي التي تبرع في الإبداعات التكنولوجية والصنائع الرقمية، في عمليات التوسع والتأثير (المادية وغير المادية) من مختلف الأنواع. إنها بلد «الويب» (الشبكة) وطرقات الاتصال السريعة والاقتصاد الجديد وعمالقة المعلوماتية («مايكروسوفت، إي. بي. إم، انتل) وطلائع الإنترنت (ياهو، أمازون، أمريكا أون لاين).

لماذا لا يثير هذا التفوق الكاسح في المجالات العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية والتكنولوجية مزيداً من النقد أو المقاومة؟ ذلك لأن أمريكا تمارس، فضلاً عن كل ذلك، هيمنة في الحقلين الثقافي والأيديولوجي فلديها منذ زمن طويل مثقفون كبار يحظون باحترام الجميع، وعدد هائل من المبدعين في شتى المجالات الفنية يثيرون الإعجاب، وعن جدارة، في كل مكان،

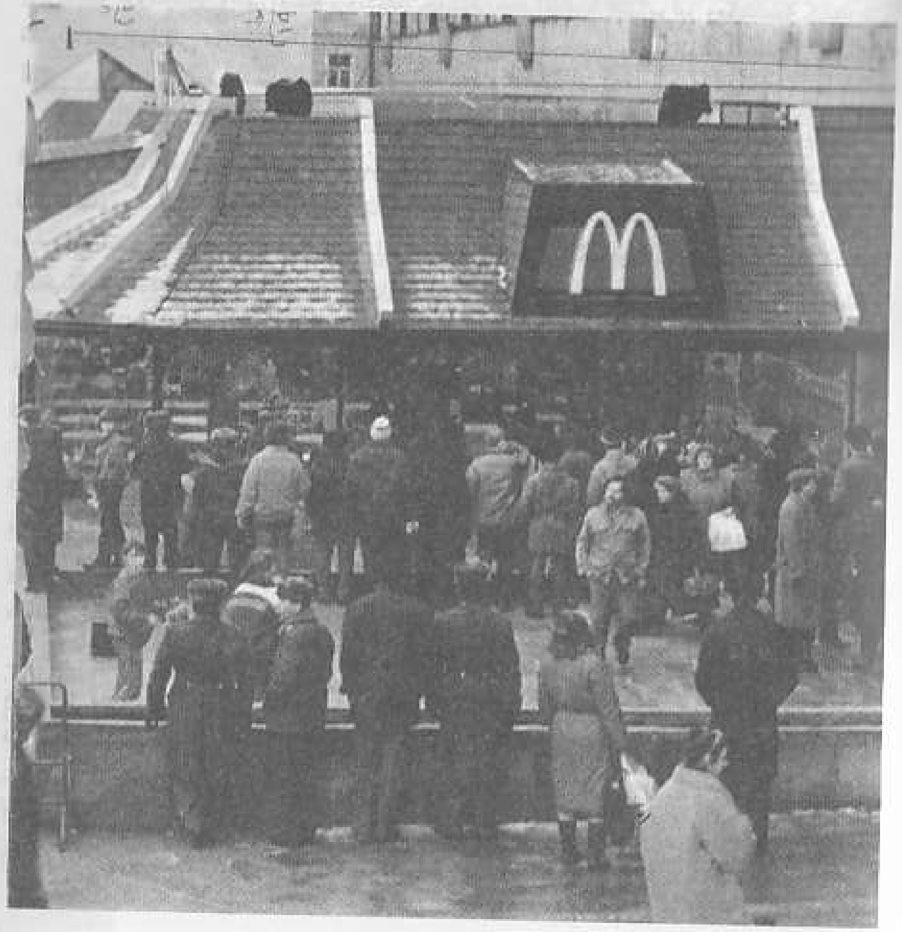

كما أنها تتقن التحكم بالصورة الرمزية، مما يفتح أمامها الطريق إلى ما كان ماكس فيبر يسميه «هيمنة الجاذبية». وفي العديد من المجالات، تمكنت أمريكا من أن تفرض لغتها ومفاهيمها وتفسيراتها دافعة إلى معالجة القضايا التي تثيرها بالمفردات التي تقترحها. وهي التي تضع المعايير لحل المعضلات التي تتسبب بها هي نفسها. وهي من أجل ذلك تمتلك عدداً من مؤسسات الأبحاث «خزانات التفكير» (Think Tanks) يتعاون فيها الآلاف من المحللين والخبراء لتنتج المعلومات في المسائل القانونية والاجتماعية والاقتصادية الملائمة لتوجهات الأطروحات النيوليبرالية، وللعولمة وعالم الأعمال. وتحظى أعمالهم الممولة بقوة بالتغطية الإعلامية وبوسائل الانتشار على المستوى العالمي.

ولا تتردد «المصانع» الرئيسية العاملة في صناعة وسائل الإقناع، مثل مؤسسة مانهاتن ومؤسسة بروكينجز والهريتايج فاونديشن، ومؤسسة أمريكا إنتر برايز ومؤسسة كاتو، في تكثيف دعواتها إلى مؤتمراتها ومداولاتها وجهها إلى الصحافيين والأساتذة والموظفين والزعماء الذين يتجولون في ما بعد صدى للكلام الجميل.

هكذا تنشئ الولايات المتحدة، مستعينة بقدرتها في المجال المعلوماتي والتقني، وبالتواطؤ الغافل من جانب المهيمَنْ عليهم، ما يمكن تسميته القمع الخفي أو الاستبداد المستلذ. ويقوم ذلك خصوصاً على خلفية التحكم بالإنتاج الثقافي والسيطرة على مخيلتنا.

وفي منتهى البراعة، تغرق أمريكا أحلامنا بحشد من الأبطال المسوّقين إعلامياً، ليكونوا أحصنة طروادة يزرعها السيد في أعماق عقولنا. فهي التي لا تشتري مثلاً سوى واحد في المئة من الأفلام الأجنبية تغرق العالم بالأفلام الهووليودية وبالأفلام المتلفزة والصور المتحركة وأشرطة الفيديو وأفلام الكرتون...إلخ. هذا من دون ذكر نماذج الألبسة، والهندسة المدنية والمأكولات.

أما الهيكل، أو المكان المقدس حيث تمارس عبادة هذه الأيقونات المستحدثة، فهو «المول»، أي المركز التجاري، تلك الكاتدرائية المشيدة لمجد جميع أنواع الاستهلاكات. ففي أماكن الحمية الشرائية هذه تتفاعل الحساسية نفسها عبر العالم كله، ناتجة من انصاف الآلهة والنجوم والأغاني والأصنام والماركات والأغراض والإعلانات والأعياد يكفي النظر إلى توسع ظاهرة عيد «هالووين» في فرنسا.

كل ذلك تصحبه بلاغة ساحرة حول حرية الاختيار وقرار المستهلك المستقل، ويتم التركيز عليه عبر دعاية استحواذية دائمة تتناول الرموز كما البضائع (يفوق الإنفاق على الدعاية سنوياً في الولايات المتحدة الـ200 مليار دولار!) وقد بلغت عملية التسويق درجة من التفنن باتت تطمح معها، لا إلى بيع الماركة، بل الهوية، ولا الميزة الاجتماعية بل الشخصية وذلك بحسب المبدأ القائل: قل لي ماذا تملك أقل لك من أنت! قد بات إذن من الضروري تذكر صرخة الإنذار التي أطلقها الدوس المشتركة التي تحدد خياراتها مسيرة العالم، من منظمة الأمم المتحدة إلى

مجموعة الدول الصناعية السبع وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، وحلف شمال الأطلسي، إلخ.

لكن، بما أن أي إمبراطورية، كي تبسط نفوذها في السياق المعاصر، لا يمكنها الاكتفاء فقط بزوارقها العسكرية والدبلوماسية، فقد أمنت أمريكا لنفسها أيضاً الهيمنة العلمية. فهي تجتذب سنوياً، مثل الشفاطة عشرات الألوف من الأدمغة (طلاباً، بحاثة، ومجازين) من سائر أنحاء العالم يفدون إلى جامعاتها أو مختبراتها أو شركاتها، وهذا ما سمح لها بأن تستأثر، في السنوات العشر الأخيرة، بـ19 جائزة نوبل في الفيزياء (من 20) و17 في الطب (من 24) و13 في الكيمياء (من 22).

أما في مجال السيطرة على الشبكات الاقتصادية فإن الولايات المتحدة تتميز أيضاً بتفوق لا مراء فيه. إذ بلغ مجمل إنتاجها الداخلي في العام 1999 (8683.4 مليار دولار) أكثر من ستة أضعاف إنتاج فرنسا (1346.6 مليار دولار) ويبقى الدولار العملة السامية بلا منازع إذ يعتبر العملة الأساسية في 83 في المئة من المعاملات النقدية.

وتشكل بورصة نيويورك بارومتر العالم المالي، وغصاتها تهز العالم، كما فعل مؤشر «ناسداك» في نيسان/ أبريل 2000. وأخيراً فإن اعتمادات صناديق التقاعد الأمريكية، المسيطرة بحجمها الهائل على الأسواق المالية أرعب جميع المتعاملين في الدوائر الاقتصادية العالمية.

هاكسلي منذ العام 1931 إن قال: «في عصر التكنولوجيا المتطورة، قد يكون الاحتمال الأكبر أن يتأتى الخطر على الأفكار والثقافة والفكر من عدو باسم الوجه وليس من خصم يوحي الرعب والكراهية».

وذلك لأن الإمبراطورية الأمريكية، بعد أن صارت سيدة الرموز، باتت تقدم نفسها إلينا بمظهر الساحر الدائم الفتنة فهذا المنوم المغناطيسي المستجد يتسلل إلى فكرنا ليلقحه بآراء ليست آراءنا، عبر ما يقدمه إلينا من لهو متواصل، وتسلية متلاحقة ومتعة للعيون. فهو لم يعد يسعى إلى إخضاعنا بالقوة بل بالترنيم، وليس بإصدار الأوامر بل برضانا الشخصي، وليس بالتهديد بالعقاب بل بالمراهنة على تعطشنا إلى الملذات.

3

اللغة الكونية الجديدة

بيير بورديو ولويك فاكان

في جميع البلدان المتقدمة بدأ أرباب العمل وكبار الموظفين الدوليين كما بدأ مثقفون من أصحاب الحضور الإعلامي والصحافيون الألمعيون يتكلمون بلغة جديدة غريبة صارت مفرداتها الخارجة على ما يبدو من اللامكان فوق جميع الشفاه: «العولمة» و«الليونة»، «الحاكمية» و«القابلية للتوظيف»، و«الطبقة الدنيا» و«التعددية الثقافية» وأبناء عمها لمرحلة «ما بعد الحداثة»، الإثنية، الأقلية، الهوية، التشظي.

وقد جاء انتشار هذه اللغة الكونية الجديدة – التي تغيب عنها في شكل واضح الرأسمالية والطبقات والاستغلال والسيطرة والتفاوت باعتبارها مفاهيم أعيد النظر فيها بشكل قاطع بحجة بطلانها أو وقاحتها المفترضة – نتيجة إمبريالية رمزية قبل كل شيء وما يزيد مفاعيلها قوة وضرراً أن من يشيعها ليس فقط دعاة الثورة النيوليبرالية الذين يريدون تحت غطاء التحديث «إعادة صنع العالم من النضالات الاجتماعية والتي باتت توصف كأنها تقاليد قديمة أو معوقات في وجه النظام الجديد الوليد بل أيضاً منتجون ثقافيون (باحثين وكتاباً وفنانين) ومناضلون يساريون ما زالت غالبيتهم تعتبر نفسها تقدمية.

على غرار سيطرة الجندر أو الإثنية فإن الإمبريالية الثقافية عنف رمزي يستند إلى علاقة اتصال إرغامية من أجل فرض الخضوع والتي تقوم ميزته هنا على أنه يعمم الخصوصيات المرتبطة بتجربة تاريخية محددة يخفي خصوصيتها ويدفع إلى الإقرار بكونيتها (*).

هكذا، وكما كان في القرن التاسع عشر يثار في أوروبا كلها عدد من المسائل المسماة فلسفية مثل مفهوم شبينجلر عن الانحطاط والمتحررة من خصوصيات ونزاعات تاريخية متعلقة بالعالم الخاص بالجامعيين الألمان، كذلك هناك اليوم عدد من الموضوعات التابعة مباشرة من

مجابهات حرية عائدة إلى خصوصيات المجتمع والجامعات الأمريكية فرضت نفسها على مجمل الكرة الأرضية في مظهر لا تاريخي.

هذه الأفكار الشائعة في المعنى الأرسطي للمفاهيم أو الموضوعات التي جرى المناقشة بواسطتها من دون مناقشتها تكتسب قدرتها على الإقناع في الأساس من النفوذ الذي يتمتع به المكان الصادرة عنه وكونها تنتقل في دورة مستمرة بين برلين وبيونس إيرس أو لندن ولشبونة فتكون حاضرة لكل مكان دفعة واحدة تساعدها بقوة في ذلك وفي كل مكان المراتب الحيادية المفترضة للفكر الحيادي ألا وهي المؤسسات الدولية الكبرى – البنك الدولي، اللجنة الأوروبية، منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية.

«مصانع الأفكار» المحافظة (معهد مانهاتن في نيويورك، معهد آدم سميث في لندن، مؤسسة سان سيمون في باريس، مؤسسة البنك الألماني في فرانكفورت)، مؤسسات أعمال الخير، مدارس السلطة (معهد العلوم السياسية في فرنسا، مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية في إنجلترا، مدرسة كنيدي للحكم في هارفارد في أمريكا...الخ)، وسائل الإعلام الكبرى التي لا تنفك تنشر هذه اللغة العالمية الصالحة لجميع الحالات والجاهزة لمنح كتّاب الافتتاحيات المستعجلين واختصاصيي الاستيراد والتصدير الثقافي أسهم الانتماء إلى أقصى الحداثة.

إضافة إلى المفعول الآلي لهذه الحركة الدولية للأفكار والتي تخفي بمنطقها الخاص الشروط والمعاني الأصلية، فإن لعبة التحديدات المسبقة والاستنتاجات السفسطائية تستبدل بظاهر الضرورة المنطقية الطارئ من الضرورات السوسيولوجية المنكرة وتنزع إلى محو الجذور التاريخية مجموعة من الأسئلة والمفاهيم – «فاعلية» السوق (الحرة)، الحاجة للاعتراف بـ«الهويات» (الثقافية) أو أيضاً إعادة تأكيد «المسئولية فبينما يتشدق الفلاسفة الفقهاء بـ

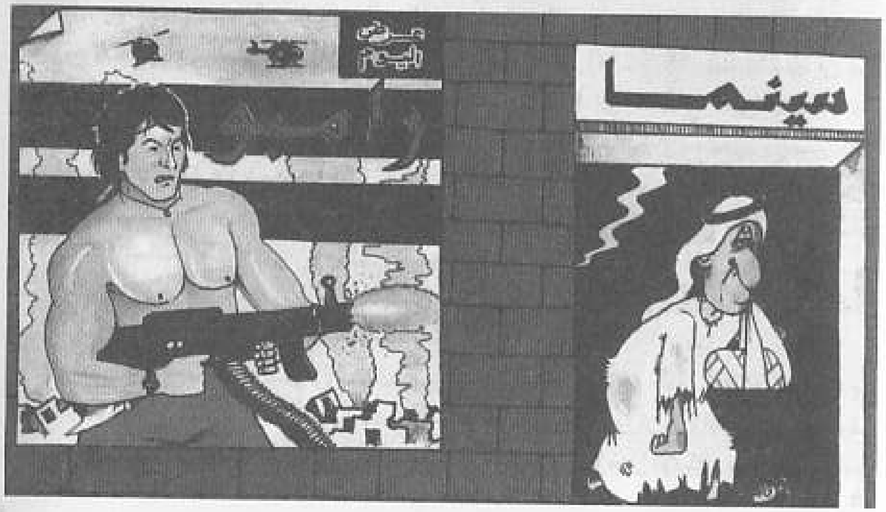

«الاعتراف الثقافي» يرفض عشرات ألوف الأولاد من الطبقات والإثنيات المخضعة في المدارس الابتدائية بسبب عدم توفر أمكنة (كانوا 25 ألفًا في مدينة لوس أنجلوس وحدها هذه السنة).

هناك شاب واحد من أصل عشرة شباب قادمين من أسر يقل مدخولها عن 15 ألف دولار سنويًا يصل إلى الجامعة مقابل 94 في المئة من أولاد العائلات التي يتجاوز دخلها مئة ألف دولار يمكن تقديم البرهان نفسه حول مفهوم العولمة الإمبريالية الأمريكية لباس المسكونية الثقافية أو القدرية الاقتصادية وإظهار ميزان القوى ما بين الدول كأنه ضرورة طبيعية في تام التحول الرمزي القائم على تطبيع نماذج الفكر النيوليبرالي المفروض منذ 20 عامًا بفضل مكاتب الدراسات المحافظة وحلفائها في السياسة والصحافة فإن إعادة تنميط العلاقات الاجتماعية والممارسات الثقافية تمشيًا مع النموذج الأمريكي الشمالي المفروض على المجتمعات المتقدمة من خلال إفقار الدولة وتحويل الأملاك العامة إلى سلع وضرب بنية الوظيفة يصير مقبولاً بكل رضوخ كأنه النهاية الحتمية للتطورات الوطنية حتى إنه يحتفل به بحماسة مقلدة لكن التحليل الأولي لتطوير الاقتصاديات المتقدمة على المدى الطويل يوحي أن «العولمة» ليست مرحلة جديدة من مراحل الراسمالية بل نوعًا من ذريعة تتحجج بها الدولة لتبرير خضوعها الطوعي للأسواق المالية بدل أن تكون كما يتردد باستمرار نتيجة حتمية لنمو المبادلات الخارجية فإن تراجع الصناعة وازدياد التفاوت وانحسار السياسات الاجتماعية متأتية من قرارات سياسية داخلية تعكس انقلاب الميزان الطبقي لصالح أصحاب الراسمال.

إن الولايات المتحدة إذ تفرض على باقي العالم نماذج إدراك متماثلة مع بنيتها الاجتماعية فهي تكون في صدد إعادة تكوين العالم على صورتها إن الاستعمار الفكري عبر نشر هذه المفاهيم الصحيحة – الباطلة لا يمكن أن تقود إلا إلى نوع «إجماع واشنطن» معمم وحتى عفوي كما يمكن ملاحظة ذلك اليوم على صعد الاقتصاد وأعمال الخير أو تدريس إدارة الأعمال. وبالفعل إن هذا الخطاب المزدوج الذي يتأسس على الإيمان ويقلد العلم فيلصق فوق التهويم الاجتماعي للمسيطر مظهر المنطق وخصوصًا في الاقتصاد والسياسة، إن هذا الخطاب يمتاز بقدرة تحقيق الوقائع التي يصفها بحسب مبدأ النبوءة التي تحقق نفسها: فإن حضور هذا الخطاب في عقل أصحاب القرار السياسي والاقتصادي وجمهورهم يصير أداة بناء للسياسات العامة والخاصة ووسيلة في الوقت نفسه لتقويم هذه السياسات على غرار سائر ميثولوجيات عصر العلم فإن اللغة الكونية الجديدة ترتكز على سلسلة من التناقضات والمعادلات تتساند وتتجاوب بغية وصف التحولات المعاصرة في المجتمعات المتقدمة: تخفيف الدور الاقتصادي للدولة وتعزيز أدوارها البوليسية والجزائية، تحرير الدفق المالي ونزع أطر سوق العمل، خفض الحماية الاجتماعية والتمجيد الأخلاقي للمسئولية الفردية.

إن إمبريالية العقل النيوليبرالي تكتمل على الصعيد الفكري في وجهين نموذجين جديدين من وجوه المنتج الثقافي. **أولاً** الخبير الذي يحضر في كواليس الوزارات والشركات أو غرف مؤسسات الدراسات السرية وثائق ذات طابع تقني عالٍ محررة قدر الإمكان بلغة اقتصادية

ورياضية. **ثانيًا** مستشار الأمير لشئون الاتصال المنتقل من العالم الجامعي إلى خدمة أصحاب الهيمنة ومهمته إعطاء الشكل الأكاديمي للمشاريع السياسية الخاصة بنبلاء الدولة والأعمال الجدد، ونموذجه الكوني بلا ريب عالم الاجتماع البريطاني أنطوني جيدنز الأستاذ في كامبردج الذي رأس أخيرًا معهد لندن للاقتصاد وهو أب لنظرية «البناء» (Structuration) الفردية) وتمجيدها – إذ تلصق بها الصفة الفلسفية أو السوسيولوجية أو الاقتصادية أو السياسية وذلك حسب مكان استقبالها وزمانه.

تعد عولمتها في المعنى الجغرافي البحت ونزع الطابع الخاص عنها ووصل هذه الأفكار السائدة التي يحولها التكرار الإعلامي أفكارًا شائعة كونيًا إلى حد تنسينا فيه أنها لا تعبر في الغالب (بشكل مبتور ومشوه بما في ذلك بالنسبة إلى الذين يبثونها) إلا عن واقع معقد ومتنازع عليه في مجتمع تاريخي محدد يجري تحويله ضمنًا إلى نموذج ومقياس لكل شيء هو

أمريكا متعة الاستبداد

المجتمع الأمريكي في مرحلة ما بعد فورد وكينز. تتميز هذه السلطة العليا الوحيدة، قبلة الأرض الرمزية، بتفكيك متعمد للدولة الاجتماعية وما ينتج عنها من تضخم للدولة الجزائية وسحق للحركة النقابية وديكتاتورية مفهوم الشركات القائم على «قيمة الأسهم» وحدها والنتائج السوسيولوجية المترتبة عليه من تعميم للتوظيف المؤقت وانعدام الضمان الاجتماعي باعتبارها المحرك المميز للنشاط الاقتصادي.

هذا ما يحدث مثلاً في المناقشة الغامضة والرخوة عن «التعدد الثقافي»، وهي عبارة استوردتها أوروبا، ويقصد بها التعددية الثقافية ضمن الدائرة المدنية بينما تدل هذه العبارة في الولايات المتحدة وفي حركة الإخفاء نفسها إلى التهميش المستمر للسود وأزمة الميثولوجيا الأمريكية الخاصة – «الحلم الأمريكي» وبـ «الفرصة للجميع» المتلازمة مع إفلاس نظام التعليم الرسمي في وقت تتكثف فيه المنافسة على الراسمال الثقافي ويتصاعد التفاوت الطبقي في شكل يصيب بالدوار.

إن صفة «المتعدد ثقافياً» تحجب هذه الأزمة بحصرها اصطناعياً داخل العالم الجامعي الضيق وبالتعبير عنها بواسطة «مفردات إثنية» مبالغ فيها إنما التحدي الحقيقي ليس الاعتراف بالثقافات التي همشتها المعايير الأكاديمية بل الوصول إلى أدوات إنتاج الطبقات الوسطى والعليا وإعادة إنتاجها، كالجامعة، في إطار من سياق سعي الدولة الدؤوب إلى التخلي عن دورها.

إن «التعدد الثقافي» الأمريكي ليس مفهوماً ولا نظرية ولا حركة اجتماعية أو سياسية ولو أنه يدعي ذلك كله دفعة واحدة إنه خطاب حاجب يستند إلى ظاهرة انزلاق معرفي هائلة على المستويين الوطني والدولي تخدع المعنيين بهما كما غير المعنيين. ثم إن «التعدد الثقافي» خطاب أمريكي ولو أنه يعتقد نفسه عالمياً ويدعي ذلك لأنه يعبر عن التناقضات الخاصة بوضع الجامعيين المقطوعين عن أي اتصال بالدائرة العامة والخاضعين إلى تفاوت كبير في وسطهم المهني فلا يبقى أمامهم لتوظيف غريزتهم السياسية سوى تحويل الخلافات الأكاديمية ملاحم مفهومية.

هذا يعني أن التعدد الثقافي يحمل معه حينما يتم تصديره رذائل الفكر القومي الأمريكي الثلاث: أ – «**الجماعاتية**» التي تفضي إلى تشييء الانقسامات الاجتماعية التي تقدسها بيروقراطية الدولة، بصفتها مبادئ المعرفة والمطالبة السياسية.

ب– **الشعبوية** التي تستبدل تحليل البنى وآليات السيطرة بتمجيد ثقافة المخضعين و«وجهة نظرهم» برفعها إلى أوصاف شبه النظرية بالفعل.

ج– **الأخلاقوية** التي تعوق تطبيق المادية العقلانية السليمة في تحليل العالم الاقتصادي والاجتماعي وترغم على خوض مناقشة لا نهاية لها ولا مفاعيل حقيقية حول ضرورة «الاعتراف بالهويات» بينما في واقع الأيام البائس لا تقع المشكلة قط على هذا المستوى.

وهي محصلة سفسطائية لتقاليد سوسيولوجية وفلسفية مختلفة.

يمكن رؤية أبلغ تجسيداً لحيلة العقل الإمبريالية في أن بريطانيا الواقعة لأسباب تاريخية ولغوية وثقافية في موقع وسيط وحيادي (في المعنى الحرفي) بين الولايات المتحدة وأوروبا القارية هي التي قدمت إلى العالم حصان طروادة برأسين واحد سياسي وآخر فكري في الشخصية الثنائية لتوني بلير وأنطوني جيدنز الذي أعلن نفسه منظراً لـ «الطريق الثالث». إن هذا الطريق يعتمد بحسب أقوال جيدنز «موقفاً إيجابياً من العولمة». «يحاول (كذا) الاستجابة لأشكال التفاوت الجديدة» لكنه يحذر سلفاً من أن فقراء اليوم لا يشبهون فقراء الماضي كما أن الأغنياء ليسوا اليوم كما كانوا عليه في السابق»؛ «ويقبل فكرة أن أنظمة الضمان الاجتماعي الموجودة وبنية الدولة الإجمالية هي مصدر للمشكلات وليس فقط حلاً لها»؛ «ويشدد على أن السياسات الاقتصادية والاجتماعية مترابطة»، مما يمكنه التأكيد، أنه يجب تقويم النفقات الاجتماعية بالنظر إلى نتائجها على الاقتصاد في شكل عام»، وأخيراً «يهتم بآليات التهميش» التي يجدها في أسفل المجتمع وأيضاً في أعلاه (كذا)» مقتنعاً أن «إعادة تحديد التفاوت بالنسبة للتهميش على هذين المستويين يتناسب مع مفهوم دينامي للتفاوت» يمكّن أسياد الاقتصاد أن يناموا مرتاحين، لقد وجدوا فيلسوفهم المضحك.

لنوضح بداية ان الولايات المتحدة لا تحتكر ادعاء الكونية فالعديد من البلدان كفرنسا و بريطانيا والمانيا واسبانيا واليابان وروسيا مارست او لا زالت تحاول ممارسة اشكال من الإمبريالية الثقافية مماثلة تماماً ضمن دائرة نفوذها لكن مع الفارق انها المرة الأولى في التاريخ التي يفرض فيها بلد واحد وجهة نظرة على العالم اجمع.

4

إمبريـاليـة الفضـيلة

إيف ديزاليه وبراين جارث

نجاح الإمبريالية الرمزية الأمريكية يعود في جزء منه إلى كونها صرحت نفسها نقيضاً للنموذج الاستعماري الأوروبي. وما يمكن استخلاصه عبر سيرورتها التاريخية هو أنها نموذج سياسي غامض حيث لا تنحصر المنافسة في مجال السوق والمصلحة، إنما في مجال الأخلاق المدنية ايضاً، حيث يأتي توجه إنساني نازع إلى الهيمنة ليكمل هيمنة وول ستريت ويدعمها.

تستند إمبريالية الفضيلة هذه في شكل اساسي إلى عمل هذه المؤسسات الأمريكية بالتحديد المتمثلة في المبرات الإنسانية الكبيرة التي انشأها الجيل الأول من فرسان الراسمالية روكفلر وكارنجي وفورد.. والتي يقلدها اليوم خلفاؤهم ميلكن او سوروس أو جايتس. وبعدما شكل محامو وول ستريت ادوات في أيدي «بارونات النهب»، عادوا يساعدونهم في توظيف كم من ثروتهم في مؤسسات خيرية باتت تعتبر ركائز الإستراتيجيات الإصلاحية للراسمال المتنور.

وقد كان لهذا الارتداد إلى الفضيلة المدنية فائدة مزدوجة إذ اسهم تبييض الأموال الرمزي هذا، الاستعراضي بقدر ما هو مشبوه في تعزيز نجاح التجاريين الذين نادراً ما اربكتهم مسألة شرعية الأعمال. في الوقت نفسه فإن هذا الاستثمار الأخلاقي يسمح لمرتزقة القانون هؤلاء بوضع شرعية مهنية يسيء استخدامها زبائن عديمو الذمة. ومن الممكن أن يبرز هؤلاء العاملون في مجالات الراسمال المتوحش كرجال دولة، يعيدون إنتاج الأسطورة المهنية المقترنة بمفهوم «المحامي الكريم»، كما وصفها توكفيل، لتكون في خدمتهم.

وقد سمحت التعبئة ضد هتلر ثم استراتيجيات الحرب الباردة لهذه الدوائر الكوسموبوليتانية من اصحاب المصارف ورجال الأعمال القانونيين باحتلال مراكز قوة في مجال سلطة الدولة لتتحول وول ستريت الطريق إلى واشنطن والعكس بالعكس. وقد استطاعت دوائر السياسة الخارجية، عبر فرض إقامة تحالف دولي كبير من النخب المحترفة لمكافحة الشيوعية، أن تضمن لنفسها في الوقت نفسه موقعاً مهماً في الحيز الوطني حيث كانت

تستمر بقوة بعض المحاولات الانعزالية، بيد أن مشروع الهيمنة هذا يدين أيضًا في نجاحه لخصومه بعدما جرَّهم إلى المعركة على ساحته فإن رواد مدرسة شيكاغو وهم – في الغالب – جمهوريون قد تحولوا على سانتياجو حيث تطوع أتباعهم لخدمة بينوشيه بعدما عجزوا عن انتزاع الاعتراف بهم في مؤسسات النخبة على الساحل الشرقي حيث السيطرة للديمقراطيين. في المقابل فإن الشريحة «التقدمية» مما تبقى من النخبة المؤسساتية بعد الهزيمة في فيتنام، اضطرت إلى تحريك بعض المؤسسات التي نشأت أثناء الحرب الباردة والتي احتفظت بسيطرتها عليها مثل مؤسسة فورد أو حركة حقوق الإنسان، وذلك لمواجهة صقور وزارة الخارجية الذين كانوا يدعمون هذه الديكتاتوريات تحت ستار مكافحة الشيوعية. فإذا بهؤلاء الخصوم، بنقلهم نضالهم المحلي إلى المسرح الدولي، يتحولون إثر ذلك أفضل عملاء لإمبريالية ايديولوجية يزيد من فاعليتها كونها قدَّمت نفسها على أنها رافضة للمقولات السائدة.

هكذا يمكن فهم مفارقات هذه الهيمنة التي تتقنع بالعلم أو بالأخلاق في حصار الصراعات الداخلية على مستوى السلطة الأمريكية وفي ما تلاقيه من انعكاسات في الدول الخاضعة لها. وعلى ذلك، توفر أمريكا اللاتينية شاهدين متناقضين ومتكاملين في آن واحد إذ إنها استُخدمت كمختبر للسياسات النيوليبرالية، وأيضًا لترويج مفهوم حقوق الإنسان، ليندمج عندها هذان المشروعان عالميا النزعة من أجل توطيد ما يسمى إجماع واشنطن، فيضيفان على الأرثوذكسية الاقتصادية الواجهة الشرعية والأخلاقية الضرورية لإكسابها طابع المؤسسة.

وبعد عشر سنين ساعدت إستراتيجيات الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر الداعية إلى الدفاع عن «حقوق الإنسان» ووضعه بذلك الولايات المتحدة في «مصاف الملائكة» في إحياء هذا الموضوع في إطار جيل جديد من المنظمات غير الحكومية وفي إطار إستراتيجيات دعائية وسياسية أكبر.

وإذ ظل الكلام هو نفسه، فإن المشهد السياسي قد تغير كليًا. إذ إنّ هيمنة النخب المؤسساتية لم تستطع الاستمرار بعد هزيمة فيتنام، فانضم البعض الآخر باللجوء إلى المصادر التي احتفظت بسيطرتها عليها.

وهكذا صارت مؤسسة فورد، بإدارة ماك جورج باندي، أحد مستشاري الرئيس كنيدي، بنكًا مستقلاً لكوكبة من المنظمات غير الحكومية التي كانت تجهد لتجسيد المثل الإنسانية التي زخرت بها الجامعات. وفي المعنى الواسع للكلمة فإن حركة حقوق الإنسان التي مولتها خلال عقد من الزمن مؤسسة فورد بشكل أساسي، وخصوصًا في أمريكا اللاتينية، قد اعتمدت هذا التكتيك من الهجوم المضاد لأنه يسمح بتعبئة كل الشرعانية الأخلاقية للأيديولوجيا الأمريكية. وقد شكلت تشيلي مختبرًا وواجهة لهذه الصراعات الأمريكية الداخلية. ففيما كانت صحيفة «وول ستريت جورنال» تمتدح الثورة النيوليبرالية، كانت «نيويورك تايمز» تعمد إلى فضح

ارتكابات الجلادين، في حين تحركت مؤسسة فورد لحماية المثقفين الملاحقين من العسكريين الذين جهزتهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بدعم ضمني من وزارة الخارجية.. ومع ذلك فإن هذه المنافسة على التصدير لم تكن منطوية على تناقض بقدر ما كانت متكاملة. فقد سرَّع تأثيرها في إعادة تنظيم تركيبة السلطة في البلدان المستتبعة وفق نموذج خاص ملائم للقوة المهيمنة. ولم يعد أمام المناضلين أو المثقفين خيار آخر، كي يحتموا من العسكريين، سوى القبول بالحماية التي تؤمنها لهم مؤسسة فورد على شكل منح للأبحاث أو للرقامة في المعاهد الأمريكية الشمالية. وقد سهَّل من عملية التحول الهادئ هذه تقارب الأوضاع الاجتماعية والصداقات الكثيرة التي عقدت.

هذا التقارب جعل من السهل القيام بـ«انقلاب» أيديولوجي فرضته ظاهريًا الضرورة. وقد اختلفت اللغة المعتمدة في مجال حقوق الفرد عن تلك التي يعتمدها المثقفون والمناضلون التشيليانيون. فبإغراء من المنظمات غير الحكومية ومن وسائل الإعلام الأمريكية الشمالية تمت عملية نقل لغة العنف السياسي إلى منطق الشرعية والعالمية. وكان إلغاء الطابع السياسي هو الثمن الذي تطلبه فرض هذه الشبكة من القراءة الأنجلو – سكسونية.

ذاك أن الحملة الدولية باسم حقوق الإنسان أفادت في نوع خاص قلة ضئيلة من مثقفي السياسة.

وتحاول حركة حقوق الإنسان، متسلحة بنجاحاتها، أن تتخذ الشكل المؤسساتي في الأوساط الأمريكية الشمالية حيث كبريات المنظمات غير الحكومية تعمل بالتكافل أكثر فأكثر مع أوساط السلطة. وتتدافع نخب المحامين كي تقدم خدماتها إلى هذه المؤسسات التي تسمح لمرتزقة المال أن يثبتوا ويبرزوا رأسمالهم من الأخلاقية المدنية وهي من المقومات الضرورية لاكتساب وضع «المستثمر الأخلاقي» وتحاول هذه المنظمات غير الحكومية الكبيرة أن تعمل كشركات للفضيلة المدنية المتعددة الجنسية المدعومة ماليًا من المبرات، والمجندة خريجي مدارس النخب، وترفدها شبكة متكاملة من القدامى الذين استمروا في ممارسة مهنهم في مؤسسات الدولة.

غير أن هذه الحركات في أمريكا اللاتينية تواجه الإفلاس، إذ لم تنجح عملية التلقيح في الوسط المهني حيث الوصول عبر منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان لا يعطي المردود الاجتماعي نفسه كما في الولايات

قد استند سعي «فتيان شيكاغو» إلى السلطة، والذي تجلى ابتداءً من السبعينيات (تشيلي، بريطانيا، الولايات المتحدة) إلى إستراتيجيات الدخلاء والتي اعتمدت بالتوازي في الولايات المتحدة والبلدان الدائرة في فلكها. فقد عرف رواد شيكاغو كيف يستفيدون من معوقاتهم، فاستثمروا في مجال الرياضيات لأنها اللغة المشتركة الوحيدة لهذه النخبة من المهاجرين التي تعيش على هامش الثقافة العلمية. فأرسوا عقيدة المنافسة، وهم كانوا يمارسونها بطريقة عدائية كي يفرضوا أنفسهم في المجال العلمي. كما كان كل شعورهم هذا

بالاستبعاد قاعدة لتحالفهم مع انتهازيي المال (سيتي بنك) أو السياسة (الجمهوريون باري جولدواتر، ريتشارد نيكسون، رونالد ريجان).

ابتداءً من الستينيات وضع سيناريو مشابه في أمريكا اللاتينية، بدعم من مؤسسة فورد، فجند مرسلو شيكاغو طلائع اتباعهم في مدارس من الصف الثاني يستخف بها ورثة رجال القانون المتخصصون المهيمنون في مجال سلطة الدولة. ومن أجل الوصول إلى السلطة وضع هؤلاء الطارئون أنفسهم في خدمة رجال المال المتكالبين والعسكريين، الذين ظلوا حتى ذلك الوقت على هامش الساحة السياسية.

وقد غذت هذا التماثل بقوة الانعكاسات الدولية التي أعطت مردودها، حيث إن الطريق فتحت أمام السيد رونالد ريجان عبر حملة تسويق إعلامية قدمت النجاحات الاقتصادية الأولى المنسوبة إلى «فتيان بينوشيه» كبرهان على صوابية نظريات شيكاغو. وجاءت ازمة الدين في الثمانينيات لتقوي مواقعهم إذ إنهم كانوا في وضع مثالي ليلعبوا دور الوسيط بين المولين المدنيين. فتمكن إجماع واشنطن الجديد أن يفرض شموليته استناداً إلى شبكة قدامى شيكاغو في الشمال كما في الجنوب.

إن هذه الأرثوذكسية الجديدة ليست عقائدية بقدر ما يظن منتقدوها، إذ صاحبت انتصارها براجماتية تلازم عادة خطاب ذوي السيطرة. فمتطلبات توطيد السلطة هي غير متطلبات السعي إليها. هكذا وبعد إن طعنوا في شعبية مواقع حكام الدول بات منظرو السوق يهتمون أكثر بالمؤسسات وقواعد «الحكم النظيف» التي يفترض بها أن تحيط بالنشاط التجاري أو أن تحرك عملية النمو. ذلك أن هؤلاء البحاثة المهمشين، الذين انقلبوا إلى مستشاري «الأمير» لم يكن يطيب لهم أن ينتقدوا المؤسسات التي فتحت لهم أبوابها واسعةً مثل الجامعات الأمريكية الكبرى ومكاتب محامي وول ستريت والحكومات والبنك الدولي إلى آخر ذلك، فإن معظم هؤلاء يمارسون مستشارين لأعمال مزدهرة ومربحة بفضل الشبكة الدولية المؤلفة من قدامى طلابهم الذين احتلوا مواقع مسئولة في المجالات المالية او السياسية. وليس تصرف هؤلاء الأتباع مجرد رد الجميل. فهم بذلك يغذون رأسمالاً اجتماعياً يفترض على الدوام إعادة تنشيطه نتيجة المزايدات العلمية التي تغذيها نجاحات الاقتصاديين في مجال السلطة. هكذا، أفرغت شهادة الدكتوراه PHD من قيمتها، وباتت الصدقية تعني اكتساب وضع استاذ محاضر في جامعات مثل هارفارد او مؤسسة ماساتشوستس للتكنولوجيا. إن اعتراف «النادي» يسمح للنخبة الجديدة في البلاد التابعة دخول السوق الدولية لأهلية الحكم تحت الهيمنة الأمريكية حيث يمكن مراكمة أرباح المستشار المالية وسلطة المسئول السياسي.

ورفع قيمة الاقتصاد كمذهب قد عدّل الشريحة الاجتماعية التي يتشكل منها جمهوره. وهؤلاء القادة الكوسموبولتانيون والمشبعون بثقافة الجامعات الأمريكية الليبرالية والحقوقية، والبعيدون عن العسكر إن لم يكونوا عدائيين لهم، هم الأنسب أيضاً لتجسيد مذهب اقتصادي يحترم حقوق الإنسان. وبين أيديهم الكثير من الأوراق التي تسمح لهم، عبر عملية تحديث، بالحفاظ على المكتسبات الجوهرية للثورة النيوليبرالية المضادة التي أطلقها «فتيان بينوشيه»،

وخصوصاً أنهم يعبرون أيضاً عن توافق مع أوساط المحامين والمثل التي اكسبت هؤلاء شرعيتهم.

إن التاريخ الأمريكي لحقوق الإنسان يتداخل مع الصراعات التي شهدتها رحلة الحرب الباردة، كما انه يكشف اللعبة المزدوجة لوجهاء وول ستريت الذين مولوا عبر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إنشاء مجمع من محكمة دولية من كبار وجهاء القانون وذلك من اجل فضح «انتهاكات» الأنظمة الشيوعية. وقد جاء كشف هذه التواطؤات على الملأ، في خضم حرب فيتنام، ليتسبب بسقوط هذه «المحكمة» و«تعثر» منظمة العفو الدولية.

وقد رجع عدد من الرواد إلى السياسة والتحقوا بالحكومات الموصوفة بالانتقالية، غير ابهين بإعادة النظر في التسوية التي أدت إلى العفو عن الجلادين. وعلى كل، فإن التواطؤ الاجتماعي والأيديولوجي على حد سواء، بين الأوساط القضائية ووجهاء نقابات المحامين مع الأنظمة العسكرية يحد من إمكان هذا النوع من الملاحقة، إذ إن التراتبية والهيئات القانونية تبقى مغلقة في وجه حقوق الإنسان، وفي نوع خاص في وجه حقوق المثقفين، وأكثر الفقراء الذين يبقون ضحايا الوحشية البوليسية العادية.

وبما أن موازنات مؤسسة فورد قد حُوِّلت على أولويات أخرى، يتطلب الاستمرار في ممارسات نضالية لا صدى لها ولا إنجازات مهنية فضيلة كبيرة. أما من ندر من المتشبثين بموقفهم فقد التحقوا بجمعيات أو مؤسسات دولية حيث يلاقون نجاحاً مهنياً باهراً، لكن كلفة ذلك هي الهجرة التي تبدو مثل نتيجة طبيعية لهروب الأدمغة في مجال الفضيلة المدنية.

إن تمركز المستثمرين المدنيين في مدار مؤسسات واشنطن، حتى وإن كان يسلك طرقاً مختلفة تماماً، قد جاء يقوي دولرة المعرفة الاقتصادية.

فالمؤسسات المهيمنة في المجتمع الأمريكي، التي هي المكان المميز لإعادة إنتاج التراتبية الدولية من اختصاصيي علوم الدولة (مثل القانون والاقتصاد) تميل أكثر إلى فرض أشكال المعارضة لهذه الهيمنة. وهكذا تصل إلى هذه المفارقة في الحملات ضد العولمة التي تسهم في تصدير استراتيجيات التحرك وتدويلها (في معنى أوسع، تنظيم الوسط السياسي كلياً) التي أنتجها تاريخ القوة المهيمنة، مقوية في الوقت نفسه مزاعمها حول العالمية. فهل سيكون «المجتمع المدني» وليد تحول آخر لإجماع واشنطن؟

هيروشيما تتذكر الهوية

محمد عبدالشفيع

نستطيع أن نتذكر رقصة الساموراي، والمعابد البوذية، كما نتذكر نجازاكي وهيروشيما، وبيرل هاربر، والإمبراطور الذي تنازل عن الألوهة بعد هزيمة اليابان في الحرب الأوروبية الثانية، كما قد يتذكر بعضنا أديب اليابان الكبير مشيما، إلا أننا ننسى أن اليابان كما الهند والصين ترتبط معنا بأواصر حضارية، ليس فقط لأنها شرقية، بل لأنها بلد قديم لا يزال يحافظ على تراثه رغم العولمة، وتقدمه الاقتصادي الجبار وتقنيته الصناعية، ولا يزال العمق الحضاري ممتداً مع الثقافة الجديدة دون تماهٍ كامل في الغرب الإمبريالي، ترى ماذا يرى الكاتب هنا من صورتنا في اليابان التي تستطيع أن تقول لا؟

المحرر

قضيت النصف الثاني من عام 1999، في مهمة علمية باليابان، موفداً من القاهرة إلى كلية الاقتصاد بجامعة طوكيو لدراسة سياسة العلم والتكنولوجيا في ذلك البلد. وكم كانت فرصة ثمينة حاولت اغتنامها لفهم بعض أسرار التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والثقافة في ذلك الركن القصي شرق الكوكب..

وقد طالعتني أوجه عدة لليابان، وجه من الشرق وآخر من الغرب، وجه من الشمال وآخر من الجنوب.. وجه عابس وآخر باسم، ورأيت في مزيجها الاجتماعي – الحضاري الفريد موقفاً ملتبساً من (الغريب): فإذا المجتمع الياباني بالنسبة إليّ لغز محيّر يجمع بين عذاب العزلة والاستنكاف، وبين عذوبة البلسم والترياق.

رأيت في اليابان ما يقربها منا وما يبعدها. هي قريبة منا بالجغرافيا وما يتبعها من تقاسم ومشاركة في المؤثرات الحضارية، ولكنها بعيدة عنا نسبياً بالتاريخ. إنها بالجغرافيا «شرق»، ونحن كذلك. ولكنها تمثل أقصى الشرق.. ولقد استثنى طه حسين الشرق البعيد من علاقة القربى بين مصر والشرق عموماً، بل قل إنه لم يخطر بباله تضمين بلاد ذلك الشرق البعيد في المجال الذي يحتمل أن تتأثر به مصر أو تؤثر فيه.

ونلاحظ هنا أن طه حسين قد قال في (مستقبل الثقافة في مصر):

«العقل المصري القديم ليس عقلاً شرقياً إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار.... فأما المصريون فيرون أنهم شرقيون وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي اليسير وحده، بل معناه العقلي الثقافي. فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والياباني منهم إلى اليوناني والإيطالي والفرنسي...... إن العقل المصري القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ولا بالشرق البعيد قليلاً ولا كثيراً، وإنما نشأ مصرياً ثم أثر فيما حوله وتأثر به..... إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين».

هذا ما قاله طه حسين عن علاقة القربى الحضارية والثقافية بين مصر والشرق البعيد والأقصى... وتجدر الإشارة إلى أن طه حسين قد استثنى الشرق الأدنى من ذلك الحكم القاطع قائلاً: «وأنا أفهم في وضوح، بل في بداهة، أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى، لا لاتحاد اللغة والدين فحسب، بل للتقارب الجغرافي، وتقارب النشأة والتطور التاريخي»..

ولكن على أي حال فإن طه حسين يرى أن مصر الأقرب إلى أن تكون جزءاً من منطقة أو حوض البحر الأبيض المتوسط، شاملة الشرق الأدنى (فلسطين والشام والعراق) واليونان، وخاصة اليونان...!

«وكان من أشد الشعوب تأثراً بالعقل المصري أولاً وتأثيراً فيه بعد ذلك العقل اليوناني... فإذا لم يكن بدٌّ من أن نلتمس أسرة للعقل المصري نقره فيها، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم....»

هذا ما قاله طه حسين عام 1938 (1)..

ولكن بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً، وفي

الأجواء الفكرية التي حركتها ثورة 23 يوليو، يجيء الكتاب الأول لجمال حمدان عن شخصية مصر (عام 1967) ليقول إن هذه الشخصية رباعية الأبعاد: آسيوية وافريقية، ونيلية ومتوسطية. غير ان البعد الآسيوي هو الأكثر اهمية – ويقول: «رغم أن مصر في افريقيا موقعًا، فقد كانت أبدًا في آسيا وقعًا. ففي علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة آسيوية اكثر منها او بقدر ما هي – افريقية. والانحدار التاريخي والجاذبية الجغرافية في مصر هي أساسًا نحو الشمال الشرقي.»[2].

وقد حفل (أنور عبدالملك) بحديث جمال حمدان عن البعد الآسيوي في الشخصية المصرية وحاول ان يطوعه تطويعًا لفهمه الخاص لهذه الشخصية.. فمعروف ان انور عبدالملك يربط مصر في المقام الأول بـ (الشرق) دون تحديده وأنه كان أقرب إلى ربطها بالدائرة الثقافية – الحضارية للشرق البعيد، الكونفوشيوس، ولاسيما الصيني، وامتداده اي الشرق الصيني – الياباني. وبهذا المعنى تحدث عن (ريح الشرق).. وفي إحدى مقالاته الأخيرة عرض لفكرة جمال حمدان عن شخصية مصر كما عرض في ذلك الكتاب المبكر (عام 1967) والذي يعتبر باكورة موسوعة المعرفة، مع اختلاف في (النغمة) بين الباكورة والموسوعة نفسها... بالميل إلى مزيد من التركيز على شخصية مصر الفريدة – من وجهة نظره.

المهم أن أنور عبدالملك ذكر في فاتحة مقالته تلك «هكذا يكمل جمال حمدان مشوار صبحي وحيدة – فإذا كان التهديد يأتي من «الموجة الغربية» يكون الغد الأمل في رحاب الشرق الحضاري»[3].

بيد أن جمال حمدان ليس آسيويًا على طريقة الشرق الأقصى لأنور عبدالملك ولكنه آسيوي بالمعنى الذي فهمه طه حسين من ذلك، أي الشرق الأدنى، وإن شئت فقل الشرق العربي بالتحديد..! وبعبارة أخرى فإن جمال حمدان كان – في منتصف الستينيات – اقرب إلى عالم آسيا العربي الإسلامي منه إلى عالم «الشرق» البعيد، وخاصة عالم الدائرة الثقافية – الحضارية الصينية.

ولنعد إلى الموضوع الأصلي لمقالنا هذا: إلى أي حد تذهب علاقة القربى بين مصر واليابان؟ أو ما هي دائرة الانتماء المشترك إن وجدت..؟

هل هي آسيا؟ هل هي الشرق؟ هل هي (اللاغرب..)؟

أم أنه لا توجد دائرة انتماء مشترك أصلاً بين مصرو اليابان، وذلك على رأي طه حسين الذي يعطي الأولوية للبعد المتوسط في الشخصية المصرية مغلبًا الشطر الأوروبي من حوض البحر المتوسط، سواء إلى الشرق (اليونان) أو إلى الشمال (أوروبا: انطلاقًا من روما وباريس..)، أو على رأي شيخ أنتي ديوب الذي يعطي الأولوية للبعد الأفريقي – الزنوجي في الثقافة المصرية خاصة القديمة منها..؟ أو على رأي الذين يرون مصر إسلامية وكفى، أي جزءًا من العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، أو الذين يرونها عربية بالذات؟

فلنستضئ هنا برأي عالم تاريخ من اليابان هو البروفيسور (إيتاجاكي) والذي قابلناه في طوكيو غير مرة، إذ من رأيه أن مصر تنتمي أولاً للشرق الأوسط، الذي هو

هيروشيما..
بعد التفجير النووي.. هل يتكرر المشهد؟

المركز الحضاري، الثقافي – الروحي، للعالم الموحِد، أي المؤمن بعقيدة التوحيد.. وأن الشرق الأوسط بهذا المعنى هو ينبوع الحضارة الغربية المعاصرة، قلبًا وقالبًا: قلبًا بثقافة الروح، وقالبًا بمدنيِّة المآكل والمشرب وعادات الحياة اليومية.

ويرى (إيتاجاكي) أن أيديولوجية التوحيد قمينة بالمساهمة في خلق ثقافة وحضارة عالمية واحدة في المستقبل، عالمية حقيقية، بأن تعيد صياغة المفاهيم الأوروبية السائدة على أساس خلقي – عقائدي، وأن تقيم الحوار مع الثقافات غير التوحيدية، أي ثقافات التعدد: في الشرق البعيد، وخاصة اليابان والصين.

وهناك أستاذ آخر، عضو هيئة البحث في (معهد الثقافات الشرقية) بجامعة طوكيو، وهو أحد أعضاء الجماعة الفاعلة من دارسي العالم الإسلامي والعربي بزعامة إيتاجاكي – إنه الأستاذ (أكيرا جوتو).. فقد قال لي، وقابلته مرات أيضًا، إن هناك حضارتين متقابلتين في العالم: حضارة (وثقافة) الأرز والسمك (في الشرق البعيد وخاصة اليابان والصين وما حولهما) – وحضارة الخبز والحليب، واللحم معهما (في الشرق الأوسط وأوروبا وأمريكا..).

فكأنه يرى أن مصر واليابان لا تلتقيان..! أو أن الشرق شرق والغرب غرب – كما قال كبلنج..! فمصر من وجهة نظره تنتمي إلى ثقافة الخبز والحليب، عكس اليابان..

وقد لمست مثل هذا الرأي أيضًا لدى آخرين من المثقفين اليابانيين الدارسين لمصر والبلاد العربية والإسلامية، مثل (إيجي

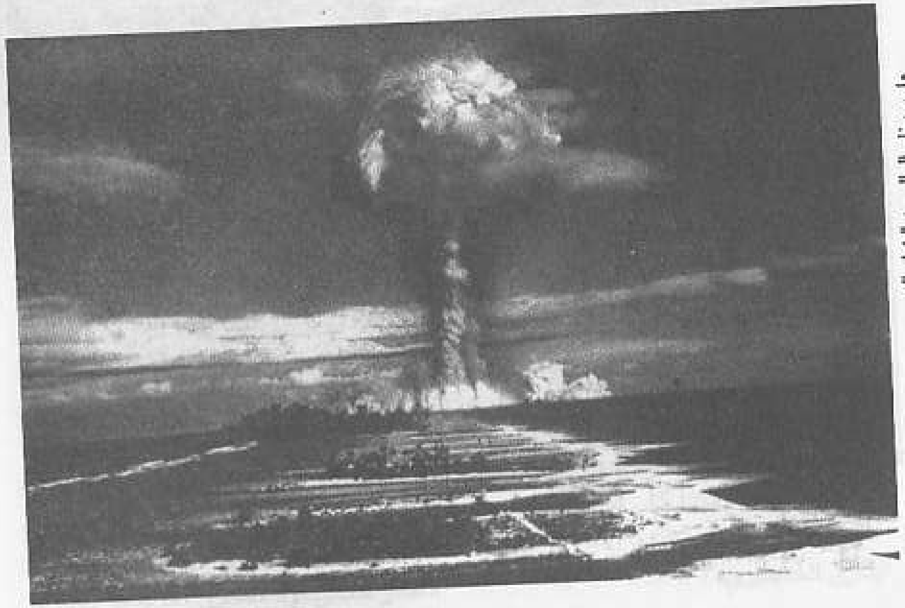

هل سيتحرر العالم من الخطر النووي

ناجاساوا) المتخصص في المجتمع المصري الحديث..!

ومع أخذ مثل هذه الآراء في الاعتبار، فإنني رأيت بين مصر واليابان وشائج قربى، لابد أنها تقوم على جغرافيا الشرق.. كما سأوضح بعد قليل..

بيد أن التاريخ لا يعيد نفسه. فاليابان الشرقية تتغير، بل قل إن مصر هي أيضًا تتغير. فكلاهما يذهب إلى الغرب ويضيع نفسه..!

ولنتوقف اليوم عند اليابان.. أليست اليابان بلدًا بوذي الديانة، صيني اللغة ومنبت الأدب..؟ ألم تصل إليه البوذية من الهند عبر الصين، ومن الصين استعار حروف اللغة، كما استعار الثقافة القديمة؟

ولكن مصر والعرب والمسلمين ليسوا بعيدين عن الهند والصين، في التاريخ الثقافي – الحضاري لما بعد ظهور الإسلام..؟

فلماذا لا نفترض أن مصر واليابان تلتقيان بصورة غير مباشرة عند قواسم مشتركة خلقتها (شركة حضارية – تاريخية) امتدت على جسور الأنهار الوسيطة: السند والجانج، وسيمون وجيحون..، وكذا على الامتداد البري لآسيا الوسطى وشبه القارة الهندية؟

ولكن علاقة التفاعل عبر «شرق» الصين والهند، تتعرض في عصرنا لعواصف شديدة...

فقد ارتبط مصير اليابان في نصف القرن الأخير بأمريكا، بعد معارك النهاية للحرب العالمية الثانية: بيرل هاربور، هيروشيما ونجازاكي... وقبلها ولمدة قرنين تقريبًا، لم تكن اليابان بحاجة إلى أن تطل على البعد.. فقد كانت أوروبا منها قريبة، جد قريبة، تقبض على ناصية شبه القارة الهندية، وتحارب الصين قبالتها وتحتل أجزاءً منها..، وتغزو قطعًا تلو قطع من جنوب شرق آسيا كله.. تلك كانت أوروبا – بريطانيا وفرنسا.. وقد نجت اليابان من شرهما، لأسباب ليس هنا محل ذكرها، فتطلعت إلى خير ما فيها، إلى العلوم والصناعة.. ولكن اليابان، مليكة الشرق القصي، وقد أخذت تحذو حذو أوروبا منذ (الميجي) في الثلث الأخير من القرن التاسع

عشر، قد مضت – وهي إقطاعية – عسكرية لا تزال، تخطو نحو حداثة أوروبا، لتطيح تدريجيًا باقتصادها القديم كله، وتجرف معه شرائح ثقيلة من مجتمعها القديم وثقافتها التقليدية.

ولكن هذه اليابان قد التقت بأوروبا، ثم أمريكا، أي بالغرب، فهي دولة شرقية متقدمة.. هل رأيتم إلى هذه الجملة؟ دولة شرقية متقدمة.. إنها الاستثناء التاريخي على قاعدة تركز التقدم بالمعنى الحديث في الغرب..

ولكن هذا التقدم – بالمعنى الحديث: نكرر – تقدم يرتبط بالمنظومة القيمية للرأسمالية، كنظام اجتماعي وثقافة، أو كحضارة إن شئت، لتقول: حضارة غربية رأسمالية..

ولنا في تفصيل هذا القول مقام قادم... هي حضارة (الفردانية) التي تطيح بنواة المجتمع النووية: (العائلة) وتطيح بالتضامن الجماعي على قاعدة روحية – ثقافية (التراحم)، وتطيح بالتواصل الحميمي بين (الأشخاص) لتحل محله (الاتصال) بين أفراد..

وأساس هذا كله في الاقتصاد الاجتماعي والسياسي هو تسييد دورة (رأس المال) فوق الجميع، دورة النقود والسلع والنقود.. مرة أخرى، ومعها تسييد «القوة»، قوة الرأسمال ودولته أو دوله الأقوى بين الجميع..!

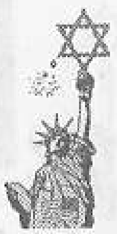

اليابان دولة شرقية متقدمة إذن، بالمفهوم الحضاري للغرب الرأسمالي.. أنت في طوكيو، وأنت في نيويورك أو باريس أو لندن أو بون وبرلين.. لا فرق، في مستوى التقدم (الاقتصادي) العام، وفي المظهر الاجتماعي العام، ومستوى معيشة ونوعية حياة البشر... وإذا أردت أن ترى أمريكا مثلاً فلم تستطع، فعليك بزيارة طوكيو.. لا عليك.. فهذه أمريكا في طوكيو: شوارعها، عمائرها العالية، مخازنها التجارية، حركتها الدائبة اللاهثة، وفتياتها وفتيانها..! ولكن هل قطعت اليابان مع ثقافتها القديمة حقًا، وهل انقطع المجتمع عن ماضيه؟

ليس ذاك..!

وعلى المستوى المادي البحت، وما يعكسه بالضرورة من منظور اجتماعي، إن مدينة طوكيو تربطها أكبر شبكة معقدة متقدمة للنقل الحديدي داخل المدن في العالم الحديث كله، فيما أعلم.. [فوق الأرض وتحت الأرض].. أفلا يعكس هذا روح العمل بمنطق الجماعة؟

أليس «المترو» أو القطار هو المقابل للسيارة في عرف التحليل الاجتماعي؟ في القطار جماعة، وفي السيارة الخاصة فرد أو بضعة أفراد..

وعلى المستوى الاجتماعي، رغم التعري لفتيات الجيل الجديد وانطلاق الحركة، ما يزال لديهن، ولديهم أيضًا..! – قدر عظيم من الحياء والخجل، بتأثير من المجتمع المحيط، وما تزال (العائلة) تزوج أبناءها، والأبناء قائمون مقيمون مع ذويهم إن كان هذا ممكنًا بحكم ظروف العمل والدراسة، والعمل والتعليم فوق العاطفة..!.. والزوجة الشابة تود لو رجعت إلى البيت تربي ابنها أو ابنيها، ولو لسنوات قد تطول..! وأنت في طوكيو لست غريبًا كغريب نيويورك وباريس..

فهذا الياباني معك، مهتم حادب عليك.. هذا شأنه دائمًا.. حيث اهتمام الأنا بالآخر، اهتمام «شرقي» قوي، له عيوبه نعم، ولكنه يمثل الروح الكامنة في جماعية الشرق، بعكس (اللامبالاة) التي نشرها النظام الاقتصادي – الاجتماعي الرأسمالي، لا مبالاة الفرد إزاء الفرد.. ويسمونها «التسامح».. ونحن أيضًا متسامحون، بل وأكثر منهم كثيرًا، فلم نتعصب يومًا، أما هم فكانوا متعصبين: (انظر إلى الميراث المر الممارسة الكنسية والحروب الدينية الأوروبية في العصور الوسطى داخليًا وخارجيًا).. ولا يزالون متعصبين..!

اليابان إذن كما قلت: دولة شرقية متقدمة، تقدمت على غرار الغرب، حققت ما نسميه في دراسات التنمية بعملية «اللحاق» Catch Up.. لحقت بالغرب وانتهى الأمر..! اتمت عملية «التحديث» Modernisation كما يدرسها الدارسون في علوم الاجتماع والسياسة.. التحديث، بمعنى الانتقال إلى عصر وعالم حداثة الغرب الرأسمالي... وقد خلعت كثيرًا من ثيابها.. لابد.. لتصير متقدمة (غربيًا).. بيد أنها شرقية – غربية؟

وهذه (الشرقية – الغربية) تعلمنا، أو يجب أن نتعلم منها.. فماذا نتعلم؟

فلنركز على دروس التعليم الاقتصادي.. فهذا ما نحتاجه من خبرة اليابان.. درسها الأهم هو العمل.. فقد علمت اليابان أن (قاعدة الموارد الطبيعية) – بلغة علم الاقتصاد – محدودة، بل وجد محدودة.. فلا أمل لها في تحقيق التقدم المتواصل، بالمعنى الذي أرادته، إن هي حاولت التركيز على استغلال موارد الطبيعة، وخاصة الأرض.. فليس أمامها إذن إلا التركيز على الاستفادة من المورد «البشري»، من العمل، عمل الإنسان، أثمن رأسمال، أو (رأس المال البشري).. ومن هنا جاء التعليم، لتكوين البشر، علميًا وثقافيًا، وتأهيلهم للتعامل مع الصناعة الحديثة.. ومع التعليم، والتعليم المستمر، التدريب.. والتدريب المستمر أيضًا.. ومعهما سياسة للأخذ بأسباب العلم من أوروبا، بالبعثات والاتصال المباشر، والمشاركة في الأنشطة العلمية المختلفة، بل و«التجسس» العلمي – التكنولوجي، واستنطاق الدوريات العلمية..إلخ.

كل ذلك في ضوء (سياسة) للعلم والتكنولوجيا، توزع الأدوار بين الحكومة وشركات الأعمال الخاصة وهيئات المجتمع، وتصب المحصلة كلها في «خلايا النمل والنحل» – داخل المصانع والمعامل، لتعمل وتنتج وتصدر..!

ومن تصدير ناتج العمل، العمل المتقن، والقائم على قاعدة التقدم العلمي – التكنولوجي بالمعايير (الغربية)، تجني الثروة.. ومنها تحسن مستوى المعيشة ونوعية الحياة..

وفي كل ذلك تخوض غمار المنافسة، وتنجح..

وقد حققت نجاحات، ولكن لديها ثغرات.. منها: بؤس النظام المالي والمصرفي، وعدم

فاعلية التوجيه والتنظيم الحكومي من «فوق» أحيانًا، وانتشار ما يسمى (الأنشطة الفقاعية) في التسعينيات - من استثمارات عقارية وتجارية..إلخ، او الاقتصاد الفقاعي Bubble Economy وعدم الالتفات إلى اهمية الطلب والطلب الاستهلاكي في حفز الاقتصاد (وهو ما تدركه امريكا ..).. واخيرًا: البقاء من خلف امريكا، ليس في العلم الأساسي او البحث فقط ولكن في العلم التطبيقي والبحث التجريبي ايضًا، خاصة في التكنولوجيات البازغة المتقدمة، وبالأخص منها: الشرائح الأكثر ارتفاعًا على سلم تكنولوجيا المعلومات..

والى جانب تلك العلاقة النسبية مع امريكا في الميدان العلمي - التكنولوجي، هناك ما هو أخطر: اليابان هي الركن الركين للاستراتيجية العسكرية الأمريكية في شرق اسيا .. وخاصة في مواجهة الصين..

ولكن هذه قضية اخرى..!

الهوامش

1- طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، جزء -1-، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص 12 - 22

2- جمال حمدان، شخصية مصر، كتاب الهلال، 1996 (إعادة طبع)، ص238.

3- انور عبدالملك، في اصول الشخصية المصرية، في: الأهرام، 22 اغسطس 2000، ص10.

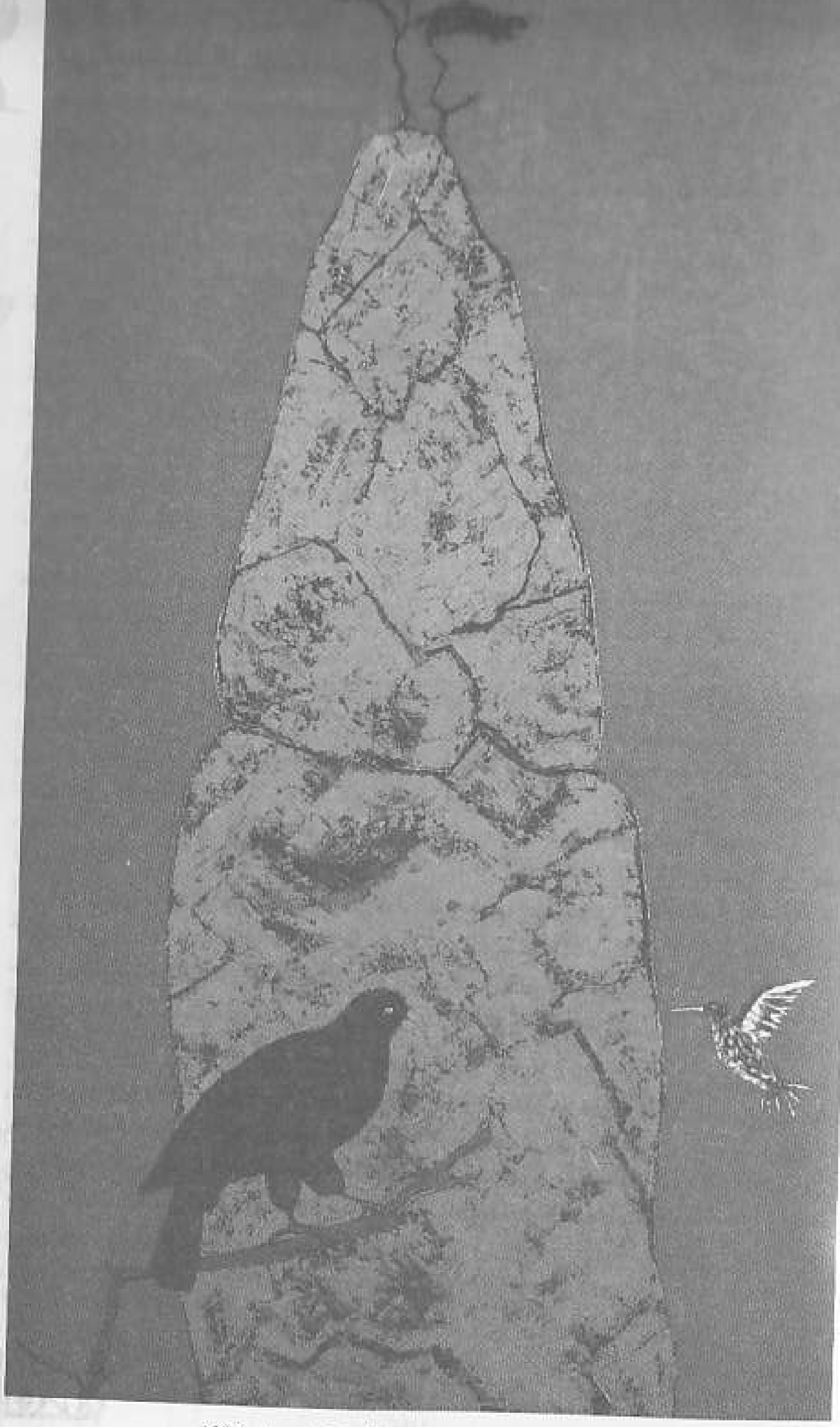

العمر الذهبي، طائر الطنان وغراب، للفنانة الأمريكية جان براون 1985

من الصهيونية إلى نهاية التاريخ

أشرف الصبّاغ

لو ان بوشكين او ديستويفسكي عادا إلى شوارع موسكو، ما ادركا في اي عاصمة او مدينة يسيران، فموسكو منذ سنوات البروسترويكا والجلاسونست تحولت إلى ماكدونالدز وهمبورجر وبورصات السيد جوسينسكي، الذي تم اعتقاله وخرج بعد زمن قليل ليدير الته الإعلامية الجبارة، لتحكي عن الاضطهاد اليهودي، مع انه يحمل جنسية بلد اخر. ويعيش في بلد طالما اتهم بمعاداة اليهود منذ عهد القياصرة، ولم يسكت العالم «الحر» حتى خرج نلك الجوسينسكي، ولم لا وقد اصبح العالم محمولاً على قرن واحد، كما يقول الكاتب عبر استعراضه لحالة روسيا في ظلال فوكوياما، والعولمة، وغرق كورسيك ببحارتها المساكين.

المحرر

1

في الساعة التاسعة و 30 دقيقة (بتوقيت القاهرة) غرقت الغواصة الذرية الروسية «كورسك» في مياه بحر بارينتس. مات 130 شخصاً هم كل من كان بداخل الغواصة.

الغواصة «كورسك» هي أحدث غواصة ذرية في العالم كله. طولها 150 متراً، وقطرها 30 متراً، ووزنها 25 الف طن.

كانت الغواصة تشارك في مناورات للاسطول الروسي. وكانت غواصات حلف الاطلنطي تتابع المناورات عن كثب.

قبل اسبوع من غرق الغواصة اعلن رئيس روسيا فلاديمير بوتين أن روسيا سوف تستعيد مجد قواتها البحرية السوفيتية. وقبل شهر من الكارثة أعلنت القيادة البحرية العسكرية الروسية أنها تنوي استعادة مناطق نفوذها في البحر الأبيض المتوسط ونشر قطع أسطولها فيه وفي المحيط الأطلنطي.

رات اللجنة الحكومية برئاسة نائب رئيس الوزراء الروسي إليا كاليبانوف أن ما يسمى بـ «الضربة الديناميكية الخارجية» هو السبب وراء هلاك الغواصة. اي ان لغماً قد يعود عمره إلى فترة الحرب العالمية الثانية قد انفجر في الغواصة، او انها اصطدمت بغواصة أخرى روسية أو غربية. ولكن العسكريين الروس لا يستبعدون أن يكون انفجار داخل الغواصة هو السبب في الكارثة. وتقول رواية أخرى يتداولها العسكريون انه يمكن ان يكون احد الطوربيدات قد انفجر داخل الغواصة وهي تطلقه في اثناء المناورات.

لا أحد يريد أن يعلن عن اي معلومات. ولا احد يريد أن يهمس بالراي الأقرب إلى الصواب. هناك تصريح الرئيس الروسي باستعادة مجد الأسطول السوفيتي، وهناك تصريحات القيادة البحرية العسكرية الروسية باستعادة النفوذ السابق، وهناك غواصات حلف الأطلنطي التي تراقب المناورات الروسية عن كثب، وهناك العقلية العسكرية البحرية للروس والأمريكيين الذين لا يزالون يعيشون زمن الحرب الباردة ويترصدون بعضهم البعض تحت جليد الشمال. أي أن الروس يعيشون وهم كونهم قوة عظمى، والأمريكيون يؤكدون للروس وللعالم كله ان التاريخ لا يعود ولا يجب أن يعود إلى الوراء.

الرسالة واضحة. ولكن لا أحد لديه الجراة على إعلان حتى هواجسه همساً.

في عام 1986م انفجر مفاعل «تشيرنوبل» في جمهورية أوكرانيا بالاتحاد السوفيتي ولم تعلن القيادة السوفيتية عن الكارثة إلا بعد ثلاثة أيام ظل الأطفال يلعبون فيها الكرة في المناطق القريبة من المفاعل. وفي نفس التوقيت انفجر مفاعل «بنسلفانيا» في الولايات المتحدة الأمريكية وأجبروا العمال على تنظيف الأرض من المياه الملوثة دون علمهم. ولكن وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية استطاعت بجدارة منقطعة النظير على تسليط كل الضوء على ما تسببه «إمبراطورية الشر» من كوارث للبشرية كلها.

انفجر تشيرنوبل وأعلن ميخائيل جورباتشوف عن «البريسترويكا» و«الجلاسنوست»، وبعد خمس سنوات تم إسقاط الاتحاد السوفيتي، وتحطم أحد قرني الثور لتبقى الأرض على قرن واحد.

لم يكن الهدف النهائي هو تحطيم أحد قرني الثور بإسقاط الاتحاد السوفيتي، لأن روسيا سوف ترث التركة بحلوها ومرها

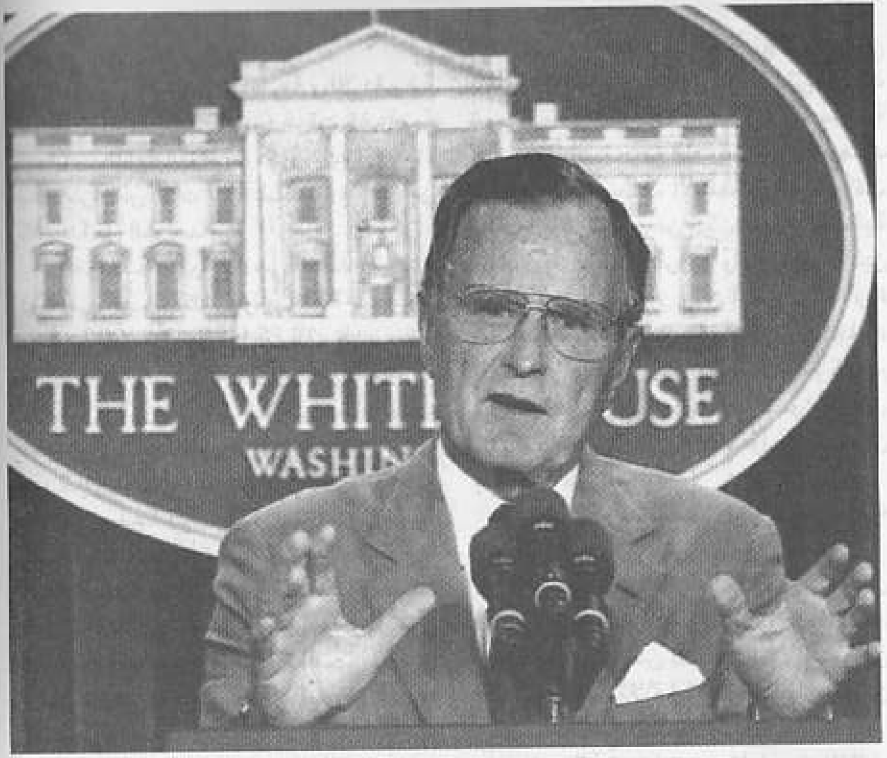

بوش.. البيروسترويكا تحتاج إلى تمويل

وترسانتها النووية. وبالتالي يجب تفتيت روسيا أيضاً. وهذا هو السيناريو الجاري منذ عام 1991م: ضرب الأعماق الإستراتيجية لروسيا أو الاستيلاء عليها اقتصادياً ومحاصرتها عسكرياً بتأليب الجمهوريات السوفيتية السابقة ضدها ومحاولة استقطاب هذه الجمهوريات عسكرياً واقتصادياً بعد النجاح الضخم الذي تحقق في استقطاب دول حلف وارسو سابقاً، التدخل في الشئون الخارجية الروسية ومحاولة فرض حصار بحري على روسيا عن طريق بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق مثلما يحدث في بحر قزوين، ضرب يوغوسلافيا كبالونة اختبار لإمكانات الروس على الرد بعد ضرب حلفائهم البعيدين في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. كل ذلك يحدث متزامناً مع إثارة القلاقل الداخلية في تتارستان والشيشان وداغستان: إثارة النعرات القومية والدينية والعرقية، التدخل السافر في الشئون الداخلية الروسية ومحاولة القفز إلى داخلها بحجة حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية، الاستيلاء الكامل على وسائل الإعلام من قبل اللوبي الصهيوني العالمي الأمر الذي أدى إلى قلب الصورة بزاوية مستقيمة... فبعد أن كان المواطن السوفيتي

يدرك جيداً الأبعاد السياسية والجيوبولوتيكية والاقتصادية لبلاده وتنوع مصالحها، تحول خلال عشر سنوات إلى مواطن رث الوعي يبذل كل ما في وسعه للوصول إلى نموذج الحياة الأمريكي عن أي طريق وبأي ثمن بصرف النظر عن الإمكانية مما أدى إلى انهيار أخلاقي وقيمي واجتماعي تجلى في الفساد والرشوة والمخدرات والمافيا والتبعية.

قال جون كيلي مساعد وزير الخارجية الأمريكي الأسبق: «إذا كان مقدراً للاستراتيجية الأمريكية أن تبقى بمنأى عن الفيروس الذي أكل الإمبراطوريات – والذي يسمونه بالتاريخ – فيجب عليها أن تنشر الجثث الإقليمية في كل مكان على امتداد العالم كله من أجل أن تستعملها بأصابع مدربة في استهلاك أصحاب العظام الساخنة والأفكار الساخنة». وبالتالي لا يخفى على أحد جوهر فكرة «نهاية التاريخ» التي قام بتدبيجها مفكرو الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم فرنسيس فوكوياما، والتي استخدمتها مادلين أولبرايت في حديث ساخر بيسمة أكثر سخرية عندما قالت إنه لا يجب أن يركن الواهمون إلى أفكارهم بأن مصير روما سوف يتكرر مع الولايات المتحدة الأمريكية... ثم ابتسمت ابتسامتها الساخ رة مرة أخرى متحدية كل الأدمغة والأفكار الساخنة.

وعندما نلجأ نحن – في شرقنا السعيد – إلى أساطيرنا الطريفة بشأن الثور الذي يحمل الكرة الأرضية على قرنين، وهذا طبعاً من خبراتنا التي تأتي متأخرة، أو لا تأتي أبداً، نكتشف أن حكاية القرنين أو القرن الواحد كلها مجرد مجموعة من «الحواديت» الكلاسيكية غير الممتعة التي يحكونها للأطفال قبل النوم. فمن الصعب أن نماثل أو نطابق بين الإمبراطورية الأمريكية المتسيدة حالياً وبين الإمبراطوريات الأخرى بداية من السومرية وانتهاء بالسوفيتية.

التحليل الكلاسيكي – الميكانيكي يرى أن الصراع كان يدور دوماً بين إمبراطوريتين أو أكثر، ثم تنفرد واحدة منها بالسيطرة

الاتحاد السوفيتي.. لينين كبش فداء

والسيادة والهيمنة. وبعد ذلك تصل الإمبراطوريات إلى قمة منحنى صاعد لا يلبث أن يهبط تدريجيًا أو فجأة، ثم تنهار الإمبراطورية لتظهر قوى جديدة على أنقاضها كبداية لدورة أخرى. وعادة ما يطلقون على ذلك تسمية «سقوط روما» مثل «كود» أو «إشارة» ليفهم الإنسان أن كل إمبراطورية تسيد العالم وتهيمن عليه منفردة مصيرها هو مصير روما. ومع ذلك فقد انهارت الإمبراطوريات الثلاث: التركية والفرنسية والبريطانية في فترة واحدة تقريبًا، ومن قبلهما انهارت الفارسية والبيزنطية والعربية الإسلامية... وهكذا.

والآن انهارت الإمبراطورية السوفيتية لتبقى الإمبراطورية الأنجلوساكسونية منفردة بالسيادة والهيمنة على العالم كله. فهل سيحدث السقوط المدوي مثلما حدث - بالذات - لروما؟!! ولكن كيف؟ وبأي آليات؟ وهل سيكون نتيجة لتعفن بداخلها، أم بضربة خارجة، أم بالاثنين معًا؟ أم نتيجة لتناقضات داخل المركز الرئيسي، أو تناقضات بين المركز الرئيسي والمراكز الأخرى وخاصة في الدول الغربية؟ وما مدى إسهام دول الغبار البشري، إن لم يكن في إسقاط روما الجديدة، فعلى الأقل - لتحسين ظروف وجودها في ظل منظومة ما بعد سقوط الولايات المتحدة؟ وما هي الضمانات التي تكفل تحسين هذه الشروط إذا كانت غير موجودة أصلاً في ظل هيمنة أمريكا على العالم - أي في الوقت الحالي؟!

في كتابه «زمن القتلة» قال الكاتب الأمريكي هنري ميللر: «المشروع الأمريكي ساقط حتى وهو في ذروة انتصاره». هذا القول الأخلاقي يتطابق مع تمنيات أصحاب الرؤوس الساخنة وخاصة في دول الغبار

فوكوياما

البشري كما يحلو للأنجلوساكسون تسميتها. هناك إمبراطوريات تعفّنت من داخلها فتآكلت وسقطت. وهناك مشاريع إمبراطورية - مثل المشروع النازي - سقطت بمجرد ظهورها وبفعل فاعل. ونتصور للحظة - ولو حتى نظريًا - ماذا كان سيحدث لو تحقق المشروع النازي في إقامة إمبراطورية ألمانية، وما هي الأفكار التي كانت ستتسيد بخصوص بناء العالم وتفسير قيام وسقوط الإمبراطوريات السابقة!! أعتقد أنه لما اختلف كثيرًا عما تردده الآلة الإعلامية - الأيديولوجية الأمريكية منذ بداية التسعينيات من القرن العشرين. ولكن حدث وأن تم تدمير الآلة الجهنمية النازية وإبادتها. ولعل ذلك حدث متزامنًا مع ما قيل عن أزمة الرأسمالية في الثلاثينيات والتنبؤ بسقوطها، إلا أنه تم اختراع حرب عالمية ثانية تركت لنا أكثر من 50 مليون جثة في أقل التقديرات من أجل - وبالذات - إنقاذ الرأسمالية (وهنا ندرك جيدًا مغزى كلمات جون كيلي

والابتسامة الأسرة لمادلين أولبرايت).

وسقطت أيضًا الإمبراطورية السوفيتية بعد أن تعفّنت من الداخل، وبعد أن تحولت إلى تجربة محافظة وبيروقراطية، وبعد أن قويت التحالفات المضادة - كل ذلك أسقط الإمبراطورية التي كان يحلو للأنجلوساكسون وصفها بـ«إمبراطورية الشر». تحطم أحد قرون الثور، وبقي واحد فقط القرن الأمريكي أو إمبراطورية الخير والحرية والديمقراطية.

الخير والديمقراطية والحرية بالمفهوم الأنجلوساكسوني - الفوكويامي تعني: سنسقط أي نظام في أى مكان لأي ابن «كلبة» إذا لم يتماش مع سياستنا أو يحقق مصالحنا حتى ولو كان ديمقراطيًا.

الخير والديمقراطية والحرية بالمفهوم الروماني - النازي الجديد المدعوم بالأفكار «العلمية والتاريخية العلمية!!» تعني: تجميد الزمن، وإيقاف التاريخ عند لحظة الانتصار والهيمنة، وإنهاء حركة التطور حتى ولو بتزييف العلوم الطبيعية واستنساخ البشر كبديل للاختراعات الكلاسيكية المسماة بالروبوت، وكبديل أيضًا للغبار البشري الحي الذي يستهلك أكثر مما ينتج، واللجوء إلى الهندسة الوراثية والاجتماعية في محاولة لتصميم نموذج جديد للعالم نسخة طبق الأصل من نموذج الذرة.

2

فوكوياما: من نهاية التاريخ إلى هندسة العلوم الطبيعية

يعود فرانسيس فوكوياما من جديد إلى أطروحاته المثيرة للفضول أكثر منها إلى النقاش. ففي عام 1989م نشر مقاله الشهير («هل هي نهاية التايخ؟» في جريدة The National Interest) الذي أثار ضجة شديدة في الكثير من الأوساط السياسية والفكرية. ولكنه عاد أخيرًا ليناقش بعض النقاط في رأيه بهذا المقال. وبالطبع، فالرجل باحث يهتم بالتقليب في آرائه بين الحين والآخر بعكس العديد ممن يدعون في الفترة الأخيرة بأنهم قد أصبحوا مفكرين لمجرد أنهم ناقشوا فكرة أو أصدروا كتابًا أو حصلوا على درجة علمية ما. ومع اختلافنا «الجذري» مع ما طرحه فوكوياما منذ عشر سنوات، ومع ما يطرحه أيضًا عام 1999م في مقالة بعنوان «عشر سنوات على نهاية التاريخ»، نجد أن رأيه الأخير أكثر إثارة للفضول، لأنه لجأ أخيرًا إلى العلوم الطبيعية. ومن الطريف هنا أن نسوق بعض العبارات التي وردت في مقاله حتى يمكننا أن نتوقف عندها بهدوء وروية.

يقول فوكوياما: «...إن الحجة التي عمدت إليها لكي أبين أن التاريخ موجه ومتدرج ويجد منتهاه وتتويجه في الدولة الليبرالية الحديثة، هذه الحجة كانت مغلوطة، وهناك ناقد واحد، من بين مئات المفسرين المحللين «لنهاية التاريخ» قد تفطن إلى نقاط الضعف في هذه الحجة: إن التاريخ لا يمكن أن ينتهي مادامت علوم الطبيعة المعاصرة لم تصل إلى منتهاها، ونحن على أبواب اكتشافات علمية جديدة من شأنها - بحكم ذاتها أصلاً - أن تمحو البشرية باعتبارها بشرية.

«...جزء كبير من النقاش حول نهاية التاريخ كان مرده إلى قضية حمقاء متعلقة بسوء الفهم لم يفهم جانب كبير من القراء أني أستعمل مفردة تاريخ في دلالتها الهيجلية - الماركسية، أي التطور التدريجي للمؤسسات البشرية والسياسية والاقتصادية. وحسب هذا المفهوم يكون

التاريخ – حسب تحليلي – تقوده قوتان جوهريتان: انتشار علوم الطبيعة والتكنولوجيات المعاصرة...».

«....إن الذين حاولوا أن يروا في الأحداث السياسية والاقتصادية للتسعينيات العيب الجوهري لنهاية التاريخ قد ضلوا الطريق. إن العيب الأصلي لأطروحتي يكمن في أنه لا يمكن بحال من الأحوال وضع حد للعلم، ذلك أن العلم هو الذي يقود المسيرة التاريخية. ونحن لسنا إلا في بداية الدرب لانفجار جديد للاكتشاف التكنولوجي في مجال علوم الحياة والتكنولوجيا الحيوية».

«إن الفترة التي فتحتها الثورة الفرنسية عاشت ازدهار مختلف النظريات التي كانت تطمح إلى الانتصار على حدود الطبيعة البشرية، وذلك بخلق جديد للكائن (البشري) غير خاضع للأفكار المسبقة وإلى حدود البنائية الاجتماعية (أي الهندسة الاجتماعية – أ.ص.) مع التأكيد – على العكس – على نظام ليبرالي مرتكز على السوق وعلى حقائق لا غبار عليها تنتمي إلى الطبيعة وإله الطبيعة. ومن الممكن جداً أن أدوات «البنائين» الاجتماعيين في هذا القرن المنتهي منذ انتشار الاشتراكية في العمر المبكر إلى التشويش والدعاية وحقول العمل مروراً بالمعالجة الطبية بالتحليل النفسي، كانت أدوات فظة لم تفلح في تغيير عميق للجوهر الطبيعي للسلوك البشري».

ويختتم فوكوياما مقاله الصغير بـ: «إن الطابع المفتوح لعلوم الطبيعة المعاصرة يسمح لنا أن نتوقع، من هنا فصاعداً وإلى جيلين مقبلين، بأن تمنحنا التكنولوجيا الحيوية الأدوات التي ستنجز ما عجز عنه اختصاصيو الهندسة الاجتماعية. في هذه المرحلة نكون قد قضينا على الكيانات البشرية ككيانات وعندئذ يبدأ تاريخ جديد، ما بعد البشري».

أما بخصوص ما ذهب إليه فوكوياما (وهو على عكس ما ذهب إليه الماركسيون على حد قوله) من أن عملية التطور التاريخي تجد منتهاها في الديمقراطية واقتصاد السوق وليس في الاشتراكية، فالأمر واضح تماماً منذ نشر مقاله الأول، لأن خطاب فوكوياما الأيديولوجي ينطلق من أرضية مغايرة تماماً لخطاب الماركسيين بهذا الصدد. أما المغالطة الأخرى التي يقع فيها فوكوياما (ومع ذلك يصر – على حد قوله – على وجهة نظره بخصوصها) هو أنه ينسب مقولات كل الماركسيين إلى التجربة السوفيتية والعكس. وهو كباحث – ذكي طبعاً – ينطلق أساساً من انهيار التجربة السوفيتية كمعيار لأية تجربة أخرى يمكن أن يطرحها البشر لتحسين ظروف حياتهم بخلاف ما يطرحه هو كمنظر لأيديولوجية مخالفة.

إذا كان مقال فوكوياما قد انطوى على العديد من النقاط غير الواضحة، والتي بدأ فوكوياما نفسه يفيق إليها بعد عشر سنوات أخذاً في اعتباره مجمل التطورات التي حدثت ومازالت تحدث، فالمقال الثاني أكثر غموضاً وتضمناً للعديد من النقاط التي تحتمل أكثر من تفسير، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية وجعلها الحكم الواحد والأوحد والفاصل في مجمل السلوك والتصرفات البشرية. وعموماً، فلقد ظل نيتشه حتى آخر الفترات اليقظة في حياته يتعذب من فكرة أنه مجرد كاتب بائس، وكان قد أدرك آنذاك أنه لابد أن يكون عالم أحياء

ما بعد (أو ما فوق) دارويني من أجل صناعة قومية من «السادة»، وصناعة كائن حي ما بعد (أو ما فوق) بشري. ولكن فكرة ما بعد أو ما فوق علم الأحياء هذه ظلت مجرد حلم أدبي (على الأقل، ولحسن الحظ طبعاً، في فترة حياة نيتشه). والآن يعود بنا فوكوياما إلى الوراء بما يزيد عن قرن كامل. ومن سوء الحظ أن هناك مؤشرات خطيرة يمكنها أن تجعل تنظيرات فوكوياما قابلة للتحقق، ولو حتى على المستوى النظري، لأن هناك يداً واحدة فقط في هذا العالم تحاول قدر الإمكان امتلاكه وعصره بحجة السلام والتقدم والعولمة والتطور.

إن الآلة العسكرية – الاقتصادية – الإعلامية التي تستند إليها طروحات فوكوياما، تتوجه إلى العالم بأيديولوجية في غاية الخطورة مع الادعاء في ذات الوقت بأن عصر الأيديولوجيات قد انتهى. أي ببساطة ليس هناك سوى نموذج واحد يجب تطبيقه (سوف نتحدث لاحقاً بلغة العلوم الطبيعية كما يحلو لفوكوياما أن يتحدث في الفترة الأخيرة) على كافة الجزئيات الصغيرة، ومن ثم بناء نموذج مشابه لنموذج الأطراف، أطراف المراكز، لنكتشف في النهاية أن نموذج الذرة قد تم تطبيقه بحذافيره على المجتمعات البشرية بينما يدعي فوكوياما أن المجتمع البشري سوف يبنى على أساس إلغاء الأفكار المسبقة، ولن يخضع لنشاطات الهندسة الاجتماعية!

العولمة... وحدة العالم... ثورة المعلومات

جورباتشوف وداعاً الجيش الأحمر

والاتصالات... الطابع المفتوح للعلوم الطبيعية... التاريخ ما بعد البشري... الديمقراطية واقتصاد السوق... الدولة الليبرالية – منظومة مهمة ومتشابكة من المصطلحات التي تخدم على فكرة تطبيق نموذج الذرة على المجتمعات البشرية. ولكن أية مجتمعات بشرية؟! الولايات المتحدة الأمريكية؟ دول غرب أوروبا؟ شرق أوروبا؟ اليابان؟ روسيا؟ الصين؟ أفريقيا؟ جنوب شرق آسيا؟ آسيا الوسطى؟ القوقاز؟ أمريكا اللاتينية؟ هل حان الوقت لتصميم العالم ورسمه بناءً على الأفكار المسبقة؟ ليس فقط الأفكار المسبقة، وإنما طبقًا للنماذج التي تطرحها العلوم الطبيعية، وخاصة الفيزياء والهندسة الوراثية؟ إن فوكوياما بمراجعته لنفسه يعلن بوضوح ودقة عن الوجه الحقيقي للعولمة من وجهة نظر «النواة». لا يوجد أحد على وجه الأرض ضد التطور والسلام والعدل الاجتماعي والتعاون، ولكن يبدو أن الطرق المؤدية إلى ذلك مختلفة ومتعددة، بل ومتناقضة في كثير من الأحيان. فهل ما يقصده منظرو الولايات المتحدة الأمريكية بالعولمة هو ما يقصده منظرو جزر القمر؟ أو ما يفهمه منظرو الصومال وتشاد والكونغو ومصر وسنغافورة وسوريا وقيرجيزستان والسعودية وكولومبيا وأرجواي؟!

إن فوكوياما مواطن الولايات المتحدة الأمريكية يرتكز في مقولته عن نهاية التاريخ إلى العلوم الطبيعية ويحتكم إليها بشكل فاصل ونهائي. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى في مأزق شديد «الانحدار». وكما وقعنا في مأزق العولمة، وصدام الحضارات، ونهاية التاريخ (المقال الأول): من حيث الوقوف مع أو ضد، ومن حيث الطرح المغاير، ومن حيث القدرة على التعامل مع هذه الأفكار على أرض الواقع – نجد أنفسنا في مأزق اتخاذ موقف ضد العلم بشكل عام، وضد العلوم الطبيعية على وجه الخصوص، بل وضد المقولات الفلسفية عن وحدة العالم، خاصة وأن فوكوياما يرتكز هذه المرة على أرضية العلوم الطبيعية ويضعنا أمام اختيار واحد فقط: اختيار ما يسمى بـ«المذهبية العلمية» كقاعدة أيديولوجية، أو ديانة جديدة، يتم هندسة العالم الجديد على أساسها.

ولنترك فوكوياما الآن، إلى أن يعود إلينا بطرح علمي جديد! ونتأمل الوضع العلمي العام، وهو لا ينفصل طبعًا عما طرحناه سابقًا.

لاشك أن «الحسبة» الرياضية أثبتت أن تاريخ 1999/12/31 هو آخر يوم في القرن العشرين والألفية الثانية، وأن تاريخ 2000/1/1 هو بداية القرن الحادي والعشرين والألفية الثالثة. وهذا طبعًا لأننا نبدأ العد من الصفر وليس من الواحد، ولأن الأعداد تبدأ بالصفر وتنتهي بالتسعة وليس بالعشرة. وبالتالي فالعشرة هي بداية عد جديد وليست نهاية العد القديم. «حتى لا نصدع رؤوسنا فالمسألة تتلخص ببساطة في أنه لكي نصل إلى الرقم واحد يجب أن نقطع مسافة زمنية تبدأ بالرقم صفر. فإذا كنا قد قسمنا تلك المسافة الزمنية إلى عشرة أجزاء مثلاً، فالواحد سوف يكتمل بنهاية الجزء التاسع...وهكذا.

باختصار، عام 2000م ليس عامًا عاديًا... عام 1999م لم يكن أيضًا عامًا عاديًا... الأول بداية قرن وألفية، والثاني نهاية قرن وألفية. فهل يمكننا أن نطلق اسمًا على قرن مضى نلخص فيه مصائبنا وأفراحنا، خيباتنا وإنجازاتنا، مفاخرنا ولعناتنا؟!

هل القرن العشرون – هو القرن «الذري»، «النووي»، «الفضائي»، «الكمبيوتري»، «الثوري»؟ هل هو «قرن الجماهير»، «قرن الرياضة»، «قرن الاسبرنطيقا»، قرن السرعة»، «قرن التكنولوجيا»، «قرن الثورة العلمية – التقنية»، «قرن الحروب العالمية»؟

طبعًا لا، لأن هذه المسميات تنطوي على الكثير من الشك ليس فقط لأنها أصبحت شعارات لوسائل الإعلام، ولكن أيضًا لأنها تصف فقط الإنجازات الكلية والانهيارات الجزئية للقرن العشرين. فهل هناك شيء ما مشترك يمكن أن نعثر عليه بين تحطيم الذرة وغزو الفضاء؟ أو بين تراجيديا الصهيونية والنازية وبين حماس وزخم الثورة الاجتماعية؟

إذا كانت هناك تسمية من هذه التسميات غير موفقة قليلاً، فسوف نجد أن العديد من التسميات الأخرى غير موفق على الإطلاق من زاوية الجمع بين التناقضات، وخاصة التناقضات من حيث جدوى وضرر ما تعود عليه التسمية الواحدة.

قرن «الثورة»، مثلاً، ينطبق على قرون ومجالات أخرى قبل القرن العشرين. فالثورات الوطنية والاجتماعية في أمريكا وفرنسا – مثلاً – كانت في القرن الثامن عشر. وقبل القرن العشرين بدأت الثورة الكانطية في الفلسفة، تلك الثورة التي تأسست على الثورة العلمية التي قام بها كوبرنيكس في القرن السادس عشر. وبالتالي فتسمية «قرن الثورة» لا تنطبق فقط على القرن العشرين. وإذا أمعنا النظر بعمق سنكتشف أن النصف الأول فقط من القرن العشرين هو الذي يمكن أن تنطبق عليه التسمية، وبشكل جزئي. أما النصف الثاني فهو على النقيض حيث قامت الانقلابات والثورات المضادة، وتأسست المصطلحات المضادة في الفنون والآداب والعلوم والسياسة والاقتصاد والإعلام. وبالطبع ففي بداية النصف الثاني قامت ثورات (محل خلاف؟) فيما سمي بالعالم الثالث بعد ذلك، وكانت كلها ثورات ضد الاستعمار والهيمنة الأجنبية العسكرية بالدرجة الأولى، ناهيك طبعًا عن الانقلابات!

هناك من يقول إنه قرن الـ«Power» حيث تجمع الكلمة بين معان عديدة ومتنوعة، فهي تعني القوة، والإمكانية، والسلطة، والجبروت، والنفوذ، والقدرة، والصلاحية، والدولة، والطاقة، والكهرباء. وينطلق أصحاب هذا الرأي من كون هذه التسمية تجمع بين جوانب النفوذ السياسي والتقني.

إن كلمتي الدولة العظمى «Super Pow-er» والمحطة الكهربائية «Power Plant» تملكان في اللغة الإنجليزية جذرًا مشتركًا. وبالتالي فالقرن العشرون هو قرن الدولة العظمى والمحطة الكهربائية: طاقة السلطة السياسية التي تحاول عصر العالم كله بيد واحدة، وسلطة الطاقة التقنية التي تحطم نواة الذرة وتبعث بالصواريخ إلى أبعد نقاط المنظومة الشمسية. القرن العشرون هو عصر تكنولوجيا السلطة وسلطة التكنولوجيا. والصيغة التي طرحها لينين في بداية القرن: (السلطة السوفيتية + كهربة البلاد كلها – الشيوعية) لم تكن شعار التجربة الاشتراكية السوفيتية فقط، وإنما – كما اتضح فيما بعد – أصبحت صيغة للقرن العشرين كله. مع الأخذ في الاعتبار طبعًا توقيت طرح الصيغ وظروف الطرح وشروطه وتوجهاته.

وإذا كان القرن العشرون هو قرن

«الطاقة»، فمعنى ذلك أنه أيضاً عصر «الكتل» - الجماهير الواقعة بين حجري الرحى، والتي أصبحت بشكل أو بآخر مثل اللحم المفروم، والتي تمثل الوسيلة والأداة، والتي تملأ مقاعد متفرجي كرة القدم وقاعات السينما والسجون والمعتقلات، والتي حصدتها الحروب والمجاعات والأمراض، والتي تم تهجيرها من بلادها: فأصبحت هناك دول بكتل، وكتل بلا دول. وإذا استخدمنا هنا صيغة اينشتاين التي تربط بين الكتلة والطاقة من أجل تفسير عملية تحطيم الكتل الفيزيائية والاجتماعية، سنجد أن ذلك هو مصدر الطاقة الفعال الذي يغذي الإرادة نحو السلطة.

القرن الثامن عشر - كان عصر «التنوير»، وعصر التفكير مع أنه لم يخل من عبادة الفرد، ومن السذاجة والمثالية. ولكن التنوير كان هو الغالب بالمقارنة مع القرون السابقة.

القرن التاسع عشر - كان عصر «الواقعية»، حيث قام بإصلاح الخطأ الذي كان موجوداً في القرن الثامن عشر: خطأ تغليب التفكير الساذج والمثالي والإيمان المطلق بهذا التفكير. وبالتالي ربط القرن التاسع عشر بين التفكير والواقع، وجعل الأول في خدمة الثاني. وفي إحدى رسائل بلينسكي أقسم أنه من أجل الواقعية يمكنه أن يضحي بحياته، ولتذهب المثالية إلى الشيطان. من هنا أصبحت الرواية وعلم الجمال والشعر أموراً واقعية في القرن التاسع عشر. هذا بالطبع إلى جوار بدايات العلوم الحديثة.

من الصعب إدراك كيف أنه من هذا الاستسلام الإرادي لكلمة «أنا موجود» يمكن العمل على إنماء كلمة «أنا أستطيع». ولكن «أنا أستطيع» قد نمت فعلياً من «أنا موجود»، والدليل على ذلك هو أن أكثر الحسابات والتدقيقات علمية أدت إلى نتيجة في غاية الأهمية: معرفة الجوهر تقود إلى إمكانية السيطرة عليه. وقد حدث ذلك بالفعل بداية من الداروينية الاجتماعية، ومن نظرية الانتقاء الطبيعي إلى أبسط الأفكار حول أنه مادام البقاء للأقوى، فمن الضروري أن يكون هذا الأقوى هو أنا.

ولكن كما انتصر الفكر التنويري الذي تطور إلى الواقعية على نفسه وتخلى عن الذهنية والسذاجة والمثالية، تجاوزت الثقافة الواقعية نفسها بسرعة وتخلت عن حرفيتها لصالح بناء إرادي للواقعية بدلاً من الخضوع العبودي لها. وكما أوردنا سابقاً، فقد ظل نيتشه حتى آخر الفترات اليقظة في حياته يتعذب من فكرة أنه مجرد كاتب بائس. وكان قد أدرك آنذاك أنه كان لابد أن يكون عالم أحياء ما بعد (أو ما فوق) داروني من أجل صناعة قومية من السادة، وصناعة كائن حي ما بعد (أو ما فوق) بشري. ولكن فكرة ما بعد أو ما فوق علم الأحياء هذه ظلت مجرد حلم أدبي (على الأقل، ولحسن الحظ طبعاً، في فترة حياة نيتشه).

لقد تجاوز القرن العشرون ذلك العالم الذي كان من الممكن ألا يكون بحاجة إلى كل تلك القوة والقدرة والسيادة...إلخ تلك التي

تحدثنا عنها منذ قليل. وأصبح امتلاك الكرة الأرضية بمصادرها الطبيعية والبشرية أمراً مفيداً ومجدياً ورائعاً، ولكنه مع ذلك ليس كافياً لذلك الخيال الجامح، ولا لشهية السلطة وشهوتها، ولا للعولمة المطابقة لنموذج الذرة، ولا لغزو عوالم جديدة. إن هذه الكرة الصغيرة - كرتنا الأرضية - ضائعة في أطراف الفضاء الكوني، تائهة في زاوية ما من الفراغ اللامحدود واللانهائي، ذلك في وقت واحد مع وجود مجرات عديدة أخرى لم يتم اكتشافها بعد، ولا ندري كيف سنخرج إليها: عبر الثقوب السوداء، أم عن طريق الإلكترونات، أم من خلال أرواحنا؟!!

على ضوء ذلك، ليس هناك شك في أن القرن الحادي والعشرين سيكون حاصل ضرب قدراته وإمكانياته الخاصة به في كل ما أنتجه القرن العشرون من قوى وإمكانيات وإنجازات. وليس هناك شك في أن القدرة العلمية - التقنية، والقدرة الاجتماعية - السياسية في القرن الحادي والعشرين ستنمو وتتطور، ولكن ليس أبداً من أجل غزو «عوالم جديدة» وأبعاد جديدة والولوج إليها، بقدر ما هو «فتح ثغرة» في الواقع، وبالرغم من أن محاولات «فتح الثغرة» في الواقع لم تتوقف أبداً طوال القرن العشرين، وإنما على العكس اتسعت ساحة الإدراك العلمي للواقع بالمقارنة مع القرن التاسع عشر. إلا أنه لا يمكننا القول بأن الواقعية سادت وتسيدت خلال القرن العشرين، ولا يمكننا أن نقول بوجود التبجيل المطلق للواقع في حد ذاته. وبالتالي لا تزال عملية إدراك الواقع مستمرة ولكن من أجل خدمة هدف آخر: خدمة السلطة والسيطرة، وعلى هذا النحو سوف يستمر تزايد القوة والقدرة في القرن الحادي والعشرين، ولكنها ستكون في خدمة أهداف أخرى - ليس طبعاً السلطة والسيطرة، وليس امتلاك العالم، وإنما الخروج إلى عوالم بديلة أو موازية. ولكن من الذي سيخرج؟ وبأي أدوات؟

إن السلطة بوصولها إلى نهاية العالم، أصبحت في حاجة إلى أمر آخر، إلى مضاعفة العوالم نفسها. زد على ذلك أنهم في ميكانيكا الكم وميكانيكا الكمبيوتر يتحدثون فعلياً عن تعدد العوالم الموازية، وعن العوالم المحتملة، والعوالم الممكنة، والعوالم الافتراضية.

ومن هنا تبدأ صيغة جديدة ستنطلق من رحم القوة والقدرة. تلك الصيغة ستبدأ من تأكيد القوة والقدرة وتجاوزهما معاً وفي وقت واحد. وستكون في شكل إمكانية الخروج من حدود الواقع الموجود في أحاسيسنا والمتعارف عليه والمألوف لدينا. وسوف تتحول كلمة «أنا أستطيع» متجاوزة نفسها إلى كلمة أخرى ضعيفة، ولكنها لا نهائية: إلى كلمة «من الممكن» أو «من المحتمل»، وبدلاً من القوة والقدرة سوف تحل الاحتمالية.

من الممكن أن يكون القرن الحادي والعشرون هو قرن الافتراضية، ليس فقط بخصوص التقنيات الإلكترونية - الكمبيوترية، وإنما أيضاً بشأن مضاعفة الوسائل البديلة للوجود، والنظريات الافتراضية، والتجارب،

اليهود الروس المهاجرون إلى إسرائيل

والمجتمعات. إن القدرة أو القوة هي الصيغة القصوى لفعالية الوجود (وهذه أبرز علامات أو كرامات نهاية القرن العشرين). ولكن خلف حدود الفعالية تظهر نوعية جديدة: الاحتمالية (التي ستكون أبرز كرامات مرحلة الانتقال إلى القرن الحادي والعشرين). وبينما تكون الفعالية محدودة بـ«أستطيع أن أفعل»، تكون الاحتمالية هي الدخول إلى بعد آخر جديد: «ماذا يمكن أن أكون». ولكن السعي إلى القوة في هذه الحالة، أو في هذا الطور من التطور، ينتج من جراء ندرة الحياة أو شُح الوجود، ومن عدم كفاية الواقع: هنا فقط واقع واحد، وفي هذا الواقع الواحد لا يوجد سوى واحد فقط يمكنه أن يكون قويًا على حساب الآخرين.

وهنا نتوقف قليلاً لنتأمل اللوحة، أو ببساطة لنطلق العنان لخيالنا بالمعنى العلمي والإيجابي بعيدًا عن الشطحات والهلوسات... إذا كان القرن الحادي والعشرون سوف يصبح قرن تعدد الأبعاد والقياسات، وتراجع الثقة بالواقع، والتوالد السريع للمهرجين والأفاقين، وتنامي التزييف، والتصنع، والنسخ الإعلامي، والمسخ الإعلامي أيضًا، والأشباه الإلكترونية، والعوالم المتعددة - إذن فماذا يمكن أن يكون عليه القرن الثاني والعشرون؟ وماذا يمكن أن نطلق عليه من التسميات؟ وبأي كرامات سيهل علينا؟! هذا طبعًا إذا كنا سنستمر في الوجود بأحاسيسنا العادية والمألوفة في الواقع

3

اللوبي الصهيوني يبدأ الألفية الثالثة بالورقة الروسية

قامت أجهزة الأمن الروسية بتفتيش مكاتب مؤسسة «ميديا موست» إحدى أكبر الاحتكارات الإعلامية في روسيا والمملوكة للملياردير اليهودي الروسي فلاديمير جوسينسكي. أثار هذا الإجراء القانوني غضب صاحب المؤسسة الذي يرأس في نفس الوقت ما يسمى بالمؤتمر اليهودي الروسي، الأمر الذي جعله يصرح لوكالات الأنباء الغربية: «أن بعض القوى التابعة لمؤسسات الدولة تستعمل التعصب العرقي والعداء للسامية خلال الصراع السياسي ولا تحاول السلطة ان تعيق ذلك»... «إن الدولة لا تنتهج أية سياسة تجاه قضية العداء للسامية». وفي هذا الإطار ابلغ جوسينسكي العالم كله أن حرية الكلمة في روسيا أصبحت في خطر إثر عملية التفتيش في مكاتب مؤسسته. ولعل البواعث من وراء طرح جوسينسكي لقضيته الشخصية - المالية بهذا الشكل المرتبط بالعداء للسامية قد يكون صراعه مع جماعة بريزوفسكي التي تسعى هي الأخرى إلى السيطرة على المؤتمر اليهودي الروسي، أو شعوره بأن اللعبة قاربت على نهايتها وحان له أن يستعمل آخر ورقة رابحة. وبالتالي وجد أنه من الضروري أن يضيف إلى القضية المتعلقة بحرية الكلمة قضية أخرى مشهورة ومعروفة - معاداة السامية - خاصة وأن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كان وقتها في زيارة لموسكو.

الجدير بالانتباه أن جوسينسكي اليهودي الروسي أحد أخلص يهود العالم لدولة إسرائيل (يملك 25٪ من أسهم صحيفة «معاريف» الصهيونية، ويملك أيضًا صحيفة «فستيا» التي تصدر في إسرائيل. وحين تم القبض على رئيس مجلس إدارة صحيفة «معاريف» بتهمة تصفية أحد منافسيه والقيام بعمليات احتيال مالية ضخمة، استدعى جوسينسكي رسميًا ليدلي بشهادته أمام القضاء الإسرائيلي باعتباره مواطنًا إسرائيليًا يملك جواز سفر هذا البلد). منذ خمس سنوات نجح جوسينسكي في انتخابات المؤتمر اليهودي الروسي وأصبح رئيسًا له في روسيا. وأرجعت وسائل الإعلام هذا النجاح لا لأن جوسينسكي متدين أو متمسك بالعادات اليهودية بقدر ما لديه من رغبة في تأمين ما يبرر تصرفاته السيئة المحتملة تحت ذريعة الدفاع عن النفس أمام العداء للسامية.

أما الملياردير اليهودي الروسي بوريس بريزوفسكي الذي يملك جواز سفر إسرائيلي أيضًا فهو يعلن على الدوام أنه حريص على مصالح روسيا وأمنها واقتصادها حتى إذا حدث ذلك في علاقته بإسرائيل. بيد أن بريزوفسكي على علاقة جيدة باللوبي الصهيوني في أمريكا على عكس صاحبه جوسينسكي المرتبط جدًا بإسرائيل.

بداية المؤامرة

فجأة وبدون مقدمات قام اتحاد الجمعيات اليهودية الروسية بإصدار بيان وقعه كل من كبير الحاخامات الروس بيرل لازار، ورئيس اتحاد الجمعيات اليهودية ميخائيل جلوز يتهمون فيه ضمنًا وصراحة تلاعب اللوبي الصهيوني العالمي وفروعه في روسيا - والتي يمثلها بالدرجة الأولى طواغيت المال اليهود الذين يسيطرون على أهم قطاعات روسيا الاقتصادية والإعلامية - بمقدرات اليهود الروس الذين ينتمون إلى الشعب الروسي ويرفضون الاستجابة إلى

ضغوط اللوبي الصهيوني الذي يحاول بدوره إثارة المشاعر العدائية ضدهم في وطنهم الأم – روسيا. وفيما يلي نص البيان الذي يعتبر واحدًا من الوثائق الخاصة جدًا – والمهمة جدًا – في إثبات ما يحاول اللوبي الصهيوني العالمي نفيه أو إبعاد الأنظار عنه.

نص البيان

«نحن حاخامات ورؤساء الجمعيات اليهودية في روسيا البالغ عددها 84 جمعية نعبر عن قلقنا تجاه محاولات إثارة اهتمام البلدان الأجنبية بأمور تخص اليهود الروس بصورة مصطنعة.

من ضمن تلك المحاولات التي نستنكرها وندينها، تأتي الزيارة التي قام بها الحاخام إدولف شايفيتش إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتي ينوي خلالها، على قدر علمنا، توجيه نداء للتدخل في شئون الجالية اليهودية في روسيا، وتوجيه انتقادات إلى القيادة السياسية لبلادنا.

إننا نرى أن نشاطًا سياسيًا كهذا، يقوم به أحد الحاخامات، يسيء إلى الديانة اليهودية وينعكس على اليهود الروس بالضرر، إن مثل هذا التصرف قد يوحي بأنهم قد أصبحوا عنصرًا غريبًا ودخيلاً على بلادهم. ومن الممكن أن يؤدي عمل من هذا النوع إلى انفجار للمشاعر العدائية تجاه اليهود. كما أن هذا العمل يستهدف بالدرجة الأولى وضع اليهود في مواجهة مع السلطات الروسية وجعلهم منبوذين في بلادهم من ناحية، ومن ناحية أخرى صب ما سوف يترتب عن ذلك ومن نشاطات وتصرفات وأعمال تهدف كلها إلى «الدفاع» عن مصالحهم، في الرصيد السياسي لمن يزاول هذه النشاطات والأعمال والتصرفات.

هنا، لابد من الإشارة إلى أن الظروف التي تهيأت لليهود في روسيا خلال الأعوام العشرة الأخيرة قد مكنتهم من العودة إلى جذورهم وإحياء ديانتهم، وهي الفرصة الكبيرة التي لم تتح لهم من قبل وخاصة للاحتكاك والتعامل مع إخوانهم في الدين في بلدهم وخارجها.

إننا نرى أن محاولات تسييس الجالية اليهودية في روسيا ووضع زعمائها الروحيين في خدمة الساسة وطواغيت المال تؤدي إلى ضرب سمعة الديانة اليهودية وزعماء اليهود المتدينين والحاخامات.

إن مثل هذه المحاولات لا تتنافى مع مبادئ الديانة اليهودية فحسب بل تسهم أيضًا في رسم صورة سلبية لليهود الروس من خلال تحويلهم إلى أداة لتحقيق أهداف لا علاقة لهم بها.

إننا نرى أن المأساة التي عاشها اليهود في القرن العشرين تفرض الحظر على وضع شعبنا داخل لعبة سياسية سواء على الساحة السياسية الداخلية أو الخارجية.

إننا نعارض أن تتدخل القوى الخارجية أو الدولة في شئون الجالية اليهودية الروسية انطلاقًا من اعتقادنا بأن الشيء الذي نحن في أمس الحاجة إليه اليوم هو العيش في هدوء وتأدية فرائض ديانتنا والمحافظة على تقاليدنا وإثرائها».

البداية الحقيقية

اتضح أن الحاخام إدولف شايفيتش قد طار إلى الولايات المتحدة الأمريكية بإيعاز من المؤتمر اليهودي على أن يكون وجوده في واشنطن متزامنًا مع وجود رئيس الولايات المتحدة بيل كلينتون في موسكو. وعلى الفور قامت وسائل الإعلام الروسية بالكشف عن علاقة الحاخام إدولف شايفيتش بالملياردير فلاديمير جوسينسكي من ناحية، ومن ناحية أخرى ألقت الضوء على علاقة اتحاد الجمعيات اليهودية، الذي أصدر البيان أعلاه، بالمليونير بوريس بريزوفسكي. وتتساءل بعض الصحف الوطنية الروسية: هل هناك فعلاً خلاف بين قطبي اليهود في روسيا؟ هل هناك مشاكل حقيقية بين اتحاد الجمعيات اليهودية والمؤتمر اليهودي في موسكو؟ هل هناك انشقاق بين حاخامات اليهود الروس ومحاولتهم الضغط على السلطة الروسية الجديدة في وقت عصيب من تاريخ روسيا؟ أم أن الطرفين وجدا نفسهما خارج الكرملين، فبدأ اللوبي الأب في توزيع الأدوار كعادته التاريخية من أجل الفوز ولو حتى بمكان واحد – في أسوأ الأحوال – تحت قبة مركز الرئاسة في روسيا؟!

هل هو توزيع أدوار؟

المعروف أن اتحاد الجمعيات اليهودية الروسية أقيم منذ ما يقرب من عامين على يد الملياردير الإسرائيلي الروسي بوريس بريزوفسكي صاحب القناة الأولى بالتليفزيون الروسي، وهي إحدى أهم القنوات التليفزيونية في روسيا. على الجانب الآخر هناك المؤتمر اليهودي الروسي الذي يرأسه الملياردير اليهودي الروسي فلاديمير جوسينسكي صاحب شركة «ميديا موست» وبنك «ميديا موست» والقناة الرابعة بالتليفزيون الروسي والمنافسة للقناة الأولى!

المعروف أيضًا أن الصراع يدور منذ فترة بين أقوى اتجاهين للتجمعات اليهودية في روسيا من أجل إيجاد مكان لهما، أو لأحدهما على الأقل في مؤسسة السلطة الجديدة. هذا الاتجاهان لا يملكان المال فقط ولكنهما أيضًا أضخم مؤسستين إعلاميتين على الإطلاق في روسيا. وعادة ما تقوم كل من المؤسستين «بالتنغيم مع الأخرى» أو بالأحرى تتبادلان الأدوار شدًا وجذبًا مع الحكومة الروسية والجمهور. وكثيرًا ما جرت مناوشات خطيرة بينهما أثارت المجتمع الروسي.

القبض على جوسينسكي

كان من الممكن أن ينتهي الأمر عند ذلك. ولكن فجأة قامت النيابة العامة الروسية بإلقاء القبض على فلاديمير جوسينسكي ووضعه على ذمة التحقيق حيث يسمح القانون الروسي بذلك على أن توجه النيابة العامة خلال عشرة أيام اتهامًا إلى المقبوض عليه أو تفرج عنه.

هنا قامت قائمة اللوبي الصهيوني في روسيا والعالم كله. وصرحت الأوساط اليهودية الروسية بأن القبض على جوسينسكي يندرج تحت أعمال «العنف» التي تمارسها الحكومة الروسية ضد اليهود. وجاء في بيان أصدرته منظمات يهودية بما فيها ما يسمى بـ«الاستقلال الذاتي القومي الثقافي اليهودي الفيدرالي» و«المؤتمر اليهودي الروسي» ومؤتمر الجمعيات الدينية

اليهودية في روسيا» و«الجمعية اليهودية بمدينة موسكو» أنهم يعتبرون أن هذا الإجراء أتى بمثابة رد فعل السلطات «لخروجنا عن الطاعة». وأشار البيان إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي تحاول فيها السلطات الروسية أن تجعل من الجالية اليهودية «دمية» تتلاعب بها.

أما كبير الحاخامات إدولف شايفيتش فيعزو السبب في اعتقال جوسينسكي إلى محاولة مجموعة «انفصالية» من الحاخامات يبلغ عددها 25 حاخاماً لانتخاب كبير حاخامات جديد يرفضه أغلبية اليهود الروس. ويرى شايفيتش أن السلطة الروسية هي التي دبرت هذا «الانقلاب»، وأن «الهجوم» لا يستهدفه هو شخصياً بقدر ما يستهدف رئيس المؤتمر اليهودي الروسي جوسينسكي.

وأعلن نائب رئيس المؤتمر اليهودي الروسي ألكسندر أوسوفتسوف أنهم ينوون القيام بأعمال تندرج في إطاره العصيان المدني»، ولكنهم لا يزمعون اقتحام السجن الذي يوجد به رئيسهم أو رشق النيابة العامة الروسية بالحجارة. أما رئيس الكنيست الإسرائيلي افرام بورج فقد اقترح البدء بحملة عالمية إسرائيلية تدعو للإفراج عن جوسينسكي. وقام كل من وزير الداخلية الإسرائيلي ناتان شارانسكي ووزير الاستيعاب يولي تامير بالتصويت بـ«نعم» على هذا الاقتراح. أما الرأي العام الأمريكي، ومجلس الشيوخ فكانت تصريحاتهما أكثر حدة وصرامة.

أما المفارقة المدهشة فهي التناقض الشديد في موقف الروس. ففي الوقت الذي أعلن فيه الشارع الروسي عن ارتياحه لمثل هذا الإجراء (الجرئ جداً) كبداية لشن حملة على فساد طواغيت المال في روسيا، أعلن عمدة موسكو يوري لوجكوف أنه على استعداد لدخول السجن كرهينة بدلاً من جوسينسكي الذي يجب إطلاق سراحه، وقام 17 من طواغيت المال بتقديم طلب إلى الرئيس الروسي للإفراج عن جوسينسكي. إلا أن رد الرئيس كان قاطعاً: «لا أحد فوق القانون».

في هذا الإطار جاء رد مسئول النيابة العامة التي أمرت بالقبض على جوسينسكي بتهمة اختلاس مال الغير بأن استعداد عمدة موسكو لدخول السجن بدلاً عن جوسينسكي «كلام فارغ» الغرض منه خطف الأضواء، وفي حالة استجابة رئيس الدولة لطلب طواغيت المال بالإفراج عن المتهم ستكون هناك رسالة واضحة من قبله بأن طواغيت المال فوق القانون، وخاصة اليهود حيث لا يوجد طواغيت مال روس. وأشار مسئول وزارة العدل الروسية إلى أنه لا أحد يدعو الرئيس الأمريكي إلى التدخل بعدما أحيل شركاء الملياردير بيل جيتس إلى المحاكمة، ولكنهم في روسيا يطلبون من رئيس الدولة التدخل ويحاولون خلط الأوراق بحيث لا يمكن لأحد فصل قضايا اختلاس المال العام عن حرية الكلمة عن معاداة السامية!

إن التهمة الموجهة إلى جوسينسكي هي الاحتيال وسرقة مال الدولة. هذه التهمة وجهت إلى جميع من قاموا ببيع ممتلكات الاتحاد السوفيتي بداية من جيدار أول رئيس وزراء ليلتسين وانتهاءً بتشيرنوميردين وأناتولي تشوبايس، والفريد كوخ مهندس الخصخصة الذي فر إلى أمريكا بعد أن ثبت بيعه لممتلكات الدولة السوفيتية بأرخص ما يمكن. تم توجيه هذه التهمة أيضاً إلى كل من قاموا بالشراء

وأسوء حظ الروس فأغلب، أو بالأحرى كل من اشتروا كانوا من اليهود. الأكثر إثارة الدهشة أن الجميع حصلوا على الحكم بالبراءة بشكل أو بآخر: حيث أغلقت القضايا والملفات في أسوأ الأحوال. نظراً لأن جميع الصفقات كانت تتم على يد الكرملين في عهد بوريس يلتسين، بل وكانت حصة الكرملين تقدم بأشكال مختلفة بداية من الـ«كريديت كارت» بملايين الدولارات في البنوك الأجنبية أو شراء القصور في أوروبا ونهاية بالهدايا العينية الثمينة التي تبلغ أسعارها ملايين الدولارات.

ماذا يحدث بالضبط

يبدو أن القيادة الروسية الجديدة تريد أن تؤكد للجميع وعلى رأسهم طواغيت المال أن لا أحد فوق القانون، وأن تقوم بإحكام قبضتها على روسيا بعد أن استشرى فيها الانقسام والتحلل خلال السنوات العشر الماضية. ولكن يبدو أن هذه الإجراءات لم يكن متفق عليها ضمن شروط إدخال فلاديمير بوتين إلى المسرح السياسي الروسي، وخاصة بعد ظهور العديد من الفضائح المالية والفساد والاختلاسات في كل مكان بداية من الكرملين. ناهيك عن تورط طواغيت المال بدرجات مختلفة وتورط رئيس الدولة شخصياً، وذلك بناء على الاتهامات المقدمة من احتكارات «مربيتكس» السويسرية ضد ابنتي يلتسين لتقاضيهما ملايين الدولارات من أجل تسهيل بعض العمليات في روسيا مثل ترميمات الكرملين التي قاربت على المليار دولار. إضافة إلى تورط عمدة موسكو في مخالفات قانونية خطيرة، وإلى جانبه بريزوفسكي صديق الأسرة – أسرة بوريس يلتسين.

ولكن ماذا عن وضع الرئيس الروسي الجديد وعلاقته بما يحدث؟! ماذا يحدث بالضبط في روسيا، وما علاقة كل ذلك بعملية ترتيب الأوراق التي يديرها الصهيوني العالمي في بداية القرن الجديد؟!

لقد أصبح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في وضع لا يحسد عليه. فبمجرد أن غادر روسيا متوجهاً لزيارة بعض الدول الأوروبية ودول الاتحاد السوفيتي السابق حتى انطلقت فضيحة جوسينسكي. ورغم أن بوتين أعلن أن النيابة العامة هيئة مستقلة إلا أنه من الضروري أن يوضح موقفه من هذه القضية نظراً لاعتبارات كثيرة منها تدخل الرئيس الأمريكي وطواغيت المال اليهود في العالم كله، والأهم من كل ذلك تدخل من لا تروق لهم الخطوات التي يتخذها الرئيس الجديد من أجل إصلاح الفساد المستشري في البلاد. بيد أن هناك أكثر من طرف يدير شئون روسيا إلى جانب رئيس الدولة المركزية، ومن الصعب أن يعرف أحد بتوصيات أولئك الذين أدخلوا بوتين إلى الحلبة السياسية. ولكن من الممكن أن نتكهن بأن بوتين قد بدأ يتجاوز الدور الذي أرادوا منه أن يلعبه في التوسط بين أصحاب النفوذ في العاصمة والأقاليم. ويبدو أن بوتين يسعى إلى تخفيض عدد «الحكام» الآخرين غير المذكورين في الدستور، ولكن الموجودين بحكم الثروات والسطوة والسلطة. وهناك احتمال لسيناريوهين... **الأول** هو أن الكرملين إذ لا يدرك أنه يقدر على مواجهة جميع «الحكام» في آن واحد، يحاول فصلهم من السلطة تباعاً لاعباً على وتر التناقضات بينهم، وجاء الدور على جوسينسكي وإمبراطوريته الإعلامية المشبوهة. أي أن المسألة لا تخص ما يسمى بمعاداة السامية

أو تقييد حرية اليهود في روسيا. والسيناريو الثاني هو أن أصحاب النفوذ يستخدمون آلة الدولة (في الخفاء والعلن) كأداة للصراع بينهم كما يفعل رجال الأعمال حين يسلمون منافسيهم إلى البوليس، أو رجال المافيا حين يصفون بعضهم البعض جسدياً. ولم يكن مصادفة أن يؤكد بريزوفسكي بأن كل من مارس «البيزنس» في روسيا خلال السنوات العشر الأخيرة ارتكب العديد من المخالفات!

الواقع أن كلا السيناريوهين موجودان، وكلاً منهما خطير إذ إن الثاني يجعل الدولة العوية في يد رجال الأعمال الذين يملك أغلبهم أو كلهم جنسيات إسرائيلية إلى جانب الروسية، فيما تكمن خطورة الأول في أن السلطة قد لا تستطيع أن تقف عند حدها فتساوي جماعات الضغط وأصحاب النفوذ بالحريات الديمقراطية التي يتشدقون بها.

فهل سيستطيع بوتين أن يصلح أخطاء الذين أتوا به من أجل دور محدد دون المساس بهم، أم سيكون مصيره مثل مصير بريماكوف الذي رفض الانصياع لتهديدات وإغراءات اللوبي الصهيوني، وفضل الحياة السياسية النيابية على اللعب مع «الكبار»؟ فقبل إقالة بريماكوف من منصبه التقاه بريزوفسكي وطلب منه أن يعينه مستشاراً له وكان رد بريماكوف: «لست في حاجة إلى مستشارين من أمثالك». ولكن بريزوفسكي آنذاك كان لا يزال صديقاً للأسرة... وما حدث لبريماكوف معروف! بيد أن بوتين رئيس للدولة وليس رئيساً للوزراء، وهنا تكمن المفارقة.

الإفراج عن جوسينسكي

تم الإفراج عن جوسينسكي بعد ثلاثة أيام فقط من القبض عليه قام الغرب وأمريكا خلالها بحملة إعلامية هائلة ضد روسيا. وحاولت العديد من وسائل الإعلام إفساد رحلة بوتين إلى الخارج. جاء الإفراج مشروطاً بعدم مغادرة البلاد، والسبب - سبب الإفراج - هو أن جوسينسكي حاصل على ميدالية «الصداقة بين الشعوب» عام 1996م من بوريس يلتسين أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية، ومكافأة له على موقفه «الإيجابي» من عملية إغلاق الصحف ووسائل الإعلام عام 1993م والتي قام بها يلتسين لتنظيف الساحة السياسية الروسية من معارضيه.

كان أول تهديد صرح به الملياردير اليهودي من خلال آلته الإعلامية الضخمة: «في مؤسستي الإعلامية يوجد 21 ألف فرصة عمل»!... «السلطة في روسيا تريد أن تحول اليهود الروس إلى لجنة معادية للصهيونية»!... السلطة في روسيا تريد العودة إلى الوراء بتدمير كل الإنجازات التي تمت خلال السنوات العشر الماضية»! غير أن جوسينسكي لم يذكر تلك الإنجازات، بل وأضاف «إنني أعترف بخطئي عندما وقفت إلى جانب السلطة السابقة، فهذه السلطة هي التي أتت بالسلطة الحالية وأعطتنا ضمانات بعدم المساس بنا»!... على الدولة أن تحل مشاكلها بعيداً عني، فأنا لستُ سبب أزماتها الاقتصادية. لقد بدأت عملية الخصخصة وبيع ممتلكات الدولة السوفيتية. ولكنها لم تكن عملية خصخصة، وإنما كانت عملية توزيع حصص أخذ كل منها بالقدر الذي تستطيع معدته أن تهضمه. أي أنني كغيري من الذين أخذوا نصيبهم. أي أنني بدأت منذ عشر سنوات كغيري من الصفر، ولكنني دؤوب وذكي وعبقري، فماذا أفعل وما ذنبي في ذلك. فلماذا تأخذني الدولة كبش فداء لجميع طواغيت المال في روسيا»!... وعندما وجهوا إليه استفساراً عن جنسيته الإسرائيلية، رد في تراجيدية بالغة: «علينا نحن اليهود المساكين أن نحصل على جنسيات البلاد التي نعيش فيها، ولكن من الضروري الحصول على جنسية هذا البلد الصغير الجميل مثل قلوبنا - وأشار إلى قلبه بحركة مسرحية، فهو مخرج مسرحي سابق ذو مستوى فني متواضع جداً - والموجود دوماً في قلوبنا»!...

هذه هي تصريحات الملياردير اليهودي الروسي. علماً بأن جميع مهندسي الخصخصة كانوا من اليهود الذين ساندوا يلتسين مثل جيدار وتشوبايس وكوخ، وكذلك الذين اشتروا، أو بالأحرى حصلوا على حصتهم من أملاك الاتحاد السوفيتي بـ«الملاليم». كل ذلك يعيدنا إلى الوراء قليلاً، إلى العبارة الشهيرة التي وجهها الكاتب اليهودي الروسي إدوارد توبول إلى طواغيت المال اليهود، وبالأخص بوريس بريزوفسكي، على إثر الأزمة المالية الطاحنة التي حدثت في 17 أغسطس عام 1998م ومازالت روسيا تعاني من نتائجها إلى يومنا هذا: «أنتم تعرفون - الحديث موجه إلى طواغيت المال وبريزوفسكي بالذات - أنه عندما أصبحت جميع الأموال الألمانية في أيدي أصحاب البنوك اليهود الذين كانوا يفكرون فقط في مضاعفة ثرواتهم وسلطاتهم في ألمانيا، ظهر هناك هتلر، وانتهى الأمر بالهولوكوست».

القرن الحادي والعشرون يبدأ بنفس ما حدث في روسيا وألمانيا في بداية القرن العشرين. ليس بالضبط، ولكن بنفس الآلية. بيد أن ثورة 1917م أنقذت اليهود من مجازر محتملة نتيجة لتسلطهم وتزلفهم ومساندتهم للقيصر ضد الشعب الروسي، وساوتهم في الحقوق مع الروس وباقي القوميات الأخرى (وهو الأمر الذي يرفضونه على الإطلاق على اعتبار أنهم أكثر تمايزاً واختلافاً ويجب أن يملكوا حقوقاً وصلاحيات أكثر)، بل ووضعتهم في سدة السلطة. أما النازية في ألمانيا فقد قامت بالاتفاق مع أقطاب الحركة الصهيونية بذبح اليهود وتهجيرهم.

جوقة «التنغيم»

على الجانب الآخر يقف عازفون يهود من نوع آخر. يقفون ضد ما يحدث مع تمسكهم بكل ما حصلوا عليه وحصل عليه طواغيتهم مصرحين بنفس العبارات التاريخية القديمة لفن التنغيم اليهودي - الصهيوني. قام البروفيسور اليهودي الروسي ياكوف إيتنجر بافتعال أزمة جديدة مع الكسندر أوسوفتسوف نائب رئيس المؤتمر اليهودي، أي نائب جوسينسكي. ولعله من المهم أن نورد ما ذكره البروفيسور اليهودي بالنص من أجل إلقاء الضوء على نوتة «التنغيم» الجديدة - القديمة مثل العالم.

نص تصريحات البروفيسور اليهودي

ما يهمنا في قصة اعتقال رئيس شركة «ميديا موست» فلاديمير جوسينسكي هو أن قيادة المؤتمر اليهودي الروسي وبعض التنظيمات اليهودية الأخرى تسعى لتصوير اعتقال جوسينسكي، الذي هو رئيس المؤتمر اليهودي الروسي أيضاً، وكأنه إجراء يستهدف اليهود الروس كافة. وهكذا جاء البيان المذيل بتوقيع الكسندر أوسوفتسوف، نائب رئيس المؤتمر اليهودي الروسي أن اعتقال جوسينسكي يمثل تعدياً على استقلالية الجالية اليهودية في روسيا. وأشار البيان إلى أن هذا الإجراء جاء نتيجة

«لخروجنا على طاعة السلطات التي حاولت أكثر من مرة أن تجعل الجالية اليهودية دمية تتلاعب بها». وليس هناك ما يبرر لمحاولة تصوير ما حدث لجوسينسكي وكأنه حادث يصب في إطار معاداة السامية. ولا يمكن لأي إنسان متعقل أن يقبل ذلك خاصة وأن اعتقال رئيس شركة «ميديا موست» جاء بناءً على مبادرة من أبناء جلدته بمن فيهم رومان ابراموفيتش والكسندر ماموت. وحسب أقوال السيد أوسوفتسوف فإن هناك محاولة لتصفية قيادات الجالية اليهودية في روسيا بالطريقة التي حدثت عام 1937م.. إنها مزاعم عارية من الصحة. وزعم السيد اسوفتسوف أن المسألة اليهودية تحولت مرة أخرى من كونها مسألة مطروحة على المستوى الشعبي إلى مسألة مطروحة على المستوى الرسمي وأن جميع يهود روسيا أصبحوا في وضع صعب..

بقية التصريح على نفس الإيقاع. بيد أن جوقة التنغيم تشير أو تطالب باستقلالية الجالية اليهودية في روسيا. وكلمة «الاستقلالية» هنا مطاطة للغاية وليس لها حدود معروفة أو واضحة. ولكن في المقابل، من حق الجالية اليهودية أن تعترض على استقلالية الدولة، أي دولة ماعدا إسرائيل! أما موضوع محاولة تصوير المسألة اليهودية على أنها تجاوزت الطرح الشعبي إلى الطرح على مستوى السلطة الرسمية هو أمر في غاية التناقض، لأنه يحاول تصوير الشعب الروسي معادياً لما يسمى بالسامية وهو الأمر المستحيل تاريخياً. ويبدو أنها محاولة من جوقة التنغيم لإخفاء ما يسمى بـ«حدود الإقامة». الطريف أن هذا القانون كان سارياً في عهد القيصرية الروسية ضد اليهود بتحديد مناطق إقامتهم في القرى والأماكن النائية. إلا أن اليهود يطبقونه اليوم على الروس الذين مازالوا يعيشون في شقق مشتركة وغرف منفردة على أطراف موسكو، أما العاصمة كلها فقد أصبحت مملوكة للمواطنين الروس من اليهود الذين يملكون جنسية «البلد الصغير مثل القلب، والموجود دائماً في القلب».

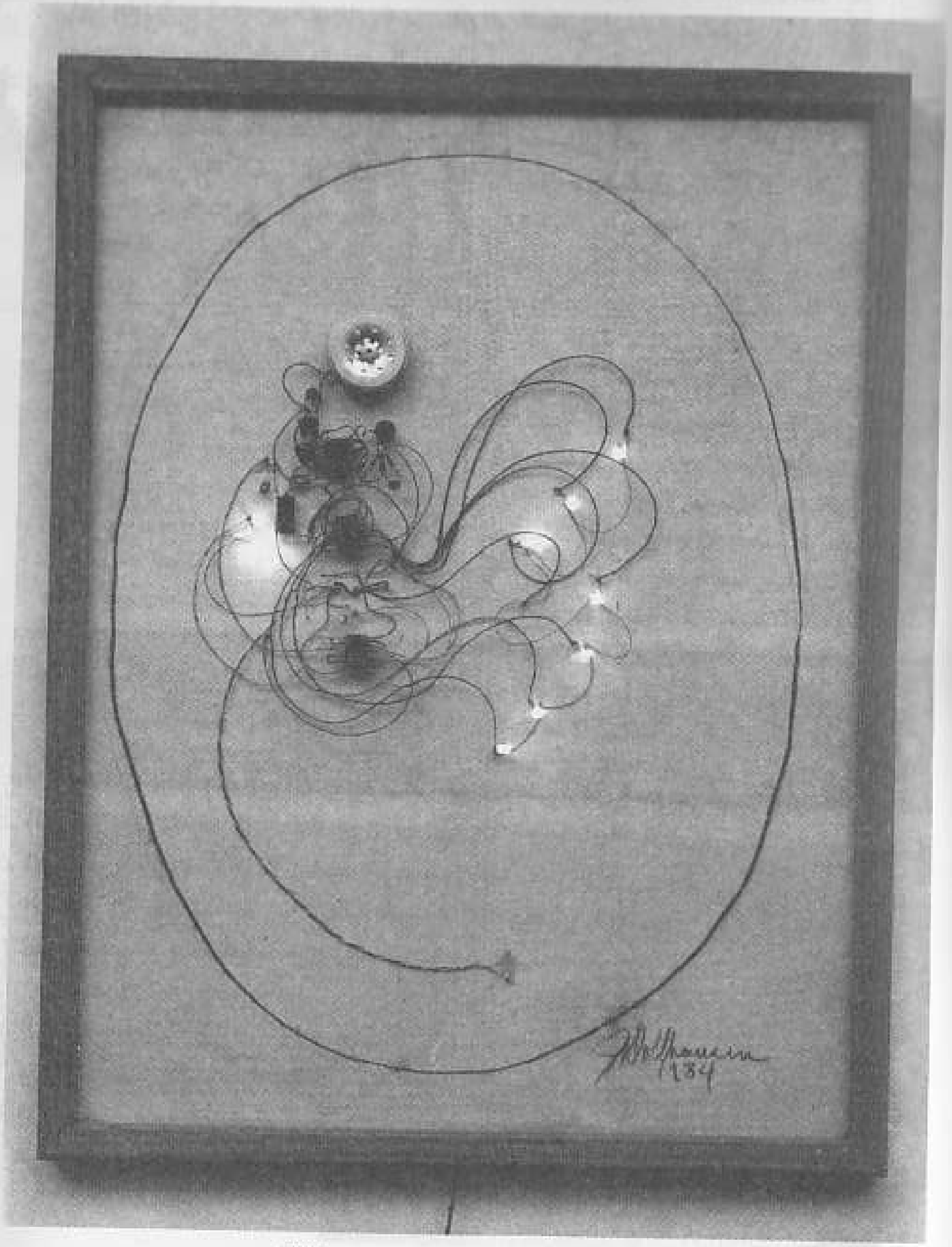

طائر الملنان، للفنان الأمريكي جاك ديل هاوزن 1984

أمريكا .. ومحو برج بابل

عادل الالوسي

بعد أن أطلقت البوارج الأمريكية قنابل «ديزي»، على أرض السواد (العراق) التي تمحو بموسيقية وألوان قوس قزح استدار الجنرال الأمريكي الملول ليدمر رتل دبابات ويدفنه بمن فيه تحت الأرض، عاد الأطفال إلى بدايات القرون الأولى يموتون بسبب أمراض عادية أحياناً، ويموتون بالسرطانات النووية في أغلب الأحيان.

ومازال العراق وأطفاله محاصراً حتى ينزف آخر قطرة من الحضارة الإنسانية، وتصبح بعدها تلك الحضارة فلكلوراً في متاحف باريس، ولندن، ونيويورك، يستفيد بها طلاب الأركيولوجي، هذا ما تبحث عنه ذاكرة أمريكا العدمية، وهنا يستعرض الكاتب دور أمريكا في العالم وأساليب هيمنتها خاصة في بلدان العالم العربي.

المحرر

اشتهرت المنطقة العربيّة منذ آلاف السنين بموقعها الجغرافي الممتاز ومقامها السامي لأنها موطن الحضارات والأديان ولأنها أرض خصبة وهبها الله الأنهار والينابيع والشمس الساطعة واليد العاملة، وقد ذكرت المنطقة العربيّة في تواريخ الإغريق واليونان عند هيرودوت وأميانوس، كما ذكرها المؤرخون العرب كالمسعودي والبلاذري وابن الجوزي ووصفوها بأنها: «الأرض المشتهاة».

ولقد أراد القدر لهذه الأمة أن تعاني ما تعانيه من طمع الطامعين وتنافس الغازين في الشرق والغرب بدءاً «بالميديين» (612 ق.م.) والسلوقيين والفرثيين والساسانيين والمغول وانتهاءً بالعثمانيين والفرس والإنجليز ثم الأمريكيين آخر المطاف.

وبعد الانحسار البريطاني في المنطقة، وظهور النفط كمادة أولية لتحريك عجلة اقتصاد الغرب المتنامي، خاضت الولايات المتحدة الأمريكية غمار تجربة اختراق المشرق العربي، فتوجهت الأنظار إلى المنطقة العربية من جديد إذ شرع التجار الأمريكيون بالتوجه إلى المنطقة بوصفها مركزاً تجارياً وطريقاً للمرور إلى الهند والشرق الأقصى، كما كان للوصف الممتع الذي لم يكن يخلو من رومانسية تركتها في الأذهان حكايات ألف ليلة وليلة والتي قرأها الأوروبيون بشغف، ظهر في مذكرات الدبلوماسيين والمستشرقين الرحالة وكان ذلك كله يشكل مادة مبكرة اعتمدت عليها وسائل الاستخبارات الأمريكية في تقييم وتحليل الوضع في المنطقة كما قامت الشركات التجارية بدور استخباري في المنطقة لضمان مصالح الولايات المتحدة، وكان لدى الشركات مجاميع ضخمة من الموظفين والعاملين والخبراء في التجارة والاقتصاد والسياسة، وقد عاد هؤلاء جميعاً بفائدة هي حصيلة مستمرة من المعلومات القيمة عن المنطقة.

ولعب الساسة الأمريكيون منذ بداية القرن العشرين دوراً مهماً في الثقافة الأمريكية وأيديولوجيتها الجديدة التي تمجّد

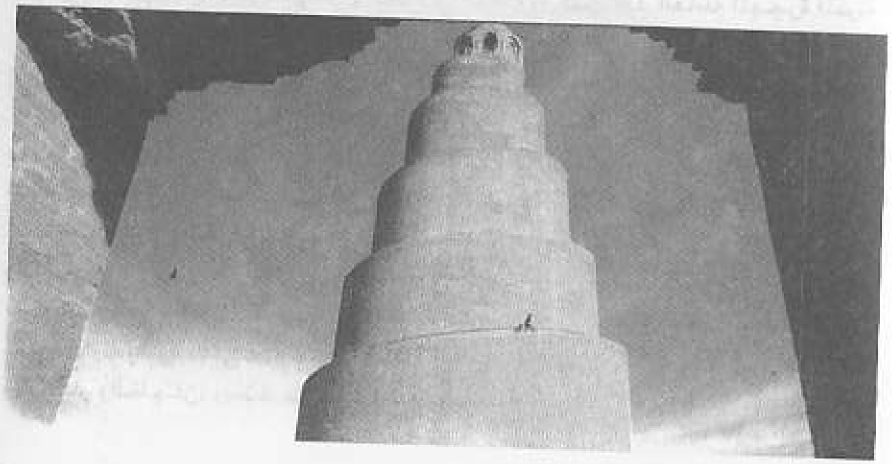

وتروج لما أسمته بالعالم الجديد مثل مؤسستي فرانكلين وكارنيجي ومن خلال تأسيس الجامعات الأمريكية في البلاد العربيّة والمطابع والمعاهد، ولعب المستشرقون دورًا في نشر بعض كتب التراث العربي سائرين على النهج الاستشراقي الاستعماري الغربي، البريطاني على وجه الخصوص، وكان الهدف واحدًا، هو التعرف على تراث الشرق والتراث العربي بالذات وفهم العقلية العربية وأساليب تفكير العرب وبذل المحاولات لتشويه معالم التراث العربي الإسلامي فظهرت في هذا المجال أسماء: فانديك (1818–1895) وولده إدوارد الهولندي الأصل الذي ترجم التوراة إلى العربية ورودلف برونو الألماني الأصل الذي نشر كتابًا عن الخوارج، وزيمر (1867–1952) الذي اتجه اتجاهًا تبشيريًا وجورج سارتون (1884–1959) الذي كتب عدة دراسات معمقة عن عرب الجزيرة.

يمتلك العالم العربي ثروات هائلة، وتتوافر فيه مقومات زراعية كبيرة تتمثل في التنوع المناخي: المداري الرطب والمناخ الموسمي والمناخ الاستوائي والصحراوي وإن اختلاف هذه الصفات المناخية يهيئ الفرصة لإيجاد تكامل في إنتاج محاصيل زراعية متنوعة يمكن لأقطار العالم العربي أن تتكامل مع بعضها البعض لسد حاجتها من المحاصيل الزراعية والغذائية والحقلية والصناعية.

ويتمتع العالم العربي بأهمية استراتيجية كبيرة لكونه يشرف على عدد من المحيطات والبحار والخلجان، ويمتد على مساحة متصلة مما يشكل أراض يمكن أن تستثمر على أفضل وجه لغرض التكامل الاقتصادي والتعاون الإستراتيجي.

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الغرب يتراجع واختفت الإمبراطوريات الاستعمارية وبرزت القومية العربية أولاً، وأصبح الغرب معتمدًا بصورة كثيفة على بلدان الخليج العربي للتزود بالطاقة. وكان أن ظهرت بعد الحرب القوة الأمريكية التي دخلت الحرب الثانية إلى جانب الحلفاء وحققت مكاسب كبيرة من غير أن تخسر شيئًا.

وهكذا بدأ تعاظم الدور الأمريكي الذي بدأ من نقطة «اللاشيء» قبل قرنين من الزمن حيث كانت مستعمرة بريطانية، أرضًا نائية معزولة يحتشد فيها أقوام من شتات الأرض إلا ما استقر فيها من سكان أصليين هم الهنود الحمر الذين ظلموا وسحقوا بقوة الجيش الأمريكي الأبيض المختلط الجنسيات، لغات وأديانًا ومعتقدات متنافرة من غير نسق مثل ذلك النسق الذي وجدناه في الأمم العريقة. بفعل المصادر الطبيعية الهائلة ورخص اليد العاملة المهجرة المكونة في معظمها من الزنوج (من أمريكا اللاتينية وأفريقيا) بدأ الرأسمال الأمريكي يتكون وبدأت القدم اليهودية تمتد إلى ذلك العالم لتجد لها موطنًا ومستقرًا.

وهكذا بدأ تسارع الأموال يتصاعد في وتائر عالية وتتسارع معها القوة الجديدة لتصبح أمريكا ذلك الحلم والهدف وطريق الوصول إلى الثروة العاجلة، حيث مناجم الذهب والغنى وحيث يجوب العالم دبلوماسيون من طراز جديد وساسة ذوو

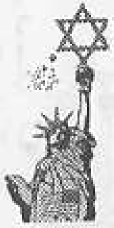

ياقات منشاة وقبعات من طراز متميز وخبث التجار والمبشرون وعلماء الآثار، والقصص عن أمريكا، والنبوغ والكاكاو وأفلام (الكاوبوي) يرتقي فيها البطل الأمريكي الأبيض الذي لا يقهر، بل القهر للضعفاء وللبسطاء.

وكانت للنظريات السيكولوجية التي استثمرها المفكرون الأمريكيون واستمدوها من الفلاسفة الألمان: شوبنهاور ونيتشه وموسيقى الجاز المطورة عن فاغنر والآراء الميكافيلية التي اعتمدها الساسة الأمريكيون.. كل ذلك خلق لدى المجتمع الأمريكي عقدة هي أكبر من زمن تكوينهم وأعمق من بعد أصالتهم، تلك هي عقدة «الأنا» التي انتهت بصياغة الإنسان الجديد «السوبرمان» والتي روجت حتى على مستوى أفلام الكارتون للأطفال.. «السوبرمان» الذي يطير في الهواء ويمشي على الماء، ويختفي ثم يظهر، ويبطش بأعدائه.. وليس من منازل، وليس من منتصر سواه، وأصبحت عقدة

«الأنا» وصورة السوبرمان هما الانعكاس الحقيقي للسيكولوجية الأمريكية وأيديولوجيتها المعاصرة.

وعلى هدي من الخطى التي تركتها الإمبراطورية التي غابت عنها الشمس، بريطانيا، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن الخطى الجديدة للإمبراطورية الجديدة تمتعت باستراتيجية تخطت حدود الفعل الكلاسيكي للاستعمار القديم، وجاءت البداية تكتيكية متمهلة حذرة، إذ عرف الأمريكيون وحسبوا وتحوطوا لموجة الحقد الكامن في صدور الشعوب وفي ضمائرهم لما تركه الإنجليز والإيطاليون والفرنسيون من حطام متقد (عند العرب بالذات) لكن الأهداف الأمريكية لم تكن خافية على الإطلاق وهي..

الوصول إلى منابع النفط

يعود تاريخ المصلحة التجارية الأمريكية من نفط العرب إلى بدايات القرن العشرين حيث بدأت الشركات الأمريكية عملها في الحقول السعودية التي كانت تهيمن عليها بريطانيا «شركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا» التي حققت اكتشافات هائلة عادت بأرباح طائلة، وكان الحصول على النفط رخيصاً إذ لم يتجاوز السعر دولارين للبرميل الواحد حتى عام 1971 بينما ارتفع اعتماد الأوروبيين واليابان إلى أكثر من ثلثي الاستهلاك ووجد الأمريكيون انفسهم (في عقد السبعينيات) أن نصف نفطهم كان مستورداً وأن نصف الواردات جاءت من الشرق الأوسط.

ووجدوا المؤشرات غير مرضية وليست مستقبلية فمخزون النفط الأمريكي قد ينفد خلال اقل من عقد واحد، فيما يُعد المخزون لأوروبا الغربية متواضعاً، نتيجة لزيادة الاستهلاك السنوي أما اليابان فهي تستورد النفط كلياً.

ومن هنا بدأ التوجه نحو النفط العربي، فقد كادت الإمدادات النفطية العربية تصل إلى الغرب بأسعار اقل مما نقول إنها زهيدة، وكان مقدراً أن يصل الطلب العالمي على النفط إلى (57) مليون برميل يومياً عام (1998) إذ بعد أن كان سعر البرميل بين عامي 1974، 1979 قد وصل إلى 38 دولاراً انخفض عام 1990 إلى (9) دولارات فقط واستقر في عام (1997) إلى ما يتراوح بين (17-19) دولاراً وهو اقل بكثير من تكلفة إنتاج البرميل الواحد في بحر الشمال أو أجزاء من الولايات المتحدة الأمريكية والذي يقدر بحوالي (30) دولار.

وحاولت الولايات المتحدة الأمريكية الضغط على بعض الدول العربية المنتجة للنفط بوسيلتين، أولهما: ربط سعر النفط بسعر برنت (نفط بحر الشمال) لكي تستمر في السيطرة على استمرار سعر النفط المتدني، والثاني: هو ما سمي بـ (استئجار النفط من الدول الصديقة) والذي يهدف إلى شراء الاحتياطي النفطي وهو مخزون في الأرض بسعر يتراوح بين (7-9) دولارات للبرميل بحجة استفادة هذه الدول من المبالغ التي تحصل عليها من إطفاء اجزاء من الديون التي عليها للدول الغربية، ويمكن الاطلاع على جذور هذه الإستراتيجية من

خلال آراء صموئيل هنتنجتون في بحثه «صراع الحضارات» والذي يرى فيه أن المد العربي والإسلامي إلى قلب أوروبا، لابد أن يعود ويعوّض بعد قرون يرى فيها أن العرب استنفدوا ثروات الغرب! (بهذه العقلية وسواها ترسم الآن جزئيات السياسة الغربية والأمريكية بالذات).

وهكذا وجدت الولايات المتحدة الأمريكية أن إمدادات النفط الرخيصة من الشرق الأوسط بدت آمنة، وكان على الولايات المتحدة أن تستبعد النفوذ السوفيتي في المنطقة، وأن تمنع أية قوة محلية من تأميم الشركات الغربية، وبذلك بدأت الـ (سي اي إيه) تلعب دورها في نشر مجساتها في المنطقة وتلعب في الخفاء والعلن دورها الذي يؤمن لها حصتها من النفط، لكن الطلب المتنامي للنفط والتسريع في تحريك الموقف النفطي الذي أدى إلى قلب موازين الأسعار والتي قفزت بسعر النفط إلى حوالي (35) دولاراً للبرميل الواحد وشعر الغرب وأمريكا أن النفط بات سلاحاً بيد العرب. وعندئذ بدأت حرب أمريكا الخفية مع العرب وخاصة مع القوى الوطنية الرافضة للهيمنة الأمريكية.

الكيان الصهيوني

لا نريد أن نقف عند هذه المسألة طويلاً لأنها أصبحت أمراً واقعاً لا يحتمل تحليلاً أو تأويلاً أو تفسيراً، فإن الدعم الأمريكي للكيان الصهيوني بدأ راسخاً منذ عام 1967 وبشكل اندفاعاً يفوق وبأضعاف ذلك الدعم البريطاني لهذا الكيان، فمنذ عام 1922 كان يهود أمريكا يشغلون رؤوس الأموال في المجتمع الأمريكي وتغزو ثقافة اليهود عقل الإعلام وتحاصره، ومنذ الأربعينيات لم يمانع الساسة الأمريكيون من إقامة دولة عبرية وبرغم ما يلقاه المواطن الأمريكي من ضغوط الضرائب لحماية دولة غريبة التكوين مجهولة المصير محاصرة - رغم قوتها العسكرية - بمستقبل غير مضمون تدور عليها وتنطبق نظرية المؤرخين العرب «الأيام» والدول والمجتمعات (آراء ابن خلدون في المقدمة) ونظريات تعاقب الأمم والحضارات وسقوطها لشبنجلر وآراء «توينبي» في التحدي والاستجابة والتي تفضي جميعاً لو جمعنا خيوطها ونسجناها، لرأيناها تنطبق على «إسرائيل» بموقعها الجغرافي المعاصر من دول ترفضها ومن تاريخ يلفظها وينكرها. بالرغم من ذلك تسعى الولايات المتحدة حثيثاً لدعم الدولة العبرية واحتضانها وتشجيع دول عربية للمفاوضات المنفردة معها لتشتيت القدرة العربية. وكرست أمريكا جهودها في هذه السياسة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي واستغلال الضعف العربي ومحاولات عزل العراق عن دوره في المنطقة والذي نتج عنه وجود عسكري ضخم في الخليج.

ومع تكريس الهدفين الرئيسيين وراء سعي أمريكا لبسط هيمنتها على العالم والعالم العربي بالذات، بدأت أساليب التدخل الأمريكي معروفة نذكر بها دون تحليل موسع لمعطياتها وهي:

أولاً- التدخل بدعوى حماية الأقليات (دعم الأكراد في شمال العراق مثلاً) والتدخل عسكرياً وتشجيع بعض الفصائل

الكردية على التمرد والانسلاخ عن الوطن الأم وإقامة ما يسمى بمناطق الحظر في شمال العراق وجنوبه.

ثانيًا- التدخل تحت دعاوى حماية حقوق الإنسان وإشاعة الديمقراطية! ليس من أجل الدفاع عن هذا المبدأ وإنما لخدمة أهدافه الإستراتيجية في محاربة ومحاصرة الدول التي لا تروق لها مواقفها أو سياساتها، وأمريكا تدعم العديد من الأنظمة التي تنتهك حقوق الإنسان وتغض الطرف عن الممارسات الموغلة باضطهاد الإنسان (الممارسات الإسرائيلية ضد المواطنين الفلسطينيين والأقلية العربية في «إسرائيل»)..

ثالثًا- التدخل بدعوى «مكافحة الإرهاب» إذ أصبح من الثابت أن الولايات المتحدة الأمريكية توجه الاتهام بممارسة الإرهاب إلى دول بعينها تلك التي لا تتوائم مع توجهاتها وسياساتها، والمتمعن في قائمة الدول المتهمة بالإرهاب لا يجد صعوبة في استشفاف الهدف الحقيقي من وراء الاتهامات الأمريكية التي ترد في تقرير سنوي تعده وزارة الخارجية الأمريكية(1).

ومن الشرق إلى الغرب نجد الدبابيس الحمراء الدامية مغروسة في جسد الخارطة الإنسانية. فمن المنطقة العربية إلى افريقيا نلقي عليها نظرة سريعة: فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991 وتراجع النفوذ البريطاني وانحسار الوجود الفرنسي في القارة حققت الولايات المتحدة الأمريكية تقدمًا في القارة السوداء من خلال توغلها في عدد من دولها الذي يرتكز على مجموعة من الأسس منها تشجيع بعض الحكومات على الدخول في شراكة ثلاثية الأبعاد (إستراتيجية، سياسية، اقتصادية) مع الولايات المتحدة وذلك من خلال تبادل الزيارات بين المسئولين الأمريكيين والدول الأفريقية على مختلف المستويات(2) وكذلك تقديم المساعدات وإسقاط المديونيات وجدولتها(3) والتعاون العسكري مع بعض الدول، وتأمين وجود أمريكي حيوي وفعال وتجنيد الأفارقة الذين يعملون في المؤسسات الدولية لخدمة الاستراتيجية الأمريكية في القارة السوداء وأيضًا السيطرة على الأسواق الافريقية من أجل تحويلها إلى مجال حيوي للاقتصاد الأمريكي واستنفاذ الثروات الأفريقية لكونها تشكل منجمًا غنيًا بتلك الثروات الأمريكية المعاصرة وسلخه من تراثه القديم ويتم ذلك بمساعدة «إسرائيل» التي لا تغمض لها عين على القارة(4).

وبالرغم من أن المصالح والتدخلات الأمريكية في دول الشرق الأقصى لا تعني كثيرًا ولا تشتبك بالمصالح العربية كما هي الحال مع أفريقيا إلا أننا نستنتج من التوغل الأمريكي في هذا الجزء من العالم دروسًا ومعطيات تنعكس مستقبلاً على العالم العربي بشكل أو بآخر.

وتتضمن الأهداف الاقتصادية للتوسع الأمريكي شرقًا العمل على ملء الفراغ الاستراتيجي في منطقة الجمهوريات الإسلامية المستقلة، ذلك الفراغ الناجم عن انهيار القبضة الحديدية للاتحاد السوفيتي القديم وخاصة بعد الاكتشافات الجديدة للبترول هناك، ومثلما تمكنت أمريكا من الهيمنة على مصادر بترول الخليج فإنها

تهدف إلى هيمنة مماثلة على تلك الجمهوريات.

ويرى بعض المحللين أن عودة الحرب الباردة من جديد أصبحت أمرًا محتملاً، فبعد إعادة تشكيل النظام العالمي الجديد صار يتوجب على الولايات المتحدة أن تجري استعداداتها لإدارة هذه الحرب الباردة من جديد مع روسيا والصين أساسًا، فضلاً عن احتمالات توجه هذه الحرب الباردة إلى مناطق أخرى من العالم، وسيكون النفط العربي أحد أدوات الحرب الباردة المحتملة.

أما في الخليج العربي فقد بات من الواضح بل المؤكد أن أمريكا مصممة على إبقاء الأزمة في منطقة الخليج لا تراوح مكانها أو بصورة أدق إبقاء الأزمة في دائرة التوتر لضمان استمرار تداعياتها على النظام الإقليمي الخليجي والمقصود هنا الأزمة بمعانيها وجوانبها الأوسع. وثمة دلائل تؤكد أن أمريكا لا تريد للتوترات والخلافات والأزمات وخاصة بين الدول الخليجية نفسها أن تجد طريقها إلى الاحتواء عن طريق إيجاد الحلول لهذه الخلافات .

ومن المفارقات أن أمريكا التي تلقي بثقلها من أجل تحقيق «تسوية شاملة» للصراع العربي – الصهيوني ، وإسدال الستار على المواجهة مع «إسرائيل»، رغم حدة التناقضات وضخامة إشكاليات هذا الصراع، تعمل في الخليج على إذكاء الصراعات وتطبيق استراتيجية التوتر الدائم في هذه المنطقة.

وبناءً على الرؤية الأمريكية وما انطوت عليه من أهداف وغايات، تخطط الولايات المتحدة لتصفية وتعميق هذه التوترات عبر العديد من الإجراءات إذ إن القناعة الأمريكية تقضي بوجود توتر دائم سواء بين دول الخليج ذاتها أو في إطار الجامعة العربية.

إن من مصلحة أمريكا التأكيد للنخب الحاكمة في الخليج أن قوات أمريكية دائمة تحميها هو الضمان الوحيد لما تعتبره تهديدًا قادمًا من العراق، ومن أجل تعميق وترسيخ هذه الهواجس فإن الدوائر الأمريكية لا تكف عن النغمة القائلة إنه إذا ما انسحبت أمريكا من الساحة الخليجية فإن تهديدًا آخر سينجز من قبل العراق (راجع مقولات مادلين أولبرايت، ووليم كوهين، وساندي بيرجر) الذين تعمدوا إثارة هذه المقولة كلما اجتمعوا بمسئول خليجي.

وعلى أساس هذا التضليل الأمريكي تظل حكومات الخليج مطالبة بمكافأة الولايات المتحدة عن طريق المساهمة في نفقات وتكاليف الوجود العسكري الأمريكي والتوسع في حجم مبيعاتها من الأسلحة الأمريكية لتعويضها عن النفقات التي تتحملها والتخفيف من الأعباء التي تقع على كاهلها.

هذه بعض المفاتيح غير المغلقة لمخططات الهيمنة الأمريكية في العالم وفي العالم العربي على وجه الخصوص. إذن فالهيمنة قائمة مستبدة، ولكن قد يسأل أحد: ماذا؟ هل سينتهي في يوم ما عصر الهيمنة

الأمريكية؟ وببساطة، الأمر مرهون بالشعوب وبحركاتها الوطنية وبضمائر حكومات الدول وسياسييها. فإن الصورة لم تعد تخفى عن اعين ملايين البشر ولم تعد بعيدة عن ضمائرهم، صورة أطفال افريقيا في الصومال من الجائعين، وفي صور القتل المزروع في صحارى افغانستان، والبلقان والشيشان واثيوبيا والسودان وجنوب لبنان وبالتالي، الصورة الحزينة التي تطل علينا من نافذة الألم اليومي لأطفال العراق، حيث نقص الغذاء وشحة الدواء والدم الذي يسيل على الركام المتهافت بفعل غارات الطائرات الأمريكية[5]

إن توسع الهيمنة الأمريكية شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا يعني أن تعمل الولايات المتحدة الأمريكية خارج نطاقها الجغرافي (الأوروبي) بما يعني ذلك من احتمالات تدخلها في أي منطقة في العالم واكتساب حق العدوان المسلح تحت غطاء حماية السلام وإدارة الأزمات وإجلاء الرعايا وامتداد الذراع الأمريكي بعيدًا وفرض قبضتها في الأبعد لا يعود إلى ذلك الذراع إلا بالوهن، فالمجتمع الأمريكي مجتمع اثقلته متطلبات الحضارة بقشرتها ومظاهرها السريعة العطب، ولنعد إلى التاريخ فإن الحضارة الرومانية لم تسقط وتنهار بفعل حرب أو مواجهة عسكرية بل كان الجيش الروماني من اشد الجيوش قوة في العالم القديم، لكن روما انهارت وهزمت، بفعل محاولاتها الهيمنة على العالم وبفعل تآكل بنيتها الأخلاقية، فقد بلغ التحلل بالمجتمع الروماني حدًا بعيدًا رافقه تحلل سياسي ثم تفكك عسكري، وقد اشار ديورانت في «قصة الحضارة» أن روما العظيمة انهارت في وقت قصير لم يتوقعه التاريخ..

إن الواقع الأمريكي وتآكل المجتمع من الداخل وانهيار الأسرة والبطالة وضغوط

نحو برج بابل الجديد

الضرائب والفساد الإداري وتحكم اللوبي اليهودي بمقدرات السياسة الداخلية، والخارجية للولايات المتحدة وغضب الشعوب، ملامح لا تشير بمستقبل افضل للقوة الأعظم وربما تفضي المعايير المزدوجة وغياب اخلاقيات السياسة إلى نهايات

سيذكرها التاريخ ربما بعدنا بأجيال، والسؤال يجاب بالسؤال: الهيمنة الأمريكية، ماذا بعد؟

خلاصة لتقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر

العراق: عقد من العقوبات

في ادناه خلاصة لما ورد في تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر الصادر في شهر كانون أول/ 1999 تحت عنوان (العراق: عقد من العقوبات).

المحتويات

1- تسع سنوات من العقوات.
2- الغذاء والصحة والماء.
3-العقوبات التجارية التي فرضتها الأمم المتحدة.
4- موقف اللجنة الدولية للصليب الأحمر فيما يتعلق بالحظر
5- مناشدة إنسانية للحظر
6- النشاطات الأخرى للجنة الدولية للصليب الأحمر في العراق.

1- تسع سنوات من العقوبات

ادت الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج إلى إنهاك العراق والشعب العراقي جراء التدمير الذي لحق بالبنى التحتية للاقتصاد. والآن وبعد تسع سنوات، من العقوبات التجارية التي فرضتها الأمم المتحدة تدهورت الأوضاع المعيشية للسكان المدنيين وارتفعت نسب التضخم، مع انخفاض الأجور، وقد زاد ذلك من معاناة المواطنين الذين يعانون يوميًا نقص الغذاء والدواء والماء الصالح للشرب.

يضاف إلى ذلك ما يسمى (بسنوات الحرب الأخرى) حيث استمرت الطائرات الأمريكية والبريطانية بقصف يومي لأهداف في شمالي العراق وجنوبه منذ عملية (ثعلب الصحراء) في شهر كانون أول/ 1998 التي اعقبت طرد العراق لمفتشي الأمم المتحدة.

وكما في الحرب، فإن السكان المدنيين هم ضحايا العقوبات، فالرواتب اليوم هي اقل من دولارين شهريًا، مع بطالة تصل نسبتها 50٪ مما دفع المواطنين لبيع مدخراتهم وأمتعتهم الشخصية من اجل البقاء. كما ادت هذه الحالة إلى تسرب اعداد كبيرة من الأطفال دون سن الخامسة عشرة من المدارس لأن (المدارس لا تعطينا المال من اجل العيش) بالإضافة إلى ما تعانيه المدارس من نقص حاد في المقاعد والماء الصالح للشرب.

في العقد الماضي، كان العراق يفتخر بأن لديه بنى تحتية مدنية حديثة وأعلى مستوى معاشي في الشرق الأوسط. كما أنه ثاني بلد مصدر للنفط. وقد استخدمت الموارد النفطية لبناء نظام صحي متكامل يقوم على شبكة واسعة من المستشفيات ومنظومة مياه وصرف صحي متطورة، وكذلك الحال بالنسبة لقطاع التربية والتعليم، وبذلك بنى العراق مجتمعًا حديثًا معتمدًا على التكنولوجيا المستوردة. ولا عجب أن تكون البنى التحتية للاقتصاد العراقي عرضة للتأثير جراء العقوبات التجارية

الشاملة لكونه يعتمد كثيراً على استيراد ما يحتاجه من الخارج. وبذلك يحتاج هذا البلد إلى عدة سنوات حتى يعود إلى الحال التي كان عليها قبل حرب الخليج في حالة رفع العقوبات المفروضة عليه.

2- الغذاء والصحة والماء:

يعد الأطفال والنساء الحوامل وكبار السن والمصابين بالأمراض المزمنة من اكثر فئات المجتمع عرضة للتأثير جراء العقوبات. ويشير تقرير اليونيسيف الصادر في تموز/ 1999 إلى تضاعف معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة من 56 حالة لكل الف ولادة حية للفترة من 1984- 1999 إلى 131 حالة لكل الف ولادة حية خلال نفس الفترة. كما تسببت العقوبات في وفاة ما يقرب (500000) الف طفل منذ حرب الخليج وحتى الآن. اما بشأن الحالة في المحافظات الشمالية وجدت الدراسة أن معدل وفيات الأطفال انخفض من 80 حالة لكل الف ولادة حية للفترة من 1984 - 1994 إلى 72 حالة للفترة من 1994 - 1999، كما يعاني الأطفال بشكل عام من انتشار الأمراض كالإسهال وسوء التغذية والكوليرا والخناق وغيرها.

كما استمر التدهور في نظام الرعاية الصحية، وهناك 130 مستشفى تفتقر إلى الإدامة. كما ان العديد من البنايات بدون نوافذ أو أبواب او مصاعد وغيرها من المستلزمات الضرورية، ناهيك عن عدم توفر المعدات اللازمة. ومما لا شك فيه أن ذلك قد انعكس سلباً على إدامة المستشفيات والمراكز الصحية المنتشرة في العراق، بالإضافة إلى عدم توفر المستلزمات التعليمية التي يحتاجها الأطباء وانقطاعهم عن العالم الخارجي، وقد اختار العديد من الأطباء والممرضات الشباب ترك مهنة الطب لتحسين اوضاعهم المعاشية، هذا إلى جانب هجرة العديد من حملة الشهادات العالية إلى خارج البلد.

3- العقوبات التجارية التي فرضتها الأمم المتحدة:

إن العقوبات التجارية التي فرضت على العراق عام 1990 جرى تجديدها عدة مرات، ووضع مجلس الأمن آليات عديدة لاستثناء بعض السلع من الحظر وفقاً لقرارات مجلس الأمن. ولقد دخلت مذكرة التفاهم الموقعة بين العراق والأمم المتحدة مرحلتها الخامسة في آذار/ 1999، وأسهمت كثيراً برفع معاناة السكان المدنيين بخصوص الغذاء والدواء. ومع ذلك فإن المذكرة لم توقف التدهور الكبير الذي أصاب النظام الصحي والقطاعات الحيوية الأخرى.

4- موقف اللجنة الدولية للصليب الأحمر من الحظر:

منذ عام 1990 ازداد اهتمام اللجنة بنتائج الحالة الإنسانية في العراق التي اتصفت بالتدهور البطيء للظروف المعاشية في البلد في اعقاب حرب الخليج، ولقد سبق أن لفتت اللجنة انتباه المجتمع الدولي لذلك من خلال النداءات العاجلة الصادرة ضمن تقاريرها السنوية.

رفعت اللجنة في أعقاب صدور قرار مجلس الأمن 661/1991 تقريراً إلى مجلس

الأمن بعد زيارة قامت بها إلى العراق. تضمن تقييماً لاحتياجات السكان وكيفية الاستجابة لها بشكل ملائم. كما تضمن استعراضاً للحالة الحرجة التي تعاني منها البنى التحتية للدولة بشكل عام، الأمر الذي يجعل العراق ضعيفاً امام الآثار الناجمة عن الحظر التجاري الشامل. وقد اثبتت هذه الحقائق صحتها فيما بعد.

لقد قدمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر مساعدات إنسانية للمدنيين ولكن هذه المساعدات لا تغني ولا تمثل إلا إجراءً جزئياً. وفي آذار/1999 قدمت اللجنة ورقة غير رسمية للأمم المتحدة تطلب فيها مراجعة الوضع الإنساني في العراق، وأن المساعدات لا يمكن ان تكون بديلاً لاقتصاد كامل ولا يمكن أن تلبي حاجات 22 مليون نسمة. أو ان تلبي حاجة البنى التحتية المنهارة في العراق.

5- مناشدة إنسانية للحظر

عززت اللجنة الدولية للصليب الأحمر ميزانيتها المخصصة للعراق بمقدار 60٪ لتمويل مشاريع جديدة. وفي عام 1999 قامت اللجنة بإجراء تقييم للمؤسسات الجراحية في 14 مستشفى حكومي ومراكز للرعاية الصحية مما ساعد في تشخيص الاحتياجات الطبية الملحة.

6- النشاطات الأخرى للجنة الدولية للصليب الأحمر في العراق

تضمن التقرير استعراضاً للمشاريع المستقبلية التي ستنفذها اللجنة في العراق للفترة من 1999 - 2000 وهي:

- إعادة تأهيل 11 مستشفى.
- توفير معدات جراحية لأكثر من 18 مستشفى جراحياً.
- توفير المطبوعات الدورية الطبية.

إصلاح 26 مركزاً للرعاية الصحية الأولية.

لمحة عن أربع مستشفيات واحد المراكز الصحية

- في مستشفى الكرامة لا شيء يعمل سوى الأطباء، فالأجهزة والمعدات والمصاعد ونظام تصريف المياه كلها لا تعمل لسنوات، إضافة إلى الأسرّة غير الصالحة للاستعمال وشحة مواد التنظيف والمعقمات.
- هناك صالتان للعمليات صالحتان للعمل فقط من أصل (6) صالات.
- عدم كفاءة أجهزة إنقاذ الحياة، وعدم توفر أجهزة المراقبة وأجهزة التشخيص، كما انخفضت نسبة العمليات للحالات غير الطارئة وكان لذلك أسوأ الأثر على نوعية العلاج المقدم وعلى صحة المرضى بشكل عام.
- يعاني مستشفى الرشاد (المستشفى النفسي والعصبي) من تدهور كبير في الأبنية ونقص في الأدوية الأمر الذي خلق صعوبات كبيرة في تقديم الخدمات.
- يحتاج المركز الصحي في الفضيلية، وهو من افقر المراكز الصحية، إلى إعادة بناء وليس إصلاح، كما يعاني من مشكلة خزن الأدوية بسبب الانقطاعات الطويلة للتيار الكهربائي الذي يؤدي بدوره إلى تلف الأدوية.

أما المشاريع التي تقوم بها اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مجال الماء

والمجاري فهي واحدة من اكبر المشاريع التي تنفذها اللجنة في العراق. فالتدمير الذي لحق بمحطات الطاقة ومشاريع ضخ المياه عام 1991 خلق حالة طوارئ لا سابقة لها خلال أسابيع قليلة، واصبح ملايين الناس غير قادرين على الحصول على مياه صالحة للشرب. واستجابة لهذه الحالة قامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالتعاون مع عدد من جمعيات الصليب الأحمر الوطنية بمواجهة الحالة من خلال توفير معدات الشرب في بغداد والمحافظات الأخرى.

لقد كان التدمير سريعًا جدًا ولكن الإصلاح سيستغرق فترات طويلة. إن العقوبات المفروضة على العراق تعني صعوبة إعادة تأهيل منشآت معالجة المياه الأمر الذي سيؤدي إلى نتائج كارثية للمنظومة التي توزع المياه للسكان المدنيين. وتواجه إمدادات المياه هذا العام تحديًا إضافيًا لكونه الأكثر جفافًا خلال العقد الحالي. فقد انخفض منسوب المياه في الأنهار بشكل ملحوظ ولا تتمكن الجهات العراقية المعنية من وضع حل لمثل هذه الحالة وقرار مجلس الأمن 986، الذي يتصف في احسن احواله، بالبطء والنقص في تقديم الحلول لمشاكل المياه الخطيرة ومياه الصرف في العراق لا يضع احكامًا لمعالجة مثل هذه الحالات الاستثنائية.

لقد اتخذت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في اذار/ 1999 إجراءات طوارئ لضمان حصول الفرد على 20 لترًا يوميًا كحد ادنى إضافة إلى خدمات الصرف الصحي حسب مقاييس منظمة الصحة العالمية. اما حالة الطاقة الكهربائية فهي ليست أفضل مما كان عليه في العام الماضي. وقد استجابت اللجنة الدولية للصليب الأحمر لذلك، بإصلاح 20 مولدة كهرباء لمساعدة مشاريع معالجة المياه في زيادة إنتاجها. ونظرًا للقلق من حالة الجفاف تشرف اللجنة الدولية على الانتهاء من تقييم الحالة المعاشية لأكثر من 60 موقعًا للمهجرين داخليًا في مدينة اربيل.

6- النشاطات الاخرى

استعرضت اللجنة في هذه الفترة النشاطات التي تقوم بها في العراق والمتعلقة بتقديم المساعدات الإنسانية لعدد من المستشفيات وأسرى الحرب العراقية الإيرانية، وزياراتها للمعتقلين الأجانب الموجودين في السجون العراقية ممن ليس لبلدانهم علاقات دبلوماسية مع العراق، بالإضافة إلى نشاطاتها في شمال العراق.

الهوامش

1- اشكال تلك التدخل معروفة ايضًا، الإعداد لانقلابات عسكرية وقلب انظمة حكم أو تدخلات عسكرية مباشرة واحتلال او إثارات للنعرات الإثنية والعنصرية والطائفية والقبلية. أو بالاتفاقيات العسكرية والأحلاف (مثال: التعاون الأمريكي التركي الإسرائيلي والذي يشكل خرقًا للجيرة والتقاليد والدين بين العرب وتركيا، فقد عقدت تركيا، وبمباركة امريكية مع الكيان الصهيوني عدة اتفاقيات تشتمل على التدريب المشترك وتبادل المعلومات وصناعات عسكرية مشتركة وارسال مراقبين عسكريين. وقد اخذت

تركيا ومنذ عام 1990 تستخدم المياه في (دجلة والفرات) المارين بالعراق وسوريا، وبتهديدها تنفيذ مشروع جنوب شرقي الاناضول المكون من (22) مشروعًا والذي سينقص مياه الفرات من 28 مليار م٣ إلى ما يقرب من 7 مليار م٣ وهو ما يسبب اضرارًا فادحة للعراق على وجه الخصوص في حوض الفرات)

2 – زار افريقيا اكثر من (25) وفدًا على مختلف المستويات والتقت وزيرة الخارجية الأمريكية بـ (25) وزيرًا للخارجية من الافارقة خلال السنوات الأخيرة.

3 – طبقًا لبعض التقديرات الأمريكية فإن حجم المساعدات المقدمة إلى الدول الافريقية تتراوح ما بين (500-550) مليون دولار سنويًا.

4 – ساعدت «إسرائيل» امريكا في التوغل بالقارة الافريقية، واستطاعت إسرائيل أن توجد فوق خارطة (37) دولة افريقية بانشطتها الاقتصادية والسياسية والأمنية والعسكرية والأهداف الأمريكية – الإسرائيلية في افريقيا تتمتع بمزايا استراتيجية اهمها حماية المصالح الإسرائيلية في الممرات المائية التي تنقل عبرها هذه المصالح كالبحر الأحمر وبحر العرب وتهديد الدول العربية المجاورة، وتهديد وحدة الاقطار المجاورة.

5 – لنتذكر ليلة 17 كانون الثاني 1991 حيث انضمت (30) دولة بقيادة امريكا ضد العراق وقصف العراق من اقصاه إلى اقصاه ولمدة (42) يومًا القيت عليه اكثر من (120) الف طن من القنابل على السكان المدنيين والبنى التحتية ومرافق الحياة.

من فيتنام إلى يونيو 1967

يسري خميس

● 6 يونية 1967. الظلام يسود القاهرة، لا يشرخه بين الحين والآخر سوى صفارات الإنذار، فنتوقف، ونتوقع حدوث شيء يكسر الصمت والغضب، فلا يحدث. كذلك تشرخه تلك الأجسام الضوئية التي كانت تمر مسرعة في الجو عاليًا وتسقط، فتذكرنا بالشهب التي كنا نراها ونشهق ونحن أطفال بالقرية - قيل لنا بعد ذلك إنها فوانيس استكشاف - فصدقنا.

● في غرفة «السويتش» المظلمة بكلية الطب البيطري بالجيزة، كنت أجلس مع زميلي طوال الليل حتى الصباح، ندخن ونسمع أخبار المعركة في الترانزستور - مرة من القاهرة ومرة من لندن فنحار ونرتبك. كنا مكلفين من قبل القيادات بحراسة منشآت الجامعة، وكان علينا نحن هيئة تدريس جامعة القاهرة حمايتها - بكل ما تمثله لنا جامعة القاهرة كرمز مهم للمقاومة الوطنية. لكنني كنت مندهشًا: كيف سنحميها؟ وليس في أيدينا أي شيء نحميها به؟ سوى قلوبنا المكشوفة المرتعشة وانفعالاتنا المكتومة المرتبكة. كيف يمكن مواجهة ذلك؟

● في الليلة التالية، تذكرت تلك المجموعة الشعرية للشاعر إريش فريد، وقررت أن أنقلها للعربية كفعل من أفعال مقاومة ما يحدث!! حتى ينكشف الوجه القبيح للولايات المتحدة الأمريكية - فالكيان الصهيوني كما نرى ليس سوى الذراع القذرة لأمريكا في المنطقة العربية، بعد طرد الاستعمار التقليدي. وما تفعله أمريكا بشكل مباشر في فيتنام تفعله بشكل غير مباشر - آنذاك - في بلاد العرب.

وعلى ضوء شمعة ابتدأت العمل بشكل محموم، وانتهيت منه في فترة قصيرة جدًا. وعندما قدمت هذا المقال لأستاذنا النبيل يحيى حقي - رحمه الله وأبقاه - وكان يعدّ عددًا خاصًا من مجلة (المجلة) تحت عنوان (المعركة) في يوليو 1967 - احتفى به احتفاءً أخجلني.

● وعندما أقرأ هذه الدراسة الآن بعد مرور ثلاث وثلاثين سنة من الزمن المرهق، أجدها يغلب عليها الانفعال الذي يقترب بها من التعميم والسذاجة، لكنها في نفس الوقت مازالت تحتوي على السخونة والطزاجة، وكثير من الأسى والغضب.

لذلك فضلت أن تنشر كما هي، فربما تثير البعض من الجيل الذي لم يعايش هذه الفترة التاريخية، ليبحث ويعرف، كيف انتصر شعب من الفلاحين زارعي وآكلي الأرز على ترسانة مسلحة شرسة لا أخلاق لها، ارتكبت ضده أفظع جرائم الحرب. وكيف كانت غضبة المثقفين العارمة في جميع أرجاء العالم، حيث تبنى الفيلسوف الكبير برتراند راسل عقد محاكمة لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية (ليندن جونسون) وإدانته كمجرم حرب. ولنتذكر: بعض الجرائم لا تسقط بالتقادم، ولا بالمعاهدات.

ي. خ

1

وفيتنام أيضًا!

لم يعد ممكنًا أن يقف الشاعر خارج أحداث العصر.

لم يعد كافيًا أن يجلس الشاعر في مقعده المريح ويحتج على رائحة الجثث البشرية التي يشمها. إن الشاعر وحده هو القادر على رؤية المعنى الكامن والجوهري وراء تفاصيل العالم المتراكمة، ووضع هذه التفاصيل داخل الإطار الكلي العام للإنسان والعالم. الشاعر وحده هو القادر على الرؤية الشاملة للعالم.

ولذا فإن مسئوليته مضاعفة في كشف كل الأقنعة وفي إبعاد دخان الزيف والمراوغة عن الحقيقة الإنسانية، بهدف تعرية الأشياء والعلاقات تعرية كاملة واضحة في جانب الصدق والحق والإنسان. لقد أصبحت مهمته تتلخص في كشف طبيعة الدوافع والقوى التي تحرك هذه العلاقات بشكل واعٍ وبحدس شفاف قادر على رؤية الأبعاد الحقيقية للمشكلات الإنسانية، تتلخص في اكتشاف أسباب الخلل الذي يلف العالم ويؤدي به إلى هذه الاضطرابات العنيفة اللاإنسانية وإلى فقدان التوازن المطلق، وفي المحاولة الجادة المخلصة من أجل استرجاع توازن العالم وقدرته على الاستمرار في جانب الصدق والحق.

أصبح الشاعر ضمير العصر الذي يعيش فيه.

وهكذا يجد الشاعر نفسه ملتزمًا بالضرورة بالإنسان وبالحياة. التزام بمعناه الرحب، التزام شامل بالإنسان وبالخضرة والعشب وبكل تفاصيل الحياة.

فباختياره طريق الشعر الصعب ألقى على نفسه مسئولية ضخمة، مسئولية تفسير هذا العالم وتغييره.

ولم يعد كافيًا أن يعتمد الشاعر في فهمه للعالم على حدسه الخاص وذكائه الفردي ورؤيته الحساسة المرهفة، فالعالم بتعقيداته الرهيبة وظهور الإمكانيات المتفوقة التي تخدم تطور هذه العلاقات المتشابكة، تلزم الشاعر بمحاولة فهم العالم والقوانين التي تحكمه والقوى التي تحركه وتدفعه بشكل علمي.

فالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في قرننا هذا علاقات ذات مستوى عالٍ من التعقيد والتشابك، لذا وجب على الشاعر بأن يدرس هذه الأشياء وبشكل علمي حتى يمكنه فهمها وتفسيرها واكتشاف حقيقتها من أجل تغييرها.

وفي المرحلة الأخيرة من القرن العشرين، وبعد تعرض الإنسان لأزمات مفزعة ومروعة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبتعقد العلاقات الاجتماعية، وبظهور قوة (العالم الثالث) التي تحاول أن تجد لنفسها مكانًا فوق الأرض وأن تمتلك حريتها في يدها) وتفاقم الصراع المستمر الحاد بين قوى الدول الاشتراكية والدول الرأسمالية، والتطور المذهل في أساليب الحرب البشعة - منذ مأساة القنبلة الذرية في هيروشيما - كل هذه الأشياء أدت إلى ترابط المصير

البشري والتحامه وتماسكه بشكل لم يسبق له مثيل من قبل.

فما يحدث في فيتنام من حرب وحشية لا يؤثر في فيتنام وحدها بل يؤثر في الإنسان في كل مكان، في شيللي وفي أوغنده وفي استراليا وفي الوطن العربي. وما يحدث اليوم في الوطن العربي من تزييف واعتداء ومحاولة لعرقلة تطور تجربتنا الاشتراكية العزيزة، هذه التجربة التي اخترناها بحرية مطلقة لتكون الشكل الملائم والوحيد لوجودنا الحر الكريم – لا يخص الوطن العربي وحده بل يخص العالم كله في كل مكان.

لقد تغيرت مهمة الشعر ووظيفته بتغير العلاقات وترابطها، وهذا الشمول الذي يحتوي العالم داخله بكل متناقضاته، هو الجو المثالي للشاعر في أن يؤدي رسالة الشعر كما ينبغي وأصبح على الشاعر أن يقف بجانب الثورة والحرية الإنسانية، وأن يرفع صوته عاليًا في وجه هؤلاء الذين يرغبون في تحطيم كل المنجزات الحضارية والثقافية والإنسانية في كل مكان. عليه أن يرفع صوته عاليًا وبشجاعة وأن يتحمل بكبرياء مسئولية اختياره طريق الشعر. عليه أن يقول ما يراه وبصدق.

«عندما ابتدأت أرى كل شيء
قالوا : حدثت جريمة قتل
وعندما ابتدأت في البحث عن الفاعل
قالوا – «خائن»
وعندما سألت من تقصدون؟
ألقوا بي على السلم
وعندما تحاملت وسألتهم ثانية
سمعتهم يقولون: «أطلقوا الرصاص عليه»

مثل هذه النهاية البشعة يمكن ببساطة أن يلقاها الشاعر في طريق كفاحه من أجل اكتشاف الحقيقة وإلقاء الضوء عليها دون توقف.

على الشاعر أن يستمر في طرح الأسئلة، رغم وعيه الكامل بأن السؤال وحده لا يكفي.

هذا ما فعله ببساطة الشاعر النمساوي المعاصر «إريش فريد» Erich Frred المولود عام 1921، والذي عاصر أهوال الحرب العالمية الثانية، واضطر للهجرة من النمسا بعد الاحتلال النازي عام 1938 متجهًا إلى إنجلترا حيث يعيش حتى الآن في لندن منذ عام 1946 ككاتب ومفكر وشاعر حر مرتبط بالإنسان وبالمصير البشري. وحيث يكتب الأشعار منذ عام 1944 مبتدئًا بديوانه الأول (ألمانيا) كاتبًا سبعة دواوين شعرية كان آخرها بعنوان (وفيتنام أيضًا) الذي هو بمثابة وثيقة فنية تاريخية يدين بها الحرب والإمبريالية على مدى تاريخ الإنسانية.

والشاعر يكتب شعره باللغة الألمانية، لكن ما يلفت النظر أنه ينشر كل دواوينه في ألمانيا، وألمانيا الغربية بالتحديد. الشيء الذي يضيء لنا موقفًا جديرًا بالتأمل فالشاعر يرى الأشياء بطريقة مختلفة عن الطريقة التي يراها بها رجل السياسة. ففي ظل العلاقات السياسية الرأسمالية اللاإنسانية في ألمانيا الغربية يرتفع صوت (إريش فريد) و(بيتر فايس)

و(نتتسبرجر) وغيرهم من الكتاب الذين يقفون في جانب التقدم والحرية والثورة رغم السيطرة المطلقة التي يفرضها النظام الاحتكاري على العلاقات القائمة، ورغم الدخان المزيف الذي يثار حول كل الحقائق الإنسانية إلا أنه غير قادر على حجب رؤية الشاعر النفاذة للدوافع الحقيقية لهذه العلاقات، ولا يمنعه مطلقًا من أن يمسك الحقيقة في يديه، ويلقي بها في وجه العالم بقسوة.

وهذا مطمئن لحد كبير، فما زالت هناك وسط أحراش الاحتكار الرأسمالي أصوات إنسانية طيبة تقف في جانب التقدم الحقيقي والروحي للإنسان.

إن إريش فريد يقدم لنا تكنيكًا خاصًا في المعالجة الشعرية. إنه يعرض الفكرة الشعرية ببساطة متناهية وبشكل أقرب ما يكون إلى العرض الموضوعي. يثيره تعليق ما في الإذاعة أو في التليفزيون أو يستفزه خبر ما في جريدة يومية، فيكتشف بحدس الفنان الواعي الملتزم ما وراء هذا التعليق أو ذاك الخبر، بعد أن يضيف إليه أبعادًا إنسانية جديدة.

إنه يكتشف الشيء غير العادي الذي يكمن في الشيء العادي.

لقد تخلى كلية عن المفهوم الكلاسيكي للشعر الحديث الذي قدمه لنا أزرا باوند واليوت. لقد تخلى عن «الصورة الشعرية» المعقدة أصبحت القصيدة شبه تقريرية أو شبه تسجيلية، حتى أنه يمكننا أن نسمي هذا النوع من الشعر «الشعر التسجيلي».

«17 – 22 مايو 1966»

في دا نانج
ولمدة خمسة أيام كاملة
أبلغ يوميًا:
طلقات متقطعة في بعض الأحيان.
في اليوم السادس أبلغ:
أثناء فترة المقاومة في الخمسة الأيام الأخيرة في دا نانج
حتى الآن حوالي ألف ضحية.

إنه يسجل أحداث الواقع الصلبة بكل تفاصيلها المأساوية بشكل تقريري ثم يضيف إليها الكثير من ذاته المحملة بالوعي والحساسية والفهم والشعر.

لقد أصبح التقرير في يديه شعرًا! بل إنه اكتشف شعرية الأعداد الحسابية والتواريخ اليومية، فالأشياء والأعداد والتقارير عندما تمر بداخل الشاعر تستحيل شعرًا داعيًا وصادقًا وحقيقيًا.

لقد تخلى فريد عن الفهم الكلاسيكي للقصيدة وقدم لنا شكلاً جديدًا مميزًا، يعتمد فيه أساسًا على فضح التناقض paradox الموجود في الأحداث التي حوله ومن خلال عملية (المونتاج) التي يستغل فيها إمكانية (مقابلة) صورة بأخرى أو حدث بآخر أو رقم بآخر حتى يعطي شعره الأثر النفاذ المطلوب.

وفي اعتقادي إن هذا الشكل الجديد الذي قدمه فريد كان ضروريًا فهو مرتبط بشكل جدلي مع مضمون الأفكار الثورية التي تتخلل الديوان.

إن مأساة فيتنام بما تحتويه من حدة وعنف وجثث بشرية وتزييف وألم ودم لا

يمكن أن يعبر عنها الشاعر إلا بشعر نفاذ وحاد بنفس الدرجة من حدة المأساة، إن المأساة واضحة ومروعة، كذلك يجب أن يكون الشعر واضحًا ومروعًا ايضًا.

فبمناسبة (عيد الأطفال) في فيتنام القى الطيارون الأمريكيون لعب اطفال على القرى التي سبق ان القوا عليها القنابل الحارقة منذ أسبوعين. مثل هذا الحدث المليء بالتناقض والسخرية المريرة يعبر عنها فريد بكل ما يملكه من طاقة شعرية وقدرة فائقة على التقاط جزئيات الواقع المتناثرة المأساوية وعرضها بشكل مذهل.

«لعب أطفال موجهة»

قذائف من لعب الأطفال
بدلاً من القنابل
في عيد الأطفال.
قال اخصائي الأسواق
هذا
يترك اثرًا كبيرًا ولا شك
لقد ترك اثرًا كبيرًا جدًا
على العالم كله
لو ان هذه الطائرات
القت هذه اللعب
قبل اربعة عشر يومًا
ثم القيت القنابل الآن
لكان لطفلي الاثنين من كرمكم
شيئًا ما يلعبون به.

لمدة اربعة عشر يومًا

فيدين الاستعمار الأمريكي ومنطقه المتناقض اللاإنساني البشع، حيث يوزعون اللعب مع القنابل بلا خجل، وحيث يعدون اللحم البشري بطرق لم يعرفها التاريخ من قبل:

«كان اللحم يعد بإحدى طريقتين
إما بسرعة بواسطة النابالم
او ببطء باستخدام البنزين
إن الطريقة الأخيرة طريقة بربرية
اما الطريقة الأولى فهي ليست
كذلك»

ويعرض لنا إريش فريد بمنطق اليم وساخر الحد الذي وصلت إليه بشاعة تصرفات أمريكا في حرب فيتنام القذرة تجاه الفلاحين والأطفال.

«الخدمات الطبية المنوعة»

لم يحدث الهجوم بشكل عفوي
لقد حاولوا بالفعل
قبل إلقاء النابالم والقنابل
على مناطق العدو
إرسال مساعدين
لجمع الأطفال
الكبار منهم والصغار
كي يرحلوا إلى المدينة حيث الأمان
....
ومع ذلك يجب ان تتوقف
هذه الخدمات الطبية
فالقرويون الثائرون
يقتلون هؤلاء المساعدين
ولا يتركون الفرصة لأطفالهم
في ان يعيشوا في امان وسلام.
وهكذا لم يعد لقاذفي القنابل
اختيار آخر

والشاعر لا يتوانى مطلقًا في أن يشير بيده إلى صانع هذه المجازر البشرية، إلى الرئيس جونسون الذي أعلن بلا خجل وبلا تردد امام أعين العالم كله في 8 ابريل عام 1965 «ان الضعف البشري يحتاج احيانًا للقوة والعنف من أجل استمرار الأمن والمحافظة عليه، حيث تصبح الحرب اداة للسلام. لذا فإنني اعلن ضرورة استمرار الحرب في فيتنام!» هكذا، بالحرف الواحد، أصبحت الحرب اداة للسلام! وأصبح جونسون هتلر جديدًا.

«ترتيب جديد للمراكز»

قبل ظهور الرئيس جونسون
كان هتلر في المركز الأول.
ولم يات بعده آخر لمدة طويلة
ثم جاء الرئيس جونسون.
لكن منذ مؤتمر هونولولو
يحتل جونسون المركز الأول
وبعد مسافة قصيرة
ياتي هتلر
إن الرئيس يتقدم ببطء
كطواحين الرب
وتتبادل المراكز
من أجل الديمقراطية»

وقام جونسون بدور أكل لحوم البشر الذي يفزع أطفال القرويين في أكواخهم

ومزارعهم وأحلامهم، أكل البشر الأعمى الذي يكره كل الأشياء الحية الطازجة ويرشها بالنار السائلة التي تحرق كل شيء حولها.

ولما كان الاستعمار يحتاج إلى من يخدمه فقد استعان جونسون بكل القوى الرجعية الخائنة من اهل البلدان. لقد استعان بالجنرال (كاوكي) الذي قال بالحرف الواحد في 6 يوليو 1965 «إن مثلي الأعلى هو هتلر».

«توضيح»
لا يمكن ان يحرق الامريكيون
اطفال فيتنام
دون ضرورة
لا يمكن ان يحمي الامريكيون
المارشال كاوكي
إذا كان في حقيقته وغدًا
إنهم يحمونه بالفعل
وهذا يعني انه ليس مضرًا لهذه الدرجة
وان ما يقوله
لا يمكن ان يكون خطئًا فادحًا
إنه يقول بالفعل
إن مثله الاعلى هو ادولف هتلر
وهو لا يمكن ان يكون سيئًا لهذه الدرجة
إذا كان مثله الأعلى هتلر
ومع ذلك فقد أحرق هتلر الأطفال ايضًا
ليس في فيتنام ولكن في مكان قريب
لماذا إذن يستفزنا ذلك
إذا ما فعله الامريكيون.
لقد ابدع الاستعمار في اساليب العنف
والوحشية اقسى ما وصل إليه الإنسان

القديم والحديث، حيث القى الحصار
على قرى كاملة سماها بالقرى الاستراتيجية.
«عملية القرى الاستراتيجية»
إن محاولة
حصار وطن كامل من القرويين
في معتقلات مغلقة
ليلاً خلف الأسلاك الشائكة
ونهارًا في معسكرات العمل تحت الحراسة
بواسطة وحدات الأمن.
مثل هذه المحاولة
فكرة جديدة تمامًا
في تاريخ المستعمرات القديمة
تحطمت كلية بواسطة الثوار
القادمين من الشمال
بالرغم من انها كانت تعد بالتفاؤل.

لقد حدد إريش فريد المسئولية بوضوح والقاها على امريكا قائدة الثورة المضادة بصوت عالٍ. إنه يدين الإمبريالية الأمريكية لخلقها هذه الأوضاع اللاإنسانية البشعة التي يعيش فيها فلاحو فيتنام الجنوبية. إنه يدين الاحتكارات الأمريكية صاحبة المصلحة الوحيدة في هذه الحرب القذرة التي يستعمل فيها ضد أهلها الآمنين أحدث وسائل الحرب المروعة مثل قنابل النابالم الحارقة والغازات السامة والمواد الكيميائية وحرب الجراثيم.

إنه يدين الاحتكارات الأمريكية التي ضربت بكل النداءات المخلصة من يوثانت ومن الدول الاشتراكية والدول الأخرى المحبة للسلام ومن الكتاب والمثقفين والفنانين في كل انحاء

العالم، ضربت بها عرض الحائط ولم تستمع لهذه الأصوات الإنسانية واستمرت في مواصلة استعمال العنف والبربرية.

في تقرير من مجلة القوات الحربية

الأمريكية ثبت أن عدد القنابل التي ألقيت على قرى شمال فيتنام أكثر من عدد القنابل التي ألقيت في الحرب العالمية الثانية!!!

لقد أصبحت عملية (القتل الجماعي) هي القاعدة. أصبح من الممكن حرق قرية بأكملها

ترفع العلم رغم الهزيمة

على سبيل الخطأ، أو عمداً مثل حرق قرية (مان كوانج) في 24 مارس سنة 1965 حيث أحرقت القرية بأكملها بأطفالها وفلاحيها وأمنياتها البسيطة ورغبتها القديمة في الحياة.

أحرقت المدرسة بأطفالها الذين كان عددهم «42 طفلاً في المدرسة»

ماذا تعلم الأطفال من القنابل في مان كوانج؟

ماذا تعلمنا نحن من أطفال مدرسة مان كوانج؟

ماذا تعلمنا

من بولنده وستالنجراد ونجازاكي والسويس؟

إن الأمر ليس خطيراً لهذه الدرجة.

أو أنه لم يعد خطيراً بعد.

أم أنه

من المستحيل أن يحدث ذلك؟

لقد حدث بالفعل. والعالم كله يرى ويسمع الفظائع والأهوال التي ترتكبها أمريكا في حق شعب فيتنام الحر باسم الديمقراطية والسلام ومنع انتشار الشيوعية! العالم كله يشم رائحة الشواء البشري ومدام نو «تصفق باستحسان للشواء البشري» هكذا قالت عندما شاهدت انتحار راهب بوذي احتجاجاً على هذه الأعمال الوحشية دون جدوى. وفي فيتنام تبحث الفتاة عن حبيبها بين ركام الأنقاض المشتعلة دون جدوى.

لماذا لم تكن مثل شجرة (الترونج كوان)؟

قالت الفتاة.

هذا يعني

أن حبيبها كان أحد المحترقين.

إن النار لم تشب في أوراق شجر الترونج كوان

مثلما شبت في عيدان البوص وفي الجلد البشري.

حيث يساق إلى الحرب الشباب الأمريكي المغرر به – دون هدف وبلا قضية – حيث يلقى بالشباب وسط هذه الأحراش مصورين له أنه يدافع من أجل قضية الحرية والسلام والديمقراطية. وعندما يكتشفون الحقيقة البشعة، حقيقة العبث الذي دفعوا بهم إليه في فيتنام، يصابون بخيبة أمل عميقة عند رؤيتهم للنتائج المخزية للديمقراطية الأمريكية أو يصلون إلى درجة من التبلد الحسي، فاقدين فيها كل إنسانية، متحولين إلى آلة جيدة للقتل في يد احتكارات أمريكا.

عندما سأل أحد ضباط الجيش الأمريكي في فيتنام عن شعوره عند معايشته للحرب ومشاركته فيها بكل تفاصيلها المروعة:

أجاب: لا شيء!

لا شيء عند رؤية الموتى

لا شيء عند سماع صرخات النسوة والأنفاس اللاهثة

وعذاب المسجونين

لا شيء عند تحرك بقايا الأطفال المحترقة»

لا شيء عند مشاهدة تفاصيل المأساة بكل أنواعها المفزعة لا شيء عند تحول الألوان الحية النابضة إلى ألوان باردة جافة ميتة

«توطن»

أيد بيضاء

شعر أحمر

عيون زرقاء

أحجار بيضاء

دم أحمر

شفاه زرقاء

عظام بيضاء

رمل أحمر

سماء زرقاء

هذا التغير في الألوان الذي يرى من خلاله الشاعر أبعاد المأساة وآثرها.

بلغ عدد القتلى حتى 108:1965 ألف شخص بينهم 72 ألف شخص من المدنيين.

إن إريش فريد يعي قضية عصرنا الأساسية وهي الصراع من أجل الحرية والثورة، يرى أن فيتنام تهدد العالم كله. «إن فيتنام هي ألمانيا، وقدر فيتنام هو قدر ألمانيا، والقنابل التي تلقى على فيتنام من أجل حريته، هي نفس القنابل التي تلقى على ألمانيا من أجل حريتها أيضاً! والمارشال كاوكي يقابله إيرهارد في ألمانيا»

لكن في داخل الفيتناميين

فكرة حية ومشتعلة

أن الاتحاد هو المستقبل الحتمي

وهذا الحق الغالي عندهم

يحققونه بصعوبة وبمعاناة

هذا الحق الرخيص عندنا

إن قلب ألمانيا يدق في فيتنام.

إن الشاعر يعي ارتباط مصير العالم ويثور على كل ما هو مزيف وغير حقيقي

ويضع المرآة أمام وجه الدول الاستعمارية مبينًا لها مدى بشاعة الوجه الذي يضج بالكراهية والحقد. إنه يوجه الحديث لرجال السياسة في ألمانيا الغربية

«قبل الطبع»

مازالت هناك ساحة بيضاء على اليسار
يمكن الكتابة فيها
على اليمين كتب.. (هم حظنا التعس)
ما هو أول الجملة
فلتكتبوا (الصينيون) فلتكتبوا (الفيتناميون الشماليون)
اكتبوا كل الذين تكرهونهم
اكتبوا ببساطة (البلاشفة)
ثم اتبعوها هكذا:
(ديجول) و(المحايدون)
(من الحديقة الأفرو آسيوية)
(المتظاهرون ضد الحرب الذرية)
و(الحمر) (اليوغوسلاف) (العمال الأجانب)
الأحياء منهم والأموات
فقط تابعوا ذلك!

لكن الشعب الفيتنامي العظيم الذي قاوم الاستعمار الفرنسي والاستعمار الياباني منذ عام 1883 حتى هزيمة (دين بين فو) النكراء، الشعب الذي ناضل بصلابة تدعو للإعجاب مدة تقرب من قرن كامل ضد قوى القهر والاستعمار. الشعب البطل يقف بكل قواه الثورية والتقدمية تحت قيادة الفيت كونج موقفًا صلبًا متماسكًا وعظيمًا.

يقف القرويون بكل اعتزازهم بالأرض وبالأرز وبالحياة مقابل أمريكا قائدة الثورة المضادة في العالم ساخرين من قنابلها وغازاتها وسمومها.

إن فكرة الثورة والحرية والاتحاد هي كل ما يملكه فلاحو فيتنام، هذه الفكرة التي يعتزون بها ويضحون من أجلها، هذه الفكرة التي تفتقدها وتزيفها أمريكا. إن فلاحي فيتنام يستمعون لنصيحة ماوتسي تونج.

ويمثلون الأسماك الحرة داخل مياه البحر الغريقة. وعندما علق بمرح قائد القوات الأمريكية أنه سوف يجفف هذا البحر، كان ذلك يعني نهاية أمريكا وابتلاع البحر لها.

«أرادت القطة صيد السمك
جرى السمك في البحر
اغتاظت القطة وقالت:
«لو أن البحر يحمي الأسماك
إذن يجب أن أشرب البحر كله
حينئذ لا يقدر للبحر أن يحميها
عند ذلك فقط أرجع للمنزل»
فتحت القطة فمها لآخره
وقفزت في البحر الثائر
ابتدأت في الغرق في الحال
وانهارت شجاعتها كلية».

ابتلع البحر كل هذه القطط المجنونة العمياء بكل حماقتها وهوسها وهي ترقص رقصة الحرب بين السماء وبين أسنان الماء وأسماك القرش المفترسة.

«أسماك القرش تتكاثر باستمرار
نحن نقفز
من مازق إلى مازق آخر»

نقفز بلا جدوى داخل مناطق مغلقة ومصير محتوم.

نقفز نحو العدم المطلق، نحو الفشل المطلق، نحو الهزيمة المطلقة.

والنصر للشعوب وللحرية والثورة.

عاش نضال الشعب الفيتنامي الصديق.

عاش نضال الشعب العربي البطل.

عاش نضال الشعوب والأحرار في كل مكان من أجل الحرية والثورة والسلام.

إحْصَائيّة – ندخُلُ بها القَرْنَ السّعيد ٢٠٠٠

تبعًا لتقارير منظمة الصحة العالمية W H O وتقارير صندوق الأمم المتحدة لرعاية الأطفال Unicef يَموتُ في العراقِ كلَّ شهر
بِسَبَبِ حصار اليانكي
ستّةُ آلاف طفْل
غير الذين لَمْ يُسَجلوا
في أضابير وزارة الصّحة.
هيّا سويًا نحسبُ الحِسْبَة:

72,000 = 12 × 6,000

يَعْني: اثنان وسبعون ألف طفل في العام يموتون في العراق
بسبب حصار اليانكي:

720,000 = 10 × 72,000

يعني: في عشرة أعوامٍ
منذ عام 1991 وحتى عام 2000
سبعمائة وعشرون ألف طفل
يموتون في العراق
بسبب حصار اليانكي
سبعمائة وعشرون ألف طفل
انتهتْ حياتُهم مِنْ قَبْلِ أنْ تَبْدأ.

ليسلي ستول
مُقَدّمة قناة التّليفزيون الأمريكية CBS وَجَّهَتْ سُؤالاً للسيدة مادلين أولبرايت وزيرة خارجية USA
السؤال هو:
هَلْ تُعادلُ كلَّ هذه الأكوام من الأطفال الموتى المكاسبَ التي تُحققُها الولايات المتحدة الأمريكية
من ذلك الحصار؟!
نَظَرَتْ مادلين في عدسة الكاميرا بحياديّة بريئة
وقالت:
نَعَمْ. تُعادِلُ.

لمْ تنتهِ الحسبةُ بَعْد
أضِفْ إليها ما يلي:

$1,440,000 = 2 \times 720,000$

مليون واربعمائة واربعون الف اب
وأمّ
على طول البلاد وعَرْضها
فيما بين النّهرين وما حَوْلَهُما:
النجَف ،البَصـرة، الكوفـة، ارْبيل،
الموصل، السليمانية، سامرّاء، كربلاء،
دُهوك، كَرْكوك، نينوى،
بَعقُوبة الحِلّة، ســاخُو، تكريت،
حَمّام علي، جِليبه، مَنْدلي، الكاظمية،
الحـبّانيـة، الدّيوانيـة، الـثّرثار،
الأهوار،
عمُوكة، السّويقة، الصّخري، لَمَجْ،
بَغْدادُ، وَحْدُها بغداد
مليون واربعمائة واربعون الف امّ واب
محْروقو القلبْ
يكْظمُون الحُزنَ والغضَبْ.

● لم تنته الحسبةُ بعدْ
بعد لم تنته.

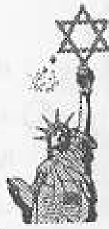

العصب العاري

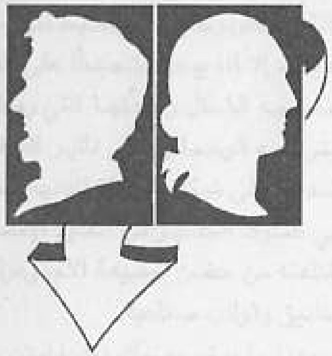

فن بلا ماض.. زيارة إلى ورشة ديل هاوزن
محمد عرابي

الأغنياء وسيدهم (شعر)
آلن جينسبرج
ت: أحمد عمر شاهين

من مفكرة العصفور
محمد يوسف

فن بلا ماضٍ
أو زيـــارة إلى ورشة ديل هاوزن

محمد عرابي

لاشك في أن الحضارة الغربية الحديثة، وبريقها الأسطوري، بدأت تتشكل مع عصر النهضة الإيطالية، وبثقافة عصر الأنوار عبرت بالفنون الجميلة إلى خارج الحدود، وتأثر فنانو تلك الحضارة بسحر الشرق وأساطيره فهذا الشرق هو الذي صاغ بونار وبرنار وموريس دينس وديلا كروا وغيرهم، من الذين عشقوا الشرق، كما أضافت إليهم بيكاسو وخوان ميرو، وبول كلي، وفان جوخ، وسيزان وجوجان وجويا وجوستاف مورو، ودوميه وغيرهم، هؤلاء الفنانون استطاعوا أن يدخلوا تاريخ الفن عبر الاحتكاك بالثقافة الإنسانية وأساطيرها ومعتقداتها وهضمها وبعثها مرة أخرى. هكذا كانت حال الفن في أوروبا، ثروة ثقافية أنتجت ثروة فنية كبيرة، هكذا تعلمنا ودرسنا في كلية الفنون الجميلة، وكنت ذلك الشاب الريفي البسيط الذي التحق بالفنون في صيف 1979، وانفتح وعيه على هؤلاء الفنانين الأوروبيين.

بينما أمريكا وثقافتها لم تكن تحتل من الذاكرة سوى صورة شوهاء لكائن إليكتروني متوحش، صاحب أذرع عنكبوتية غازية، وظلت ومازالت هذه الصورة بسبب من علاقتها بالعالم وتاريخها المظلم من التدخلات في ثقافة الشعوب ومحوها كلما عنّ لها ذلك، بدءاً من الهنود الحمر، أصحاب أمريكا الحقيقيين، إلى حرب الخليج الثانية، مروراً بانتهاك فيتنام وقبلها مأساة إلقاء القنبلة الذرية فوق نجازاكي وهيروشيما، وتبنيها للصهيونية وذرع دولتها

في قلب الشرق العربي، كل هذا وغيره كون صورة أمريكا في مخيلتي كما هي في مخيلة معظم شعوب العالم.

وهنا تكمن المفارقة التي لم أفكر فيها، فقد أكون تكونت، على فن أوروبا خاصة بعد عصر الأنوار، كما أظن أن معظم الفنانين تتلمذوا عليه، وبالتالي لم أكن أفكر في أمريكا للأسباب السابقة، حتى إنني كنت أعد أن المسافر إلى أمريكا يعتبر خائناً لوطنه، مثل السفر إلى «إسرائيل» تماماً.

غير أن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن، فأنا الذي كنت أحلم بالسفر إلى أسبانيا فوجئت بأن طريقي إلى أمريكا. فالمناخ الثقافي منذ الثمانينيات وحتى أوائل التسعينيات كان مناخاً كابوسياً، فهيأ لي السفر إلى أمريكا، وما لها في الذاكرة، وكان السفر هروباً من التردي العام والخاص، فقد نخر السوس في جسد الثقافة المصرية، وفي المجال التشكيلي على وجه الخصوص، وانطلق يحرق اليابس والأخضر، فانسحب كثيرون، وصمد قليلون، بينما ظهرت الطفيليات التي أرادوا لها أن تطفو على سطح الثقافة المصرية لتمرح كيفما تشاء.

ففي 21 يناير 1994 بدأت رحلتي إلى الأرض الجديدة أمريكا، وبعد رحلة مليئة بالتفاصيل، ليس وقتها الآن، تعرفت خلالها على بعض الفنانين، منهم كريس واتس، وجاك ديل هاوزن، وجوهوك إنهول (إيطالية الأصل)، وروس كوتس، وميكل مندل، وإريك أستاذ تاريخ الفن وديبورا هينز.

وعلى مر عامين دارت بيننا مناقشات عن الفن والفنانين والحياة، جعلتني أقترب من عقول هؤلاء، فمنهم من يحاول إعطاء نظرية شرعية بالعودة إلى جذوره الثقافية والعرقية والمكانية التي تمتد إلى أيرلندا، مثل كريس واتس، ومنهم من يبدو متصالحاً مع زمانه من حيث ممارسة الفن، وذلك بإقراره للعلم والآلة والتكنولوجيا، كوسيط فني مثير للخيال. إلا أنه يبدو متحفظاً على العولمة وهندسية الشكل وحدّتها التي ربما تمثل اعتراضه الوجداني على تأثير العقلانية الشديدة على شكل الحياة المدنية الحديثة التي طمرت الكثير من القيم الإنسانية واقتلعته من حضن الطبيعة الأم، وعزلته في صناديق وقوالب صناعية.

وهذا ما يوضحه جاك ديل هاوزن خاصة حينما يقول: ***«يرى الناس أن التكنولوجيا هي مجموعة صناديق ومفاتيح تعمل باللمس، ولذلك لا أندهش حينما يصفون أعمالي بأن «أمعاءها خارجة»، فأنا أكره فكرة قضاء الساعات لتخبئة المجهود والوقت الذي قضيته في بناء «الماكينة».***

إذ إن عمليات بناء الماكينة ذات الوسائط المختلطة، تتطلب العديد من الأشياء الفيزيائية التي تسهم في تحويل الطاقة الكهربائية إلى إيقاع حركي متمثلاً في حركة الضوء والصوت. فتلك الأشياء وعمليات تجميعها تعتبر تصويراً وتجسيداً لإيقاع تعاملي مع الماكينة في مراحل بنائها من بدايتها إلى نهايتها»[1].

فالإيقاع المكاني في أعماله ليس بإيقاع المدنية الحديثة ذات الخطوط الهندسية الحادة المتقاطعة، والحركة المنضبطة أو ذلك الذي تظهر عليه بصمات الإنسان عبر عصوره التاريخية وتحولاته الفكرية التي تميز مكاناً بصفات تختلف عن مكان آخر، وإنما هو الإيقاع العفوي للبراري أو الأحراش الذي يتشابه نسبياً في معظم الأزمنة والأمكنة. وذلك على الرغم من استخدامه لخامات وأدوات عصرية مثل شرائح السليكون وقطع الترانزستور، والأسلاك، ولمبات الكهرباء وغيرها..

فالفن الأمريكي ربما يكون معبراً عن عقلية الإنسان الأمريكي الذي لا يتعدى وجوده على أرض الهنود الحمر أكثر من مائتي عام تقريباً.

فالمحو الذي قصده الإنسان الأبيض للثقافة المحلية للهند أمريكا. جعل الأمريكيين الجدد يرتدون في ذاكرتهم إلى حيث انتهت الحداثة الأوروبية.

أما ما قدموه من نزعات فنية مثل البرقورمنس فن الجسد والأرض والتجهيز في الفراغ وغيره.. يبدو شبيهاً بفكرة الموضة والفن الزائل. فلم يمتد تأثيره، ويتلاشى بالمقارنة بالحركات الأوروبية التي قدمتها الثقافة الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

إلا أنه لم تعد هناك فكرة التيار المسيطر الذي يتميز بملامح خاصة.

ولا يغيب عن فطنة القارئ. أننا لسنا بصدد تقديم دراسة نقدية للفن الأمريكي لاتساع مساحته وضيق المساحة المتاحة في هذا العدد.

الهوامش

1- كتاب الفنان جاك ديل هاورن.

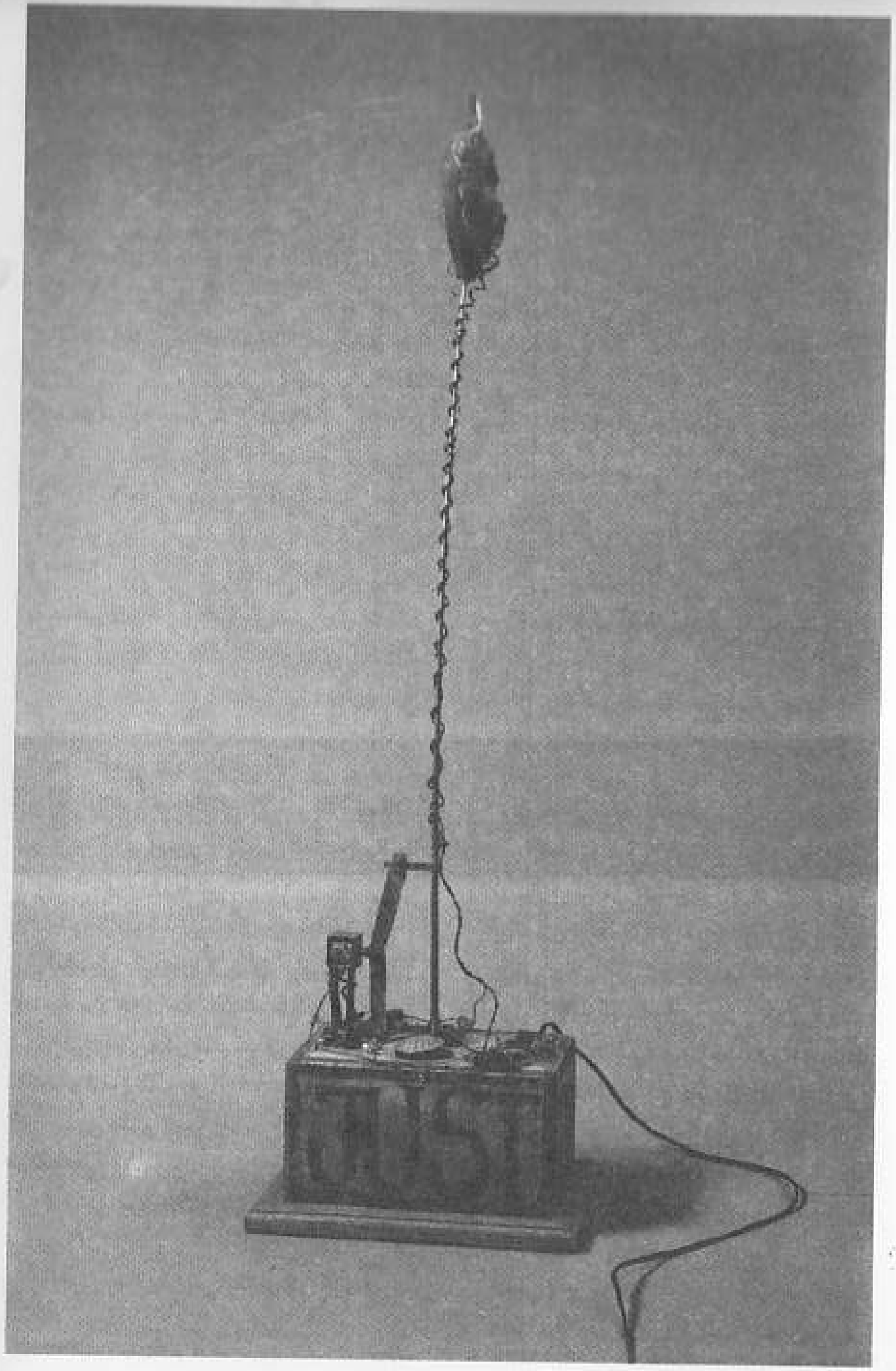

نقط لتراها تعمل، للفنان الأمريكي جاك ديل هاورن 1984

الأغبياء وسيدهم

شعر: الن جنسبرج
ت: أحمد عمر شاهين

الغبي يدير العالم!
الغبي هو النتاج الأخير للراسمالية.
الغبي يدير المباحث الفيدرالية منذ عينه روزفلت.
ولم يطارد قط المجرمين الحقيقيين.
الغبي يُقرض النقود لشرطة الدول النامية من خلال بنك الاعتماد الدولي.
الغبي لا يفكر بنفسه ويعتمد على حكومته لتفكّر له..
الغبي يقرر حرق القمح لتظل الأسعار مرتفعة في الأسواق.
الغبي يزرع الأعضاء البشرية في سويسرا..
الغبي يستيقظ في منتصف الليل ليرتب أوراقه.
يقول أنا غبي
وأحكم الولايات المتحدة وروسيا وإنجلترا ويوغسلافيا وبولندا والأرجنتين والسلفادور..
واتضاعف في الصين.
وأسكن جثة ستالين في حائط الكريملن.
الغبي يملي أوامره للزراعة الكيماوية في مناطق أفريقيا الصحراوية.
ويأمر بتخفيض مستوى المياه في كاليفورنيا لصالح البنوك المالكة لمزارع البرتقال.
الغبي يصطاد الحيتان ويمضغ دهونها في المناطق الاستوائية ويقتل صغار الفقمات ويرتدي جلودها معاطف في باريس.
الغبي يدير وزارة الدفاع، وأخوه يدير وكالة المخابرات المركزية ويا قلب لا تحزن..

الغبي يحرر ويكتب التايم والنيوزويك والوول ستريت والبرافدا والأزفستيا..
الغبي هو الرئيس ورئيس الوزراء والمستشار والسناتور .
الغبي ينتخب رئيس الولايات المتحدة
ويجهز خبزًا رائعًا من دقيق أبيض نقي.
الغبي يبيع العبيد والسكر والدخان والكحوليات.
الغبي كان رئيسًا حين أطلق الرصاص على ألف تلميذ
لا نعرف تهمتهم في تلاتلولكو..
الغبي يستعين برئيس المافيا الذي في السجن
ليؤمن صقلية لغبي الولايات المتحدة ضد الحمر.
الغبي يصنع الأسلحة في الأرض المقدسة ويبيعها للعنصريين البيض في جنوب أفريقيا.
الغبي يزود جنرالات أمريكا الجنوبية بطائرات الهليوكبتر.
ويقتل الهنود الحمر، ويشجع مناخ الأعمال المفضلة لديه.
الغبي يرسل طائرات الصهاينة لضرب مخيمات اللاجئين خارج بيروت.
الغبي يزعجه تدخين الحشيش في حرم جامعة هارفارد.
الغبي أصبح شاعرًا كبيرًا وجال العالم متغنيًا بأمجاد الغبي..
وأعلن انتصاره في مسابقة الشعر..
الغبي بنى المركز العالمي للتجارة على شاطئ نيويورك دون اعتبار لمكان تصريف النفايات..
الغبي بدأ بقطع أشجار نهر الأمازون ليبني مصنع أخشاب على شاطئه..
ومن إنسانيته فقد بنى غرفة قوس قزح على قمة مركز روكفلر.. حتى يمكن أن نرقص على أنغامها..
واخترع نظرية النسبية حتى تتمكن مؤسسة روكويل من صناعة القنابل النووية في كلورادو.
الغبي يسير مستعرضًا قواه الجنسية علّ ذلك يطيل عضوه.
الغبي ذهب في مهمة خطرة للأقطار الشيوعية ليحصل على فتيات الـ KGB والسماء ترعد..
الغبي يظن أنه بوذا حين يتأمل.
الغبي يخاف بأن يدمر الكوكب.. لذا كتب هذه القصيدة ليكون خالدًا.

محمد يوسف

انا اليـتـيم الأندلسي.. انا المقطوع من شـجـرة الحـاء
امـريكا: العـولمة / الغـولمة / الامـركـة.. ديناصور «الحـديقـة الجوراسية» المنحاز لـ / شايلوك
غواية الشـرّانية الجيو- بوليتيكية وفحيح افعى «تفاحـة» ثقـافـة الـ/ تيـك اواي والإنـتـرنت Take Away Culture

- 1 -

انا محمد يوسف..
انا اليـتـيم الأندلسيّ المقطوع من شجرة الحاء.
الحاء متاهة /
الحاء منزلة /
الحاء منازلة /
كل يوم افـقـد اندلسًا جديدًا في سـبيل شجرة الحاء.
الدَّم للحاء عصب ونسب وبوصلة..؟!
البوصلة خضراء.
وصلصال الدم تسغ الشجرة..؟!

- 2 -

لـ/ الأندلس جذر في رحم الجغرافيا..!
وامـــــريكا تـكـره الاثـنـين: الـرحـم والجغرافيا..!
وانا اكـره امـريكا: اليـانكي/ الـكاوبوي/ رامبـو الخـارق الأخـرق المصنوع من «طينة» هوليود/ اللوبي الصـهيـوني/ الهمـبورجر/ الكنتاكي/
البيبسي/
الكولا/
الـ/ هوت دوجز Hot Dogs
وأحب امـريكا: والت ويتـمـان/ جـون شـتـاينبك/ آرثر مـيللر/ مـارتن لوثر كنج/ نعوم تشومسكي/ الفن توفلر.. إلخ إلخ إلخ.
لأن دمـهم مـثل دمي: حـار وشـفـاف.. ينتسب لـ/ خضرة حرف الحاء..؟!
وأقـارع فـرانسيس فـوكوياما/ وصـمـويل هنتنجتون/ وبيل جيتس.
ثلاثتـهم يزنون بالجـغـرافـيـا.. ويلوطون بالتـاريخ: واقـرا يا اي يتيم اندلسي: «نهاية التـــاريخ»/ و«صــدام الـحـضــارات»/ و«المعلومـاتيـة بعـد الإنتـرنت» او العنوان الأصلي: The Road Ahead لتكتشف أن الفضـاء الإلكتروني Cyber Space يعـاني ديكتاتورية «الأمركة».. التي يسمونها من باب التلطف: «العولمة»..؟!

وعلى حـد تعـبـيـر بريجـينسكي فـإن العولمة هي الـ/ Titty Tainment والكلمـة مكونة من مـقـطعين: حلمـة الـثـدي Tit باللهجة الأمريكية و«Tainment» المدغمة المختزلة وأصلها التسلية/ الترفيه/ الترويح Entertainment وبتـوضـيح بريجـينسكي فـإن امـريكا التي «تعـولم» الكبـسـولة الإلكترونية تريد تقسيم العالم تكنو - طبقيًا حيث «القطيع» الإلكترو-بشري يمثل 80% يسـتـهلك ويجـرع و«يكرع» المنتـجـات الإلكـترونيـة الهـشـة بعـد أو اثناء شـرب الحليب على أيدي الـ/ 20% اي على أيدي منتجي الأدوات والشـهـوات والمضـخـات التكنو - شبقية.

- 3 -

العولمة هي الأمركة..
والأمركة هي الغولمة.
والغولمة: غولٌ وغلٌ وغليانٌ: اقتصاديات السوق بـ/ فحيح منتجاته البيو - إلكترونية وتصحير وتجريف لـ/ بذور وجذور الكينونة الذاتيـة والشـخـصـيـة والتـفـرد والفـرادة والفردانية ومحو لـ/ كاريزما الذات المرتكزة على مـهـارات وقـدرات الإبداع وإجـهـاض لـ/علم الخصوصية.
العـولمة/ الغـولمة/. الأمـركـة غـرغـرةٌ

بإسفنجة الهشاشة والتفاهة والتسطيح والانبطاح.. وقضم تفاحة الفردوس الاستهلاكي «الطاعن» في الاستهلاكية.

في كتابه «الموجة الثالثة»/ The Third Wave/ يوضح الفن توفلر أن شرط المزاحمة والدفع والتدافع في الكبسولة الإلكترونية أن تكون مالكاً لـ/ صفة وسمة وخصيصة الكائن «المستهلك»..

وهذا النحت اللغويّ ينطوي على إدغام كلمتي: منتج Producer ومستهلك Consumer.

لا تكن منتجاً على طول الخط: ولا مستهلكاً إلى ما لا نهاية. أنت الاثنان.. أنت «المستهلك»: انتج واستهلك.. لا تنتج فقط: لا تستهلك فقط.. أنت «المستهلك» الجامع بين الصفتين والسمتين والخصيصتين.. وإلا وقعت من «قعر القفة» في غابة الكبسولة البيو - إلكترونية..!

- 4 -

قال كاهن «البؤر الملتهبة» الألماني/ الأمريكي/ اليهودي الميترنخيّ البسماركيّ الشايلوكي هنري كيسنجر:

«لا يمكن تحقيق الاستقرار عن طريق القوة»

كذّاب..!

ذلك أن نظرية «البؤر الملتهبة» من تصميمه وتصنيعه تعني أولاً - تفكيك «أمن الكرة الأرضية».. وإجهاض الأيديولوجيا ذات الجذور الهيجلية ودورة ديالكتيكها الجدليّ بـ/ صبغته المذهبية (الماوية/ التيتوية.. إلخ إلخ) .. وَفرط رمانة المنظومة الاشتراكية كما يفرط الطفل الساديّ حَبَّ الرمان..

ثانياً: إغواء الأيديولوجيين المرتدين المرتخين من أمثال ميخائيل جورباتشيف بـ/تفاحة البراجماتية.

وتكنيك التفاحة الكسينجرية معروف.. بدأ عندما دق كسينجر شخصياً باب الصين فرد عليه ماوتسي تونغ وشو إين لاي

- من أنت..؟

- أنا هنري.

فأغلقا الباب: الرتاج والمزلاج.. والعين الزجاجية.

فلما عاود الطَّرق.. سألاه نفس السؤال.. فكان جوابه

- أنا لاعب البنج بونج.

وفي حقيقة الأمر كانت كرة البنج بونج بؤرة ملتهبة: أحرقت إنجيل ماو الأحمر.. وعبارته الذائعة الصيت: إلى من لا أرز عندهم.. إلى كل الناس.

أحياناً كان يمثل هنري كيسنجر دور «فاوست»: فض عذرية البراءة بـ/ شبقية الإيلاج المعرفيّ المؤسس على الشرآنية الجيو - سياسية.

وأحياناً أخرى كان يتقمص شخصية شايلوك: اليهوديّ المرابي الذي يقطع رطل لحم من جسد رهينته.

لكنه مع ميخائيل جورباتشيف، كان الاثنين معاً/ فاوست شايلوك/ شايلوك فاوست..؟!

على يد المخفيّ كيسنجرهوت الجورباتشيفية بجناحيها: البريسترويكا (الهيكلة وإعادة البناء) والجلاسنوست (المفاتحة والانكشاف) من فضاء الأيديولوجيا إلى «جحيم» البراجماتية..!

وبدلاً من تصدي جورباتشيف لـ/

«تفاحة» الأمركة مغنطته العبانيتها.. فأصبح «لاعب سيرك» واكروباتاً غير محترم يتقاضى مائة ألف دولار عن إعلان «البيتزا»..!

«يا بلاش»..؟!

قضمت شطيرة البيتزا شجرة الأيديولوجيا وبلعتها في جوفها..؟!

واكتشف شايلوك أن له قريناً اسمه ميخائيل جورباتشيف..؟!

وتحول هنري كيسنجر إلى شيطان اسمه مفيستوفليس..؟!

- 5 -

«أمريكا يا ويكا»

«مافيا وبولتيكا»

هي «الفك المفترس»

و«الحديقة الجوراسية»

الديناصور بأقنعته السبعة:

- الحرية/
- الديمقراطية/
- حقوق الإنسان/
- التعددية /
- التنوع /
- حق الاختلاف/
- حق قبول الآخر /

والآخر إما شمال غنيّ يلعب بالبيضة والحجر في منتدى العولمة (منتدى دافوس).. أو جنوب فقير/ معدم/ لا يملك قوت يومه رهين محبسين:

- ديكتاتورية الحاكم المحلي /
- ديكتاتورية الحاكم العوليّ /

الجنوب مقموع/ مقهور/ مومياء محنطة مغلوبة على أمرها بـ/ «فظاظة» فعل الأمركة..!

الجنوب كائن معلق بين فضاءين: فضاء الحلم/ الكابوس.. وفضاء تجويف التجريف والموت المجانيّ.

- 6 -

«المافياوية» الأمريكية يحذرها المفكر الفرنسي المعروف روجيه جارودي (87 سنة) في كتابه السابع والخمسين الذي يحمل عنوان: «أمريكا طليعة الانحطاط.. كيف نعد للقرن الواحد والعشرين».

يقول جارودي في مقدمة الكتاب: إننا نوشك أن نغتال أحفادنا، ونعد انتحاراً كوكبياً في القرن الحادي والعشرين إذا ما استسلمنا للانحراف القائم في السياسة العالمية.»

«البطالة والإبعاد والغربة داخل الوطن، والجوع في ثلاثة أرباع العالم والهجرة من عالم الجوع إلى عالم البطالة».

- هل هناك وسيلة لفهم عصرنا؟

الفصل الأول من الكتاب عنوانه: الفوضى العالمية الجديدة (جيوبوليتيكا الفوضى)

ينقد جارودي رؤية هنتنجتون في كتابه «صدام الحضارات» حيث يرى أن الصدام سيكون بين حضارة «يهودية مسيحية» وأخرى «إسلامية كونفوشيوسية» بينما يرى جارودي أن «الولايات المتحدة في خطتها للسيطرة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عينت العدو البديل أو [الشيطان] الذي يجب القضاء عليه وهو الإسلام وحلفاؤه المحتملون فيما يسمى بالعالم الثالث.»

ويوضح جارودي أن النقطة الحساسة لحدود الإمبراطورية الأمريكية هي الخليج

الفارسي/ العربي الذي تحيط به أغنى منابع البترول والذي سيظل عصب التنمية الغربية لعدة قرون قادمة». ولذلك فإن جماعتي الضغط اللتين تحركان سياسة الولايات المتحدة أي اللوبي اليهودي ولوبي رجال الأعمال هما اللتان أخرجتا حرب الخليج عام 1990 بالصورة التي شاهدتها «الكبسولة الإلكترونية» في الحرب التي بثت حية على شاشة ال/ سي. إن. إن CNN بفضل الوسائل والأدوات الإلكترونية الذكية.

وانكشف سيناريو الحرب: ***«فرض حرمان قاتل على الشعب العراقي من خلال حصار يقتل المزيد من الأطفال كل يوم بغرض سرقة مستقبل هذا الشعب»*** بعد إنهاكه في حرب مع إيران «مولها بسخاء كل من الولايات المتحدة وأتباعها».

أي إن الفوضى الجيوبوليتيكية الأمريكية تلعب على الحبلين: مؤازرة النظام العراقي في حربه ضد إيران ثم إعطاؤه الإشارة الخضراء للدخول إلى الكويت ثم إخراجه منها وفرض الحصار «الفوضوي» القاتل.

وفي نفس الوقت محاصرة إيران سياسياً عن طريق تشويه صورتها ورسم ملامح هذه الصورة على مزاج فوضى «البولتيكا» الأمريكية: الدولة الإرهابية المتطرفة على أساس أن إيران تمثل «العقبة الكاداء أمام مشروع إسرائيل الكبرى.. كما أنها تمثل «النواة الممكنة» التي تتجمع حولها جزيرة هائلة أوروبية آسيوية تقف في مواجهة أطماع حلف الأطلنطي، ولهذا تعتمد الاستراتيجية الأمريكية على إسرائيل وتبذل كل الجهود لتضمن لها إمكانات التفوق في التسليح النووي في الوقت الذي ترفض فيه إسرائيل أي رقابة دولية».

ويفضح جارودي نقطة الضعف الرئيسية في تلك الإمبراطورية التي تفتقد «لأي روح، فليس لديها أي مشروع جماعي من أجل مستقبل الإنسان اللهم إلا تطوير إنتاجها واستهلاكها اعتماداً على التفوق في السلاح وهذا ما جاهد هنتنجتون في إخفائه برغم المواجهة بين الحضارة اليهودية المسيحية والحلف الإسلامي الكونفوشيوسي [أي ورثة الحضارات الأقدم في العالم من بين الرافدين وسوريا إلى الصين].

على الضفة الأخرى يبرز جارودي قضية «تحول الولايات المتحدة الأمريكية من أكبر دولة دائنة في العالم إلى أكبر دولة مدينة في العالم». وذلك يؤكد تضاؤل معدل الاستثمار مقارنة بالدول الصناعية الكبرى، وهكذا تحولت أمريكا «شيئاً فشيئاً إلى عملاق بكعب أصيل».. وذلك بسبب الهشاشة الاقتصادية المختفية وراء القناع إلى حين انكشافها عبر سيولة المضاربات المالية التي حولت البنوك الأمريكية إلى صالات للقمار. لذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تلجأ إلى:

– *سياسة التسليح.*

– *عرقلة صعود الصين.*

هناك في واقع الأمر أمريكتان.

– أمريكا «مسلسل دالاس».. أي أمريكا «تفاحة الفردوس التكنولوجي»

• وأمريكا البؤس والتفرقة العنصرية: ثلاثة وثلاثون مليوناً يعيشون تحت خط

الفقر.. تفتت اجتماعي وتحلل قيمي حيث انتشار المخدرات والجنس والفساد وانهيار العقد الاجتماعي.

في الفصل الثاني يشرح جارودي مصطلح وحدانية السوق بمعنى تحويل «السوق إلى ديانة» ليصبح «المحرك الوحيد في العلاقات الاجتماعية الشخصية أو القومية والمصدر الوحيد للسلطة والتسلسل الاجتماعي.» ويستشهد بانعكاسات كتاب فوكوياما «نهاية التاريخ».. أي نهاية إنسانية الإنسان والاستسلام لحتميات اقتصادية كأنها قوانين طبيعية.. إنه هبوط بالإنسان ليعيش في غابة الحيوان حيث ينهش القوي الضعيف. إن ما يميز وحدانية السوق في الواقع هو تلك «الليبرالية الشمولية»، وهذا الاحتقار لحرية الإنسان حين تجرده هي ذاتها من أبعاده الخصوصية، وهي أن يكون فاعلاً ومنفذاً لمشروعاته وتطلعاته وإمكاناته الخاصة التي تتجاوز الغرائز الحيوانية والأهداف النفعية الشخصية».

وفي يقين جارودي فإن «رسم مسار النموذج الغربيّ للنمو، انطلاقاً من الخطأ القاتل ببوصلة النهضة المزعومة أي ميلاد حضارة الكم والعقل النفعي والمنطق الديكارتي وديانة الوسائل، وجعلها البوصلة الموجهة في الحياة تبتر البعد الأساسي في العقل وهو التفكير في الغايات النهائية للحياة ومعناها. كتب ميشيل ألبير في كتابه/ [الرأسمالية ضد الرأسمالية]: «الواجب الواضح هو استبعاد قضية الغاية الفلسفية».. وتلك بوضوح هي الغاية النهائية لـ «وحدانية السوق» وذلك بأن «نتأمرك» على الحياة الأكثر زيفاً ابتداءً من الفيلم الأمريكي الذي بدأ بـ/ مطاردة الهنود وانتهى بـ/ تدمير العقول، ومروراً بكل أفلام الغرب وأحراش المال و«دالاس» وكل مناظر العنف واللاإنسانية من «باتمان» إلى «ترميناتور» حتى الموعظة الرمزية التي تعود بنا إلى عالم «الديناصورات».

وهناك نوعان من البخور لزوم «وحدانية السوق»:

– المخدرات.

– الفساد.

إضافة إلى البخور «الأزلي»: الدعارة.

في الفصل الثالث: الولايات المتحدة طليعة الانحطاط، يحفر جارودي عميقاً في تاريخ جذور الانحطاط الأمريكي لـ/ «ندرك كيف أصبح انتشار [طريقة الحياة الأمريكية] ونبوع أوهامها المتعددة أحد الأسباب الرئيسية لانهيار الأخلاق والفنون في عالم اليوم».

من زاوية رؤية جارودي فإن انحطاط الثقافة في أمريكا ينبع من: – تاريخ الولايات المتحدة ذاتها وفي تكوينها.

– عدم وجود دور جوهري للثقافة في حياة المجتمع الأمريكي.

– كل هوية ثقافية أو روحية أو دينية هي مسألة شخصية فردية تماماً لا تتداخل مع مسيرة النظام.

– تفشي الخرافات وانتشار الطوائف والهروب إلى المخدرات أو الشاشة الصغيرة واللجوء إلى صبغة أو قناع ديني هو

«البيوريتانية» الرسمية أو التطهرية الرسمية التي تتعايش مع كل أنواع انعدام المساواة وكل المذابح والجرائم وتمدها بالتبرير والغطاء الديني!

«وهكذا أصبح العنف الأكثر دموية والتحريض عليه بنفاق المتدينين ملمحًا دائمًا في تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها. فلقد قدم المتطهرون من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية في تاريخ البشرية ومسلحين بفكرة: «الشعب المختار»، مقتنين فكرة الإبادة وكأنها حسب روايتهم أوامر إلهية. كانوا يسرقون أراضي الأهالي الأصليين طبقًا لـ/ تعاليم يهوا [إله الحرب] في العهد القديم. هذا الإله الذي أمر «شعبه المختار» بإبادة وذبح السكان القدامى في أرض كنعان واغتصاب أرضهم».

لقد قال سيمون بوليفار أحد أبطال تحرير أمريكا اللاتينية في منتصف القرن التاسع عشر: «يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية [ناعوم تشومسكي في «الأيديولوجية والاقتصاد»/ دار النشر إي. بي. أو E. P. o ص6]

الدموية البربرية هي الملمح أو المحور الارتكازي لـ/الولايات المتحدة الأمريكية منذ أيام بنيامين فرانكلين (1754) مرورًا بـ/جورج واشنطن (1779) وانتهاءً بـ/ بيل كلينتون (2000). الولد الأمريكي الذهبي الواقع في حب اللوبي الصهيوني فإذا ما فتح فمه بـ/كلمة عن الحق الفلسطيني المغتصب كان «فستان مونيكا الأزرق» له بالمرصاد: إسقاط ورقة التوت عن عورته السياسية والشخصية.

إن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية المؤسس لـ/ جذور الأسطورة الأمريكية وسياستها الخارجية لم يتغير منذ قرنين:

- القضاء على الهنود من عام 1800 إلى عام 1835.
- مبدأ مونرو الذي حدده [الرئيس مونرو في 2 ديسمبر عام 1923] في رسالة إلى الكونجرس جاء فيها: فللأوروبيين القارة القديمة وللأمريكيين القارة القديمة. وانفجار زورق حربي أمريكي في ميناء هافانا كان الحجة للحرب ضد الأسبان. فقدوا بمقتضاها بورتوريكو والفلبين وكوبا»
- الترويج لـ/«أسطورة» و«أكذوبة» قيام أمريكا بتحرير أوروبا.. فالأمر كان على العكس: الحرب العالمية الأولى (1914-1918) كانت «منجم الذهب» لأمريكا.. إذ إنها لم تتحرك إلا في نهاية الحرب عام 1917 من أجل مصالح رجال الأعمال.

الثراء من عام 1920 إلى عام 1932 حول كل شيء إلى دعارة بتفاقم النزعة الإجرامية والعصابات المتحكمة في كل شيء بالتواطؤ مع الشرطة. وبقانون المنع في عام 1919 الذي أنعش الحانات الخارجة عن القانون، ملتقى العصابات الأمريكية من السبيكيزيس Speakeasies والبوتليجرز Bootlegers [عصابات من المافيا] وكذلك الهجرة الخارجية النسبية القادمة من عام 1921 حتى عام 1924 أعادت الازدهار لـ/ الـ كلو كلوكس كلان Klu Klux Klan فارضين من جديد الرعب في الجنوب. كذلك قادت الوطنية المتشددة (الشوفونية) الحاكمة أبرياء مثل تساشو وفانزيني والمحتجين الإيطاليين إلى الإعدام بالكرسي الكهربائي.

- تحطيم أي نظام اشتراكي يعارض التغلغل الاقتصادي للولايات المتحدة في العالم بكل الوسائل.
- عدم تردد القادة الأمريكيين باسم الدفاع عن الحريات أي سياسة الباب المفتوح للتوسع الاقتصادي الأمريكي بلا حدود في الاعتماد على أسوأ الديكتاتوريات.
- سياسة التعاون مع النازي بعد الحرب العالمية الثانية: جُند مجرمو حرب نازيون خطرون من قبل جهاز الاستخبارات الأمريكية C. I. A ومن أشهر هؤلاء: كلاوس باربي.

وقد أخرج القوميسير الأعلى الأمريكي جون جي ماك كلوي من السجن مجرم حرب نازيًا أسوأ من باربي اسمه «فرانز سيكس» الذي عمل لمصلحة رينهارد جيهلن الذي أوكلت إليه مهمة تطوير جيش سري تحت الرعاية الأمريكية بمرافقة قدماء من الـ/ وافن إس إس وخبراء آخرين من «اللويهرماشت» [جواسيس أقرب إلى الطابور الخامس الألماني/ مقدمي الدعم للقوات الهتلرية العسكرية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي/.. وهؤلاء «الجواسيس» الألمان قدموا مساعدات جمة لـ/ الـ C. I. A استمرت إلى ما بعد الخمسينيات.

- سمحت القوة الاقتصادية لروزفلت بعد الهجوم الياباني على القاعدة البحرية الأمريكية في «بيرل هاربور» [في هاواي] حيث ضربها اليابانيون تحت قيادة ياماموتو بعد أن خنقهم الحصار الذي ضربته عليهم أمريكا خصوصًا في الوقود ديسمبر 1941
- بالاشتراك المتأخر في الحرب العالمية الثانية ليصبح روزفلت محرك اللعبة السياسية كلها في أوروبا الغربية/ كان روزفلت هو المحور الرئيسي مع ستالين لتنظيم العالم وتقسيمه في مرحلة ما بعد سقوط هتلر: يناير عام 1943 في الدار البيضاء (كازابلانكا).. وفي طهران في ديسمبر 1943، وفي مالطا عام 1945 حيث امتلكت الولايات المتحدة في نهاية الحرب نصف ثروة العالم وكانت خسائرها البشرية 280 ألف جندي بينما كانت خسائر ألمانيا أكثر من سبعة ونصف مليون من القتلى نصفهم من المدنيين، والاتحاد السوفيتي/ أكثر من سبعة عشر مليونًا بينهم عشرة ملايين مدني.

انتهاء الحرب العالمية الثانية عام 1945 وانهيار الاتحاد السوفيتي عام 1989 وضعا الولايات المتحدة أمام المشكلة الصعبة وهي تبرير استمرار سياسة التسليح أمام شعبها إذ إن تلك السياسة هي أحد العناصر الأساسية وغير المستغنى عنها لعمل الاقتصاد الأمريكي. وكان لابد من البحث عن بدائل لـ «إمبراطورية الشر» وإشغال الرأي العام» وتكوينه كما تصنع ربة المنزل رداء من التريكو.. وأيضًا «تدبير الموافقة» لـ عبارة والتر ليبمان Walter Lippman المحلل السياسي الأمريكي المرموق) أو «صناعة الموافقة» على حد تعبير إدوارد برنايز الشخصية الكاريزمية في مجال صناعة العلاقات العامة للتأكد من أن الأمريكيين سيرحبون بقرار قادتهم ذوي البصيرة (راجع كتاب إدوارد سعيد ونعوم تشومسكي «صناعة الإجماع».. وتمثلت «بدائل إمبراطورية الشر» في: «الحق في التدخل الإنساني» أو «حماية الحقوق» أو «حرب المخدرات»

فيما يتعلق بالسياسة الأمريكية تجاه

فلسطين فإن الاتفاق والانسجام بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية متوفر من أجل «استكمال مساعيهما الدبلوماسية من أجل تفتيت «خطر» عملية «حقيقية للسلام».

يستشهد جارودي بـ/ رؤى وتحليلات لمؤرخين ومفكرين إلى جانب نصوص من الـ C. I. A. اقتطف منها:

(.... كما رات الولايات المتحدة انه في الدول التي يصعب فيها التحكم في الشرطة والعسكريين بطريقة مباشرة يجب قلب نظام الحكم وأن يصل إلى الحكم فيها نظام اكثر توددًا للولايات المتحدة وان يوضع على راس القمة والحكم (جيش دائم الوجود في السلطة) على طريقة الحرس الوطني.

(مكتب الاستخبارات الأمريكية للمعلومات المتداولة 13 مايو – مجلة – O C I العدد 1803 : 65).

– ملاحظة المؤرخ ريتشارد إيميرمان وهي: أن «القوة والأمن الأمريكيين يعتمدان بشكل أساسيّ على الحصول على المواد الأولية من العالم وبالتدخل في أسواقه الداخلية، وبالأخص في دول العالم الثالث التي يجب أن تبقيها الولايات المتحدة تحت السيطرة الشديدة» [إيميرمان «Diplomatic History» صيف عام 1990]

وفي وثائق البنتاجون تأكيد على أن:

– الولايات المتحدة هي الضامن للنظام العالمي ولذا فإن التصرف باستقلالية وبسرعة أو عندما يصعب تجميع موقف عالمي موحد.. حق أمريكي مرتبط بـ/ هيمنة نظام القطب الأحادي.

– أمريكا لها الحق في منع تكوين نظام أمني في أوروبا يمكنه تهديد توازن حلف شمال الأطلنطي.

– إذابة ألمانيا واليابان في النظام الأمني الجماعي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية تجسيدًا لـ/ شهوة الغريزة الجيوبوليتيكية الأمريكية.

ويطرح جارودي هذا السؤال:

– إلى متى سيظل العالم مستسلمًا لهيمنة الدولة التي تحتل المرتبة الأولى في الجريمة، والتي قضت فيها المحكمة العليا (يونيو 1989) بأنه يمكن إعدام القصّر الذين يبلغون 16 عامًا، وقد طبق ذلك في 24 ولاية حيث أعدم 182 شخصًا بالكرسيّ الكهربائي أو الشنق أو الغاز وحيث يقبع 2500 في زنازينهم انتظارًا لتنفيذ الإعدام؟

وباستخدام بوصلته ذات النزعة الإنسانية الشفافة يضع خريطة الانحطاط الأمريكيّ على الأرضية الرؤيوية الواسعة قائلاً: لكن ما هو أسوأ حقيقة. في هذا الواقع (الأمريكي المنحط) هو تضليل الرأي العام حيث تطورت تقنيات الإعلام والـ «تيك أواي» الثقافي [Cultural Take Away] لغزو العالم وتحطيم ثقافاته، وتقدم ثقافة «الكاجوال» و«دالاس» و«مادونا» و«شوازينجر» والديناصورات (جودزيلا) في السينما» ودوشنبرج وكوينتج في الفن التشكيلي والرسوم المتحركة التي لم تعد بيضاء كـ/ الثلج لكن بوباي وبيطوط وفرق الروك «الرولنج ستون» الذين سبّب وجودهم في فينسيا آلاف الأطنان من القمامة بعد

حفلهم، وكل ما يجعل شبابنا ينسى ثقافتنا وقيمنا وتراثنا الإنساني من ثرفانتس وشكسبير ورابليه ونيتشه ودوستويفسكي.

إن ماكدونالدز والكوكا كولا وديزني لاند وعلب الليل أصبحت رموزًا للعبث والتقليد الأعمى في هذا العالم الذي أبدع الرامايانا ومسرح «نو» والرقص الأفريقي الأصيل، وملاحم جلجامش وأشعار رامبو.

هل تعني «الحداثة» النسيان والازدراء والجهل والصبيانية لصالح الجهل والأمية الثقافية والجاهلية الميكانيكية والمعلوماتية؟

هل نقبل أن يصبح كبار كهنة وحدانية السوق وعبادة أصنام المال (الأولاد الذهبيون) [الشباب الذي يعمل في المضاربات في البورصة].. هل نقبل أن يصبحوا طلائع الانحطاط العالمي؟

صدقت أيها التنويري «الجميل» الشفاف: روجيه جارودي.

– 7 –

وفي الملاحق التي تضمنها كتاب جارودي.. وتحت عنوان الدولارات والإنسان بقلم أناتول فرانس.. أقتطف هذا النص:

في بداية هذا القرن في عام 1908 تطرق أناتول فرانس في كتابه «جزيرة البطاريق» إلى هذا العالم الخالي من الروح، عالم الحسابات السياسية الأمريكية، وذلك عندما حضر البروفيسور أوينوبيل إحدى جلسات الكونجرس الأمريكيّ وسجل ما حدث.

وكان هذا بعض ما سجل:

عندما تعجز صناعة عن تصريف منتجاتها لابد من حرب، لفتح آفاق جديدة لها! وهكذا كانت لنا في هذا العام حرب الفحم، وحرب النحاس، وحرب القطن. لقد قتلنا في زيلنده الثالثة ثلثي السكان لنرغم الناجين على شراء الشماسي والحمالات منا!

في هذه اللحظة صعد رجل ضخم كان جالسًا في وسط المجلس إلى المنصة وقال:

–: أنا أطالب بحرب ضد جمهورية «الزمرد» التي تنافس – بوقاحة – هيمنة لحم خنازيرنا ومنتجاتنا من السجق في كل أسواق العالم.

– من هذا النائب؟ (تساءل البروفيسور أوينوبيل)

– إنه تاجر خنازير.

– لا توجد معارضة؟ (سأل رئيس المجلس) – سأعرض الاقتراح للتصويت. لقد قبل المجلس اقتراح الحرب ضد جمهورية «الزمرد» بأغلبية ساحقة.

– كيف؟ (سأل البروفيسور أوينوبيل المترجم) تصوتون على حرب بهذه السرعة وبعدم اكتراث؟

– أوه! إنها حرب بلا أهمية. لن تكلفنا سوى ثمانية ملايين دولار بالكاد.

– والرجال؟!

– إن المبلغ يشمل – أيضًا – الرجال!!

[أناتول فرانس «جزيرة البطاريق»، الناشر: كالمان – ليفي 1908 – الكتاب الرابع – الفصل الثالث].

– 8 –

– الفيل شعار الحزب الجمهوري الأمريكي.

– والحمار شعار الحزب الديمقراطيّ الأمريكي.

مع الاثنين «فك بيو – إلكتروني» مفترس:

– المعلوماتية السائبة في الفضاء السيبرنتتين وكاهنها «الأعظم» بيل جينس: لاعب الارتكان في «الملعب» البيو – إلكتروني حيث: العدوانية والعنف والشراسة التي تمارسها الكائنات الإلكترونية (الإنترنت – الروبوت الذكي.. إلخ إلخ) والبورنوجرافية: الإباحية والخلاعية بالصوت والصورة والفعل التجسيدي الحركي.

واللوبي الصهيو – امريكيّ و.. «كاهنه الأكبر هنري كيسنجر»

وسواء كان الرئيس الأمريكي اسمه كلينتون أو رامبو.. فإنه مثل ديناصور ستيفن سبيلبيرج.. ديناصور الحديقة الجوراسية» المتحاز ل/ «قائمة شندلر» أي قائمة شايلوك المتجذر في كل العصور.

– 9 –

انا محمد يوسف..

انا اليتيم الأندلسي المقطوع من شجرة الحاء.

حاء: حب.

حاء: حرية.

حاء: حياة.. فيها البشر سواسية مثل أسنان المشط.. ومختلفون اختلاف الحلم والكابوس.

الحرية اختلاف.

الحرية تتنوع.. وبوصلتها الحساسة والشفافية..

وجذر شجرتها الكاف والنون..

بلد تحت الشمس

بابل
قصة سيدة المدن وسيد الملوك
فيصل الخيري

قصة سيدة المدن وسيد الملوك

فيصل الخيري

عوامل شتى التي تؤثر في خلود المدن، البيئة والجغرافيا والاقتصاد، أو الأفكار الدينية والسياسية أو ظهور شخصية أو شخصيات فذة، يكونون فيما بعد عناوين شهرة لمدينتهم. وفي كل الأحوال، فقد تضافرت هذه العوامل جميعها من أجل خلود بابل.

فبالرغم من أن بابل قد أنجبت العديد من الشخصيات – غير العادية – التي كان لها دورها البارز في أحداث الحركة التاريخية، إلا أن الرجال غير العاديين ليسوا وحدهم هم الذين يصنعون التاريخ، فالمدن – بعض المدن – تلعب هذا الدور خلال حقب معينة من الزمان وينطبق هذا تمامًا على مدينتنا، التي ربما يطول بالمرء الطواف بين مدن العالم القديم، فلا يرى مثل أغرودة الدنيا في فم الدهر، غناها منتشيًا؛ وعزف حضارتها بمزمار الخلود، فردد الأنغام شجية عذبة، شنفت آذان البشرية طوال الحقب والدهور.

ف.خ

ميلاد بابل وطفولتها

تقع بابل على بعد تسعين كيلو مترًا جنوب بغداد، وعلى مسافة خمسة كيلو مترات من شمال مدينة الحلة، ويقوم على أطلالها حاليًا: تل بابل، والقصر، وعمران بن علي، والمركس، وقرى أخرى أمثال: عنانة، وكويرش، وجمجمة، واندسار.

وإذا أردنا العودة إلى أيام ولادة بابل، ورحنا نستشف حجب التاريخ لنحدد زمنًا معينًا لهذه الولادة، لوجدناه سرًا من أسرار الماضي السحيق، اختلفت فيه النظريات وتضاربت الأقوال. فالبابليون ينسبونها إلى «مردوك» إلههم الأكبر وقد بناها مع «أورك وأكد»، ويقال إن «سرجون الأكدي» هو الذي سمى المدينة بقسميها وجعلها عاصمة الملكه، كما قيل إن «شيرام» زوجة «نينيب» مؤسس الدولة الآشورية حوالي 2000ق.م. قد أعادت بناء بابل، وجعلتها أعظم من مدينة «نينوى» عاصمة آشور التي بناها زوجها، وهذه على كل حال رواية مشكوك في صحتها. والأقرب إلى الصحة، أن مكانها كان مستوطنة بشرية أرجعها بعض الآثاريين إلى ما يربو على الأربعين ألف سنة خلت. ثم بدأت تتخذ موضعها كقرية مع بداية ظهور الزراعة ونشوء القرية في العراق حوالي 7000ق.م. ويؤيد ذلك «مايرز» في كتابه « فجر التاريخ» إن المدينة التي سادت هذه البقعة ذات الطبيعة المتباينة التي نسج أديمها نهر ومراع ومستنقعات، مدينة موغلة في القدم؛ كما بلغ من احتفاظها بوحدة طابعها منذ أقدم العصور، أننا لا نعرف لهذه المدينة مصدرًا، إنما هناك أمر واحد محقق، ذلك أنها كانت قائمة ومزدهرة حينًا طويلاً من الدهر، قبل أن يبدو عليها أية سمة دالة على مجرد الاتصال بالعموريين.

وفي هذا الصدد يذكر «جوردن تشايلد» في كتابه «التطور الاجتماعي» أن بابل أصبحت مركزًا للتجارة العالمية بعيدة المدى منذ ما قبل التاريخ، وما إن هلّ عصر الأسرات حتى كانت المواد الخام كالمعادن والأخشاب من لبنان والأمانوس والأحجار من عمان ترد إلى بابل، بل وكذلك الأختام وأدوات الزينة التي يصنعها الحرفيون الحضريون بعيدًا في وادي الهندوس، وتبين السجلات الأدبية فيما بعد، أن منتجات صناعة النسيج في بابل، كانت تصدر إلى الهضبة التركية في مقابل المعادن، ويفترض تصدير المصنوعات المماثلة في نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداية عصر الأسرات.

مرحلة الشباب

عرف السامريون باسم «كا – دينجير – را» أي باب إيلو، أو باب الإله، لكنها لم تكن في عهدهم مزدهرة ازدهارها في العهد الأكادي، حتى اعتقد بعض الباحثين أن الأكاديين هم الذين أسسوها، إلا أن هذا الرأي يدحضه غزو الأكاديين لها في عهد أعظم ملوكهم «سرجون» الذي أصبح ملكًا حوالي عام 2277ق.م. حيث تذكر الحوليات الأكادية أنه غزاها من جهة الشمال أضعف حدودها، وبذلك تذكر بابل للمرة الأولى في التاريخ، وكان غزوها بسبب ثورة اشتركت

فيها ضده، فكان جزاؤها النهب والتخريب، وخلف «سرجون» ولداه، وفيما بعد حفيده «نارام سن» الذي عاشت بابل وأخواتها في عهده عصرًا مزدهرًا، ثم أضعفت الحروب المتواصلة الدولة، حتى إن برابرة في المناطق الشمالية الشرقية، يدعون بالجوتيين، تمكنوا من اجتياح المملكة الأكادية وسادوا حوالي تسعين عامًا، وفي أول عهدهم دمروا بابل، ثم أصابها الازدهار على أيدي بعض ملوكهم فيما بعد، فقد شق «سولا إيلوم» قناة «شاماش هيجاللو» في العام الأول من حكمه، وبنى حائط بابل العظيم، كما أقام معبد أدد، ثم رمم «أبيل سين» حوائط بابل وشيد المعابد، وقدم عرشًا ثمينًا إلى شماش، وظل الجوتيون في بابل إلى أن طردهم منها ملك أوروك حوالي عام 2060ق.م. ومهما يكن فلم يدم انتصاره طويلاً، وبانكسار أوروك انتقل الحكم إلى سلالة أور الثالثة.

سيدة مدن العالم القديم

استطاع العموريون والعيلاميون أن يقضوا على أسرة أور الثالثة، وتكون في العراق أسرتان، أسرة «أيسن» التي أسسها «إشبي أرا» وحكمت من 2017 – 1794ق.م. وعاصرتها أسرة ثانية هي أسرة «لارسا» 2025 – 1763ق.م. وقد قامت الأسرتان بحكم القسم الجنوبي من العراق في هذه الفترة، كما ظهر الآشوريون حول هذا التاريخ في شمال العراق، وبدأوا يكونون دولة مستقلة عن الجنوب، وبذلك عادت البلاد بعد القضاء على أسرة أور الثالثة إلى حالة الانقسام، التي كانت عليها في عصر فجر الأسرات ونظام دويلات المدن، كما استقل ملوك منطقة «ديالي» وكونوا مملكة «اشنونا»، وبعد فترة من ظهور أسرتي أيسن ولارسا، تكونت أسرة أخرى عرفت باسم أسرة بابل الأولى، وبدأ حكمها من عام 1894 إلى 1595ق.م. تقريبًا، وكان أشهر ملوكها «حمورابي» وأصلها من العموريين العرب، الذين كانوا مقيمين في بعض أقاليم سوريا في الفرات الأوسط، ومؤسس هذه الأسرة «سومو – ابوم» 1894ق.م. وقد اتخذ بابل عاصمة لملكه، فكان بحق عصرها الذهبي، حيث أحالها العموريون إلى حاضرة كبيرة، بل عاصمة لآسيا الغربية، هيأها لذلك موقعها وخصوبة تربتها، وبلغت من الازدهار حدًا جعلها تطلق اسمها على أغلب سكان العراق القديم. كما كانت تطلق على القسم الأوسط والجنوبي من دجلة والفرات... لقد بدأت سلطة ملوك العموريين الأوائل تتجاوز مدينة بابل، ثم ضموا إلى سلطانهم بعض دويلات المدن القريبة، التي أنسوا فيها ضعفًا، كما استفادوا كثيرًا من النزاع القائم بين «أيسن ولارسا» ثم بدأوا يتحرشون بالعيلاميين الذين كانوا قد حكموا لارسا، ولما تولى الحكم «حمورابي» سنة 1792ق.م. تقريبًا، حاول أن يقضي على الانقسام الموجود في العراق، ومما ساعده على نجاحه أنه كان قائدًا ممتازًا وسياسيًا لبقًا ومصلحًا من الطراز الأول وعادلاً، ومن أجل ذلك استطاع أن يقضي على العيلاميين، وقضى أيضًا على الممالك في جنوب العراق، ثم وجه

عساكره شمالاً وإلى أقطار الهلال الخصيب، واستطاع أن يعيد للعراق وحدته ومجده القديم.

وقد خلف حمورابي على عرش بابل ابنه «سمسو إيلونا» 1749 – 1712ق.م. وقد كان الفرق شاسعًا بينه وبين والده. بدليل عزوف المصادر التاريخية عن تناول سيرته، وكل ما ذكر عنه، أنه في العام الثامن من حكمه تصدى للكاشيين على الحدود الشرقية، وردهم على أعقابهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تسربوا إلى داخل البلاد بصفة عمال وفعلة.

وكان على خلفاء «سمسو إيلونا» أن يصدوا غزوات الكاشيين، وأن يردعوا ثورات السومريين والآشوريين، الذين تحرروا من السيطرة البابلية، ونقابل من هؤلاء الملوك «أبيشوع» ثامن ملوك السلالة البابلية العمورية الأولى، ومما جاء في الحوليات البابلية عنه أنه شيد بالقرب من دجلة حصنًا يعرف «بدور أبيشوع» وبنى مدينة «لوكابا» على قناة «أراهتوا» في ضواحي بابل، وجمّل عاصمته بمعابد جديدة، وكرس أحدها للإله «إنليل بنيبور» وقد خلفه على بابل «أمي ديتانا» 1684 – 1647ق.م. تاسع ملوك هذه السلالة، وتلاه في حكم بابل «أمي صادوقا» 1646 – 1626ق.م. الملك قبل الأخير في السلالة المذكورة. والتي كان آخر ملوكها «سمسو ديانا» 1626 – 1595ق.م. الذي قضى عليه «الحيثيون» الذين لم يقصدوا من غزوهم للعراق احتلالها واستيطانها، بل نهبها في هجمة سريعة. وأسر آلهة بابل بعد تدمير المدينة، عادوا بعد ذلك إلى بلادهم، وقد قضوا على سلالة بابل العمورية.

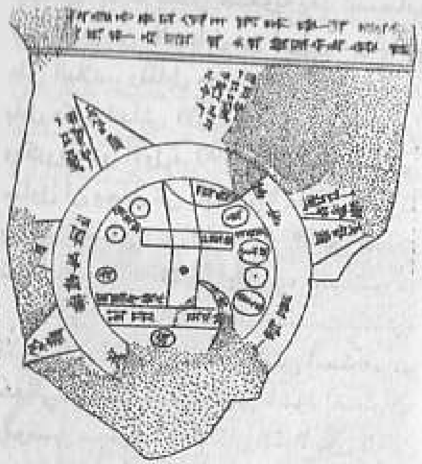

خريطة بابلية للعالم

الكاشيون في بابل

زادت الثروة فأنتجت في بابل ما تنتجه في سائر بلاد العالم، ذلك أن من السنن التاريخية، التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية، هو الذي ينذر بانحلالها وسقوطها، فالثراء كما يبعث الازدهار يبعث الخمول أيضًا، فهو يرقق أجسام الناس وطبائعهم، ويمهد لهم طريق الدعة والنعيم والترف، ويغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة إلى امتلاك ما بأيديهم.

وكان على الحدود الشرقية لهذه الدولة الجديدة قبيلة قوية من أهل الجبال هي قبيلة «الكاشيين» تحسد البابليين على ما أوتوا من ثروة ونعيم، فلم يمض على موت حمورابي إلا ثمان سنوات، حتى اجتاح رجالها دولته، وعاثوا في أرضها فسادًا، يسلبون وينهبون، ثم ارتدوا عنها، وعادوا فشنوا الغارة تلو الغارة، واستقروا آخر الأمر فيها فاتحين

حاكمين، إذ لم يجدوا صعوبة بعد انسحاب الحيثيين من بلاد بابل من فرض سيادتهم على البلاد.. ونقابل من ملوكهم الذين حكموا بابل «كره انداش الأول» 1471 – 1445ق.م. و«كوريجلزو الأول». 1390– 1379ق.م. الذي حاول أن يجعل من بابل دولة عالمية، و«بورنا بوراش الثاني» 1375 – 1347ق.م. الذي تحالف مع الملك «آشور اوباليت» ملك آشور.

وعلى أية حال، فقد اتسمت فترة الاحتلال الكاشي لبابل، التي استمرت حوالي خمسة قرون، بأنها فترة اضطراب وفوضى سياسية، ولما كان الكاشيون قلة لا حضارة لهم، استطاعت الحضارة البابلية أن تصهرهم في بوتقتها، فاعتنقوا الديانة البابلية وقدسوا آلهتها، وأطلق بعض ملوكهم على نفسه أسماء بابلية.

وحينما احتل الكاشيون البلاد اتخذوا في أول أمرهم بابل عاصمة، ثم أسسوا أيام الملك «كوريجلزو» عاصمة جديدة سميت باسمه «دور كوريجلزو»، وفي الوقت الذي تأسست فيه السلالة الكاشية، نشأت المملكة الآشورية في الجزء الشمالي من العراق، ووقعت بين المملكتين حروب عديدة، كانت الغلبة للكاشيين بادئ الأمر، ولكن اثر تغلب الآشوريين على الميتانيين، تفرغوا لمحاربة الكاشيين فقهروهم وانتزعوا منهم زعامة العراق السياسية، أما نهاية الكاشيين فكانت على أيدي العيلاميين، الذين قضوا عليهم واجتاحوا بابل واغتنموا الكثير من آثارها – منها مسلة قانون حمورابي – لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على الموقف تماماً، فقد كان حكم البلاد قسمة بين الآشوريين والبابليين، ثم استطاع أخيراً «نبوخذ نصر الأول» البابلي 1124 – 1103ق.م. طرد العيلاميين من البلاد وتعقبهم حتى عيلام نفسها... وبعد القضاء على نفوذ الكاشيين في بابل، تقاسم الحكم فيها طوال أربعة قرون حكام آشوريين وبابليين، ليس في قائمة أسمائهم الطويلة اسم واحد جدير بالذكر، ودام عهدهم حتى قامت دولة آشور في الشمال فبسطت سيادتها على بابل، وأخضعتها لملوك «نينوى». وكان الاحتكاك بين آشور وبابل. قد بدأ منذ عهد الملك الآشوري «آشور أوباليت» 1365 – 1330ق.م. فبعد أن اطمأن هذا على حدود مملكته. ووطد أركان عرشه، بدأ يتدخل في شئون بابل، ولكن ثار عليه البابليون، فأرسل إليهم حملة تأديبية. وأقام على بابل ملكًا من الكاشيين – وهو «بورنابورياشي الثاني». وعلى أية حال، فقد استطاع حفيد العاهل الآشوري وهو «توكلتي نينورتا الأول» 1244 – 1208ق.م. أن يضم المملكة البابلية إلى مملكته الآشورية، وحكمها سبع سنوات، وسبى تمثال مردوك، إلى أن ثار عليه ابنه وقتله، فانتهزها البابليون فرصة، ليس للخروج على آشور والانفصال عنها فحسب، بل تمادوا إلى حد التحرش بآشور. ثم مرت المملكة الآشورية بمحنة قاسية، نتيجة لظهور «الآراميين» على مسرح السياسة الدولية، وكان الغزو الآرامي من الدوافع الكبرى لاتحاد ملك آشور «آشو بيل كالا» 1074 – 1057ق.م. مع ملك بابل الكاشي «مردوك شفيك زرماني».

وفي سنة 823ق.م. قام الملك الآشوري «شمش اداد الخامس» بحملة على بابل، وبعد ذلك عمد الملك الآشوري «تجلات بلاصر الثالث» 745 – 727ق.م. إلى إعلان نفسه ملكًا على بابل، وتمكن «مردوك ابال ادين الثاني» 721 – 710ق.م. الذي كانت بداية حكمه في «بيت ياكين» بالقرب من الخليج العربي من احتلال بابل، إلا أن الملك الآشوري «سرجون الثاني» تمكن من طرده منها حوالي عام 710ق.م. ولما مات سرجون عام 705ق.م. ظهر مردوك في بابل. وجلس على عرشها مرة أخرى، لكنها كانت قصيرة، إذ تحالف مع القوات العيلامية، فخرج خليفة سرجون وابنه «سنحاريب» لمحاربته، وهزمه بالقرب من «كيش» ودخل بابل دخول الفاتحين، وقيل إنه حرق المدينة وحولها إلى مستنقعات، لكنه قام بعد عامين بتعيين ابنه «أسرحدون» ملكًا على بابل، وإكراماً لأمه البابلية، أعاد «أسرحدون» بناء المدينة، وأعادها إلى سابق مجدها. وقد حكم هذا العاهل ما بين 680 – 669 ق.م. وخلفه على حكم آشور ابنه «آشور بانيبال» 668 – 631 ق.م. وكان «أسرحدون» قد عين ابنه الثاني «شمش شوم اوكين» 668 – 648 ق.م. ملكًا على بابل، وقد حارب هذا ملك العيلاميين إلا أنه في العام 652 ق.م. اشترك في تحالف قام بين عيلام وكلديا والجزيرة العربية وسيناء وسوريا لمحاربة الآشوريين، وبعد أن تفرغ بانيبال له، عمد إلى تصفية حساباته مع أخيه، فحاصره في بابل وأحرق قصره، فمات بين اللهب عام 648 ق.م. ولما مات

آشور بانيبال عام 631 ق.م، تولى بعده العرش ابنه «آشور اتيل ابلاني» 631 – 628 ق.م. حدثت اضطرابات داخلية، كان من نتائجها انفصال بابل عن آشور، وساعد على ذلك أكثر من خطأ ارتكبته الإدارة الآشورية، منها: الفكرة الخاطئة لدى سنحاريب التي تتمثل في قضائه على بابل، وما تبع ذلك من محاولة تنفيذ الفكرة، والفشل في تطبيقها على أرض الواقع، مما أدى بدوره ببابل إلى أن تكشف عن قوتها،

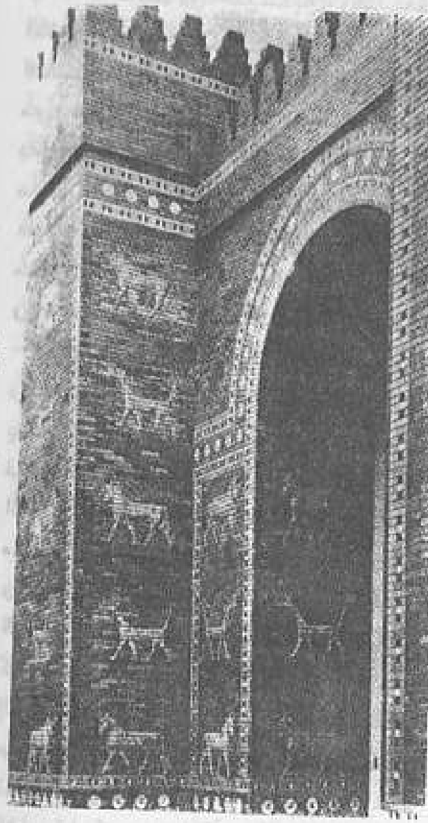

بابل: إعادة تصميم بوابة عشتار القرن السادس قبل الميلاد

مما ترتب عليه ثورات متتالية انتهت بثورة «نابو بولا سار» سنة 625 ق.م، وقيام إمبراطورية بابلية حديثة على انقاض آشور.

العهد البابلي الجديد 625 – 539ق.م.

لما قامت دولة الميديين، وضعف الآشوريون، استعان «نابو بولا سار» بالدولة الناشئة على تحرير بابل من الآشوريين بعد موت آشور بانيبال، وأعلن نفسه ملكًا على بابل، وحاول التقدم نحو بلاد آشور، ففي سنة 612 ق.م. وصل إلى نينوى واستولى عليها، وانهارت المملكة الآشورية، وبذلك حلت محلها المملكة الكلدانية أو «البابلية الجديدة»، ولما مات خلفه ابنه «نبوخذ نصر الثاني» 605 – 562 ق.م. في حكم الدولة البابلية الجديدة، وعاش هذا الملك حتى كاد يبلغ السن التي يطمع فيها، وكان أقوى ملوك الشرق الأدنى في زمانه، وأعظم المحاربين والبنائين والحكام السياسيين من ملوك بابل كلهم، لا تستثنى منهم إلا حمورابي نفسه، وقد وقعت سوريا وفلسطين في يده، وفي عهده سيطر التجار البابليون على جميع مسالك التجارة التي كانت تعبر غربي آسيا من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط... وأنفق «نبوخذ نصر» ما كان يفرضه على هذه التجارة من ضرائب، وما كان يجبيه من خراج البلاد التابعة لحكمه، وما كان يدخل خزائنه من الضرائب المفروضة على شعبه، أنفق هذا كله في تجميل عاصمته «بابل»: «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها؟»، حتى جعلها عاصمة الشرق الأدنى كله بلا منازع، وأكبر عواصم العالم القديم، وأعظمها أبهة وفخامة.

إلا أنه برغم هذه العظمة لم تعمر الدولة الجديدة بعد «نبوخذ نصر» طويلاً، حيث لفظت أنفاسها في عام 539 ق.م. فقد خلفه على عرش بابل ملوك في غاية الضعف، ومنهم ابنه «أويل مردوك» 562 – 560 ق.م. واغتيل هذا على يد نسيبه «نرجال شار اوتسور» مؤيدًا من رجال الدين، الذين كانوا يعتبرون «أويل مردوك» كافرًا، وجاء بعد نرجال ابنه «لاباشي مردوك» الذي جلس على العرش وهو لا يزال طفلاً عام 556 ق.م. لمدة تسعة أشهر، ثم خلع وحل مكانه رجل متقدم في السن، ابن كاهنة حران يدعى «نابونيدوس» 555 – 539 ق.م. نصبته العصبة الكهنوتية، ورغم كبر سنه، إلا أنه قام بثلاث حملات إلى سوريا، ثم سلم أمور الدولة إلى ابنه «شار اوتسو» وتفرغ هو لأمور الدين وبناء المعابد وجمع تماثيل الآلهة، وقد فشل الابن في حماية المملكة من حملات «قورش الثاني» الذي اقتحم بابل عام 539 ق.م. وقتل «شار اوتسو»، وقيل إن الأب استسلم لقورش، وأنهى ما تبقى من حياته منفيًا في كرمان.

وقيل إن قورش قد منح البابليين رضاه، وبدأ على الفور تعويضهم عن الأضرار التي لحقت بهم على أيدي «نابونيدوس» فقام بترميم ما هدم من دور العبادة، وألغى أعمال السخرة، وعلى أية حال لم تتغير حياة البابليين الخاصة حينما تغيرت الأسرة الحاكمة بل استمرت العائلات التجارية والمؤسسات في الازدهار. وراجت السوق البابلية كما كانت من قبل، ولم يحدث أي تغيير إلا في الوظائف الكبرى، وبقي قورش

نفسه في المدينة أثناء شتاء 539 – 538ق.م، ليهيمن على ولايته الجديدة، وحينما عاد إلى «أكباتانا» في بداية الربيع، ترك على بابل ولده «قمبيز» ممثلاً له، وقد تلقى موافقة الإله على انتحال ولده ملك بابل، ولما مات «قمبيز الثاني» 522ق.م. لم يكن له وريث، واعتلى العرش «داريوس» 521 – 485 ق.م. وقد بدأ حكمه بمحاصرة بابل، وكانت في تلك الآونة قد استولى عليها المدعو «نبوخذ نصر الثالث» الذي ادعى انتسابه إلى ذرية «نابونيدوس» ولم يستطع «داريوس» فتح بابل إلا عام 519 ق.م. فأعدم «نبوخذ نصر الثالث» مع ثلاثة آلاف بابلي. وتولى الحكم بعده ابنه «أحشو يروش الأول» 485 ق.م. الذي اتبع مع بابل سياسة الشدة عندما أعلن أهلها الثورة وقتلوا حاكمها «زوبيروس» وأعلن «بلشيماني» نفسه ملكًا على بابل، وتلاه في نفس العام «شماس اريبا» فداهمها الجيش الفارسي، وهدمت أسوارها ومعابدها، وصهر تمثال مردوك نفسه وكان من الذهب، وقصد «أحشو يروش» أن يمحو من الأذهان سلطان مردوك الديني. وفرضت ضرائب باهظة على بابل وصودرت مقاطعاتها وأعطيت للفرس، وأصبح اسم البابليين من الأمور الممنوعة رسميًا. واستمرت محنة بابل حتى اغتيال الملك الذي تولى حكم فارس بعده ابنه الصغير «ارتاكسركسس» وفي عام 462ق.م. استرد كهنة مردوك أراضيهم، وأقيمت لوحة للإلهة «عشتار» في بابل. إلا أن الغبن لم يرفع عن بابل بشهادة أبو التاريخ «هيرودوت» إلا بعد وفاة هذا الملك الظالم ربيب اليهود عام 424ق.م. وتولى الحكم بعده ابنه «داريوس الثاني» وكانت أمه بابلية، وعين ابنه «ارساسس» خليفة له على بابل. وهدأت المدينة تحت رقابته إلى عام 404 ق.م. حينما مرض داريوس. وفي أيامه الأخيرة استقر مقامه في قصر أمه ببابل حيث عاجلته المنية.

وبعد ذلك لم تلعب بابل أي دور سياسي ظاهر، وفي سنة 333ق.م. تعرض الفرس بقيادة «داريوس الثالث» إلى الهزيمة أمام «الإسكندر الأكبر المقدوني» في معركة «إيسوس» ثم تعرضوا لهزيمة ثانية في معركة – أربيل – 331ق.م. ودخل الإسكندر بابل دخول الفاتحين. وكان ينوي أن يجعلها عاصمة لإمبراطوريته، ويعيد لها مجدها التليد، لولا أن عاجلته المنية إثر إصابته بالملاريا عام 323ق.م. وهو في قصر نبوخذ نصر القديم، وخلفت السلالة السلوقية الإسكندر في حكم المنطقة، فجعلوا عاصمتهم «أنطاكية» البعيدة عن بابل. فدخلت بابل في دور الانحطاط تدريجيًا، حتى هجرت نهائيًا قبل الميلاد... وفي كل الأحوال، لم ينته دور بابل في التاريخ القديم كدولة مستقلة في عام 539ق.م. فزوال دورها السياسي لم يستتبعه زوال تأثيرها الحضاري في الشرق والغرب معًا، حتى لقد رأى فيها المؤرخون الإغريق الذين زاروها في عصريها الفارسي والسلوقي، صورة تجمعت فيها المفاخر العقلية للعراق القديم كله.

بابل.. الحياة الاقتصادية

هناك من الباحثين من يرى أن أساس الحضارة البابلية في شدة الخصب في أرضها، والمدينة الفيضية الثانية العظيمة في

الأزمنة القديمة، كانت مدينة بابل، التي كانت حينًا من الدهر شبيهة بمصر، أحد مخازن الغلال الرئيسية، حيث كانت المحاصيل تؤتي تمامًا مائتين أو ثلاثمائة ضعف، ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية، الثراء المستمد من صناعات النسيج. وقد كانت منسوجاتها غاية في الإتقان منذ القدم، وداومت ازدهارها طوال عصورها حتى عهدها الروماني، فقد اشتهرت عند الرومانيين، الذين كانوا يتفاخرون بها ويشترونها بأثمان باهظة، وقيل إنه كان معلقًا في مقصورة الإمبراطور «نيرون» نسيج بابلي موشى بصور تبلغ قيمتها 32300 جنيه استرليني. وبالإضافة إلى المنسوجات، فقد اشتهرت بابل بالحفر على الأحجار الثمينة، ورسم الصور على الصخور والآجر، وصناعة الخزف والزجاج. ومنذ فجر الألف الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزًا عالميًا، اجتذب إلى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وإيران، وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب، وخلاصة القول، إنها أصبحت مركزًا ممتازًا للتبادل التجاري، تتجمع فيه المنتجات العالمية إلى تجار الجملة، ومنها توزع إلى تجار التجزئة في البلاد النائية، بالاستعانة بالمكاتبات المنتظمة والمكاتب الفرعية.

وقد استوردت بابل الأخشاب والتوابل والعقاقير والمرجان والنحاس والحجارة الصلبة والأنبذة وزيت الزيتون، أما ما كانت تصدره في مقابل ما تستورده من السلع، فأهمه الفائض الذي لا ينفذ من الأغذية والحبوب والبلح، وقدر كبير من الصوف الجيد وأحمال كبيرة من المنسوجات، وغير ذلك من المصنوعات التي زادت مقاديرها بمرور الزمن.

حياتها العمرانية والدينية

أما عن شكل بابل في العصور القديمة، كالسومري والأكدي وعصر حمورابي، فلم تسعفنا المصادر التاريخية والمعطيات الأثرية المتوفرة لدينا إلا بشذرات متناثرة وناقصة جدًا، لذلك سنكتفي بما توفر لنا من معلومات عن هيكل بابل العمراني في عهدها البابلي الجديد، وكان «نبوبولاسر» قد وضع الخطط لإعادة بناء المدينة، فلما جاء ابنه «نبوخذ نصر» صرف سني حكمه الطويل التي بلغت ثلاثًا وأربعين في إتمام ما شرع فيه سلفه، وقد وصف «هيرودوت» وغيره بابل، وكان قد زارها بعد قرن ونصف من ذلك الوقت ومن خلال وصفه ووصف من جاء بعده يتضح لنا:

أنها كانت مقامة في سهل فسيح، يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً، ويبلغ عرضه حدًا تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجري في أعلاه، ويضم مساحة تقرب من مائتي ميل مربع، وكان يجري في وسط المدينة نهر الفرات، يحف بشاطئيه النخيل، وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع، ويصل شطريها جسر جميل.

وكانت المباني الكبيرة كلها تقريبًا من الآجر، الذي كان يغطى في كثير من الأحيان بالقرميد المنقوش البرّاق ذي اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزين بصور الحيوان، وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة،

ولا تزال تلك الصور حتى هذه الأيام من أحسن ما أخرجته الصناعة من نوعها، وكل واحدة من الآجر الذي استخرج من موقع بابل القديم تحمل هذا النقش الذي يتباهى به الملك الفخور: «أنا نبوخذ نصر ملك بابل».

وكان أول ما يشاهده القادم إلى المدينة صرح شامخ كالجبل، يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات، جدرانه من القرميد المنقوش البراق، يبلغ ارتفاعه 650 قدمًا، فوقه ضريح يحتوي على مائدة كبيرة من الذهب المصمت وعلى سرير مزخرف تنام عليه كل ليلة إحدى النساء في انتظار مشيئة الإله، وأكبر الظن أن هذا الصرح الشامخ الذي كان أعلى من أهرام مصر، وأعلى من جميع ما في العالم في كل العصور إلا أحدثها عهدًا هو «برج بابل» وكان في أسفل الصرح هيكل عظيم لمردوك، رب بابل وحاميها، ومن أسفل هذا المعبد تمتد المدينة نفسها من حوله، يخترقها عدد قليل من الطرق الواسعة المستقيمة، وكثير من القنوات والشوارع الضيقة الملتوية، التي كانت تعج بلا ريب بالأسواق والحركة التجارية وبالغادين والرائحين، وكان يمتد بين الهياكل القائمة في المدينة طريق واسعة مرصوفة بالآجر المغطى بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ومجمعات من الحجارة الحمراء، تستطيع الآلهة أن تسير فيه دون أن تتلوث أقدامها، وكان على جانبي هذه الطريق الواسعة جدران من القرميد الملون، تبرز منها تماثيل لمائة وعشرين أسدًا مطلية بالألوان الزاهية، وكان في أحد طرفيه مدخل فخم هو «بوابة عشتار» إلهة الخصب، ذو فتحتين من القرميد الزاهي المتألق، تزينه نقوش تمثل أزهارًا وحيوانات جميلة الشكل زاهية اللون، ويخيل إلى النظار أنها تسرى فيها الحياة.

وكان على بعد ستمائة ياردة من برج بابل وإلى شماله ربوة تسمى القصر، شاد عليها «نبوخذ نصر» أرقى بيت من بيوته، ويقوم في وسط هذا البناء مسكنه الرئيسي، ذو الجدران الجميلة المشيدة من الآجر الأصفر، والأرض المفروشة بالخرسان الأبيض المبرقش، تزين سطوحها نقوش بارزة واضحة زرقاء اللون مصقولة براقة، وتحرس مدخله أسود ضخمة من حجر البازلت، وكان بالقرب من هذه الربوة «حدائق بابل المعلقة» الذائعة الصيت، التي كان يعدها اليونان إحدى عجائب الدنيا السبع، مقامة على أساطين مستديرة متتالية، كل طبقة منها فوق طبقة، وكان سبب إنشائها أن «نبوخذ نصر» تزوج بابنة سياخار «سيكارس» ملك الميديين، ولم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارقة وثراها، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية، ودفعت الشهامة والمروءة «نبوخذ نصر» فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة، وغطى سطحها الأعلى بطبقة من الغرين الخصيب يبلغ سمكها جملة أقدام، لا تتسع للأزهار والنباتات المختلفة ولا تسمح بتغذيتها وحسب، بل تتسع أيضًا لأكبر الأشجار وأطولها جذورًا، وتكفي تربتها لغذائها، وكانت المياه ترفع من نهر الفرات إلى أعلى طبقة في الحديقة، بآلات مائية مخبأة في الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق.

وقد ترك لنا «نبوخذ نصر» تقريرًا عن

جهوده في بناء بابل قال فيه: ***«اقمت جدارًا ضخمًا حول بابل من الشرق، حفرت له خندقًا، وبنيت جانبه الخارجي المنحدر من الطوب المحترق والقار، واقمته بارتفاع تل عال، وفتحت فيه بوابات واسعة وابوابًا من خشب الأرز المغشى بالنحاس، حتى إن العدو مهما كان شره لا يستطيع ان يصل إلى الداخل واحطت الجدران بسيول عارمة كامواج البحر، لقد صنعت من بابل قلعة حصينة». كما ترك لنا تقريرًا عن برج بابل قال فيه: «اجهدت يدي في رفعه حتى يناطح السماء» اما ارسطو فقد قال: «إن بابل امة اكثر منها مدينة».***

اما عن آلهة بابل. فقد كان يضم مجمع الآلهة البابلي جميع الآلهة السومرية والأكدية بالإضافة إلى «مردوك» إله بابل القومي، ومن آلهة بابل: شمس إله العدالة، ونابو إله الكتابة والحكمة، وعشتار إلهة الخصب، وأدد إله الأعاصير، وأبسو إله المياه العذبة، وأبو إله العشب الأخضر، وأيا إلهة الأنهار». وقد ظل مردوك محتفظًا بمنزلته الرفيعة حتى بعد وقوع بابل تحت الاحتلال الأجنبي وتبناه الآشوريون، وكان العيد الرئيسي لمردوك يقع في الأول من شهر نيسان. وهو عيد رأس السنة التي تبتدئ في الربيع. وكان العيد يدوم اثني عشر يومًا.

حياة بابل العلمية

كان البابليون تجارًا. ومن أجل ذلك كان نجاحهم في العلم أيسر من نجاحهم في الفن، وقد أوجدت التجارة علوم الرياضة، وتعاونت مع الدين على إيجاد الفلك، فقبل عام 2000 ق.م. وضع البابليون القوانين الأساسية للرياضيات، تلك القوانين التي لم يستطع اليونان التعرف عليها إلا بعد مرور ألف وخمسمائة عام، ولقد أدى علماء البابليين خدمات جليلة في حقل الرياضيات يجهلها الناس في الوقت الحاضر عامة، وهي انهم كانوا اول من اعطى للأعداد قيمتها بحسب مراتبها في العدد، وأنهم برعوا في الأعمال الهندسية الخاصة بالمباني العمرانية وبناء الطرق وشق الأنهار والجداول، ونضوج المعارف الجبرية التي بلغت مرتبة كبيرة أكثر من علم الهندسة، وأنهم عرفوا المعادلات الجبرية الأساسية. إلى غير ذلك من الفضائل التي لا يتسع لها صدر هذه الدراسة، ونبغ البابليون أيضًا في العلوم الطبيعية، مثل تلك التي تتناول حياة الحيوان والنبات، وتركوا لنا جداول في الحيوانات والنباتات والأحجار، كما تقدموا في معرفة خواص المعادن وصنع الأصباغ والعقاقير والأدوية والصابون والعطور والجعة.. إلخ.

اما في مجال الطب، فقد عرف الأطباء البابليون الكثير من الأمراض والأوبئة، وذكروا بعض الأمراض المستعصية مثل السرطان والدرن والجذام، وكانت أدويتهم تتركب من مستخرجات من مواد نباتية أو من أصول حيوانية أو معدنية، ولقد كان في بابل عدد كبير من الأطباء، كما تدل على هذا عناوين الأسماء للناس المهمين، والواقع ان فن الطب احتل مكانة مهمة في الحياة العامة

حتى انه ادرج في صلب القوانين لحمايته ومراقبة المشتغلين به، وان قوانين حمورابي قد خصصت عدة اقسام منها للجراحة، كما حددت هذه القوانين الأجور التي يتقاضاها الجراح عند قيامه بعملية صغيرة أو كبيرة.

اما في مجال الجغرافيا، فنحن نعلم من خلال كثير من المصادر أن البابليين كونوا علاقات طيبة مع الشعوب التي تحيط بهم وتعرفوا عليها جيدًا، وكانوا يعرفون طرق المواصلات التي تربط بلادهم بالأقطار الأخرى المجاورة لهم أيضًا، ولقد رحل تجارهم إلى كل مكان. وقد امتدت رحلات البابليين إلى الشمال فوصلوا شواطئ البحر الأسود وسواحل بحر قزوين، وكانت لهم علاقات تجارية جيدة مع باكستان... وقد رسموا كثيرًا من الخرائط على الرقم الطينية، وأقدم رسوم هي خريطة مدينة «نفر» منذ الألف الثاني ق.م. ثم رسموا خرائط لأقاليم وخريطة للعالم المعروف لهم، وصور البابليون الأرض على هيئة دائرة، يجري في وسطها الفرات، وفي مركز الدائرة تقع بابل، وفي جانب من هذه الدائرة تقع بلاد آشور، وكانوا يضعون دوائر كناية عن المدن ويجوارها اسم كل مدينة، كما نفعل في الخرائط الحديثة حاليًا، والمثلثات التي رسمت خارج الدائرة كانت تعبر عن البلاد الأجنبية.

وكان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون واشتهروا به في العالم القديم كله، فالبابليون من بين امم الأرض قاطبة، اشتهروا انهم اول من مارس الفلك من الشعوب ووضعوا أسسه، ومنذ ظهور الإسطرلاب في العهد البابلي القديم، بدأ الفلك لدى البابليين يتخذ خطى وطيدة نحو الكمال، حتى غدا علمًا قائمًا على أسس ثابتة؛ ويعزى للبابليين انهم أول من راقب حركات الكواكب السيارة، ودونوا نتائج

الإله مردوك

مشاهدتهم، وسجلوا كل ظاهرة فيها بدقة وعناية، واستطاعوا أن يلاحظوا حتى التقلبات التي يسببها استقبال الاعتدالين الخريفي والربيعي، ووصفوا بكل عناية كسوف الشمس وخسوف القمر، وأحوال النجوم أيضًا، حتى أن جزءًا من علم التقويم القديم ما يزال ثابتًا بلا خوف من خطأ فيه.

وكانوا أول من قسموا السنة إلى اثني عشر شهراً، وقسموا اليوم إلى اثني عشر قسماً، والقسم يعادل ساعتين، كما يرجع إليهم اختراع المزولة، وغير ذلك من الخدمات الجليلة التي قدموها لهذا العلم.

نكتفي بهذا القدر الضئيل عن علوم بابل، بحكمنا في ذلك مساحة الدراسة، فلم نتحدث عن علوم اللغة والتاريخ والفلسفة والأدب، وغير ذلك من العلوم والاختراعات التي كانت عناوين شهرة لهذه المدينة العظيمة، وننتقل من الحديث عن المدينة إلى الحديث عن أعظم من أنجبتهم بابل بلا منازع.

حمورابي سليل العموريين العمالقة

إن السلالة التي ظهر منها حمورابي هي سلالة «العموريين» أو العمالقة العرب، وعرفوا بكونهم عمالقة في الطول كأشجار الأرز، وأقوياء كأشجار السنديان، ويرى بعض الباحثين أن هذه القبائل العمورية هاجرت من الجزيرة العربية، ثم انتشرت في كافة أرجاء المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات منذ الألف الخامس ق.م. ويرى البعض الآخر أنهم تمركزوا في بداية الأمر في الأقسام الشمالية من سوريا، ثم أخذوا ينتشرون في أواسط سوريا وفي لبنان حتى امتدوا جنوبياً إلى فلسطين، وقد أسسوا في وطنهم الجديد دولة عمورية اتخذوا مدينة «ماري» عاصمة لها، وغدت من أقوى دول ذلك العصر، ثم استمروا في تأسيس الدول منذ نهاية الألف الثالث ق.م. وكانت دولهم في العراق تمتد من آشور شمالاً إلى «لارسا» جنوبياً، منها دولة «ايسن» التي قامت على أنقاض دولة «أور الثالثة» وقد ظلت هذه الدول مزدهرة إلى أن قضت على استقلالها سلالة بابل الأولى، التي اشتهرت بإمبراطورية حمورابي العموري، ويرجح أن السلالة المهمة التي تأسست في بلاد آشور، واشتهرت بملكها «شمشي أدد» 1814 – 1782ق.م. أصلها من العموريين أيضاً، ويتبين من حوليات «زمري ليم» ملك ماري 1730 – 1700ق.م. أن مدناً كحلب وجبيل وقطنة وحران كانت تحت حكم سلالات عمورية أو أمراء عموريين. ويستدل من سجل الآثار الفلسطيني أن االعموريين قد أقاموا لهم عدة دويلات في فلسطين، اشتهرت منها دولة بيسان وأشهر ملوكها «عوج بن عناق» وهناك شبه إجماع كامل لدى الباحثين، أن الكنعانيين في سوريا وفلسطين إنما هم بطون من العموريين. وعلى أية حال، لم ينته الدور العموري المهم في المنطقة، إلا بسقوط الدولة البابلية الجديدة بأيدي الفرس عام 539ق.م.

وحمورابي هو سادس ملوك السلالة العمورية في بابل، وقد ساد الاضطراب في تحديد فترة توليه العرش، وذكرت في ذلك عدة تواريخ، نرجح منها الفترة ما بين 1792 – 1750ق.م. وهو ابن «سن موباليت» 1812 – 1793ق.م. الذي شن حرباً على أور ولارسا، واستولى على دويلة ايسن، وقد سار حمورابي على درب والده، وتصوره الأختام والنقوش الآثارية بعض التصوير، فنستطيع في ضوئها أن نتخيله شاباً يفيض حماسة وعبقرية، عاصفة هوجاء في الحرب، يقلم أظفار الفتن، ويقطع أوصال الأعداء،

ويسير في شعاب الجبال الوعرة، ولا يخسر في حياته واقعة.

حمورابي الفاتح

أول ما يتبادر إلى الذهن، هو أن المملكة الواسعة التي دانت لحمورابي إبان حكمه الطويل، والتي شملت بلاد ما بين النهرين جميعها، وامتدت حتى وصلت إلى ديار بكر، لم تكن المملكة التي ورثها عن أبيه، إذ لم تزد مساحة تلك عن عشرين ميلاً بالعرض، وثمانين ميلاً في الطول، وقد اقتصرت على الرقعة الصغيرة التي نجدها في الوقت الحاضر بين الفالوجة والديوانية، أما بقية إمبراطورية بابل الشاسعة، فقد ضمها حمورابي إلى عرشه نتيجة الفتوحات التي قام بها في المرحلة الأولى من حكمه.

وحمورابي لم يبدأ القيام بفتوحاته تلك لدى اعتلائه العرش مباشرة، بل بعد ذلك بخمس سنوات، فقد كان من الدهاء بحيث أمضى تلك السنوات الأولى في التعرف على أحوال تلك الممالك، وإعداد العدة للحرب التي نوى منذ اللحظة الأولى خوضها، أضف إلى ذلك حرصه على الإحاطة بشئون مملكته ورعيته، والعمل على توطيد عرشه، فإذا ما اطمأن إلى ذلك كله، بدأ حربه مع العيلاميين وعلى رأسهم في ذلك الوقت «ريم سين»، وقد أظهر حمورابي في حربه حزماً وعزماً ولا الذي في التصور، وبذلك استطاع أن يقضي على العيلاميين وأحلافهم ويتتبعهم إلى بلادهم، وعندما تم القضاء على أكبر عدو له في ذلك الوقت، توالت الهزائم على بقية أعدائه، وظل حمورابي طوال ثلاثين عاماً يناضل لفرض سيطرة بابل على ما حولها من دويلات وأمم، انهارت أمام جحافله ومنها: لارسا وماري وآشور وسومر وأكاد

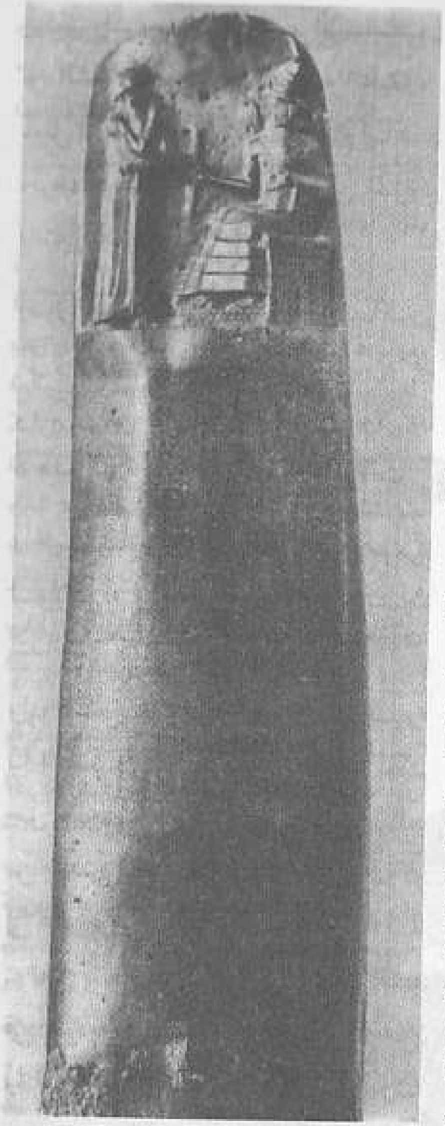
مسلة شريعة حمورابي بمتحف اللوفر

ونينوى وأشنونا. وأسس إمبراطورية تمتد من الخليج العربي إلى ديار بكر، ومن جبل زجروس إلى الصحاري الغربية.

الدبلوماسي والإداري

كان حمورابي دبلوماسيًا لبقًا، أكثر منه محاربًا مقدامًا، وكان يفضل اللجوء إلى الحنكة السياسية في تطلعاته التوسعية، ولم يكن ظالمًا عاتيًا او متجبرًا على من هزمهم، فأثبت انه لم يكن بطلاً حربيًا فحسب، بل كان بطلاً في السلم والسياسة، كانت لا تغمض له عين عن اي مكان في امبراطوريته، ولقد بقيت لنا رسائله إلى ولاته، وهي تشهد بكمال إدارته لشئون امبراطوريته، وقد سعى جهده لتركيز الإدارة والحكم في قصره ببابل، مضاعفًا عدد الموظفين والموفدين إلى الأقاليم، ونظم أمور البريد الرسمي.

وفي الميدان الاقتصادي، نظم حمورابي البلاد من جديد وأصلحها بالتوسع العظيم في الزراعة، وشق الكثير من القنوات، وأمر بحفر قناة كبيرة بين كش والخليج العربي، روت مساحات واسعة، ووقت المدن الجنوبية مما كان ينتابها بسبب فيضانات دجلة المدمرة، ونشطت التجارة في جميع البلاد، وبخاصة مع البلاد السورية... وكانت قوة جيش حمورابي قد نشرت الأمن في كل الطرق.

ويعزى إلى حمورابي أنه استخدم ما حصل عليه من ضرائب في تدعيم سلطان القانون والنظام، واستخدم ما تبقى بعد ذلك في تجميل عاصمة إمبراطوريته، فأنشئت القصور والهياكل في جميع نواحيها، وأقيم جسر على نهر الفرات، حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه، وأخذت السفن التي لا يقل بحارتها عن تسعين رجلاً تمخر النهر صاعدة نازلة، وأضحت بابل قبل المسيح بحوالي ألفي عام من أغنى البلاد التي شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه، ولم يقتصر اهتمام حمورابي بعاصمته وحسب، بل وجه عنايته إلى كثير من مدن امبراطوريته، حتى قيل إنه لم يوجد فيها مدينة إلا وقد خلف فيها شيئًا من مآثره، وقد وصل إلينا من عهده نقش يفخر فيه بأنه أجرى الماء في البلاد، ونشر الأمن والحكم الصالح بين كثير من القبائل، ووجد أيضًا نقش آخر على ضفة أهم القنوات التي شقها يقول فيه: «حمورابي فيض الشعب».

الملك التقي

كان للدين في تاريخ بابل أهميته العظمى. وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على سلطة وثروة عريضتين، وكان الملوك يعتمدون كثيرًا على حظوتهم، وحتى في أيام سيطرة «مملكة اشور» لم يكن المحتل يستطيع ان يدعم نفوذه في بابل إلا بتقديم فروض الاحترام لإله بابل القومي «مردوك».

ويرجع إلى حمورابي خاصة الفضل في علو شأن هذا الإله، الذي أصبح زعيم الآلهة، والإله الراعي لبابل، وبلغ من حذق حمورابي، أن خلع على سلطانه خلعة من رضاء الآلهة، بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدنيوية، من ذلك ان شاد المعابد كما شاد القلاع، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجته – إلهي البلاد القوميين – في مدينة بابل هيكلاً فخمًا

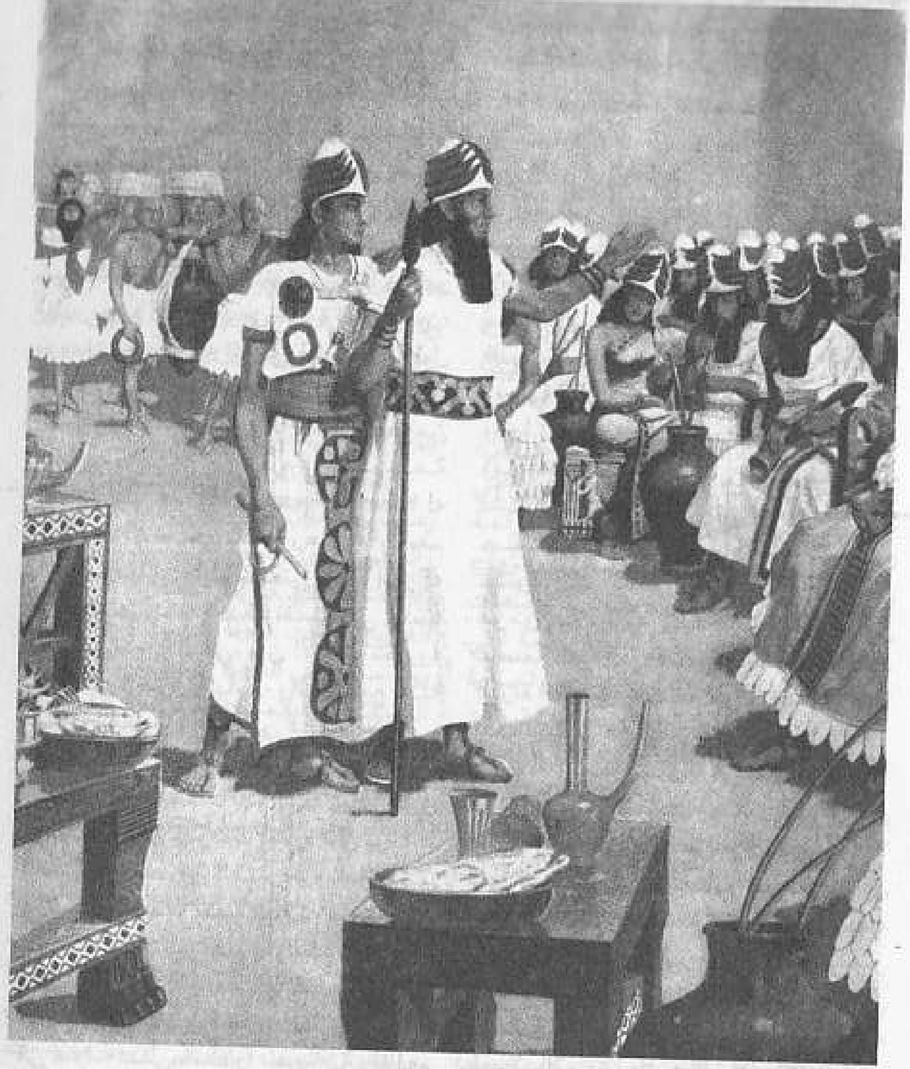

حياة البابليين الديمقراطيين القرن العشرين قبل الميلاد مشهد من ملحمة الخلق

ومخزنًا واسعًا ليخزن فيه القمح للإلهين والكهنة، وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما في واقع الأمر بمثابة مال يستثمر أبرع استثمار، جنى منه ربحًا وفيرًا، هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التي يقدمها إليه الشعب... وقد وصف حمورابي نفسه في تعاليمه بما اعتاد الملوك القدماء أن يصفوا أنفسهم به؛ من حيث اتصالهم بالأرباب وتقواهم إزاءهم في الوقت نفسه، ومن حيث ظهورهم بمظهر المتفضل حينًا ومظهر المقدر حينًا آخر، فادعى النبوة للإله «سين» ووصف نفسه بأنه إله بين الملوك، وأنه أول الملوك وزعيمهم، والخالد بينهم، وأنه الملك الحكيم والملك الكامل، وأنه منقذ شعبه من البأساء، وكان من آثاره هذه السمعة الغالية التي ادعاها لنفسه، أو ادعاها له أتباعه، أن سمى بعض رعاياه أبناءهم باسم «حمورابي ايلو» بمعنى حمورابي إله أو هو الإله. ولكنه وصف نفسه إلى جانب ذلك بأنه الأمير التقي، وأن الأرباب تخيروه لإصلاح أحوال الناس، وأنه المطيع للإله شمش العظيم. وأنه كثير الدعاء للأرباب، وأنه لم يهمل رعاية أصحاب الرؤوس السود الذين عهد بهم إليه رباه «إنليل ومردوك» وأن مردوك أمره بأن يرشد الناس إلى الطريق القويم، ويحق الحق والعدالة ويدونها بلغة البلاد، فاستعان بأمر شمش القاضي الأعظم للسماء والأرض، وذلل الصعاب للناس، وكان أشبه بوالد لهم، ووضع أهل سومر وأكد في جوفه حتى سعدوا بحمايته وأظلهم بحكمه، ثم رجا أن تدوم عدالته وتنتشر في البلاد كلها بإذن مردوك مولاه، ودعا الملوك الذين سوف يعقبونه إلى أن يتبعوا أسلوب حكمه، ودعا كل مظلوم أن يذهب بنفسه إلى نصب تشريعاته ويقرأها بعناية ويتمعن حكمته فيها حتى تستبين له قضيته ويهدأ باله، واستعدى أربابه على كل من يمحو التشريعات أو يغير فيها .

المشرع العظيم

بعد أن تم لحمورابي توطيد العرش وتوحيد البلاد وإسعاد العباد، بذل جهوده لإصدار قانونه المشهور، الذي سجله على مسلة كبيرة أسطوانية الشكل من حجر الديوريت، طولها 225 سم وقطرها 60 سم، وفيها 282 مادة موزعة على 34 عمودًا، وتقرأ أحرفها المسمارية من أعلى إلى أسفل، وفي أعلى المسلة نقش بارز، يمثل فيه الإله «شمش» إله العدالة يملي شريعته على حمورابي الذي يظهر واقفًا في وضع خشوعي، للدلالة على أن هذا التشريع الملكي هو من كلام الإله. وقد انتقلت المسلة إلى عاصمة العيلاميين «سوس»، نقلها إليها أحد الغزاة العيلاميين، غنيمة حرب، وكشفت عنها بعثة التنقيب عن الآثار الفرنسية عام 1901 -1902، والمسلة محفوظة في متحف اللوفر.

وإن كانت شريعة حمورابي هي أتم شريعة في تاريخ الحضارات القديمة، إلا أنها ليست الأولى، فقد ظهر في العراق قبل حمورابي تشريعات كثيرة، منها ما عثر عليه نتيجة المكتشفات الأثارية، ومنها ما لم يعثر عليه حتى الآن. ومن تلك التشريعات التي عرفناها، تشريعات سومرية كقوانين «أورك عجينا» التي وضعت حوالي عام 2360 ق.م. وشريعة «أورنمو» مؤسس سلالة أور الثالثة، وشريعة «لبت عشتار» ملك ايسن، وشريعة «دادوشاه ملك أشنونا.

وعلى أية حال، فقد مهدت تلك الشرائع لحمورابي إصدار شرائعه، بعد أن قام بكثير من التغيير والتبديل، فجاءت لتشكل مجموعة من الأحكام، درجت عليها الاجتهادات القضائية السابقة. يمكن للقضاة أن يستنيروا بها، مع إفساح المجال لتطبيق الأعراف المحلية. ومن هنا امتازت بالنبض الواضح والدقيق على صعيد المبادئ القانونية، وبالاهتمام بالناحية المنطقية، وبمحاولة الجمع بين الأعراف المختلطة في أرجاء الإمبراطورية وقد دونت باللغة المسمارية، وشكلت صرحًا كلاسيكيًا للحضارة البابلية.

وهذه المدونة التي وضعها حمورابي، نظمت في دقة وإحكام القانون المدني في بابل، ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة، وأعمال المصارف والزواج والتبني والإرث، وكذلك سير المرافعات القضائية، وتشهد على المكانة المهمة التي كانت بابل قد وصلت إليها في تجارة الأمم، وهي تكوّن مذهبًا محكمًا لقانون الدولة، ولو أن آثارًا منها ترجع إلى ما جرت عليه العادات الأولى، مثل قانون القصاص بالمثل (العين بالعين)، وهي تمثل تقدمًا عظيمًا بالقياس إلى قانون العادات في المجتمعات الأولى، وقد حرم الانتقام بسفك الدم، وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنتظمهم حماية القانون.

ومن الطرافة بمكان بالغ أن نقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة، كالإعفاء من الخدمة العسكرية، وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية، ورقابة تجارة الخمور، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديون الزوجة، والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا العاهل البابلي في أوائل الألف الثاني ق.م. وقبل أن يظهر دعاة المساواة بين حقوق الرجل والمرأة بحوالي أربعة آلاف عام، نظم حمورابي أمور الزواج والطلاق، وأعطى للمرأة كثيرًا من الحقوق، فاحتلت مكانة كبيرة في بلاد بابل القديمة، واشتغل بعضهن بالتجارة، كما كان فيهن من احترفت مهنة الكتابة، وكانت الفتيات يذهبن إلى المدارس لتلقي العلم، ويجلسن جنبًا إلى جنب مع الصبية.

وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين، فإن مدونة قوانين حمورابي والقانون الذي جاء بعد ذلك مستندًا إليها. وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين، وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنًا مديدًا في العهد المسيحي، وقد أيدت الشرائع الإسلامية الكثير مما جاء فيها، وعلى أية حال، فقد كان في قدرة الإنسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج العربي إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي.

إنه خلود ما بعده خلود، رأينا الشرائع والمشرع يخلد كل منهما الآخر، مثلما كان حمورابي وبابل، كل منهما عنوان شهرة للآخر، فنظرة عجلى تلقى على مسيرة بابل ومسيرة عظيمها، تدلنا على أن من مقتضيات بيئتها وجغرافيتها وأفكارها أن تزدهر، كما أن مواهب الشاب مع مساعدة أحوال منبته مما يعده لعمل باهر.

المراجع

1- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1959.

2- دي بورج، تراث العالم القديم، ترجمة: زكي سوس، دار الكرنك، القاهرة، 1965.

3- ول يورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ترجمة: محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956.

4- ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

5- جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة، ترجمة الدكتور احمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966.

6- جون الدر، الأحجار تتكلم، ترجمة: الدكتور عزت زكي، مطبعة مدكور، القاهرة 1965.

7- مايرز، فجر التاريخ، ترجمة: علي عزت الأنصاري، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 1962.

8- إدوارد كييرا، كتبوا على الطين، ترجمة: الدكتور محمود حسين الأمين، مكتبة دار المتنبي، بغداد، 1964.

9- الدكتور عبدالحميد زايد، الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966.

10- هنري عبودي، معجم الحضارات السامية، مطبعة جروس برس، طرابلس، لبنان، 1991.

11- الدكتور احمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1958.

12- الدكتور احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دار الاعتدال، دمشق، 1973.

13- الدكتور حامد عبدالقادر، الأمم السامية مصادر تاريخها وحضاراتها، دار نهضة مصر، 1981.

14- عيسى الحلو، عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم، دار الطليعة، بيروت، 1960.

15- الدكتور عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، مكتبة الانجلو المصرية، ب. ت.

16- الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، حضارة العراق القديمة، دار المعارف، مصر، 1961

الآخر

أسطورة العنف من أوروبا إلى أمريكا

آرثر هيرمان

ت: طلعت الشايب

أسطورة العنف والقتل
من أوروبا إلى أمريكا

آرثر هيرمان
ت: طلعت الشايب

* نشرت «العصور الجديدة» في عددها العاشر (يونيو 2000) فصلاً من كتاب «فيل سليتر»: «مدرسة فرانكفورت – نشاتها ومغزاها» – وجهة نظر ماركسية» – ترجمة الأستاذ خليل كلفت.

هنا فصل من كتاب اخر، يحمل وجهة نظر اخرى عن «مدرسة فرانكفورت» جديرة بالمناقشة. الكتاب هو: «فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي» تاليف «ارثر هيرمان» أستاذ التاريخ في جامعة «جورج ماسون» الأمريكية ومنسق برنامج الحضارة الغربية في The Smithonian Institute، وهو صادر عن دار نشر Free Press (Simon & Schuster) عام 1997 وتصدر ترجمة كاملة له عن المجلس الاعلى للثقافة في ديسمبر القادم.

يرى المؤلف ان الكلام عن نهاية الحضارة الغربية اصبح طبيعياً مثل التنفس بعد تجربة الحرب العالمية الاولى وصدور كتاب «شبنجلر» المشهور: «افول الغرب»، وان السؤال المطروح لم يعد هو احتمال انتهاء الغرب، اصبح السؤال عن السبب. وكانت الإجابة التي تبناها نقاد فرانكفورت (ادورنو – نيومان – فروم – ماركيوز) تعني التغاضي عن العقيدة الماركسية القديمة في التقدم والعقلانية العلمية، والتوجه نحو رؤية اكثر ياسًا وتشاؤمًا بخصوص المستقبل.

كما انهم باختيارهم لـ«نيتشه» و«فرويد» كنموذجين لهم، وضعوا – دون قصد – صور ولغة نظرية الانحلال في قلب برنامجهم النقدي الماركسي مباشرة. ولنقرا!

ط . ش

كان «كارل ليبكنشت» Karl Liebknecht – و«روزا لوكسمبورج» Rosa Luxemburg – شخصين مراوغين من الصعب الإمساك بهما. في السادس من يناير عام 1919 قادا جماعات من العمال المسلحين والنشطاء البلشفيك الذين كانوا يطلقون على أنفسهم «الرابطة السبارتاكوسية»(1) Sapartcist League للاستيلاء على الحكومة الألمانية في «برلين». ولمدة تسعة أيام كان الثوار قد وضعوا المدينة تحت تهديد السلاح، معلنين تحديهم لجمهورية «فيمر» وقيادتها الديمقراطية الاشتراكية. بعد ذلك تحركت قوات من الجنود والمتطوعين (فريكوربس Freikorps) وبدأت عملية إخلاء الشوارع وفي اليوم الخامس عشر، كان آخر حاجز قد ازيل، واختفى قادة الثورة الشيوعية الألمانية الفاشلة.

المفارقة الساخرة، هي أن «ليبكنشت» و«لوكسمبورج» كانا قد عارضا الانتفاضة، عندما قامت، ولكنهما انضما إليها بعد ذلك حتى لا يتخلفا عن المد الثوري. وحينذاك اصبحا رهينتين لتلك الهزيمة.

وقد نجحا في تضليل مطارديهما حتى ليلة الخامس عشر، عندما اكتشفتهما دورية من فرقة حرس الخيالة في إحدى الشقق في منطقة «فيلمر سدورف» واقتادهما الجنود إلى رئاسة الفرقة حيث خضعا لتحقيق وحشي بعد ضرب مبرح، وعلى ضوء سيارة كانت تقف منتظرة تقدم منهما أحد أفراد وحدة «الفريكورب» واسمه «رانج» – Runge، (كان نموذجًا لمن كان شبنجلر معجبًا بهم من الجنس السيد) ليضرب «ليبكنشت» بمؤخرة بندقيته. وعندما سقط على الأرض، تركه وانتقل ليحطم راس «روزا لوكسمبورج». وفي الهرج الذي حدث بعد ذلك تم سحب الجسدين إلى العربة المنتظرة حيث اطلقت عليهما النار، ثم القوا بالجثتين في قناة «لاندوهر». هكذا انتهى الأسبوع السبارتاكوسي.

موت «ليبكنشت» و«لوكسمبورج» وانتهاء الثورة العمالية الفاشلة، احدث ازمة في الفكر الماركسي الألماني، سوف تجعلها الأحداث التالية اكثر سوءًا. كانت «روزا لوكسمبورج» تجادل بشدة وتقول إن أعضاء الطبقة العاملة الألمانية كانوا ثوارًا بالطبيعة، وانهم كانوا – فقط – ينتظرون اللحظة المناسبة للإطاحة بظالميهم وتحقيق «يوم الخلاص». والآن لم يعد المنظرون الماركسيون واثقين من ذلك. الفكرة القديمة عن ان النصر الاشتراكي على الراسمالية حتمية تاريخية، او بالأحرى هو جزء من التاريخ باعتباره تقدمًا، تم سحقها تحت كعب حذاء اكثر عداوة وهو «ثورة اليمين». حتى نجاح الثورة في روسيا عام 1917، لم ينجح في تبديد تلك الشكوك، حيث تراجعت الشيوعية الألمانية وانسحبت نحو طاعة وتبعية ذليلة لموسكو ولأشخاص مثل «لينين» (كانت «روزا» لا تثق به) و«ستالين».

في سنوات «فيمر»، كان مثقفو الجناح اليساري قد اصبحوا متشككين في جميع المؤسسات، بما في ذلك الحزب الشيوعي والجمهورية الديمقراطية الاشتراكية، واصبحت لهجتهم اكثر انتقادًا ومرارة وقد

انعكس ذلك في كتابات «كورت تاكولسكي» – Kurt Tucholsky و«هينرش» – Heinrich شقيق «توماس مان».

كما تحول كثيرون من السياسة إلى الفنون والعمل الأكاديمي. (منهم «جورج جروسز» – Georg Grosz و«بول كلي» – Pull Klee و«والتر جروبيوس» – Walter Gropius و«كورت فيل» – Kurt Weill و«برتولد برخت» – Bertold Brecht حتى الجامعات الألمانية التي كانت ذات يوم حصنًا للتقاليد القديمة والنزعات المحافظة، انفتحت في عهد «ويمر» على مختلف المؤثرات بما فيها الماركسية. وكانت الجامعات التقدمية مثل «فرانكفورت» ترحب بالشيوعيين الذين يجاهرون بشيوعيتهم. اما مؤسسو ما يسمى بـ«مدرسة فرانكفورت» و«معهد البحوث الاجتماعية»، فقد وجدوا هناك مرفئًا يطلقون منه منبرًا ماركسيًا جديدًا للنقد الثقافي، يعتمد على التقاليد القديمة، ولكنه يشتمل ايضًا على اسلحة ايديولوجية جديدة وربما أكثر كفاءة. وبحلول عام 1920 كانت الافتراضات الجوهرية للتشاؤمية الثقافية والتاريخية معًا، قد تأصلت في مناقشات الثقافة الجديدة والمجتمع الجديد، لدرجة أن نكرانها كان يثير الشك والريبة.

هذه الافتراضات الجوهرية، هي أن الديمقراطية الجماهيرية تفسد الحرب السياسية الحقيقية، وأن التكنولوجيا والعلم الوضعي يفسدان الروح الإنسانية، وأن الراسمالية الصناعية تمزق النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع (Gemeinschaft)، وأن كل هذه التوجهات تحدث تاكلاً في الحيوية وتفسخًا وانحطاطًا في الفنون والأخلاق، الأمر الذي يوحي بالنهاية الوشيكة للغرب.

منظرو مدرسة فرانكفورت ولدوا ونشأوا على هذا التشاؤم. بعد تجربة الحرب العالمية الأولى وصدور كتاب «شبنجلر» المشهور «أفول الغرب»، أصبح الكلام عن نهاية الحضارة الغربية طبيعيًا مثل التنفس. الموضوع الوحيد الذي تبقى للجدل لم يكن هو ما إذا كان الغرب سوف ينتهي أم لا، أصبح السؤال: لماذا؟ وكانت الإجابة التي تبناها نقاد مدرسة فرانكفورت («ماكس هوركهايمر» – Max Horkheimer و «تيودور ادورنو» – Theodor Adorno و«فرانز نيومان» – Franz Neumann و«إريك فروم» – Eric Fromm و«هيربرت ماركيوز» – Herbert Marcuse) تعني التغاضي عن العقيدة الماركسية القديمة في التقدم والعقلانية العلمية، والتوجه نحو رؤية اكثر يأسًا بخصوص المستقبل. الماركسية قدمت اساسًا تاريخيًا صلبًا لنقد كاسح للثقافة البرجوازية و«العقلانية التكنولوجية للحضارة الحديثة» وحتى لتفسير أسباب فشل الثورة الشيوعية في أن تمنع الغرب من أن يدمر نفسه في النهاية. ورغم أن «ماركس» نفسه قدم بعض الذخيرة لهذه «الماركسية النقدية» التشاؤمية، وخاصة في أعماله الباكرة غير المنشورة التي كان الدارسون قد اكتشفوها اخيرًا، إلا ان مدرسة فرانكفورت اتجهت بالفعل نحو مفكرين غير ماركسيين من اجل دعاواهم الرئيسية والمؤثرة. كان الأول هو «سيجموند فرويد» – Sigmund Freud الذي

مكنت نظرياته مدرسة فرانكفورت ان تفهم – كما كتب احد اعضائها – «الآثار المشوهة التي تتكبدها الإنسانية في مقابل انتصاراتها التكنوقراطية». وقد توصل نقاد فرانكفورت إلى ان الراسمالية الغربية تنتج باستمرار نوعًا إنسانيًا مصابًا بالعُصاب، مختل الوظائف، يبرز إلى السطح، ليس في المجتمع البرجوازي الليبرالي فقط، وإنما بين خصومه في اليمين الفاشستي ايضًا.

«إريك فروم» و«هيربرت ماركيون» سيصران فيما بعد على ان اي امل باق في الحرية الإنسانية يتطلب الإطاحة بالميكانيزمات البرجوازية للكبت النفسي، إلى جانب ميكانيزمات الظلم الطبقي.

وكان «نيتشه» هو المفكر الثاني الذي رفضه الماركسيون القدامى قبل ذلك، وشجبوا افكاره الحيوية والنخبوية واعتبروه «فيلسوف الراسمالية». إلا أن بعض اليساريين الشبان انضموا إلى حركة إحياء افكار «نيتشه» في تسعينيات القرن التاسع عشر، معلنين أن الحرية التامة للفرد الخلاق، لابد ان تكون جزءًا من مجتمع مستقبلي يؤمن بالمساواة بين البشر.

اما الذي جذب نقاد فرانكفورت إلى «نيتشه»، فلم تكن رسالته عن العدمية الحيوية والاقتدائية (التي ستلهم الفرنسيين المعجبين به في القرن العشرين)، وإنما نقده الشديد للقيم البرجوازية. كان «تيودور ادورنو» يقول إن اعمال «نيتشه»: «تصوير فريد للطبيعة القمعية للثقافة الغربية»، ويقول إنها «تعبر عن الإنساني في عالم أصبحت فيه الإنسانية كذبة». هجوم «نيتشه» على

نيتشه

المنطق والعقل الغربيين، يلخص افكار «ادورنو» كثيرًا من اعماله بنفس الاسلوب الحاد، اسلوب الأقوال المأثورة في عملي «نيتشه»: «أمور إنسانية... إنسانية إلى اقصى حد» و«بمعزل عن الخير والشر».

«أدورنو» و«هوركهايمر» معًا، حوّلا نيتشه إلى شخصية مركزية في «البانثيون»(2) Pantheon الماركسي الجديد، مزيحين «ماركس» نفسه. والواقع أن «هوركهايمر» اعترف في اواخر حياته أن «نيتشه» ربما كان اعظم من «ماركس» كمفكر.

على اية حال، فإن نقاد فرانكفورت باختيارهم «نيتشه» و«فرويد» كنموذجين لهم، فإنهم قد وضعوا أيضًا – دون قصد – صور ولغة نظرية الانحلال في قلب برنامجهم الماركسي النقدي مباشرة. كل اسقام وأمراض المجتمع الحديث، التي كانت تنسب للانحلال الفيزيقي (التفسخ الاجتماعي – الجريمة – الجنون – الانتحار – الأمراض العصبية – إدمان المسكرات – انحطاط

الفنون – السياسة الديمقراطية الجماهيرية التي تحاكي نمط الأسلاف – حتى معاداة السامية)، أصبحت الآن هي أخطاء الرأسمالية، وبمعنى أوسع.. أخطاء الغرب الحديث.

مدرسة فرانكفورت أعلنت أن الحضارة الغربية كانت مبنية حول إستراتيجية متفسخة: إستراتيجية سحق غرائز الإنسان الحيوية من خلال السيطرة العقلانية على الطبيعة، وعلى الذات وعلى الآخرين. السمة الرئيسية للغرب الحديث هي تجرده من الحياة. وكما عبر عن ذلك «ماركيوز» فيما بعد بأن «تأكيد نيتشة الكلي على غريزة الحياة» يمثل مبدءًا واقعيًا معاديًا في الأساس للتحرر، مبدأ الحضارة الغربية» بالمعنى الذي تفهمه «مدرسة فرانكفورت» إذن، كان يعني التخلي عن نظرة للحياة تؤكد قدرة الإنسان على استخدام المنطق والعقل للوصول إلى الحقيقة، وحاجته لأن يكيف نفسه مع نظام اجتماعي طبيعي ومعقول، لكي يكون سعيدًا وحرًا.

بدلاً من ذلك، كان على البشر أن ينتبهوا إلى وعي أعمق، وأكثر «سلبية»، – باختصار – إلى وعي «نيتشوي». «مدرسة فرانكفورت» خلقت بطلاً ثقافيًا جديدًا: الكاتب أو المعلم أو المثقف النقدي. وهو تسليل مباشر للفنان الرومانسي، سوف يستخدم آلته الكاتبة أو قاعة الدرس للهجوم على تناقضات وشرور الحضارة الغربية الحديثة وفضها.

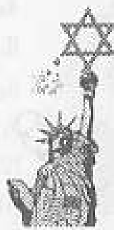

في عام 1936، كتب «هوركهايمر»: «في ظل الرأسمالية المتأخرة، أصبحت الحقيقة تبحث عن ملجأ بين جماعات صغيرة من الرجال المدهشين» – وكان يقصد نفسه وأصدقاءه. فيما بعد، سيكونُ أولئك الرجال «المدهشون» أنفسهم حملة تشاؤمية ثقافية جديدة، ولكنها ستكون نابعة هذه المرة من اليسار السياسي وليس اليمين.

الرأسمالية والمثقفون: مصادر «مدرسة فرانكفورت»

إنها لمفارقة ساخرة، أن يكون معهد البحوث الاجتماعية، مدينًا بوجوده للثروة الرأسمالية، وكانت في الحقيقة ثروة طائلة، تلك التي أعالت «مدرسة فرانكفورت» في أربع دول على مدى أربعين عامًا تقريبًا(3) كان المعهد من بنات أفكار «فيلكس فيل» – Felix Weil، ابن ووريث المليونير يهودي وكان يشتغل بالمضاربات التجارية.

وبتعبيره، كان «فيلكس»: «بلشفيكي صالونات»، قرر في عام 1923 أن يستخدم الثروة التي ورثها في إقامة معهد في «جامعة فرانكفورت»، وأن يكون منتدى لنقل الأفكار الماركسية الجامدة للجماهير. هذا الهدف كان منعكسًا في شخص مديره الأول «كارل جرونبرج» – Carl Grünberg وهو ماركسي من المدرسة القديمة، وكان تلاميذه من بين مؤسسي الجمهورية النمساوية الاشتراكية في عام 1918

«جرونبرج» تقاعد في عام 1929، ولم يكن خليفته «ماكس هوركهايمر» – Max Horkheimer جزءًا من الفريق الشيوعي الأصلي في المعهد.

كان الذين أرشدوا «هوركهايمر» إلى طريق الفكر مؤلفين حداثيين بارزين: «إبسن

– Ibsen، زولا – Zola، تولستوي – Tolstoy» وفلاسفة «إدموند هسرل – Edmund Husserl، «نيتشه» – Nietzsche، أكثر مما كان قد تعلم من «ماركس» –Marx أو «إنجلز» –Angels. الصورة التي كانت معلقة على الجدار في مكتب «هوركهايمر» وهو مدير للمعهد، كانت صورة «شوبنهاور» وليست صورة «ماركس» كان «هوركهايمر» وخلفاؤه في المعهد، ومنهم تيودور فزنجروند - Theodor Wiesengrund – أدورنو، Adorno متأثرين أيضًا بالماركسي الهنجاري «جورج لوكاتش» – Georg Lukács، الذي كان يرى أن الانتصار النهائي للبروليتاريا لن يحل تناقضات الرأسمالية فقط، بل وتناقضات الحداثة نفسها. وكانوا متأثرين على نحو خاص بنبوءة «لوكاتش» بأن رأسمالية البرجوازية كانت تعمل كوحدة متكاملة تضم مؤسسات وتوجهات وعادات عقلية إلى جانب وسائل الإنتاج – والحقيقة أن «لوكاتش» كان يزعم أن «مفهوم الكليانية»(4). السيادة الكاملة للكل على الأجزاء، هو جوهر الماركسية كنظرية اجتماعية وتاريخية. ومهمة المنظر الماركسي هي أن يحارب الآثار السيئة والمتنامية لفكر البرجوازية والزاحفة على فكر البروليتاريا، وعن طريق توعية العمال ببؤس حاضرهم وقدرتهم على تغييره، وبجعلهم يشعرون «بوعيهم الطبقي»، فإن المثقف يقدم خدمة لا بديل عنها لشركائه في الطبقة العاملة.

وعلى خلاف «لوكاتش»، لم يكن لدى «هوركهايمر» أي اهتمام بإحداث ثورة في الشارع بل كان الأسبوع «السبارتاكوسي» قد أثبت جدوى هذا التوجه. (ناهيك عن الأخطار الفيزيقية).

وبالنسبة لـ«هوركهايمر» لم يعد «العامل» هو الشخص الرئيسي في تشكيل «الكل»، بل «المثقف»، وإن النظام الاشتراكي «سوف يتحقق» – كما كتب – «إما بواسطة بشر مدربين نظريًا ومصممين على تحقيق ظروف أفضل، وإلا فإنه لن يتحقق بالمرة» وأصبح الاعتقاد بأهمية وأولوية «نظرية نقدية» من أجل الإطاحة بالكليانية البرجوازية، هو الموضوع الوحيد لماركسية «مدرسة فرانكفورت». وبدلاً من حث الجماهير واستثارتها للكفاح المسلح، فإن المثقفين من ذوي العيون ثاقبة البصر، سيكرسون جهدهم لفضح أو «كشف النقاب» عن العلاقات الزائفة في المجتمع الرأسمالي، وبخاصة ازدراؤه لعقل الإنسان ووحدته الروحية.

الصيغة التي تقدمها «مدرسة فرانكفورت» للثقافة «الحقيقية»، تعكس أكثر من أثر للتنفج الألماني الأكاديمي التقليدي إلى جانب «جمهورية العباقرة» عند «نيتشه»، حيث ينادي «عملاق عملاقًا آخر عبر صحاري الزمن». «أدورنو»، على نحو خاص، أفرط في إطرائه على متابعة الأشكال الجمالية، الخلاقة وبخاصة في الفن والموسيقى الطبيعيين. ولكن نقاد فرانكفورت فهموا أيضًا أن الثقافة البرجوازية التقليدية كانت هي في نفسها نتاج عملية تاريخية كلية، نفي الرأسمالية للإنسان الحديث وتغريبه، كما وصفتها «المخطوطات الاقتصادية

والفلسفية» التي كانت قد اكتشفت حديثًا للشاب «كارل ماركس». كان قد كتبها في عام 1844 وهو في الخامسة والعشرين من العمر فقط ولكنها لم تنشر إلا بعد نصف قرن، تقريبًا، من وفاته، أي في عام 1932.

كشف هذه الأوراق للجمهور، اضطر الماركسيين بمن فيهم من أعضاء «مدرسة فرانكفورت» أن يعيدوا النظر في أفكار «ماركس» بشكل جذري.

كان «هيربرت ماركيوز» أول من اشتغل عليها، في عام 1844، كان «ماركس» لايزال تحت سيطرة «إنجلز»، وفي تلك الكتابات الباكرة كان يرى أن شرور الرأسمالية لا تكمن في الاستغلال الاقتصادي فقط، بأجوره المنخفضة والفقر والبطالة الحادة. مخاطر الرأسمالية الحقيقية هي مخاطر «روحية»، أو «نفسية» كما نقول اليوم. تقسيم العمل في المؤسسة الرأسمالية حوّل ناتج جهد العامل إلى سلعة كمالية مجردة من الحياة. فما يصنعه، يؤخذ ويباع دون فائدة تعود عليه (سوى أجره الذي لا يعبر عن كامل قيمته أبدًا). أثواب القماش، الأواني الحديدية، أو القوارير النحاسية التي صنعها لم تعد لها صلة به، أي أنه «غريب» عن جهده. والنتيجة، كما كان «ماركس» يقول، هي أن «العامل يشعر بنفسه فقط عندما لا يعمل، أما عندما يعمل فهو لا يشعر بنفسه»

في ظل الرأسمالية، يسلم العامل قياده وإنسانيته للعملية الصناعية. الرأسمالية «تختزله إلى مجرد آلة»، وفي النهاية تستخدم آلة في محله. «ماركس» توصل إلى أن تقسيم العمل في الرأسمالية يؤدي إلى تقسيم أرواح البشر. ونتيجة لذلك فإن اتساع الإنتاج الرأسمالي لا يمكن أن يفيد العامل أبدًا، بل العكس. «حتى عندما يؤدي تقسيم العمل إلى زيادة القوة الإنتاجية والثروة ورفاهة المجتمع، فإنه يؤدي إلى إفقار العامل ماديًا وروحيًا كما يؤكد «ماركس»، وينتج عن ذلك: «البلاهة والقماءة». ديناميكيات الانحلال والتفسخ في الرأسمالية يمكن اختصارها في معادلة بسيطة جازمة: كلما نمت الرأسمالية واتسعت، فلابد أن يزيد استغلالها الفعلي وإفقارها لعمالها على الرغم من أي دليل مادي على العكس. والواقع أن إنتاج الرأسمالية لبشر «غرباء مغتربين» كأولئك، لا يقف عند الطبقة العاملة، كما يقول «ماركس»، فهو بالضرورة يشمل البرجوازية كذلك، حيث لا أحد بمنجاة من تحول البشر والأشياء إلى سلع نتيجة تقسيم العمل. في ظل الرأسمالية «كل واحد غريب عن الآخرين، والكل غرباء عن جوهر الإنسان».

العلاقة – إن كان ثمة علاقة – بين أفكار «ماركس» الشاب، المتأثر بـ«هيجل»، و«ماركس» الذي كان بعد ذلك، «ماركس» ذي العقل الأكثر مادية في «رأس المال»، أصبحت مادة لجدل كبير وحاد بين الماركسيين ومع ذلك، فإن «المخطوطات الاقتصادية والفلسفية» نجحت في تحويل «كارل ماركس» إلى مفكر يقوم بتشخيص أعراض الاضمحلال الثقافي الحديث. بدا مفهومه للاغتراب مؤذنًا بعلم اجتماع «دور كايم» – Drkheim و«فيبر» – Weber و«سومبارت» – Sombart و«سيمل» – Simmel، ناهيك عن

منظري الانحلال والتفسخ مثل «بينيدكت موريل» – Benedict Morel و«شارل فيريه» – Charles Féré. وفوق ذلك فإن «ماركس» قدم متهمًا بجريمة، وهو الرأسمالية، وراح يشرح عليه أعراض التفسخ الحديث. انتصار الرأسمالية كان يعني الحط من قيمة الروح الإنسانية الحية. «مدرسة فرانكفورت» ترجمت بسرعة نظرية «ماركس» عن الاغتراب إلى المصطلحات الأكثر شيوعًا في النقد الألماني وعند «نيتشه».

كان «تيودور أدورنو» برمًا بإهمال الماركسية التقليدي للنقد الثقافي: كتب ذات مرة: «هناك صدق في «جينيالوجيا الأخلاق» عند «نيتشه»، أكثر مما هو موجود في كتاب «ABC» لـ بوخارين»

الرأسمالية دمرت الفن بتحويله إلى سلعة مثل الصابون والسيارات كما كان يقول بغضب. الروح الحقيقية للفن الخلاق «لا يمكن أن تبقى، عندما يعتبر الفن سلعة ثقافية تقدم لإشباع حاجات المستهلك» ومثل الثقافة التكنولوجية عند «أدورنو» لا تنتج سوى «تسلية تشبه حلوى غزل البنات، تفسد البشرية»، وهي تنتجها بوفرة. كما قدم نظرية مفصلة عن الموسيقى ليبرهن على أن «الجاز» يمثل انتصار المنتج الكبير والميكانيكي على الإبداع الفني «الحقيقي»، (الموسيقى متعددة النغمات عند شوينبرج مثلاً). حتى «الصفير»، خضع لفحص «أدورنو» القاسي: كان في رأيه يمثل تشويها للقوالب الموسيقية، بغرض الاستهلاك المحلي، وبالتالي أفسد السلامة الجمالية للتأليف الموسيقي. ماركسيو فرانكفورت عكسوا حكم «أدورنو» عن الفن المعاصر.

الفن «المنمط» الحقيقي ليس موسيقى «أرنولد شوينبرج» التكفيرية، ولا رسوم «بيكاسو» التكعيبية، وإنما بدائلها «البرجوازية» – «جون فيليب سوزا» – John Philip Souza، أو الجاز، أو «نورمان روكويل» Norman Rockwell، أو «ميكي ماوس»– ... وكما حدث في رفض «نيتشه» لـ«فاجنر» وانصرافه عنه، فإن إقبال جمهور «فاسد» على هذا النوع من الفن، يثبت أنه فن «فاسد» ومنحط.(5)

وعندما تسقط الرأسمالية كما شرح «هوركهايمر»، «فإن البشرية تصبح موضوعًا واعيًا لأول مرة، وتقرر أسلوبها في الحياة بشكل نشط. الثقافة والفن والموسيقى والأدب سوف تستعيد استقلالها الذاتي الحقيقي، وقواها الدافعة للحياة. كانت المشكلة في عام 1932، هي أن الرأسمالية لم يكن يبدو عليها أي انهيار، أو على الأقل دلائل تشير إلى أي اتجاه يساعد على نشأة نظام ماركسي جديد.

وبدلاً من ذلك، كانت الرأسمالية تقوم

بإنتاج ثورة من نوع مختلف، ثورة اليمين العسكري الحيوي.

الحضارة والنازية.. جدل التنوير

كان صعود «هتلر» إلى السلطة أمرًا مفاجئًا لكل صفوف اليسار. كانت مبادئ الحزب الشيوعي، في سنوات ما بين الحربين، قد علمتهم أن حركات مثل القمصان السوداء عند موسوليني، أو عند النازية تمثل المرحلة الأخيرة من «الرأسمالية المتأخرة». كان التأكيد على أن البرجوازية أجبرت على اللجوء إلى وحشية الفاشية لكي تظل في السلطة، بعد أن أصبحت مواجهة بالخراب الاقتصادي، وبصعود الاتحاد السوفيتي. «فرانز نيومان» - Franz Neuman، من مدرسة فرانكفورت - قال تحديداً إن النازية كانت «تأكيداً على القوة الحيوية للمجتمع الرأسمالي». إلا أن الجميع كانوا يفترضون أن الفاشية سوف تنهار أيضاً، وأن شمل الطبقة العاملة سوف يلتئم تحت رايات الشيوعية الحمراء. وبدلاً من ذلك، صعد النازيون منتصرين إلى السلطة بفضل الطبقة العاملة والدعم الشعبي.

كانت رسالتهم عن الحيوية العرقية والانبعاث القومي تبدو أكثر نجاحاً من رسالة الثورة البروليتارية والحرية. وبالنسبة للأعضاء الذين أملهم في مدرسة فرانكفورت، بدت الاشتراكية القومية هي الانتصار الأخير للإنسان الأخير المنحط عند «نيتشه». ووصفها «أدورنو» فيما بعد بأنها «وثبة ألمانيا إلى الهاوية»، وبالضبط كما كان «فرويد» يراها تحقيقًا لرغبة الموت عند الإنسان المتحضر».

كتب «أدورنو»: «لم يكن هناك من لم يدرك لحظة الحزن القاتلة، لحظة المعرفة الجزئية، والاستسلام الجزئي للهلاك الروحي (مع) مواكب الأضواء والمشاعل والطبول المدوية».

بعد ستة أشهر من أداء «هتلر» لليمين كمستشار، استولى «الجستابو» على مكتبة معهد البحوث الاجتماعية وأغلقوا المبنى. ولكن «هوركهايمر» ومن معه كانوا قد فروا إلى «جنيف» لاجئين إلى هناك ينتظرون تأشيرات دخول الولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه بدأوا يصنعون نظرية تشرح أسباب لجوء دولة - من المفترض أنها متحضرة - مثل ألمانيا إلى أيديولوجيا غير عقلانية، وعنيفة، وعرقية، بمثل تلك السرعة المذهلة. وفي النهاية، أعلنوا أن الرأسمالية الليبرالية، «منذ بداية بدايتها، تحتوي على توجه نحو الاشتراكية القومية». وفي الوقت نفسه، لجأ «هوركهايمر» والمعهد إلى الولايات المتحدة. قبل ذلك بعام واحد فقط، في عام 1935، كان مديره فردريش بولوك» يشجب «أمريكا الصفقة الجديدة» ويندد بها «كمستنبت للفاشية». والآن كانت أمريكا هي الملجأ. كان رئيس «جامعة كولومبيا»: «نيكولاس بتلر» - Nicholas Butler من المحافظين سياسياً، ولكنه شديد الإيمان بالحرية الأكاديمية والتنوع.

وهي وجهة نظر سوف يهاجمها «أدورنو» بعد ذلك ويعتبرها «تسامحاً قمعياً». وتحت إلحاح كليته، أعطى «بتلر» مقرًا في شارع 117 للمجموعة الماركسية يحتوي على مكاتب لهيئة التدريس والزائرين. بعد وقت قصير، لحق بـ «هوركهايمر» و«أدورنو» عضوان آخران من المعهد هما «إريك فروم» - Erich Fromm و«هيربرت ماركيوز» - Herbert Marcuse وبقيت دائرة «هوركهايمر» الصغيرة مغلقة أبوابها في وجه المجتمع متعدد اللغات والنابض بالحياة الذي احتواهم، مستكنين في مرتفعات «مورننج ستار»، وسط بحر غير مألوف من البحبوحة الأمريكية.

أصبح مقرهم مثل مقاطعة للمنفيين الألمان البعيدين عن عملاء «هتلر»، وأخذت صورة المعهد ملامح بطولية. أعلن «هوركهايمر» أن المعهد الآن «كان هو المجموعة الوحيدة التي تستطيع أن تحافظ على الوضع المتقدم نسبيًا للنظرية التي تحققت في ألمانيا، وأن تطورها إلى ما هو أبعد من ذلك»

وعلى مدى خمسة عشر عامًا تالية، سيصبح المعهد في كولومبيا «قناة توصيل لعلم الاجتماع الألماني والفلسفة والنظرية الماركسية إلى الحياة الفكرية الأمريكية».

النظرية كانت سلطة عليا: لم يكن «هوركهايمر» يميل إلى البحث الإمبيريقي، وكان يؤكد على ميزات «الفكر النظري» ويفضله على الحقائق المجردة أو ما يطلق عليه آخرون: الحقيقة الإمبيريقية.(6) وبالرغم من أن «هوركهايمر» كمدير للمعهد كان كثيراً ما يزعم أن المعهد يخلق وحدة جديدة بين العلوم الاجتماعية، إلا أن الوحدة الوحيدة، بين منظري فرانكفورت، كانت رغبتهم في القضاء على الرأسمالية البرجوازية وقيمها البالية.

«هوركهايمر» و«أدورنو» أقنعا نفسيهما بأن الكابوس الذي هربا منه في ألمانيا، لم يكن مجرد حالة منفصلة من الهستيريا الجماهيرية. كانت الأحداث النازية تمثل شيئًا أكثر عمقًا وأكثر صعوبة: المرحلة الأخيرة للحضارة الغربية كعملية كلية. جميع المظاهر الحديثة المميزة للغرب، سواء في الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية كانت تعكس الهدف نفسه: التحكم، والسيطرة الكاملة. كما أشاروا إلى تلك الطبيعة التحكمية الواسعة للحضارة الغربية كدافع نحو: «الدمج الكامل». كان «شبنجلر» قد أطلق عليها اسم «الروح الفاوستية» للغرب، وقد جعل منها «هوركهايمر» و«أدورنو» في كتابهما «جدل التنوير» - 1944 - القوة الدافعة عن التقدم. كتبا «الطبيعة المنحطة للإنسان الحديث، لا يمكن أن تفصل عن التقدم الاجتماعي (والمادي).» «نمو الإنتاجية الاقتصادية يوفر الظروف الملائمة لعالم ينعم بعدالة أكبر.. هذا من ناحية، (ومن ناحية أخرى) فإن قيمة الفرد تتضاءل تماماً بالنسبة للقوى الاقتصادية التي... تضغط سيطرة المجتمع إلى ذرى لاشك فيها» الفرد في الثقافة الغربية يصبح تابعًا تماماً للكل المسيطر. إنه لا يتنازل عن حريته السياسية فقط للدولة، وإنما يفقد كل قوى العمل المستقل والتفكير المستقل. «مرض» الحضارة الغربية «يقود الروح نحو ظلام مطبق». حتى الشخص

المنشق، مثل «كارل ماركس» لا يمكنه أن يصوغ معارضته إلا في «معادلة فقيرة ووضيعة»، وقطاعات من الكلية الآفلة «تدعم القوى نفسها الموجودة في النظام القائم الذي يحاول أن يحطمه».

هذا هو سبب فشل الثورات في الغرب الحديث دائمًا، بينما تنتصر الفاشية دائمًا. «الفاشية هي حقيقة المجتمع الحديث»، هكذا أعلن «هوركهايمر» وهو ما أدركته النظرية منذ البداية. كان الغرب الرأسمالي بأكمله يقف على تلك الحافة نفسها التي سقطت من عليها جمهورية «ويمر» بلا حول ولا قوة قبل انقضاض الدولة الفاشية العسكرية والجنون الجماعي، فالبشرية «تسقط في بربرية جديدة، بدل الدخول في حالة إنسانية حقيقية».

«هوركهايمر» «وأدورنو» أشارا إلى أصول الرأسمالية وما وراءها من إعجاب غربي شديد بالعقلانية، وأكدا أن «انهيار الحضارة البرجوازية الحالي» كان بسبب التنوير في النهاية. وعلى عكس صورته عن نفسه، فإن عصر العقل في القرن الثامن عشر، لم يكن عن العقل بالمرة، وإنما كان بالأحرى عن السعي وراء السيطرة على الطبيعة والبشر. «هذه الطريقة في التفكير بالتحديد، تحتوي على بذرة عكس ما هو واضح تمامًا اليوم». وبعبارة أخرى فإن النازية كانت هي النتاج النهائي للتنوير في رأي «أدورنو» و«هوركهايمر».

ويبدو هذا الاستنتاج أقل إثارة للدهشة، عندما ندرك أن «مدرسة فرانكفورت» قد ميزت بحدة بين تنوير «جيد» وتنوير «ردئ». **الأول** أنتج الفلسفة العقلانية الإنسانية مثلما هي عند «هيوم» – Hume و«كانت» – Kant و«هيجل» – Hegel، وكذلك النزعة النقدية الشكوكية مثلما هي عند «فولتير» – Voltaire، والتي ولدت مجددًا مع «نيتشه» – Nietzsche. كان ذلك هو عصر العقل، إن أردنا الدقة، والذي كان «أدورنو» و«هوركهايمر» يعتبران نفسيهما آخر ورثته. أما الثاني أو **التنوير الرديء** «فهو الذي ولد الهوس الحديث بالعلم والتكنولوجيا والرقم، أو الذي يحول العقل إلى «شيء أو أداة». كان ذلك هو تنوير «نيوتن» Newton، و«كوندورسيه» – Condorcet و«جيرمي بنتام» Jeremy Benttham – و«آدم سميث» Adam Smith. إلا أن النوعين من التنوير لا ينفصلان، فهما في علاقة «جدلية».

بمحاولة معرفة ما لا يمكن معرفته. فإن «التنوير قد حاول أن يُؤَمِّن نفسه ضد عودة الأسطوري». وكانت النتيجة أن انتهى الفكر الغربي بتغريب الإنسان عن الطبيعة وعن نفسه. وكما فعل «نيتشه» Nietzsche، بدأ «هوركهايمر» و«أدورنو» قصة اضمحلال الغرب باليونان. الأسطورة اللاعقلانية والسحر، حافظا على وحدة الإنسان والطبيعة، تلك الوحدة التي حطمها المشروع الأبوللوني» للفلسفة اليونانية.(7)

انطلق عقل الإنسان، ولكنه استخدم تلك الحرية ليسيطر على كل شيء. كان يبدو الآن منفصلاً عن نفسه وعن العقل الإنساني، أو ما يسمى بـ«الآخر». العلم، والقانون والحكومة، حتى اللغة نفسها، كلها أصبحت أدوات خفض بها الإنسان الغربي التنوع إلى

تماثل، والتلقائية إلى اتساق، والاختلاف (الذي يعرف بالآخر) إلى موضوعات متعددة الأشكال للسيطرة عليها، مثل فراشات في مصيدة.

التنوير أطلق على عملية الإجمال(8) هذه، اسم الحضارة أو التقدم. إلا أن النتيجة لم تكن الإشباع، وإنما الاغتراب. وكما يفسرها «هوركهايمر» و«أدورنو»: البشر يغتربون عن الأشياء التي يحاولون أن يمارسوا سلطانهم عليها»، الأمر الذي يجعلهم يسعون نحو سلطة أكبر لكن دون جدوى، وصعود التقدم، في حقيقته، اتجاه داخلي يدل على الوهم والإحباط. يصبح فخًا نصبته طبيعة الإنسان العقلانية حوله، مثل قفص «ماكس فيبر» Max Weber الحديدي.

التنوير أوصل ثقافة الهيمنة الغربية المدمرة للذات، إلى هذا المعدل السريع في حركتها. أعطى البرجوازية، الطبقة الجديدة المسيطرة في الغرب، أساسًا منطقيًا، أو «أسطورة» للبحث الواعي عن السلطة تسمى «الطريقة العلمية». كل شيء يتم اختصاره إلى «تكافؤ»، رقم، نظام. وهذا يؤدي إلى تأكيد العلم الاجتماعي الحديث على الحقائق والبحث الإمبيريقي والمبدأ الكمي في الديمقراطية الليبرالية الذي يقول بصوت واحد لشخص واحد. وتحت ذلك كله، يوجد حلم العقل الذرائعي بالسلطة المطلقة على الآخر.

«الأساس المنطقي التكنولوجي، هو الأساس المنطقي للسيطرة نفسها»، ولهذا السبب فإن «التنوير شمولي». والعقل، في النهاية، يكشف عن وجهه الحقيقي: على

أدورنو

الورق في الخيالات الجنسية الوحشية للماركيز «دوصاد»، وفي عدمية «نيتشه» في النهاية، (نيتشه هو البطل والوغد في رأي هوركهايمر وأدورنو)، وفي زنزانة التحقيق عند «الجستابو»، وفي أفران الغاز المسورة بالأسلاك الشائكة في «أوشوتز». وتلك في رأي «هوركهايمر» و«أدورنو» هي النتيجة الطبيعية لأوروبا التي تمجد العلم والتقدم، وبعبارة «أدورنو» المعروفة فإن «الرعب والحضارة متلازمان».

وبالطبع يمكن للمرء أن يعترض على أن تكون ألمانيا النازية، والمفترض أنها المنتج النهائي للتنوير، هي بالفعل العدو المعلن لليبرالية التنوير وكل منجزاتها، حيث كانت أيضًا تعلي من شأن الثقافة على الحضارة. على أية حال، فإن «هوركهايمر» و«أدورنو» كانا ينكران أهمية تلك المزاعم. لم يكن الأمر الحاسم في فهم أصول أو جذور الحركة النازية هو ما كان «هتلر» وشركاؤه يفعلونه، المهم هو كيف كانوا يعملون كجزء من العملية

كلها. توصل «هوركهايمر» و«أدورنو» إلى أن العقلانية بعد أن هزمت واستعبدت كل شيء امامها، كنت مضطرة في مراحلها الأخيرة إلى اللجوء إلى نقيضها، إلى العنف والبربرية لكي تحقق انتصارها الكامل والنهائي. «في الفاشية الجديدة، وصلت العقلانية إلى نقطة لم يعد يكفيها عندها ان تمثل الطبيعة، العقلانية الآن تستغل الطبيعة بدمج إمكانياتها الثورية في منظومتها.

وهكذا في النهاية، تصبح اللاعقلانية هي اداة الجدل العقلاني. وهذا بدوره اسس شعارًا بلاغيًا مفيدًا، ومبدءًا اصبح ملازمًا للآخرين من اتباع التشاؤمية الثقافية، إلى جانب اعضاء مدرسة فرانكفورت: «كلما بدت الأشياء متناقضة – الليبرالية والفاشية، الثراء والفقر، حرية التعبير والرقابة – تكون في الواقع متماثلة»(9)

على اية حال، لم يكن لدى «هوركهايمر» او «أدورنو» الكثير الذي يمكن أن يقال عن الأصول السياسية الحقيقية للدولة الفاشية. والواقع أن السياسة ليست سوى احد تجليات اهم ما كان يشغل عقليهما، وهو سؤال الثقافة. كانا على اقتناع بأن التكنولوجيا الحديثة تحول الفن والموسيقى والثقافة في المجتمعات الصناعية إلى «وسيلة للخداع الجماهيري... محيدة وجاهزة» وطبقًا لبرنامج سياسي شمولي. والقول بأن «جدل التنوير» قد تناول إهدار الراسمالية للثقافة والحط من شأنها على نحو جدي، يعتبر تبسيطًا مخلاً:

– في صناعة الثقافة، الفرد وهم... فهو يجاز ويسمح له فقط مادام تطابقه التام مع العام ليس محل شك.

– التكرار الأعمى والسريع للكلمات... يربط بين الإعلان وكلمة السر الشمولية.

– الفيلم الناطق، من اجل التفوق على مسرح الوهم، لا يترك مجالاً للخيال او التفكير... إنه يجبر ضحاياه على ان يعادلوا بينه وبين الواقع مباشرة.

– التليفزيون يهدف إلى تحقيق الحلم الفاجنري بالعمل الفني المتكامل Gesamt-kunstwerk... وعلى نحو ساخر، هذه العملية تجمع بين كل عناصر الإنتاج من الرواية (المكتوبة مع نظرة إلى الفيلم) إلى آخر مؤثر صوتي.

– الرسوم المتحركة... تؤكد انتصار العقل التكنولوجي على الحقيقة. «دونالد دك» في الرسوم المتحركة، وتعيسوا الحظ في الحياة يجلدون لكي يتعلم الجمهور كيف يلقى عقابه الخاص.

كان نقدهم الثقافي الواسع يرتكز على النظريات الجمالية عند «فالتر بنيامين» – Walter Beniamin الخارج على الجماعة الأكثر اصالة في مدرسة فرانكفورت. «بنيامين» اكد على دور التكنولوجيا في تحويل التجربة الحديثة إلى «سلسلة من الصدمات للوعي الفردي لا نهاية لها». الإنسان الحديث النمطي في نظره، إحدى شخصيات «كافكا»: حائر، ضائع، مضطرب العقل، في حالة امتثال سلبي وخدر عاطفي – صورة بائسة للاغتراب. وفي الوقت نفسه كانت تلك التكنولوجيا نفسها تعيد تشكيل

الثقافة من خلال عمليات النسخ الميكانيكي، بالصور والأفلام والتسجيلات وإنتاج الكتب المكثف. هذا التوجه، كشف مرة أخرى عن «الشعور بالمساواة العامة بين الأشياء» عند الحداثة، حيث إن اي نسخة من صورة أو فيلم او تسجيل تشبه اي وكل صورة أخرى تمامًا. التماثل في عملية النسخ، والتطابق مع الأصل قد دمر، إلى الأبد، ما يسميه «بنيامين»: «عبق» وهالة العمل الفني، والإحساس بالمهابة والرهبة أمام فرادة الأشياء، تلك المهابة والرهبة التي تجعل الإبداع والخلق الفني عملية ممكنة.

ويرى «بنيامين» مثلاً أن صورة لـ«فينوس دي ميلو» تجعل من المستحيل النظر إلى «فينوس دي ميلو» الحقيقية بتذوق لفرادتها، كما أن تجربة الإنسان القصيرة في المجتمع تجعله غير قادر على خلق أي عمل فني حقيقي من إبداعه الخاص.

التكنولوجيا والراسمالية يشكلان نهاية كل من الفن والفنان كما يقول. الوسيلة الوحيدة أمام الفرد المبدع الخلاق، لكي يتجنب أن يكون جزءًا من ذلك النظام، نظام الاستغلال الجمالي، والا يكون «بغيًا» لقيمه الفاسدة المفسدة – هي نقيض ذلك. عليه أن يتجنب أي مزاعم بالإبداع او الاستقلال الفني لا تفيد إلا ان تجعله يبدو محترمًا في نظر الطبقة الوسطى. على الفنان، بدلاً من ذلك كله، أن يستخدم مواهبه ووسائل الإعلام الحديثة لخدمة البروليتاريا ومساعدتها في القضاء على السبب الحقيقي لتدهورهم المشترك، اي الإطاحة بالراسمالية. وتلك بالطبع مهمة عسيرة، ناهيك عن أن «بنيامين»

ابقى التفاصيل غامضة. ويبدو انه لم يدر بخلده ان الفنان في محاولته لتفادي أن يكون «بغيًا» للثقافة البرجوازية، يمكن أن يصبح «بغيًا» لثقافة «ستالين».

ذكر «ستالين» يثير المشكلة الرئيسية التي لم تمسك بها مدرسة فرانكفورت على نحو كامل. الماركسية التي كان ينبغي أن تقدم وسيلة للهروب من قيام المجتمع الشمولي، انتهى بها الأمر منتجة لنمطها الخاص من الشمولية في الاتحاد السوفيتي. لم يحاول «أدورنو» و«هوركهايمر» وزملاؤهما أبدًا أن يدرسوا الدول البوليسية الوحشية مثل «المانيا هتلر» و«روسيا ستالين» وما قد يكون بينهما من عوامل كثيرة مشتركة، وكذلك ما يمكن أن يكون بينهما وبين القيم الراسمالية من عوامل قليلة مشتركة، تلك القيم التي من المفترض انها مصدر كل الشرور. ذلك مالم توضحه النظرية النقدية.

بدلاً من ذلك، فإنهم عندما واجهتهم حقيقة الستالينية التي لا يمكن إنكارها،

سمحوا لأنفسهم باستخلاص نتيجة اكثر تشاؤمًا.

«أي مجتمع قائم على النموذج الغربي، بصرف النظر عن ايديولوجيته الفعلية أو شخصية حكامه، يتقدم حتمًا نحو نوع من الشمولية الواضحة كما تبدت في رواية «جورج أورويل»: «1984»، فحيثما يحكم العقل الذي لا روح له، لابد أن يمد الاستبداد جذوره، كما كانوا يؤكدون. هذا الاعتقاد، قادهم نحو نظرية «توينبي» عن تقارب القوى العظمى. على أن ذلك التقارب أو الميل إلى الالتقاء، لم يكن توجهًا مأمولاً أو مؤكدًا. وبدلا من ذلك، فإن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، كان كلاهما نموذجًا «لمجتمعات صناعية متقدمة» يدور في دولتين شموليتين، يمكن وضع إحداهما مكان الأخرى. كانت المبادئ الديمقراطية الليبرالية والمساواة الماركسية مراتين للنخب البيروقراطية الزائفة المشرفة عليها. الدولة البوليسية الشاملة كانت هي النتيجة الطبيعية للنموذج الغربي من الإنتاج الاقتصادي، حيث لا يوجد مجتمع صناعي متقدم يمكنه الاحتفاظ بالسيطرة دون جهاز حكومي سري وما يصاحب ذلك من أعمال وحشية. هذه الرؤية المتشائمة لتقارب الحرب الباردة جاءت منسجمة مع افكار مفكر ماركسي آخر، كان يقوم بالتدريس في «جامعة كولومبيا»، وهو «س - رايت ميلز» - C. Wright Mills، الذي سيصبح إلى جانب «ماركيوز» و«أدورنو» واحدًا من المفكرين المعلمين في اليسار الجديد. تبدو اعماله عند قراءتها خلاصة وافية لأعمال «مدرسة فرانكفورت» و«بروكس آدمز»، اهم كتبه وأكثرها تأثيرًا وهو «نخبة السلطة» - 1958 - يشير إلى أخطار الدولة الصناعية المتقدمة نفسها، ولكن بأسلوب امريكي شديد الشك والارتياب في الآخرين، مغلفًا بجنون العظمة (وهو الذي سوف يستخدمه المخرج السينمائي «اوليفر ستون» فيما بعد). «ميلز» يقدم الأرستقراطية الطبيعية الأنجلوساكسونية في امريكا على أنها مختندقة في حالة دفاع، نخبة ذات ثراء قديم تغلب مصلحتها الشخصية على أي شيء آخر، رجال أعمال وتكنوقراط وجنرالات وأدميرالات الحرب الباردة. (كان «ميلز» يكتب أثناء رئاسة ايزنهاور). ولأنهم كانوا مرتبطين بالثروة، وعلاقات المدرسة القديمة («هارفارد» و«ييل» و«جورج تون» و«وست بوينت»، فقد كانوا يؤثرون على صنع القرار الأمريكي في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية من خلال «إدارة سياسية، منفردة شديدة القسوة.

ما كان «بروكس آدمز» قد حلم به، «ذات يوم سيعيد العسكر تنظيمنا»، كان «ميلز» يزعم أنه قد تحقق. إلا أن ذلك «المركب العسكري الصناعي» لم يكن أمريكيًا بالتحديد. كان يعبر عن طبيعة الدولة الصناعية الحديثة والغربية بالتالي. وكما كانت الحال في روسيا ستالين، كانت خطايا الولايات المتحدة تحت إدارة «ايزنهاور» تشكل جزءًا من كلية تاريخية اوسع. كتب «ميلز»: «هناك خط مستقيم تمامًا، يمضي صاعدًا متخللاً تاريخ الغرب، وهو أن الظلم والاستغلال والعنف والدمار، إلى جانب وسائل الإنتاج، تتزايد على نحو مطرد مع

تزايد تمركزها»، وعن طريق الإعلام الجماهيري المتلاعب بعقول الناس «اضمحلال السياسة كمنبر عام وحقيقي لقرارات بديلة»، فقدان الاستقلال الذاتي، وتسليع الرغبات والأماني، قامت «بنية السلطة» بتنظيم كل جوانب المجتمع الأمريكي لكي تخفي سلطتها المناورة المتلاعبة. فهي تجعل الناس يعتقدون بأنهم يتخذون قرارتهم السياسية، والحقيقة أن تلك القرارات تتخذ نيابة عنهم. وهو ما سوف يطلق عليه بعد ذلك: الموافقة المفبركة).

دور الأيديولوجيا مهم جدًا في عملية الإخفاء والتمويه، وبالتالي سيكون بالغ الأهمية في عمل «الكلية» - Totality «ميلز» و«مدرسة فرانكفورت»، وورثتهم في اليسار الجديد، استخدموا مصطلح «الأيديولوجيا» للإشارة إلى الطريقة التي يتخيل بها الناس عمل العالم في المجتمعات الصناعية المتقدمة، في تعارضها مع الطريقة التي يعمل بها بالفعل. "كارل مانهايم" Karl Mannheim، عالم الاقتصاد الذي كان يقوم بالتدريس في جامعة فرانكفورت في العشرينيات، شرح كيف تساعد الأيديولوجيا في المجتمع الصناعي على تنكر أو "تخفي" العلاقات الحقيقية في الإنتاج الصناعي والصراع الطبقي والسلطة السياسية. ففي حالة امريكا مثلاً، توجه الأيديولوجيا الناس لكي يتصوروا أنهم يتمتعون بسيطرة اكبر على حياتهم، وبفائض وفرة، وباختيارات استهلاكية أوسع، وحراك اجتماعي وجغرافي اكبر، بينما هم في الحقيقة مستعبدون بشكل دائم لمطالب الرأسمالية الحديثة.

والواقع ان "فرانكفورت" كانت تنظر إلى الأيديولوجيا كشبكة مساعدة ودعم لتماسك المجتمع الصناعي، وأن الجماهير لابد أن تثور بدون الغمامة الأيديولوجيا. كتب "كارل مانهايم" - Karl Mannheim في حالة معينة، يساعد اللاوعي الجمعي في جماعات بعينها، على اختفاء الحالة الحقيقية للمجتمع سواء عنه أو عن الآخرين، وبالتالي فإنه يساعد على استقراره (ويؤكد على العبارة الأخيرة) وكان المصطلح الذي استخدمه "سي - رايت ميلز"، ومن بعده "ماركيوز" لوصف تلك الأيديولوجيا الحاجبة، والتي تساعد على الاستقرار، هو: المحافظة - (Coservatism) [10]

كانت "المحافظة" الأمريكية، قبل كل شيء، ايديولوجيا برجوازية، والحقيقة ان كون الفرد "محافظًا"، أصبح يعني عند اليسار الجديد أن تكون "ليبراليا"، بمفهوم اتباع "نيتشه" في اليمين الألماني. كان يعني عقمًا مقصودًا إزاء فراغ الحياة الحديثة،

عقمًا في وجه الفساد والاضمحلال الشيوعية تحت حكم "ستالين" فقدت قدرتها على تعرية تلك الأيديولوجيا الزائفة. وبدلاً من ذلك أنتجت أيديولوجيتها الزائفة الخاصة "الاشتراكية السلطوية"، التي استخدمتها لكي تسند مجتمعها الصناعي المضمحل، الآيل للسقوط.

كان البديل الوحيد الباقي أمام الشمولية إذن، هو النظرية النقدية لكن توقع السقوط المفاجئ، لعملية تجميع الحضارة الحديثة بكاملها تحت هجوم النظرية النقدية، لابد أن يكون توقعًا ساذجًا وعقيمًا.

على أية حال، وبمنطق "جدل التنوير"، فإن فشل الشيوعية كان يعني أن التقدم للأمام مستحيل، حيث إن أي امتداد للعقلانية المنظمة، حتى الماركسية نفسها، لا يجلب سوى شكل آخر من شراك الموت، شرك العقلنة والتجميع. المهرب الوحيد هو فعل النقد الفردي النيتشوي، والذي كان "هوركهاير" يسميه "الديالكتيك السلبي"، والذي كان "ماركيوز" يسميه "الرفض الكبير" مستعيرًا مصطلح السيرياليين الفرنسيين، كان ذلك هو القرار الواعي للمثقف وهو ألا يشارك في أي من قيم وأعراف المجتمع البرجوازي، كاحتجاج ضد الحلم الكلي بالسلطة. وهكذا يعلن الفكر النقدي استقلاله، حتى عندما تحول الراسمالية الجماهير الذاهلة إلى قطعان وجموع بلا عقل، أثناء تمهيدها للدكتاتورية والفاشية. المثقف يموضع نفسه، بحيث لا يكون "منغرسًا بعمق" أو مطيعًا منصاعًا، مثل الأيديولوجيين الشموليين والفاشست، للنظام السياسي، ولا متباعدًا أو مطيعًا مثل الليبراليين لنظام ثقافي محتضر. وبدلا من ذلك، فهو "سلبي" بمعنى الهجوم العنيف على حالة الوضع الراهن. ولكن تلك ليست علامة عقيمة أو إعادة رمزية. العقيدة الرئيسية لمدرسة فرانكفورت بكاملها، ولأشخاص بعدها مثل "ماركيوز" و "جورجن هابرماس" – Jurgen Habermas، هي أن كلمات الناقد الراديكالي ليست لغوًا ولا ثرثرة عديمة الجدوى، وإنما هي شكل مهم للعمل الاجتماعي، لأن احتجاجه على الكلية Total-ity يحافظ على إمكانية وجود بديل في أذهان الناس ويمكن أن يدرك المرء كيف أن صورة البطل المتوحد المنشق على الكنيسة، كان لها معنى في ألمانيا النازية، ولكنها لم تكن تنطبق على واقع الولايات المتحدة في الأربعينيات والخمسينيات، ناهيك عن أيام جمهورية "ويمر"، "ما قبل الفاشية". والحقيقة أن إحدى مشكلات "ويمر" الأساسية، ربما كانت وفرة في الكلمات النقدية الزائدة عن الحد، والمتنكرة في لباس "حديث مهم". على أية حال، فإن الكلمات والأفعال بالنسبة لمدرسة فرانكفورت كانت في السلسلة المتصلة ذاتها. أصبح النقد اللفظي للمجتمع البرجوازي واجبًا أخلاقيًا، حتى وإن كان منطلقًا من بين الجدران الآمنة لقاعة الدراسة أو من صفحات مجلة مدرسية. (وربما كان ذلك هو المفضل). وحيث إن الناقد السلبي (مثل "سي – رايت ميلز) قد أعلن استقلاله الروحي بالفعل، عن نظام اجتماعي وثقافي محتضر، لم يعد جزءًا منه، حتى وإن استمر في تسديد فواتيره، أو بعبارة مدرسة فرانكفورت: "لم يعد يعترف بسلطته".

الحضارة السلطوية.. تأثير "فرويد"

> ألا يعتبر الفرد الذي يعمل بشكل عادي وكاف وصحيح كمواطن في مجتمع مريض، شخصًا مريضًا؟
>
> "هيربرت ماركيوز"

في النهاية، استقرت التشاؤمية التاريخية لمدرسة فرانكفورت على تطابق غير دقيق بين "أمريكا" و "ويمر قبل النازية" كلاهما كان ينظر إليه كمجتمع في مرحلة الراسمالية المتأخرة، مجتمع بلا حياة وبلا عقل، يتأرجح على حافة الدكتاتورية. وهنا كان "سيجموند فرويد" مثلما كان "نيتشه" من النظرة الأولى، يبدو "فرويد" نموذجًا مدهشًا للهجوم على العقلانية الغربية وقيم الطبقة المتوسطة كان "فرويد" المثقف الليبرالي اليهودي، فخورًا وشديد الثقة بمهنة الطب البرجوازية. كان يعتبر نظرياته في التحليل النفسي جزءًا من الفكر الغربي السائد ونوعًا من العلم. وعند مدرسة فرانكفورت، كانت أعمال "فرويد" لا تنتمي إلى العلم بالمرة؛ بل هم كانوا يعتبرونه ناقدًا زميلاً، وواحدًا ممن اهتموا بدور اللاوعي، ويلقي بظل كئيب على الوجود الإنساني، مشابها لظلال روائيين مثل "ديستويفسكي" و "فرانز كافكا". وفي هذا الاتجاه، حددت مدرسة فرانكفورت الطريق نحو بروز "فرويد" المستقبلي في النظرية الأدبية، إلى جانب علم النفس.

"إريك فروم" تعلم على المدرسة الفرويدية كمحلل نفساني، وفي أواخر العشرينيات أصبح مهتما بمزج الفرويدية بالماركسية ولم يكن أول من فعل ذلك. كان "ولهلم ريش" Wilhelm Reich قد قام بنفس المحاولة مما أثار غضب واستياء "فرويد" الشديدين. لكن بينما يحدد "ريش" نفسه بالإصرار على أن نهاية الراسمالية تعني نهاية العصاب، نجد أن "فروم" وأنصاره في معهد البحوث الاجتماعية أعطوا دفعة تحليلية أبعد لعملية المزج بين "فرويد" و "ماركس". حاولوا أن يصفوا علم النفس الاجتماعي للراسمالية المتأخرة، بكشف آثاره المشوهة المزعومة، على الفرد والأسرة وبين العمال بخاصة.

في عام 1937 كتب "فروم": "***كلما تدهور المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا ونفسيًا، عظمت الفروق في البنية النفسية بين مختلف الطبقات***". الأسرة الحديثة مثل الراسمالية المتأخرة نفسها كانت "في أزمة"، كما كتب "فروم" و "أدورنو" في عملهما "دراسات في السلطة والأسرة". كانت الآثار واسعة وقاتلة وبخاصة على الفرد. الناس يخرجون من الأسرة الحديثة مثل المصابين بشلل نفسي، وخاصة فيما يتعلق بتعاملهم مع السلطة ورموز السلطة. الطاعة العمياء لمجموعة متنوعة من رموز السلطة – يضع "أدورنو" بينهم الآباء والأشخاص الأكبر سنًا والقادة والقوى الخارقة للطبيعة.. هكذا – تظهر في مجتمع الراسمالية المتأخرة، حيث يكون الناس قد أصبحوا مهيئين لتصديق أكاذيب القابضين على السلطة والتي يحاولون بها إخفاء استغلالهم وتلاعبهم. وبفضل "مدرسة فرانكفورت" ستصبح "السلطة" كلمة سيئة

السمعة مثل كلمة "الاستعمار" عند الماركسيين والتقدميين. إلا أن السبب كان قليل الصلة بالسياسة عنه بنظرية التحليل النفسي – وربما القول بنظرية الانحلال. وبينما كان التنوير يرى الاعتماد على السلطة علامة تميز الثقافات البدائية، كان "فروم" "وهوركهايمر" يقولون بعكس ذلك، وهو أن البحث عن رموز السلطة هو الحالة الطبيعية للبشر في الغرب الحديث. الناس عندما يشعرون بضعفهم وعقمهم الخاص في ظل الرأسمالية المتأخرة، يتجهون غريزيًا نحو أولئك الذين يبدو أنهم يمثلون القوة والسلطة. كتب "هوركهايمر": "عندما يحترم الطفل في سلطة أبيه علاقة أخلاقية، وبالتالي يحب ما يدرك عقله أنه واقع، فإنه يمر بأول تدريب له على علاقته بالسلطة البرجوازية". الأسرة الحديثة النمطية إذن تتضمن حلا "سادو – ماسوشي" لعقدة أوديب فتنتج مريضًا بالشلل وهو "الشخصية السلطوية". كراهية الفرد للأب تؤجل وتبقى بدون حل، وتصبح بدل ذلك جذبًا نحو رموز أكثر سلطوية ينصاع لها ويطيعها بلا تفكير. وهو مثل الانحلال، صورة من صور الرُجْعى (ata-vism) أو العودة إلى صفات الأسلاف التي ابتعدت عنها الأنسال السابقة.

استخدم "أدورنو" هذا المصطلح فيما بعد – وهو الأمر السائد والواضح في الطبقات الدنيا الشخصية السلطوية تنظر إلى حركات الجماهير والقادة الكاريزمية (مثل هتلر وموسوليني) بحثًا عن شعور بالاتجاه والهدف، مثل "الإنسان في الزحام" عند "لي بون" Le Bon وكما هو عند "لي بون" أيضًا، فإن هذا الارتداد الرجعيّ هو نفسه نتاج التقدم، أو بمعنى آخر نتاج للقوى الاجتماعية – الاقتصادية للديمقراطية الطليقة وللحداثة غير المقيدة. المجتمع البرجوازي الذي يبدو وكأنه يمجد الاستقلال الذاتي الفردي، يولد العكس في الحقيقة. البرجوازية الماسوشية وتوابعها من الطبقة العاملة يستسلمون سلبًا لمطالب سادتهم السياسيين الساديين، كما يستسلمون لتقسيم العمل في الرأسمالية. كان "هوركهايمر" يقول – بأسى – "الأنماط البشرية السائدة اليوم لم تربى لكي تستطيع الوصول إلى جذور الأشياء... إنهم لا يستطيعون أن يفكروا نظريًا، أو أن يتحركوا أبعد من مجرد التسجيل البسيط للحقائق". كان الاستنتاج الحتمي عند "هوركهايمر" هو أن "الغالبية العظمى من الناس" الذين يعيشون في المجتمع الرأسمالي "ليست لهم شخصية". ويضيف "فروم": "هذه الديناميكية واسعة الانتشار في المجتمع الحديث، لدرجة أن أغلب الناس في مجتمعنا، يعتبرون" الكائن البشري البرجوازي هو الكائن "العادي والطبيعي".

وقد عبر "فروم" جيدًا عن المعاني السياسية المتضمنة في ذلك، في كتابه "الهروب من الحرية" الذي نشر في عام 1941، قبل دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية مباشرة. بعد تحرره من قيود مجتمع ما قبل الفردانية أو الجماعة الاجتماعية: Gemeinsvhaft، فإن الكائن البشري الحديث لم يحصل على حريته بالمعنى الإيجابي لتحقيق ذاته الفردية، أو التعبير عن قدراته الذهنية والعاطفية

الحسية، وهو – بالتعبير الماركسي – مغترب. هذا الشعور بالاغتراب دفع الجماهير والمواطنين الألمان إلى الخروج من مجتمعاتهم الصناعية إلى حركات مثل الاشتراكية القومية، بدلا من أن يحرروا أنفسهم من الاستغلال الاقتصادي الذي هو الشيء الأساسي لبؤسهم. وكان "فروم" يحذر زملاءه الأمريكيين: في مجتمعنا الخاص نحن مواجهون بالظاهرة نفسها، والتي هي تربة خصبة لقيام الفاشية في كل مكان: تفاهة الفرد وشعوره بالعجز التام. المواطن الأمريكي الحديث حر فقط ليعمل شيئًا من اثنين: يمكنه أن يتبع بخطوة منتظمة مثل جندي أو عامل على سير لانهاية له. أو يستطيع أن يسلك ولكن شعوره بالاستقلالية والأهمية لا وجود له(11) نظرية "فروم" عن "خوف" الإنسان الحديث "من الحرية" وضعت الأساس كذلك لأكبر طموح حمله المعهد على عاتقه: "الشخصية السلطوية". وبينما كانت الاستنتاجات السابقة لكل من "فروم" و "أدورنو" عن سيكولوجية الرأسمالية المتأخرة مستمرة من نماذج ألمانية، كان كتاب "الشخصية السلطوية" مشروعًا أمريكيًا. فقد احتكم قبل كل شيء إلى المثل الأمريكية موضحًا أن الشخصية السلطوية هي عدو "الحضارة الديمقراطية". صدر الكتاب في عام 1948، وكان ينظر إلى الإطار الأمريكي بعد الحرب: حتى بالرغم من أن أمريكا قد هزمت الفاشية في الحرب العالمية الثانية، إلا أن المؤلفين كانا يحذران وينبهان إلى أن خطر انبعاثها كان مايزال قائمًا. وذلك لأن التشوهات الشخصية التي سببتها لم تختف بعد – والواقع أنها كانت "كلية الوجود"(12) بهذا المعنى فإن رسالتهما كانت أيضًا – وضمنًا – حربًا باردة مضادة: الفاشية، أكثر مما هي الشيوعية، هي الأشد خطرًا على القيم الأمريكية التقليدية في عالم مابعد الحرب.

وفي انعطافة غير عادية، احتكم "أدورنو" وفريقه أيضًا إلى الذوق الأمريكي للطرق الكمية في دراستهم، مقدمين "الشخصية السلطوية" كنموذج علمي اجتماعي مع درجة عالية من التنبؤ. ولكن هذه الحلي العلمية الموضوعية كانت في الحقيقة مضللة.

كان كتاب "الشخصية السلطوية" ينطوي على تحذير شديد وتنبيه إلى أن الفاشية كانت تبحث عن وطن جديد لها في أمريكا نفسها. وكانت تلك الأخبار صادمة لمؤلفي "جدل التنوير". وحيث إن أمريكا كانت وطن القيم الحداثية السائدة، ووطن البراجماتية والعلم الوضعي، فلابد أن تصبح في النهاية أيضًا المركز السطحي لانزلاق الحضارة

الحديثة نحو الفاشية. ولكن كتاب "الشخصية السلطوية" يعتبر جزءًا من مشروع مشترك اكبر مع "دراسة الرأي العام في بيركلي"، واللجنة الأمريكية اليهودية التي تتناول موضوع معاداة السامية، تلك القضية التي ادركت مدرسة فرانكفورت في وقت متأخر أنها كانت مركزية في كل المرحلة النازية في المانيا. المشروع بني حول مجموعة من الاستبيانات التي حاولت أن ترسم صورة "للشخصية الفاشية المحتملة" (الغريب انه لم يكن لديهم اي اهتمام بدراسة الفاشست انفسهم) وكان من المفترض أن تعكس الإجابات "تلك التوجهات التي تظل عميقة نسبيًا داخل الشخصية"، اي التي ليست في متناول ايديولوجيات بعينها، وبخاصة تلك التي تركت رعاياها عرضة للتعبير عن الأفكار الفاشية أو تقع تحت سيطرتها". كانت النتائج مسوغة للانزعاج، تحولت معاداة السامية لتصبح الحافة الوحيدة المرئية لشخصية مختلفة وظيفيًا، والتي تتجلى في كثير من التوجهات "المتمركزة حول العرق" و "التقليدية" في الجمهور الأمريكي العام، بالإضافة إلى توجه، مذعن مقلق، نحو السلطة بكل أشكالها.

وقد فسر "ادورنو" ***ذلك في تقديمه***، مبديًا دهشته: ***"بالرغم من تنويرنا المفترض، فإن الأهواء العرقية والجنسية المنتشرة، قد كشفت عن بقاء "الرجعيّ" المتضاربة للشعوب القديمة"*** في المجتمع الحديث - بالرغم من أن "ادورنو" كان قد انتهى لتوه من محاجته في "جدل التنوير" بأن تلك الأهواء والتحيزات كانت جزءًا أساسيًا من المجتمع الحديث.

واتضح أن السمات الأساسية في الشخصية الفاشستية المحتملة هي الالتزام الصارم بالقيم السائدة (وخاصة تلك المتعلقة بالأخلاق والدين)، والاهتمام بالا يكون الشخص متطفلا في السلوك والمظهر، والتأكيد على الكفاءة والنظافة والنجاح، وباختصار هي تلك السمات النمطية في المواطن الأمريكي المهذب والمقبول.

والواقع أن تلك السمات، تخفي تحتها "نظرة تشاؤمية ومحتقرة للإنسانية"، (ممثلة بالموافقة على عبارة "مهما كانت الطبيعة البشرية، فسوف يكون هناك دائما حرب وصراع) و "مخاوف شديدة من النشاط الجنسي والنشاط العفوي، ومقاومة للجماعات الأخرى المختلفة وللأقليات، وسرعة التأثر برموز السلطة".

وبكلمات احدث مؤرخ للمشروع، فإن صاحب مثل هذه الشخصية السلطوية: ***"يوحد بين نفسه وبين السلطة ويحتكم إلى الديمقراطية والأخلاق والعقلانية، ولكن لكي يحطمها"***.

لجأ "ادورنو" وباحثوه إلى "فرويد" في تشخيصهم لتلك الشخصية مختلة الوظائف. كل شيء ناتج عن "أنا" ضعيفة، و "أنا عليا" خارجية تبريرية - وبالمصادفة أيضًا فإن تلك هي الصفات الرئيسية للإنسان في المجتمع الصناعي الكبير. الشخصية السلطوية موجودة في مجموعة من الأعمال التي ظهرت بعد الحرب - مثل كتاب "سارتر": تأملات في المسألة اليهودية"، كتاب ديفيد ريزمان David Reisman "الزحام الموحش" ورواية "البرتو مورافيا": "الممتثل" - التي توصلت إلى أن الفاشية ومعاداة السامية كانتا تروقان للشخصيات المشوهة "المتوجهة نحو الغير"، الضعيفة والمجردة من الكمال الداخلي.

كان "ادورنو" وزملاؤه ايضًا يقومون بتجديد العلم الاجتماعي عند "لومبروزو" في إطار يساري جديد. كان "الشذوذ" يعرف بسمات محددة قابلة للقياس على ميزان "F." (F. للفاشية)، ثم تقارن تلك السمات بنموذج يفترض انه للشخصية "العادية" أو الصحية. ولكن بالرغم من كل عمليات القياس "العلمية" و "المعملية" والمخططات، على طريقة "لومبروزو" و "جالتون"، سرعان ما اتضح للنقاد الجادين أن عدد الذين اجابوا (وهم ثلاثة الاف) وان اختيار "المجموعات" الأساسية كان عينة غير دالة، وان البيانات لم تكن دقيقة، ولذا كانت الدراسة عديمة القيمة. فما حدث مثلا في عمليات المسح الصغيرة للعمال الالمان في الثلاثينيات، والتي كانت أساس كتاب "السلطة والأسرة"، أن كانت الأسئلة تقدم بطريقة معينة بحيث إن اي إجابة تعبر عن القيم التقليدية، كانت تفسر على أنها "سلطوية" (اي مشوهة)، وبالتالي فصاحبها "فاشستي محتمل". ومن ناحية اخرى فإن احتمال أن يكون شخص ما تقدميًا من الناحية السياسية وما يزال سريع التأثر برموز السلطة، كان مستبعدًا تمامًا. اما الأشخاص الذين يميلون إلى الأفكار اليسارية، فكان "يبرهن" على انهم اصح عاطفيًا واسعد من نظرائهم المحافظين سواء في حياتهم الشخصية او العامة. كان ذلك منعكسًا في صراحتهم، و "قدرتهم على الحب"، وتعاطفهم مع الآخرين وفهمهم للواقع. هذه الصفات جعلتهم مؤيدين للقضايا التقدمية او الاشتراكية، رافضين للحركات السياسية السلطوية. وكان "ادورنو" يقول "إذا كان الخوف والدمار هما المصدران الرئيسيان للفاشية، فإن "إيروس" هو مصدر الديمقراطية"، او بمعنى اخر: الاشتراكية. عدد اخر من علماء الاجتماع والنقاد[13] هدموا ما جاء في "الشخصية السلطوية"، ولكن المصطلح - الشخصية السلطوية - استمر ونجح في استرضاء نقاد اليسار الجديد. فقد مكن الماركسي من اتهام خصومه سواء من الليبراليين المعادين للشيوعية أو المحافظين بأنهم: إما "شذاذ" أو "نازيون غير واعين" - تمامًا كما كان المجرم عند "لومبروزو" "شخصًا مريضًا" متفسخًا.

امريكا، طوطم الثقافة الديمقراطية الحديثة، كانت في الواقع "فاشية مستترة" أو كامنة. كان غياب حركة فاشية حقيقية في امريكا، مثل غياب حركة "معاداة سامية" حقيقية، إلى حد بعيد علاقة على المدى الذي وصل إليه الفساد. وكما عبر عن ذلك "هيربرت ماركيوز" "كوننا لا نستطيع أن نشير إلى اي واحد من الـ "SS" او الـ "SA" هنا، يعني ببساطة انهم ليسوا ضروريين في هذا البلد.

في مقابل الشخصية السلطوية الامتثالية، كان هناك "انفتاح" الشخصية السليمة الذي كان "إريك فروم" يحدده

بالاعتراف بعدم وجود قيم او سلطة أعلى من ذات الشخص."الإنسان هو مركز وهدف حياته". كان "فروم" يرفض اي فكرة ترى أن ذلك الوجود المرتكز على الذات يمكن أن يؤدي إلى فوضى او عدمية ثقافية. والعدمية، كما كان "نيتشه" قد اوضح تأتي نتيجة لضغط وقسر اخلاق الطبقة الوسطى وأعرافها على حيوية الإنسان، وليس عدم وجودها، وبمجرد زوال تلك الضغوط تنطلق مصادر القوة العاطفية والإبداع غير المحدودة. ولكن، إذا كان "فروم" يعتقد أن الإنسان الغربي مايزال قادرًا على إنقاذ نفسه وبناء "مجتمع معقول" (العنوان الذي وضعه كذيل لكتابه "الهرب من الحرية" عام 1964)، فإن "ادورنو" لم يكن لديه هذا الوهم. كان "ادورنو" قد اصبح مهووسًا بقلب الحضارة الحديثة المظلم، الذي كان اول من كشف عنه مع "هوركهايمر" في "جدل التنوير".

الحرب العالمية الثانية و "الهولوكوست" جعلتا "ادورنو" يصل إلى نتيجة مؤداها أن الإبادة الجماعية، مثل الفاشية، كانت "مخططا مطبوعًا" داخل حلم الحضارة الغربية بالعقل والسلطة. التصنيف العقلاني للآخر، يؤدي حتما إلى إبادة الآخر في هيئة يهود وجماعات "هامشية" اخرى كان "ادورنو" يقول بأسى: المذبحة هي عملية القتل الطقوسي للحضارة.

في المذبحة انقلبت العقلانية الغربية على نفسها كما يحدث عادة في حالة إيذاء النساء جسديًا. "علامات العجز، الحركات المفاجئة غير المتسقة، الخوف الحيواني، الارتباك، إيقاظ التعطش للدم". الأقوياء "الذين لابد أن يدفعوا ثمن قوتهم بالاغتراب عن الطبيعة، ولابد أن يكبحوا خوفهم دائمًا" ويحولوه إلى غضب لا عقلاني، يمكنهم أن يجدوا مخرجًا بالانقضاض على الضعاف لإشباع شهوتهم للدم. "عندما يسمعون صرخة ضحاياهم مرارًا وتكرارًا، تلك الصرخة التي لا يجرؤون هم انفسهم على إطلاقها".

الجذر الحقيقي لهذا النوع من الخطاب المفرط في الحماس، لا يوجد في الماركسية، وانما في الخيال الألماني التجريبي (14).

كانت الحضارة الصناعية تلوح الآن في الأفق مثل الغابة في رواية "كونراد" – Conrad – "قلب الظلام"، متاهة معتمة لا يمكن اجتيازها، مسكونة بالرعب البدائي والصور الوحشية (مثل باريس "بودلير" المضاءة بالغاز، المسكونة بالهياكل العظمية والهامات، او مدينة "الماهوجني" عنه بريخت).

على أن قراءة "ادورنو" و "هوركهايمر" النهائية لمعاداة السامية، بعيدًا عن إبراز رعب "الهولوكوست"، قد افرغتها فعلا من معناها ومضمونها المحددين. معاداة النازية للسامية، لم تكن موجهة ضد اليهود في نهاية الأمر، كما كانوا يقولون، ولا كان سببها المباشر اي شيء في الأيديولوجيا النازية أو المجتمع الألماني.

هذه النظرة، تجاهلت الدرجة التي قدم بها البرنامج النازي للمذبحة، حلا متطرفًا لما كان يبدو أزمة شديدة: خطر التلوث اليهودي والكارثة العرقية.

كان "الهولوكوست" موجودًا ضمنا في كل نظريات التشاؤمية العرقية "جوبينو" نفسه شرح في "فصل المقال" كيف أن الاضمحلال العرقي في روما كان يتم "ضبطه" من وقت لآخر اثناء دكتاتورية "سوللا" – Sulla، عندما امر الطاغية – المغرم بالانتقام – بإقامة مذبحة لخصومه "كريمي المحتد"، وبالمرة، يحصد السلسلة الضعيفة والاكثر فسادًا في الأرستقراطية الرومانية. كان "جوبينو" يجد طرافة في ذلك الموقف الغريب: رجل شرير، انقذ مدينته دون قصد بعمل إجرامي جاهل، اما بالنسبة لـ "هينرش هملر" – Heinrich Himler ومساعديه فلم يكن في الأمر جهل ولا مفارقة. ما هو الخيار الذي كان امامهم لكي ينقذوا الجنس الآري من القوى المدمرة للحضارة ؟، كان الشيء الوحيد المطلوب هو ان يظل "قويًا وصلبًا"، كما كان "شبنجلر" يقول.

اما بالنسبة لمكتبة فرانكفورت فقد كان "الهولوكوست" عملا من اعمال نظام صناعي عقيم ومنتوجاته الإنسانية الرجعية، التي توجه طاقاتها السادية نحو اي شخص مختلف او غير محصن. بعد ذلك سيكتب "هيربرت ماركيوز": "لم يكن عالم معسكرات الاعتقال مجتمعًا وحشيًا استثنائيًا، ما رايناه هناك... مثال على مجتمع الجحيم الذي نغوص فيه كل يوم" وهناك عبارة لـ "ادورنو" تقتبس دائمًا عند الكلام عن "الهولوكوست"، وهي انه لا يمكن أن يكون هناك شعر بعد "اوشوتز". والحقيقة انه كان قد توصل إلى ذلك الراي قبل "اوشوتز" بكثير، كما كان

توماس مان

بطله "نيتشه"، وحتى "بروكس آدمز"، قد فعلا عندما كتب: "لا يمكن أن ينبت شعر في التربة الحديثة".

وفي النهاية، فإن فظائع "اوشوتز" لم تكن نتيجة للنازية او معاداة السامية ولا حتى للشخصية السلطوية. في مركزها السطحي، كانت هناك حضارة غربية "مريضة"، تضرب بشدة، لكي تفسد او تخرب كل ما في قبضتها المهلكة.

"هيربرت ماركيوز".. وعد اليوتوبيا

صدر "جدل التنوير" متزامنا تقريبًا مع يوم الغزو، الذي يحدد بداية النهاية لإمبراطورية "ويمر". وفي خلال عام، ظهرت قوى الغرب الراسمالية بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، اوروبا الغربية من الفاشية، وتراجعت ثورة اليمين وراء الأفق الثقافي. وفي عام 1949، غادر "هوركهايمر" و "ادورنو" امريكا، عائدين إلى المانيا. وبالرغم من ماركسيتهم المعلنة، إلا انهما

قررا عدم الاستقرار في المانيا الشرقية. عادا إلى فرانكفورت، وهناك اعادا تأسيس معهد البحوث الاجتماعية للمرحلة الجديدة بعد الحرب. وبالرغم من انتهاء الكابوس النازي، إلا ان تشاؤمية "ادورنو" واكتئابه بشأن المستقبل كانا اكثر عمقًا.

في عام 1951، نشر مجموعة من التأملات والأقوال تشبه كتاب "نيتشه" بعنوان: "Minima Moralia" – تأملات من حياة معطوبة، كشف فيه عن عمق شعوره بالمرارة والبغض للجنس البشري. ذهب يأسه إلى ما هو ابعد من ذكرى "الهولوكوست" او خطر الكارثة النووية. كتب يقول إن المجتمع الحديث قد اصبح بلا معنى او قيمة بالمرة. كل العواطف والصفات الإنسانية قد تدهورت وانحطت لأنها اصبحت جزءًا من كل رأسمالي واحد. الصداقة، الزواج، الكياسة، الشعور بالخصوصية، الرحمة... كل ذلك انقرض. "احترام المخالفة الاجتماعية والمشاركة ليس سوى قناع بقبول ضمني بكل ما هو لا إنساني". كانت الأمور سيئة لدرجة ان "ادورنو" كان يشعر بحنين لمرحلة برجوازية سابقة قبل التكنولوجيا الواسعة والتليفزيون. "كل ما كان جيدًا ومقبولا في القيم البرجوازية ذات يوم مثل الاستقلالية والمثابرة وبعد النظر والحذر، قد تم إفساده تمامًا". حتى الإيمان الليبرالي الكلاسيكي بالملكية الفردية كان يدمر، منذ أن قلل تغلغل السلع في المجتمع الاستهلاكي من الشعور بالكبرياء في الملكية. وبدلا من ذلك كانت كل السلع الاستهلاكية، كما كان "ادورنو" يعتقد، تدل على "المعاملة الفاشية السيئة والعنيفة". ابواب السيارات لابد من "صفقها بقوة" لكي تقفل، نوافذ الزجاج المنزلقة لابد من دفعها بعنف (على خلاف نوافذ الماضي ذات المزلاج البسيط السلس)، كل هذه التكنولوجيات الحديثة جعلت الشخصية الإنسانية وحشية. كان يتساءل: اين هو الذي لا تغريه قوة سيارته بكنس هوام الشوارع في طريقه..؟ المشاة، الأطفال، حتى راكبي الدراجات"(51).

وبينما وقع "ادورنو" في يأس عميق وحاد مثل "هنري آدمز"، كان يقول بأسى: إن المثقف لابد أن يعيش "بعار ان ما زال لديه هواء يتنفسه في الجحيم"(15) نجد ان زميله الأصغر هيربرت ماركيوز يتخذ موقفًا مختلفًا.

مثل "ادورنو" و "هوركهايمر"، سوف يؤكد "ماركيوز" الموت الحتمي للغرب بيده، ليس بسبب الشمولية (بالرغم من ان ذلك كان ايضًا حتميًا ومهمًا) بقدر ما هو بسبب الفائض المادي المريك. ولكنه سوف يتنبأ كذلك بما سيجيء لاحقًا: نظام ثقافي جديد مبني على ما كانت مدرسة فرانكفورت الباكرة تطلق عليه "تمرد الطبيعة". هذه النبوءة ستجعل من "ماركيوز" واحدًا من نجوم الحركة الراديكالية واليسار الجديد في ستينيات القرن العشرين، كما ستجعل منه المتشائم الثقافي الأول في مدرسة فرانكفورت.

كان تمرد الطبيعة هو الثمن الاجتماعي الذي دفعته الحضارة لقاء كبحها الشديد لغريزة الحياة. وكان "هوركهايمر" قد اعلن في كتابه "افول العقل" ان انتصار الحضارة قد اصبح كاملاً لدرجة انه لا يبدو حقيقيًا".

ومن هنا فإن "التكيف في زماننا يتضمن عنصرًا من الرفض والغضب المكتوم والنتيجة هبات متقطعة للاعقلانية واشكال مختلفة، والمثال الدال على ذلك هو معاداة السامية، ولكن هناك ايضًا العنف والإجرام بمختلف صورهما.

تمرد الطبيعة اصبح المفصلة التي تفتح عليها الحضارة العقلانية نفسها على نقيضها، اي على بديل لها، هكذا ودون تعمد. كانت تلك هي الإمكانية التي امسك بها "ماركيوز" ليبني مستقبلا إنسانيًا جديدًا.

كانت فلسفة "ماركيوز" تتضمن جرعات ذكية وعنيفة زودها بها مفكرون المان من ذوي الوزن الثقيل مثل "هيجل" و "مارتن هيدجر" بالإضافة إلى "ماركس" و "فرويد".

ولكن الواقع ان ميول "ماركيوز" الحقيقية لم تكن نحو الفلسفة الألمانية الرسمية، وإنما نحو "عصيان الأبناء لآبائهم"، في جيله من الشباب الألماني قبل عام 1914.

"ماركيوز" كتب كل اعماله المهمة في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وكانت تحمل وجهة النظر الخرقاء المهاجمة للمعتقدات، عند المتمرد التعبيري في اعمال "هازينكليفر" Hasenclever و "جورج هيم" Georg Heym ، و"برتولد برخت" Bertold Brecht علاقة "ماركيوز" بمدرسة فرانكفورت كانت مشابهة لعلاقة "ماركيوس جارفي" – Marcus Garvy و (دبليو اي – بي – دوبوا) W. E. B. De Bois جوانب كثيرة. كانت تتكون من اخذ بعض الأفكار الرئيسية وتطويرها إلى اقصى مدى. كانت الفكرة الأولى هي اختفاء البروليتاريا الثورية على يد الثقافة البرجوازية الخرقاء. "ماركيوز" كتب وشرح وتكلم بقوة عن هذا الموضوع في اشهر اعماله واكثرها انتشارًا وهو "الإنسان ذو البعد الواحد" – 1964– والذي يعتبر إلى حد بعيد، تكبيرًا للصورة القاتمة عن طبيعة الراسمالية المتأخرة، كما جاءت في "جدل التنوير"، وهو ما كان يشير إليه الآخرون بـ "مجتمع الوفرة" و "الحضارة ما بعد الصناعية". الحضارة المدمرة للروح تحولت إلى "المجتمع الاستهلاكي" الذي يخفي طبيعتها القمعية تحت وفرة من السلع والخدمات.

وكما هو في الراسمالية المتأخرة المجمعة، فإن ما قد يبدو انه يزيد من الحرية الشخصية، ليس سوى عكس ذلك في الحقيقة: الطبقة الوسطى والعمال يظلون غالبًا في غيبوبتهم، غير واعين بما هم فيه من تعاسة. وعلى اية حال، فإن "امتداد الاستغلال إلى قطاع اكبر من السكان، مصحوبًا بمستوى معيشة اعلى، هو الحقيقة الكامنة خلف واجهة المجتمع الاستهلاكي".

كتب "ماركيوز": " في مجتمع الوفرة، تكون الراسمالية قد نالت من نفسها". ضحيتها المتفسخة هي المستهلك، الذي لا وجهة له ولا خيار لديه، والذي كان "فروم" – Fromm قد وصفه قبل عشرين عاما بأنه يعيش "تحت وهم انه يعرف ما يريد، بينما الحقيقة هي انه يريد ما يفترض انه يريده"، والذي يبدد وقته في شراء منتجات "توحي له وتتلاعب به".

"النزعة الاستهلاكية". كما كتب "ماركيوز"، "تنمي وعيًا زائفًا محصنًا ضد زيفها"، خاصة لأنها تشعر بأنها جيدة وتحذر ضحيتها ضد التفكير الأعمق، ومثل برجوازية "هوركهايمر" فإن المستهلك يتعلم أن يتعرف فقط على الحقائق السطحية الخارجية، وليس على الحقيقة الاجتماعية تحتها".

ويقول "ماركيوز"، "وهكذا ينشأ نمط من التفكير والسلوك ذي البعد الواحد"، وهو الذي يميز الغرب، "الناس يتعرفون على أنفسهم في سلعهم" يجدون أرواحهم في سياراتهم وأجهزة "الهاي فاي"... الميكانيزم الذي يربط الفرد بمجتمعه قد تغير، والتنظيم الاجتماعي يجد مرساته في الحاجات الجديدة التي خلقها". هذا التنظيم الاجتماعي الاستغلالي يأخذ أشكالاً غير متوقعة. أحدها دولة الرفاهية التي تطعم الفقراء جيدًا عندما يجب أن يكونوا جوعى، وفي الاضطرابات التي تسبق الثورة. والثاني هو "التسامح القمعي" تجاه الجماعات المنشقة، والذي بواسطته يبسط المجتمع الليبرالي حريات الليبرالية للنقاد بطريقة تجعله يحيِّد رفضهم له. وهذا يمكن المجتمع الليبرالي مثلا أن يسكت الأعداء الألداء مثل "ماركيوز" بنشر أعماله. هذه الاستراتيجية تجعل أفكاره غير فعالة (حيث إن كلماته قد تجعله يبدو غريبًا وشاذًا)، بينما مراقبة أعماله والقبض عليه قد تجعل منه شهيدًا. "جان بول سارتر" واجه المشكلة نفسها بسبب الوقت الذي كان يمنح له في الراديو والتليفزيون المملوكين للدولة.

التسامح مع وجهات النظر الأخرى في عصر الاتصال الجماهيري كشف عن وجه الاستبداد السياسي بشكل جديد. "الوجه الذي قد يتناسب مع "تعددية" الأحزاب والصحف وقوى التوازن...الخ"، ذلك لأن ما يسمى بالمجتمع الليبرالي هو في الحقيقة شكل جديد من أشكال الدولة الشمولية. وكما يقول "ماركيوز": "حيث إن الشمولية ليست فقط عملية ربط سياسي إرهابي للمجتمع، وإنما هي أيضًا عملية ربط تقني اقتصادي يعمل من خلال التلاعب المتقن باحتياجات الناس". وعن طريق هذه الأساليب الماكرة، يستطيع المجتمع الاستهلاكي إذن أن يبني نظام سيطرة كاملة. والنتيجة، هي أن "حالة من اللاحرية المريحة، الديمقراطية المعقولة الهادئة، تسودُ في الحضارة المتقدمة صناعيًا، وتصبح رمزًا للتقدم التكنولوجي". كانت تلك في الواقع هي الطبيعة المتناقضة للمجتمع الحديث، والتي دفعت بكل نقاد فرانكفورت إلى حالة من الارتباك: فهي تجعل الاستبداد يبدو وكأنه حرية، والفقر كأنه وفرة ورغد. إلا أنها في الوقت نفسه سلطوية مثل نظيرتها السوفيتية الستالينية.

وإذا كان كتاب "الإنسان ذو البعد الواحد" قد بسط تشاؤمية "هوركهايمر"، فإن كتاب "الإيروس والحضارة" – 1955 – قد أعاد تدوير "فرويد" الماركسي عند "إريك فروم" و "الشخصية السلطوية". "ماركيوز" استغل غموض مصطلح "القمع" الذي يمكن أن يستخدم بالمعنى السياسي، بينما هو المستخدم أيضًا للميكانيزم النفسي في

نظرية "فرويد" عن الشخصية، ولكن "ماركيوز" – وبكل بساطة – كان يصر على أنهما في الحقيقة شيء واحد. كان "ماركيوز" يقول إن الحضارة قامت على القمع فعلا، كما كان "فرويد" يزعم في كتابه "الحضارة ومساوئها". ولكن خطأ "فرويد" كان في افتراضه أن الشكل الذي اتخذته الحضارة الغربية بإعلائها للغرائز الحيوية من خلال "العمل البطيء والمنهجي" و "تأجيل الإشباع غير المرضي"، كان هو الشكل الوحيد الممكن للحضارة. "فرويد" فشل في أن يرى أن ذلك القمع كان الناتج المميز لحضارة رأسمالية.

ويقول :"ماركيوز" إن هناك حضارة غير قمعية ممكنة، ولكنها كامنة في لا وعي الإنسان يمكن أن تنطلق فيها غريزة الحياة... الإيروس... وتتحرر من قيودها.. من خلال انتشار الأساليب الأوتوماتيكية الحديثة مثلا، فإن الآلة تسمح "بإشباع الحاجات بدون ألم" وتجعل "تخفيض يوم العمل" ممكنا وإلى أدنى حد، حتى لا تمنع تطوير الإنسان لذاته و "تحرير الإيروس هذا، قد يخلق علاقات عمل جديدة وقوية" كما كان "ماركيوز" يتصور، ولن تكون هناك ضرورة للاستغلال. وباختصار، فإن التكنولوجيا قد تنقلب على سيرها وتمحو الرأسمالية، وهي نتيجة ليست بعيدة عن تلك التي كانت لدى "أوزوالد شبنجلر" شقيق الروح اليميني لـ "ماركيوز".

"العمليات التكنولوجية للميكنة والتوحيد القياسي، يمكن أن تطلق طاقة الفرد نحو عالم الحرية المجهولة" الوجود الإنساني ذاته يمكن أن يتغير تغيرًا أساسيًا، "الفرد سيصبح حرًا ليمارس سلطته الذاتية على عالم سيصبح ملكه بكامله". ويفضل التكنولوجيا سيختفي عامل "ماركس" المغترب ويحل محله إنسان جديد: فرد متكامل فيه الكثير من ملامح الفلاح الألماني غير المتخصص (عند: فردريش راتزل) ومن الشعب الأسود (عند. دبليو – اي – بي – دوبوا).

ويفسر "ماركيوز" ذلك: "ولكي يصبح العلم والتكنولوجيا وسيلتين من أجل الحرية، فلابد من أن يغيرا توجهاتهما وأهدافهما الحالية. وبدلا من استخدامهما لعمل أو صنع الأشياء، يجب أن يستخدما من أجل تعزيز "الحساسية الجديدة – متطلبات غرائز الحياة". الإنسان الجديد يخطو نحو حضارة غير قمعية لا تنتج شيئًا سوى دورة من الرضا الذاتي لا تنتهي. قد تبدو تلك يوتوبيا بعيدة المنال أو جنة اشتراكية خيالية، ولكن مصطلح "يوتوبيا" كان مصطلحًا إيجابيًا عند

"ماركيوز". لم تكن اليوتوبيا خيالاً مضللا للذات، ولكنه عملية تعرية يقوم بها العقل النقدي لنظام اجتماعي محتضر، ويقوم بها على أساس حقيقي أكثر عمقًا مما هو إمبيريقي. وبالطبع فإن تحقيق "وعد اليوتوبيا" سيتطلب تخفيضًا لمستوى المعيشة وبخاصة بالنسبة للأغنياء، ولكنه لا يكفي "ليكون فاعلا ضد التقدم في الحرية". إلا أنه قد يتطلب إطاحة كاملة بالمصالح الاقتصادية والمؤسسات السياسية للمجتمع المتقدم صناعيًا، وكذلك بالأيديولوجيا التي كانت وراءها.

ومثل كل بقية أعضاء مدرسة فرانكفورت، كان "ماركيوز" لا يرى أملا في الثورة من قبل الطبقة العاملة. كان، بدل ذلك، يتطلع إلى الجماعات المهمشة المستبعدة من المجتمع الاستهلاكي، والتي كانت بالتالي محصنة ضد تملقاته: "طبقة سفلية من المنبوذين من المجتمع والخارجين عليه، المستغلين والمضطهدين من الأجناس والألوان الأخرى، العاطلين عن العمل والعاجزين عنه" "ماركس" نفسه كان يطلق على تلك الجماعة الأشبه بالغوغاء" "البروليتاريا الرثة"، أدوات رد الفعل الديماجوجي، ولكن هؤلاء أصبحوا أمل "ماركيوز" الأخير. في مقاله عن "التحرر" – 1969 – استنفر "ماركيوز" تحالفًا من "الشباب والانتجلنسيا" والسود ومتلقي المعونات الاجتماعية، وثوار العالم الثالث وطلاب اليسار الجديد الذين "سيكسرون قيود الظلم والقسوة والصمت التاريخي". "إن صراع الطبقات المسلح يدور خارج" السياق الرئيسي في المجتمع الغربي، هو في الشوارع والجيتوهات وحقول الأرز في آسيا وجبال أمريكا اللاتينية.

الثورة الكوبية وثوار "الفيت كونج" أثبتوا أن ذلك يمكن أن يحدث كما كتب "ماركيوز" في عام 1968.

هناك روح معنوية، إرادة، إنسانية، وإيمان يمكن أن يقاوم ويروع القوة التكنولوجية والاقتصادية الهائلة للتوسع الرأسمالي والتي كان يسميها ب "وحش الوفرة".

ثورة الطلاب في الستينيات لم تحرك ساكنًا في الحرس القديم في مدرسة فرانكفورت. لم يتحمسوا لها. عندما قام الطلاب بأعمال الشغب والفوضى في قاعات الدرس في فرانفكورت، لم يتردد "أدورنو" في طلب إلقاء القبض عليهم، كما وصفهم "هوركهايمر" بأنهم "فاشيو الجناح اليساري". لكن غرائز حركة الشباب النيتشوية عند "ماركيوز" جعلته يحتضن مسيرات المعارضة لحرب فيتنام ويسجلها في قضيته الثقافية الخاصة. كان يرى فيها حساسية جديدة تطيح بالوعود القديمة لمجتمع استهلاكي مريض. وكما قال في مقابلة معه: المجتمع يكون مريضًا عندما لا تسمح مؤسساته وعلاقاته الأساسية بالتطور الأمثل لحاجات الفرد"، وكان يعني أمريكا الرأسمالية. إلا أنه بحلول عام 1970، عرف ماركيوز وكوادره الشبابية أن أمريكا المتفسخة، المجردة من الروح لن تنهار من "أول لمسة". وأدركوا، كما عبر عن ذلك أحد كتاب سيرته المعجبين، أنهم كانوا يواجهون صراعًا طويلاً وصعبًا لتحويل المجتمع القائم. كانت هناك صعوبة واحدة تتمثل في عدم لباقة وقلة ذوق حلفائه الثوريين المفترضين. مرة، عندما كان "ماركيوز" يتكلم في مؤتمر الدارسين الاشتراكيين في نيويورك عن: "الراديكاليون والهيبيز: استجابات الشباب للمجتمع الصناعي"، اندفع "أبي هوفمان" – Abbi Hoffman وهو يرتدي ملابس الكاوبوي، مدججًا بمسدساته وتقدم نحو المنصة وأشعل غليونا وراح يدخن الأفيون، وطلب من داعية "الإيروس" أن يتوقف عن الكلام ليدخن معه.

شيء آخر، وهو آراء "ماركيوز" العنيفة المتعنتة المتعلقة بالسياسة، وهي آراء أقل وصف لها هو أنها "سلطوية" ومثل "شبنجلر"، كان "ماركيوز" يكن احتقارًا شديدًا للعمليات الديمقراطية العادية. اليوتوبيا الجديدة التي جاء بها، لم تترك مجالا للحوار أو النقاش. المجتمع الأمريكي كان قريبًا جدا من الفاشية الواضحة كما كتب في عام 1968، وكان في أزمة خطيرة لدرجة أن دماره الكامل كان قاب قوسين. أمريكا والغرب يعيشان "حالة طوارئ" "يتم فيها تبرير" تعليق حق حرية، التعبير والاجتماع". وكما قال لأحد مراسلي إذاعة الـ "بي – بي – سي) في عام 1968، لقد حان الوقت لسحب "حق حرية التعبير والاجتماع من الجماعات والحركات التي تنتج سياسات عدوانية وتهدف إلى التسليح والشوفينية والتمييز على أساس عرقي أو ديني، أو التي تعارض مد الخدمات العامة والضمان الاجتماعي والرعاية الصحية... الخ". في كتابه "نقد التسامح الخالص"،

أضاف أنه على عكس "المبدأ الليبرالي المقدس"، فإن هناك قضايا "لا يوجد فيها جانب آخر"، حيث يكون "الجانب الآخر" "رجعيًا" ويمكن أن يعرقل أي تقدم ممكن في الظرف الإنساني.

ميل "ماركيوز" لحالة الطوارئ، يحمل تشابهًا مقلقًا مع تبرير "هتلر" لأحكام حالة الطوارئ في عام 1933، وهو تشابه ليس من قبيل المصادفة. فهو مثل نظرائه من أصحاب التشاؤمية في يمين الثورة الألمانية. كان ينتظر على أحر من الجمر قيام نظام ثقافي جديد من بين أنقاض وبقايا الغرب الرأسمالي الليبرالي القديم.

وراء كل نبي من أنبياء الاضمحلال تلوح "رؤيا" تقدم، وهذا على نحو خاص يضم دعاة التشاؤمية الثقافية. في حالة "ماركيوز" وحلفائه الأيديولوجين دعاة "الثقافة المضادة" كان التقدم يعني برنامجًا كاسحًا لتحقيق الذات يمتد إلى ما وراء كل الحدود أو التابوهات في المجتمع الغربي النمطي أو

"العادي" (الذي كان يعرف الآن بأنه مريض): النوع، الطبقة، العرق، الأفضلية الجنسية. التحرر الإنساني لن يؤدي فقط إلى موت المجتمع الاستهلاكي وبنية السلطة عند "سي. رايت ميلز" – (C. Wright Mills)، بل إنه سوف يضع نهاية لكل أيديولوجية ومؤسسة وهوية زائفة فرضها الغرب الحديث على ضحاياه المنكودين. كان "عالم الخطاب والسلوك القائم"– كما يطلق عليه "ماركيوز" – كان يتطلب "نفيًا" راديكاليًا ومراجعة بقدر الديمقراطية التمثيلية والرأسمالية، حيث إنهما كانا أيضًا جزءين من نفس الكل.

عندما مات "ماركيوز" في عام 1975، لم تكن المجتمعات الأمريكية والغربية قد تحولت بنفس الأساليب التي كان هو وغيره من اليسار الجديد يتمنون. إلا أنه قبل موته، كان قد رأى إمكانية أخرى للنفي داخل النظام كانت تلك هي الجامعة، في أمريكا الوفرة بعد الستينيات. مدارس مثل "بيركلي" "وابرانديز" و "كولومبيا" كانت تعمل كقواعد عمليات لأفكار "ماركيوز"، وكان يشك في أنها ستكون في المستقبل مرفئًا آمنًا ليسار ثقافي مضاد، أثناء ما كان يسميه الراديكالي الألماني "رودي داتشكي" – Rudi Dutsch-ke: "المسيرة الطويلة عبر المؤسسات". في أواخر حياته كان ماركيوز مهتمًا بالحركة النسوية – Feminism، وكان يؤيد تعيين منظريها، وكذلك الراديكاليين السياسيين في المناصب الأكاديمية. وعندما سأله أحد المحاورين في عام 1974 عما إذا كان اليسار الجديد قد مات بعد "ووتر جيت" والانسحاب الأمريكي؟ أجاب: "لا أعتقد أنه مات، أحسب أنه سيبعث "في الجامعات الأمريكية". وهذه النبوءة، على الأقل، تحققت.

الهوامش:

1- نسبة إلى «سبارتاكوس» قائد أشهر ثورات العبيد في روما القديمة. (71 ق.م.)

2- الهيكل المكرس لجميع الآلهة – (المترجم)

3- كان «برتولد برخت» أول من أشار إلى ذلك. (مدرسة فرانكفورت: «ز – تار» – ص61)

4- Totality

5- الحاجة تمضي على نحو دائري من الجدال العقيم: لماذا تعتبر رسوم «نورمان روكويل» فنًا منحطًا؟ لأنها تروق لجمهور منحط ثقافيًا وما الدليل على أن ذوق الجمهور منحط؟ لأنه يحب رسوم «نورمان روكويل» المنحطة...

6- المختلفون معه حول هذه النقطة مثل «كارل ويتفوجل» و«فرانز نيومان»، كانوا يبعدون عن قرارات رسم سياسة المعهد.

7- النموذج الميثولوجي البدئي للإنسان العلمي عند «هوركهايمر» و«أدورنو» هو «أوديسيوس» الذي تغلب على أعدائه الخارقين للطبيعة بفطنته وكان ذلك أول شكل للجهد العقلاني.

8- Totalizing Process

9- كان ذلك تتويجًا على ما يدعوه «هيجل» بـ«دهاء العقل»، حيث تحقق روح العالم تقدمًا تاريخيًا حتى من خلال ما قد يبدو العكس، مثلاً: حرية الثورة الفرنسية من خلال دكتاتورية نابليون العسكرية.

10- النزوع إلى الإبقاء على ما هو قائم، ومقاومة التجديد أو التغيير – (المترجم).

11- يشير إريك فروم بين أمثلة أخرى على مدى انتشار مشاعر الخوف والضآلة في المجتمع الأمريكي إلى انتشار رسوم "ميكي ماوس" المتحركة. قدرة البطل على تضليل مطارده تشبع رغبات المشاهد النفسية (هكذا يشعر وهذا هو الرقف الذي يتوحد معه) ويبدو أن "فروم" يخلط بين "ميكي ماوس" و "توم أند جيري".

12- كلية الوجود Omnipresent: موجودة في كل زمان وفي جميع الأوقات – (المترجم).

13- وبخاصة "إدوارد شيلز" و "هيربرت هيمان" و "بول شيتسلي". (كتاب: دراسات في مجال وأسلوب "الشخصية السلطوية" تأليف "ر – كريستي" و "م – جاهودا".

14- الحقيقة أن الاقتباس يذكر بعبارات من كتاب "تمرد الجماهير" – 1930 – تأليف: Jose or-tega Y Gasset: "الجماهير تتصرف تلقائيًا، وتفعل ذلك بأسلوب واحد وهو أن تضرب... ويعنف" (ص 116).

15- لابد أن نشير إلى أن "أدورنو" كان منعمًا منتعشًا وسط هذا الجحيم محاطًا بزملاء محترمين، وبتكريم وتبجيل حتى وفاته في عام 1969.

لوحة للفنان الأمريكي جيس، 1987

المسكوت عنه

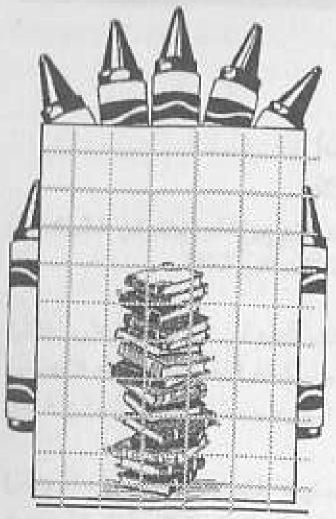

ذلك الأمريكي الجالس في الظلمات (ملف)

1 **أحلــــم**

مارتن لوثر كينج (الابن)

ت: علاء شاهين

2 **الجالس في الظلمات**

مارك توين

ت: إيهاب عبد الحميد

3 **من ووتر جيت إلى ريجان**

ديفيد فروم

ت: عبير الفخراني

في عـام 1451 عثر امريجو فوسبتشي على قارة جديدة، وفي عام 1492 هُزِمَ العرب وخرجوا من الأندلس، وكان كريستوفر كولومبس يجهز سفينتة للبحث عن الخان الاعظم متاثرًا برحلات ماركو بولو، إلا انه عثر على الأرض الجديدة، أو هكذا أطلقوا عليها، باعتبار أن لا سكان فيها. وبعد إبادته الهنود الحمر باسم القيم الأوروبية السامية وفتح البلاد الجديدة، قامت مستوطنة جمستون!! التي ستصبح نواة اكبر خليط بشري عرفه العالم والذي سيستقل في عام1776 لتصبح الولايات المتحدة هي دولة الهيمنة التي لا تعادلها إلا روما القديمة، وفي مـقـالات امـريكيـة ثلاثة نـحـاول أن ننصت لنبض الأمـريكيين انفسهم فماذا يقولون عن العالم وعن انفسهم ؟

المحرر

1

أحلـــم

مارتن لوثر كينج (الابن)

ت : عـــلاء شـــاهين

القيت هذه الخطبـة من اعلى سلالم إبراهام لينكولن التذكاري بالعاصمة الأمريكية واشنطن في 28 اغسطس 1963.

منذ مائة عام مضت، وقّع رجل امريكي عظيم، نقف اليوم في ظل تمثاله، على إعلان تحرير العبيد، ذلك المرسوم عظيم الأهمية الذي جاء كمنارة تشع بالأمل للملايين من العبيد السود الذين أصلتهم ألسنة لهب الظلم المجحف، وكان بمثابة انبلاج فجر بهيج لينهي ليل الأسر الطويل.

بيد انه وبعد مرور مائة عام، يجب علينا ان نواجه الحقيقة المأساوية بأن الزنوج لم ينالوا حريتهم بعد مائة عام مضت ولا تزال حياة الزنوج مع الأسف مكبلة بأغلال التفرقة وقيود

إلغاء العبودية 4 فبراير 1794م

التمييز. مائة عام مضت ومازال الزنوج يعيشون فوق جزيرة فقيرة وحيدة في خضم محيط شاسع من الرخاء المادي مائة عام مضت ومازال الزنوج مذويين في أركان المجتمع الأمريكي، منفيين في بلادهم. ولذلك فقد جئنا اليوم إلى هذا المكان لنجسد موقفًا مروعًا.

يمكن القول إننا قد جئنا إلى عاصمة امتنا لنصرف شيكًا، فعندما وضع مؤسسو جمهوريتنا الكلمات الرائعة للدستور وإعلان الاستقلال، كانوا بذلك يوقّعون على سند يرثه كل امريكي. هذا السند كان عهدًا بأن يضمن كل الناس حقوقًا حصرية في الحياة، والحرية، والبحث عن السعادة.

غير انه من الجلي اليوم أن أمريكا قد اخلت بالعهد الذي قطعته على نفسها فيما يتعلق بمواطنيها الملونين. فبدلاً من الوفاء بهذا الالتزام المقدس، قدمت أمريكا للزنوج شيكًا بدون رصيد اعاده البنك وعليه عبارة «الرصيد لا يسمح». ولكننا نرفض ان نصدق أن بنك العدالة قد افلس.. نرفض أن نصدق أن الرصيد غير كاف في خزائن الفرص العظيمة التي تزخر بها هذه الأمة. وعلى ذلك فقد جئنا لنصرف هذا الشيك، ذلك الشيك الذي سيمنحنا عند الطلب ثراء الحرية وأمن العدالة. كما اننا قد جئنا اليوم إلى هذه البقعة المقدسة لنذكر امريكا بالضرورة الملحة لهذا الوقت. فاليوم لم يعد هناك وقت للاستمتاع بممارسة رفاهات كالهدوء او تناول العقار الذي يجعلنا نتعامل مع الأمور بالتدريج. فاليوم هو وقت النهوض من وادي الفصل المظلم والموحش إلى درب العدالة فيما بين الأجناس الذي تنيره الشمس بشعاعها. اليوم هو وقت فتح ابواب الفرص لكل ابناء الله، وهو وقت الأخذ بيد امتنا من رمال الظلم العنصري الغوّارة التي تغوص فيها الأرجل إلى صخور الإخوّة الصلبة.

إن غض البصر عن الحاجة الملحة لهذه اللحظة، والاستهانة بتصميم الزنوج سيكون أمرًا فادحًا بالنسبة للأمة. إن هذا الصيف القائظ لسخط الزنوج المشروع لن يمر قبل انبلاج

خريف ندي للحرية والمساواة، وما عام الف وتسعمائة وثلاثة وستون إلا مجرد بداية، واولئك الذين يأملون ان الزنوج كانوا يحتاجون إلى مجرد التنفيس عما بداخلهم سيواجهون صحوة عنيفة إذا عادت الأمة إلى ما كانت عليه في السابق، ولن تتمتع امريكا بالراحة او الهدوء حتى يحصل كل زنجي على حقوق المواطنة.. وإعصار الثورة سيواصل زعزعة اركان امتنا إلى ان ينبلج نهار الحرية.

ولكن ثمة شيئًا يجب ان اقوله لشعبي الذي يقف على العتبات الدافئة التي تؤدي إلى قصر العدل، وهو اننا لا يجب أن نتورط في أعمال خاطئة خلال عملية حصولنا على مكاننا المستحق، ودعونا لا نطفئ عطشنا للحرية بجرعات من كأس الغل والكراهية.

يجب علينا ان نقود كفاحنا دائمًا على المستوى السامي للكرامة والنظام.. لا يجب أن نسمح لمعارضتنا الخلاقة ان تتدنى إلى العنف الجسدي. ومرة أخرى أؤكد على ان علينا السمو إلى مواجهة القوة الجسدية بالقوة الروحية. إن النزعة القتالية الجديدة والرائعة التي غمرت مجتمع الزنوج لا يجب ان تقودنا إلى القضاء على كل البيض، لأن العديد من إخواننا البيض قد ادركوا أن مصيرهم مرتبط بمصيرنا، وأن حريتهم مربوطة بحريتنا بصورة لا مناص منها، والدليل على ذلك هو حضورهم هنا معنا اليوم.. فنحن لا نستطيع السير بمفردنا.

وبالإضافة إلى ذلك، فعلينا، ونحن سائرون، أن نتعهد اننا سنزحف إلى الأمام لأننا لا يمكن ان نتراجع، فهناك اولئك الذين يسألون مناصري ومحبي حقوق الإنسان عن الوقت الذي سيشعرون فيه بالرضى. إننا لا يمكن أن نرضى مادامت اجسادنا، التي اعياها تعب السفر، غير قادرة على ان تنال مكانًا في نزل الطرق السريعة وفنادق المدن. لن نرضى مادامت حركة تنقل الزنوج الأساسية دائرة في فلك الانتقال من حي صغير للزنوج إلى آخر اكبر. لن نرضى أبدًا إذا ما ظل زنجي في مسيسبي محرومًا من حق التصويت، وآخر في نيويورك يعتقد انه لا يوجد ما يصوت من اجله. لا والف لا، ولن نشعر بالرضا حتى تسيل العدالة كالماء المنهمر والحق كالشلال العرموم.

لا يغيب عني ان بعضًا منكم قد حضر هنا اليوم نتيجة لمصائب وشدائد عظيمة، وأن بعضًا منكم قد حضر إلى هنا بعد ان خرج لتوه من زنازن ضيقة بينما حضر البعض الآخر من مناطق حيث تركه بحثه عن الحرية ممزقًا امام عواصف القهر والاضطهاد ومترنحًا بفعل وحشية الشرطة، لقد كنتم ومازلتم المتمرسون في المعاناة الخلاقة، فواصلوا عملكم مؤمنين بأن المعاناة غير المستحقة فيها الخلاص.

عودوا ادراجكم إلى مسيسبي، عودوا إلى الاباما، عودوا إلى جورجيا، عودوا إلى لويزيانا.. عودوا إلى المناطق العشوائية واحياء الزنوج في ولاياتنا الشمالية موقنين ان هذا الوضع يمكن ويجب أن يتغير بصورة او بأخرى، ودعونا لا نتمرغ في وادي اليأس.

اقول لكم اليوم يا اصدقائي إنه على الرغم من المشاكل والإحباطات في وقتنا الحالي، فإن ثمة حلمًا مازال يراودني.. حلم جذوره ضاربة في اعماق الحلم الأمريكي.

أحلم بيوم تنهض فيه هذه الأمة وتعيش المعنى الحقيقي لعقيدتها: «ثمة حقيقة مسلم بها: أن كل الناس قد خلقوا سواسية».

أحلم بأن يأتي يوم على التلال الحمراء بولاية جورجيا يستطيع فيه أبناء العبد السابق وأبناء مقتني العبيد السابقين أن يجلسوا معًا على طاولة الإخوة.

أحلم أن يأتي يوم تتحول فيه ولاية مسيسبي، الولاية الصحراوية التي تلفحها حرارة الظلم والقهر، إلى واحة للحرية والعدل.

أحلم بأن يأتي يوم يعيش فيه أولادي الأربعة في أمة لن يتم الحكم فيها عليهم وفقًا للون بشرتهم ولكن وفقًا لمكنون سريرتهم.

يراودني حلم اليوم

أحلم بأن يأتي يوم تتحول فيه ولاية الاباما، والتي تقطر شفتا حاكمها في الوقت الحاضر بكلمات التدخل والبطلان، إلى موقف يستطيع فيه الصغار من الأولاد والبنات السود أن يضموا أيديهم مع الصغار من الأولاد والبنات البيض وأن يمشوا معًا كإخوة وأخوات.

يراودني حلم اليوم..

أحلم بأن يأتي يوم يرتفع فيه كل واد، وينخفض فيه كل جبل وتل.. يوم تعبَّد فيه كل المناطق الخشنة الوعرة، وتستقيم فيه كل المناطق الملتوية.. يوم تظهر فيه عظمة الله إلى العيان ليراها الناس كافةً.

هذا هو أملنا، وهذا هو الإيمان الذي به سأعود إلى الجنوب.. بهذا الإيمان سنستطيع أن نقتطع حجر أمل من جبل اليأس.. بهذا الإيمان سنستطيع أن نحول أنغام النشاز في أمتنا إلى سيمفونية بديعة للإخوة.. بهذا الإيمان سنستطيع أن نعمل معًا، أن نصلي معًا، أن نكافح معًا، أن نذهب إلى السجن معًا أن ننهض للحرية معًا موقنين أننا سنصبح أحرارًا في يوم من الأيام.

ذلك اليوم سيكون اليوم الذي يستطيع فيه كل أبناء الله أن يغنوا بمعنى جديد «بلدي.. أرض الحرية الجميلة.. عنك أغني. الأرض التي فيها مات آبائي، الأرض التي بها يفخر الحجاج، ليدوي صوت الحرية.. من كل جوانب الجبل».

وإذا أرادت أمريكا أن تصبح أمة عظيمة فلابد أن يتحقق ذلك. ليدوي صوت الحرية من فوق قمم تلال نيوهامبشير العظيمة. ليدوي صوت الحرية من جبال نيويورك العظيمة..

ليدوي صوت الحرية من قمم جبال الروكي الثلجية بكولورادو!

ليدوي صوت الحرية من قمم جبال كاليفورنيا المنحدرة!

وليس هذا فحسب، ليدوي صوت الحرية من جبل ستون في جورجيا!

ليدوي صوت الحرية من جبل لوك أوت في ولاية تينيسي!

ليدوي صوت الحرية من كل تل وكل حجر في المسيسبي.. من كل جانب من جوانب الجبل، ليدوي صوت الحرية.

عندما نجعل صوت الحرية يدوي، عندما نجعله يدوي من كل قرية وكل كفر، من كل ولاية وكل مدينة سنكون قادرين على الإسراع بقدوم اليوم الذي يستطيع فيه كل أبناء الله من يهود وبروتستانت وكاثوليك وغيرهم أن يضموا أياديهم ليغنوا كلمات أغنية الزنوج الدينية الشعبية القديمة: «أحرار في النهاية! نشكر الله العظيم! نحن أحرار في النهاية!».

2

الجالس في الظلمات

مارك توين

ت: إيهاب عبدالحميد

سوف يشرق فجر الكريسماس في أمريكا على أناس تملؤهم الآمال والأحلام والتفاؤل، وهذا يعني السعادة والفرحة، أما المتشائم المتذمر الذي قد يدور هنا وهناك فلن يجد من يستمع إليه. فغالبية الناس سيتساءلون في دهشة: ماذا به؟ ثم سيتركونه ويكملون طريقهم.

(نيويورك تريبيون، عشية عيد الميلاد)

الغرض من هذا المقال ليس وصف الانتهاكات الوحشية التي ترتكب باسم السياسة في أسوأ مناطق الشرق الأقصى سمعة، حيث تعجز اللغة عن وصف تلك الانتهاكات، ولكن الغرض الرئيسي هو أن يعلم الغالبية العظمى من مواطني عاصمة العالم الجديد اللامبالين - بشكل أو بآخر - شيئًا ما عن الخراب والدمار الذي حل على الرجال والنساء والأطفال في أكثر مناطق العالم في الكثافة السكانية وأقلها في الشهرة. يمكن للمتشككين - أو الذين يغضبهم الخبر - أن يحصلوا على الاسم والتاريخ والمكان، المقال ما هو إلا بيان صريح عن الوقائع والملاحظات كتب دون ترخيص وبغير تشذيب.

تخيل - إن استطعت - أن ثمة قسمًا في المدينة يسيطر عليه رجل واحد وحسب، رجل لا تجري الأعمال - سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة - بغير إذن منه. قسم من المدينة تبارك فيه الأعمال غير المشروعة وتثبط فيه الأعمال المشروعة، وفيه يضطر السكان المحترمون أن يوصدوا أبوابهم ونوافذهم في ليالي الصيف وأن يجلسوا في حجراتهم في هواء خانق ودرجة حرارة تصل إلى مائة درجة بدلاً من أن يخرجوا ليستنشقوا نسمة هواء خفيفة لطيفة في حدائق منازلهم التي خلقت لكي يشموا فيها الهواء، وفيه ترقص النساء عرايا في الشوارع ليلاً وفيه يتسلل الرجال المخنثون مثل الأفاعي في الليل كي يمارسوا «أعمالهم» التي لا تسمح

بها الشرطة فحسب، بل وتشجعهم عليها، وفيه يكون التعليم الأساسي للأطفال هو تعليم الدعارة وتدريب الفتيات الصغيرات على فنون «فرين»[1]، وفيه يتم استيراد الفتيات الأمريكيات اللاتي نشأن وتربين في بيوت أمريكية مرفهة في المدن الصغيرة في الولايات العليا مثل ماساتشوسيتس، وكونيكتيكت، ونيوجيرسي، ثم يتركن حبيسات تماماً كما لو كن خلف قضبان السجون حتى يفقدن كل معاني الأنوثة، وفيه يتعلم الصبيان كيف يفرضون الإتاوات على النساء في بيوت الدعارة، وفيه تجد مجموعات كاملة من الشباب عملهما الوحيد في الحياة هو إفساد الفتيات الصغيرات وتحويلهن إلى بيوت المتعة، وفيه يتعرض الرجال الذين يسيرون مع زوجاتهم في الشارع إلى الإهانات العلنية، وفيه تعتمد المستشفيات والمصحات على الأطفال الذين يعانون من أمراض البالغين كزبائن رئيسيين، وفيه تكون القاعدة – وليس الاستثناء – أن تمر جرائم القتل والاغتصاب والسطو المسلح والسرقة دون عقوبة. باختصار: فيه يعتمد مكسب السياسيين على العرض الخاص الذي تقدمه لهم أبشع أنواع الرذيلة.

وردت الأنباء الآتية من الصين في جريدة The Sun التي تصدر في نيويورك في عشية عيد الميلاد والبنط الغليظ من عندي.

عاد السيد المحترم أمينت من الإدارة الأمريكية للمهمات الخارجية من زيارته التي قام بها لجمع التعويضات عن الخسائر التي سببها «الملاكمون»[2]. **وأينما كان يذهب كان يأمر الصـــينيين بالدفع** يقول إن شغله الشاغل الآن هو توفير كل أنواع الرعاية لمواطنيه من المسيحيين، حيث مازال تحت رعايته سبعمائة بعد أن قتل ثلاثمائة، وقد **جمع ثلاثمائة تايل مقابل كل قتيل**، وأجبر الصينيين على تعويض المسيحيين **عن كل ما دمر من ممتلكاتهم**

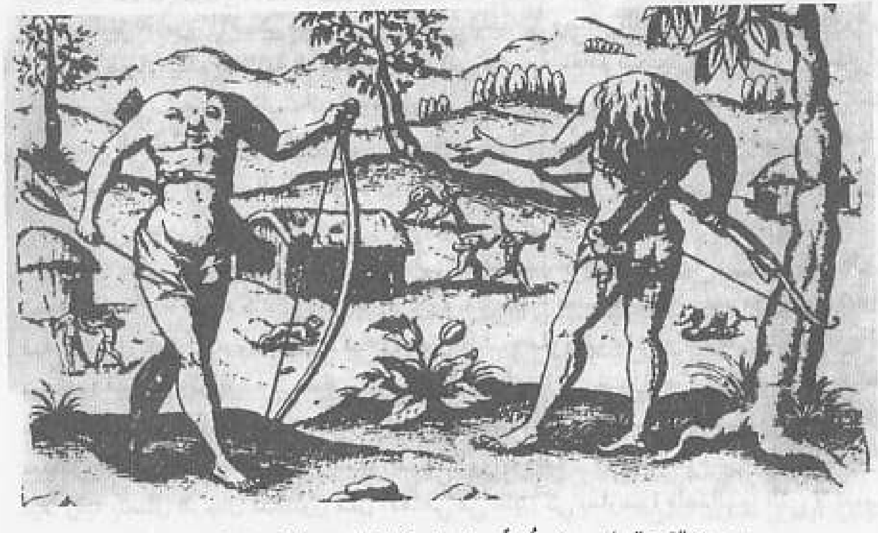

رسم من القرن السادس عشر يُصوّر سكان أمريكا الأصليين مخلوقات غريبة

تعويضاً كاملاً، كما فرض غرامات تصل إلى ثلاثة عشر ضعف الثمن الأصلي للخسائر، وسوف تنفق هذه النقود على نشر كلمة الله.

يوضح السيد أمينت أن التعويضات التي جمعها متواضعة مقارنة بالخسائر التي لحقت بالكاثوليك الذين طالبوا – بالإضافة إلى النقود – برأس مقابل كل رأس، ولما كانوا يفرضون خمسمائة تايل مقابل كل قتيل من الكاثوليك في ريف وينشيو، ولما كان عدد القتلى من الكاثوليك ستمائة وثمانين قتيلاً، إذن فإن الكاثوليك الأوروبيين يطالبون هاهنا بسبعمائة وخمسين ألف تايل نقداً لا ينقصون تايلاً واحداً.

في أثناء حديثه أشار السيد أمينت إلى تعامل المبشرين مع الصينيين قائلاً.

«أنكر تماماً ما يقال عن أن أعضاء الإرساليات **متشددون للغاية** وغير متسامحين البتة، أو **أنهم جميعاً** يمارسون السلب والنهب، أو أنهم قد ارتكبوا أي خطأ منذ الحصار **مما لم تضطرهم إليه الظروف**، بل على العكس فأنا أنتقد الأمريكيين، إن يد الأمريكيين الرقيقة لا تناسبها مثل يد الألمان الحديدية. لا يجب أن تعامل الصينيين برفق وإلا استغلوا ذلك».

أما الأمر المثير للضحك هنا فهو الإعلان الذي أعلنته الحكومة الفرنسية الذي مفاده أن الحكومة الفرنسية سوف تعيد كل الغنائم التي استلبها الجنود الفرنسيون، فالفرنسيون سلابون أكثر مهارة وتنظيماً من الألمان، والحقيقة أنه في هذه اللحظة يمارس المسيحيون – الذين يحملون أعلاماً فرنسية وبنادق حديثة – السلب والنهب في قرى مقاطعة شيلي.

ومن حسن الحظ أن لدينا كل هذه البشائر في عشية عيد الميلاد – مما يسمح لنا بأن نحتفل بعيدنا وكلنا أمل وتفاؤل وإشراق، وبأن تحلق أرواحنا فرحة، بل ولدينا مصدر للمزاح: معي «التيول»[3] ... أفوز، معك الرؤوس... تخسر.

ورجلنا الموقر أمينت هو الرجل المناسب في المكان المناسب، وما نريده من مبشرينا البعيدين ليس هو أن يجسدوا سماحة ديننا ورقته ومحبته وطيبته من خلال تصرفاتهم ولكن أن يجسدوا الروح الأمريكية، والبوني[4] هم أقدم الأمريكيين، ويقول عنهم مالكولم في تاريخه:

«عندما يقتل أحد «الملاكمين» البيض أحد البوني ويخرب ممتلكاته لا يكلف البوني الآخرون أنفسهم بالبحث عن القاتل، وإنما يقتلون أي رجل أبيض يقابلونه،، كما يجبرون بعض القرى التي يسكنها البيض على دفع دية المتوفى نقداً لورثته، وأيضاً تعويضاً كاملاً عن ممتلكاته التي خربت، وبالإضافة إلى ذلك يجبرون القرية أن تدفع ثلاثة عشر ضعف قيمة الممتلكات التي خربت لصندوق مخصص لنشر دين البوني، الذين كانوا يعتقدونه أفضل الأديان حيث يرقق قلب المؤمن به ويجعله إنسانياً. إنهم يعتقدون أنه من الصواب والحق أن يعاني البريء وأن يفلت المذنب من العقاب».

ورجلنا الموقر أمينت له كل الحق أن يشعر بالحسد تجاه هؤلاء الكاثوليك المغامرين الذين لم يحصلوا على مبالغ ضخمة وحسب مقابل كل قتيل من المتحولين إلى الكاثوليكية، وإنما

حققوا انتقامهم أيضًا في صورة «رأس مقابل رأس»، ولكنه يجب ألا ييتئس، يجب أن يفكر في أنهم سيضعون هذه النقود جميعها في جيوبهم بينما لا يتصف هو بهذه الأنانية حيث خصص ثلاثمائة تايل فقط لهذه الخدمة التي تسعى إلى الدعاية لكلمة الله، وكرمه الحاتمي هذا هو الذي أوقف الأمة بأكملها خلفه والذي سيجعلنا نقيم له نصبًا تذكاريًا. ليسعد إذن بهذه المكافآت، فنحن جميعًا نعتز به أيما اعتزاز حيث وقف وقفة رجولية مدافعًا عن مواطنيه من المبعوثين في الإرساليات وموفرًا علينا النفقات المبالغ فيها والتي بدأت تزعجنا حتى أنجدتنا تصريحاته وأزالت العبء من على كواهلنا، فنحن الآن نعرف أنه من قبل الحصار والمبشرون لم يقوموا جميعهم بالسلب والنهب، وأنه منذ الحصار كانوا يتصرفون بظرف ولطف، إلا عندما كانت الظروف تضطرهم لغير ذلك، لذا فأنا الآن أعد للنصب التذكاري، وترسل الاشتراكات إلى المجلس الأمريكي بينما ترسل التصميمات على عنواني، ويجب أن تتضمن التصميمات إيحاءً بموضوع الـ «ثلاثة عشر ضعفًا» من الخسائر والهدف الذي فرضت من أجله، وحيث إنه نصب يقام بفرض الزينة فيجب أن تعرض التصميمات ستمائة وثمانين رأسًا مما يكسبها أبعادًا جمالية ومبهجة، ويمكن اقتراح شعارات لتفرش بها أرضية النصب.

ذلك العمل الذي يقوم به السيد أمينت حين يعتصر الفلاحين المساكين المعدمين لينتزع منهم ثلاثة عشر ضعفًا من ثمن الممتلكات معرضًا بذلك نساءهم وأطفالهم الأبرياء للموت البطيء جوعًا كي ينتفع بهذه النقود التي تلوثها الدماء في «الدعاية لكلمة الله» أمر لا يخرجني عن رشدي، رغم أن الكلمات والأفعال حين تتجمع تجسد تجديفًا عنيفًا وعفنًا قبيحًا لم يشهد مثله تاريخ هذا العصر أو أي عصر آخر دون شك. إن فعل شخص عادي هذا وبرره بمثل هذه الكلمات لكنت ارتجفت، وحتى أنا – رغم أن بعض الذين لا يعرفونني يظنون أنني غير محترم – لا أصدق أن أفعل هذا أو أقوله، أحيانًا يصبح الراهب نفسه مجدفًا، حينئذ يحيد الرجل العادي عن الطريق دون أمل أمامه.

وأمامنا تأكيد السيد أمينت القوي أن المبشرين لا يتصفوا «بعدم التسامح»، لنأمل إذن ونصلي ألا يكتسبوا هذه الصفة أبدًا وأن يظلوا أبدًا على عدلهم ولطفهم وظرفهم الذي يسعد أخيهم وبطل عصرهم أيما سعادة.

والفقرة التالية من جريدة «نيويورك تريبيون» عدد الكريسماس، نقلاً عن مراسلهم في طوكيو، وهي مكتوبة بنبرة غريبة وغير لائقة، ولكن يجب أن نغفر ذلك حيث إن اليابانيين ليسوا متحضرين بما يكفي مثلنا، وعندما يصبحون متحضرين بما يكفي مثلنا وعندما يصبحوا متحضرين بما فيه الكفاية فلن يتحدثوا بهذه الطريقة.

«لا جدال أن قضية الإرساليات تحتل المكانة العليا في جدول المناقشات، فقد أصبح الشعور العام أن على القوى الغربية أن تحترم مشاعر المواطنين هنا، وأن الغزو الديني للبلدان الشرقية من قبل المنظمات الغربية القوية ليس سوى حملات استعمارية بطيئة يجب أن نقمعها بكل صرامة وليس أن نتوقف عن تأييدها

فحسب. الشعور العام هنا هو أن الإرساليات تشكل تهديدًا دائمًا للعلاقات السلمية الدولية».

أيجب علينا؟ أيجب علينا أن نفرض حضارتنا على الشعوب الجالسين في الظلمات، أم يجب علينا أن نريح هؤلاء المساكين من وجوهنا؟ أيجب علينا أن نستمر في طريقنا القديم المزعج التقي، أم علينا أن نجلس ونفكر في الأمر أولاً؟ أليس من الحكمة أن نحشد أدوات حضارتنا معًا ونرى كم منها مازال في أيدينا ونحن في طريقنا من السبحات الزجاجية إلى الدين، ومن لغة السلاح إلى كتب التراتيل، ومن تجارة الجين إلى مشاعل التقدم والتنوير (المعدلة بحيث تصلح لإشعال القرى إذا اضطرتنا الظروف)، وأن نراجع دفاتر حساباتنا لنقرر بحكمة إذا كنا نستمر في هذه التجارة أم نبيع الأصول ونستغل الثمن الذي نحصل عليه في مشروع جديد؟

ومشروع نشر «نعمة الحضارة» على أخينا الذي يجلس في الظلمات كان مشروعًا مربحًا على إجماله، ومازال قادرًا على أن يؤتي ثماره إذا ما استغل على أمثل وجه – ومع ذلك فهو لا يستحق المخاطرة في تقديري، فالناس الجالسون في الظلام أصبحوا قلة هذه الأيام وخجولين للغاية، والظلام الذي بقي الآن ليس ظلامًا بحق بل ظلامًا باهتًا لا يصلح لممارسة اللعبة، فمعظم الذين كانوا يجلسون في الظلام قد استمدوا نورًا أكثر مما يلزمهم وأكثر مما يفيدنا، لقد جانبتنا الحكمة.

إن زرع «الوعد بنعمة الحضارة» أمر رائع إذا تعاملت معه بحكمة وحرص، فبإمكانك أن تستفيد من ذلك نقودًا أكثر وأرضًا أكثر وسيادةً أكثر ومكافآت عديدة أخرى، ولكن المسيحية لم تعرف أصول اللعبة على مدى الأعوام الأخيرة ويجب أن تعاني من ذلك في رأيي، فقد كانت تسعى جاهدة إلى أن تفوز بكل رهان يوضع على المائدة، حتى أن الناس الجالسين في

الظلمات قد لاحظوا ذلك، وبدؤا يأخذون حذرهم، وانتابتهم الشكوك حول فكرة «نعمة الحضارة» وبدؤا في مساءلتها وهذا ليس مؤشرًا طيبًا، فلا شيء يعيب «نعمة الحضارة»، وهي فكرة تجارية مريحة، ولا يمكن أن تكون أفضل في ظل هذا الضوء الخافت. أما عندما يسود النوع المناسب من الضوء والمسافة المناسبة مع عدم التركيز على البضائع فإنها تقدم هذا العرض الشيق للسادة الجالسين في الظلمات:

الحب	**سيادة القانون والنظام**
العدالة	**الحرية**
الرقة	**المساواة**
المسيحية	**الاحترم المتبادل**
حماية الضعيف	**الرحمة**
الاعتدال	**التعليم**

...إلى آخره

والآن. أليست تلك أمور طيبة؟ سيدي.. إنها رائعة، لدرجة أنها ستجتذب أي عبيط من الجالسين في الظلام في أي مكان إلى أسواقنا، ولا يعيبنا أن نغش نحن في تلك السلعة، هذه نقطة مهمة، فهذا المنتج للتصدير وحسب، أما بيننا وبين أنفسنا فهذا أمر آخر، بيننا وبين أنفسنا ليس ذلك سوى طبقة خارجية ظريفة ولطيفة وجميلة وجذابة «على وجه القفص» تقدم الأنماط الخاصة لحضارتنا والتي نحتفظ بها للاستخدام الشخصي، أما «داخل القفص» فهناك البضاعة الحقيقية التي يشتريها الزبون الجالس في الظلمات ويدفع فيها دمه ودموعه وأرضه وحريته، وهذه البضاعة الحقيقية هي في الواقع الحضارة، ولكنه منتج التصدير فقط. هل هناك فرق بين هذين النوعين من المنتجات؟ في بعض التفاصيل نعم.

نعرف جميعًا أن هذه التجارة في طريقها إلى الكساد، وليس من الصعب أن ندرك السبب. السبب هو السادة ماكينلي(5)، وشامبرلين(6)، وإمبراطور ألمانيا، وقيصر روسيا، والفرنسيون، جميعهم أخذوا يصدرون البضاعة الحقيقية دون الغطاء الخارجي، وهذا ضار باللعبة، ويوضح أن هؤلاء اللاعبين الجدد لا يعرفون قواعد اللعبة بما يكفي.

ومن المؤسف أن ننظر إلى الخطوات الخاطئة الغربية للغاية والخرقاء للغاية، فقد اصطنع السيد شامبرلين حربًا من أسباب غير كافية وخيالية - الأمر الذي يضحك ويبكي في آن، وبذل قصارى جهده ليقنع نفسه أن تلك الحرب ليست غارة شخصية من أجل الغنائم فحسب ولكن - إذا بحث في الأمر جيدًا - فسيجد فيها هدفًا محترمًا إلى حد ما، ومن ثم فبإمكانه - بعد أن كان قد لوث العلم في الطين - أن ينظفه ثانية ويجعله مشرقًا ومنيرًا في عنان السماء مرة أخرى كما كان مشرقًا ومنيرًا وحائزًا على احترام العالم أجمع طيلة ألف عام قبل أن يلوثه بيديه. إنها لعبة سيئة - سيئة، حيث إنها تعرض البضاعة الحقيقية لهؤلاء الجالسين في الظلام، فيقولون: «ماذا! مسيحي ضد مسيحي؟ ومن أجل المال فحسب؟ هل هذه هي حالة

الشهامة والرفق والحب والرقة، والرحمة، وحماية الضعيف. هذا الهجوم الضاري من فيل ضخم على عش من فئران الحقل بحجة أن الفئران قد «سرسعوا»(7) إليه بغطرسة. تلك السلوك الذي «لا يمكن أن تغفره أي حكومة محترمة»، كما قال السيد شامبرلين، ولما لم تكن تلك حجة جيدة في قضية كبيرة، هل تصبح حجة جيدة في قضية صغيرة؟ فقد أساءت روسيا للفيل مؤخرًا ثلاث مرات وظلت على قيد الحياة ولم يصبها أذى، هل تلك هي الحضارة والتقدم؟ أم أن الحضارة شيء أفضل مما نمتلكه الآن؟ ثم هذه الغزوات وأعمال التخريب والحرائق في ترانسفال(8) - أهي الضوء الذي يفتت الظلام؟ أمن الممكن أن يكون ثمة نوعان من الحضارة أحدهما للاستهلاك المحلي والآخر للأسواق الخارجية؟

الأخ والأخت، ماكس بيكمان 1933

لو كان الأمر كذلك فهؤلاء الجالسون في الظلمات ينزعجون ويهزون رؤوسهم وهم يقرأون هذه الفقرة من الخطاب الذي كتبه أحد الجنود البريطانيين يحكي فيه عن بطولاته في إحدى انتصارات ميثيون(9) قبل أيام من قضية ماجرسفونتاين التي عادت بهم إلى المشكلات ثانية:

اندفعنا إلى التل واخترقنا تحصيناتهم، وأدرك البوير(10) أننا قد نلنا منهم فأسقطوا أسلحتهم وركعوا على ركبهم وشبكوا أيديهم واستجدوا الرحمة، وقد منحناها إياهم بـ«الملاعق الطويلة».

والملاعق الطويلة هي الحراب (انظر Lloyd's Weekly، لندن، تلك الأيام)، وفي نفس العدد وفي نفس العمود تقرأ سخريات عنيفة وغير واعية في صورة هجوم قاسٍ على البوير لأنهم متوحشون ويفتقدون إلى الإنسانية!

وبعد الخسائر الفادحة التي تكبدناها دخل القيصر اللعبة دون أن يتقنها أولاً ففقد اثنين من المبشرين في أحداث شغب في شانتونج، ولفائدته الخاصة فرض عليهم غرامات باهظة، فكان على الصين أن تدفع مائة ألف دولار عوضًا عن كل من المبشرين نقدًا، واثني عشر ميلاً من الأراضي التي يسكنها ملايين السكان والتي تقدر قيمتها بعشرين مليون دولار، كما كان عليها أن تبني نصبًا تذكاريًا وكنيسة مسيحية، رغم أن الصينيين كان من الممكن الاعتماد

عليهم في أن يتذكروا المبشرين دون الحاجة إلى النصب التذكارية الغالية، وكانت تلك كلها لعبة سيئة، سيئة لأنها لم تكن لتخدع – ولم ولن تخدع – الشخص الجالس في الظلمات، فهو يعرف أن ذلك كان ثمنًا باهظًا، ويعرف أن المبشر مثله مثل أي رجل آخر لا يساوي سوى ما يسد مكانه وليس أكثر من ذلك. هو مفيد حقًا ولكن الطبيب كذلك مفيد، والعمدة، ومحرر الجريدة، ولا يمكن أن يفرض إمبراطور عادل مثل هذه الغرامات التي تساوي نفقات حرب كاملة لمثل هذا الأمر. المبشر المجتهد الذكي وإن كان مغمورًا – مثله مثل المحرر المجتهد الذكي – يساوي الكثير وجميعنا نعرف ذلك ولكنه لا يساوي الدنيا وما عليها، نحن نقدر هذا المحرر، ونأسف أن يموت ولكن عندما يموت سوف نعتبر أن اثني عشر ميلاً من الأراضي وكنيسة وثروة تعويضًا مبالغًا فيه عن فقده، أقصد لو كان محررًا صينيًا وكان علينا أن ندفع ديته. إنه رقم غير مناسب لمحرر أو لمبشر، بل إن المرء منا يستطيع أن يشتري «ملكًا» مستعملاً بسعر أرخص، لقد كانت لعبة سيئة من جانب القيصر، صحيح أنها عادت عليه بثروة ولكنها أسفرت عن «حركة التمرد الصينية»: ظهور الأبطال الصينيين الساخطين على الظلم «الملاكمين»، وقد كانت العواقب على ألمانيا وخيمة، وعلى الآخرين من دعاة التقدم ونعمة الحضارة.

نفذت أوامر القيصر ودفعت الغرامات، ومع ذلك فقد كانت لعبة سيئة وكان لها أسوأ الأثر على الأشخاص الجالسين في الظلمات في الصين، سخروا من الحدث وكانوا يقولون: «إن الحضارة لطيفة وجميلة ولكن هل نستطيع أن نتحمل نفقاتها؟ ربما يستطيع أغنياء الصين أن يتحملوها، ولكن هذه الضريبة غير مفروضة عليهم، إنها مفروضة على فلاحين شانتونج، وهؤلاء الفلاحين هم الذين ينبغي أن يدفعوا تلك المبالغ، بينما لا تتعدى أجورهم أربعة سنتات في اليوم، فهل تلك حضارة أفضل من حضارتنا؟ وأكثر قداسة وأسمى وأنبل؟ أليست هذه سرقة، أليس هذا ابتزازًا؟ وهل كانت ألمانيا لتفرض على أمريكا مائتي ألف دولار دية لمبشرين اثنين وتهز قبضتها في وجهها مهددة، وترسل سفنها الحربية إلى هناك، وترسل الجنود وتقول «صادروا اثني عشر ميلاً من الأراضي بقيمة عشرين مليون دولار، ونقودًا إضافية دية للمبشرين، واجعلوا الفلاحين يبنون نصبًا تذكاريًا للمبشرين، وكنيسة مسيحية مكلفة ليتذكروا بهما المبشرين»؟ ثم بعد ذلك هل تقول ألمانيا لجنودها: «اسعوا في أمريكا واذبحوا دون رحمة واجعلوا صورة الألمان هناك تترية مرعبة كما كانت هنا لألف عام، واسعوا في الجمهورية العظمى واذبحوا واذبحوا واذبحوا كي تحفروا في قلبها وأحشائها طريقًا لديننا الذي أهانوه»؟ هل كانت ألمانيا لتفعل مثل ذلك في أمريكا أو إنجلترا أو فرنسا أو روسيا؟ أم فقط في الصين المسكينة مقلدين هجوم الفيل الضخم على فئران الحقل؟ أم كان من الأفضل لنا أن نستثمر في هذه الحضارة هذه الحضارة التي أسمت نابليون قرصانًا لأنه استولى على خيول فينسيا البرونزية والتي في نفس الوقت تسرق أجهزتنا الفلكية القديمة من على حوائطنا وتستخدمها كي تسافر لتمارس السلب والنهب مثل أي قاطع طريق – عدا جنود أمريكا بالطبع (أمريكا

استثناء مرة أخرى) – وتقتحم القرى المذعورة وتنقل الأنباء أولاً بأول إلى الصحفيين السعداء في الوطن: «الخسائر الصينية 450 قتلى، وخسائرنا ضابط ورجلان جرحى، وسوف نستكمل هجومنا على القرى المجاورة غدًا حيث جاءت الأنباء عن وقوع مذبحة» هل نستطيع أن نتحمل ثمن الحضارة؟

وبعد ذلك يجب أن تذهب روسيا وتلعب اللعبة برعونة وتتحدى إنجلترا مرة أو مرتين – وهو الأمر الذي يراقبه ويلاحظه الشخص الجالس في الظلمات – وبالدعم المعنوي من فرنسا وألمانيا تستولي على «بورت آرثر» – الغنيمة التي نالتها اليابان بصعوبة – وكل ذلك يسبح في دماء صينية، و«الشخص» ما يزال جالسًا يراقب ويلاحظ، ثم تستولي على منشوريا وتغير على قراها، وتسد نهرها العظيم بالجثث المنتفخة لأعداد لا نهائية من الفلاحين المذبوحين ، وقد أدهش هذا «الشخص» ولكنه استمر يراقب ويلاحظ، وربما يقول لنفسه الآن: «إنها إذن قوة متحضرة أخرى، ترفع راية أمير السلام في يد وفي اليد الأخرى سلة تجمع فيها الغنائم وسكين جزار، أليس أمامنا من وسيلة أخرى للخلاص سوى أن نتبنى الحضارة وننحدر إلى مستواها؟»

وواحدة واحدة وصلت أمريكا، ولعب أفضل اللاعبين بشكل سيء مثلما كان السيد شامبرلين يلعب في جنوب أفريقيا، كان خطئًا كبيرًا أن يفعل هذا، كان خطئًا لا يجب أن يرتكبه «المعلم» الذي كان يلعب في كوبا ببراعة، ففي كوبا كان يلعب اللعبة الأمريكية المعروفة والمعتادة، وكانت الخطة تجعله يفوز في النهاية حيث لم تكن هناك وسيلة لهزيمتها، وقال «المعلم» وهو يفكر في أيام كوبا: «لدينا هنا أمة صغيرة مضطهدة وبغير أصدقاء وعلى استعداد كامل أن تحارب من أجل حريتها، سوف ندخل شركاء ونضع قوة سبعين مليون متعاطف بالإضافة إلى جميع موارد الولايات المتحدة، وسنلعب!» ولم يكن باستطاعة أحد سوى أوروبا مجتمعة أن تقف في وجه هذا اللاعب، ولم يكن من الممكن أن تجتمع أوروبا على أي شيء، فكان هناك – في كوبا – يتبع تقاليدنا العظيمة بطريقة جعلتنا نفخر به للغاية، ونفخر بالسخط العميق الذي كانت طريقة لعبه تثيره في القارة الأوروبية، ثم أخذته الحماسة فألقى بهذه الكلمات المحرضة والتي تنكر أن إلحاق كوبا بالولايات المتحدة بالقوة «عملاً عدوانيًا إجراميًا» ثم ألحق بهذه الكلمات تصريحًا آخر «الطلقات تدوي في جميع أنحاء العالم»، ولسوف تبقى ذكرى هذه المقولة الجميلة خالدة ولن يضاهيها من أعماله سوى عمل واحد؛ أنه نسيها في خلال اثني عشر شهرًا، ومعها نسي كلمة الله المعظمة.

لقد ظهر الآن إغواء الفلبين، وكان قويًا، قويًا بدرجة لا يمكن مقاومتها، ووقع في ذلك الخطأ السيء حيث لعب على الطريقة الأوروبية: لعبة شامبرلين، وكان هذا الخطأ مدعاة للشفقة، مدعاة للشفقة بحق، هذا الخطأ الوحيد والقاتل، هذا الخطأ الذي لا يمكن تصحيحه، فقد كان المكان والزمان مناسبين تمامًا للعب على الطريقة الأمريكية ثانية ودون أن يكلفنا ذلك شيئًا، وكان بإمكاننا أن نحصل على مكاسب هائلة أيضًا، هائلة ودائمة وخالدة، ثروة نورثها

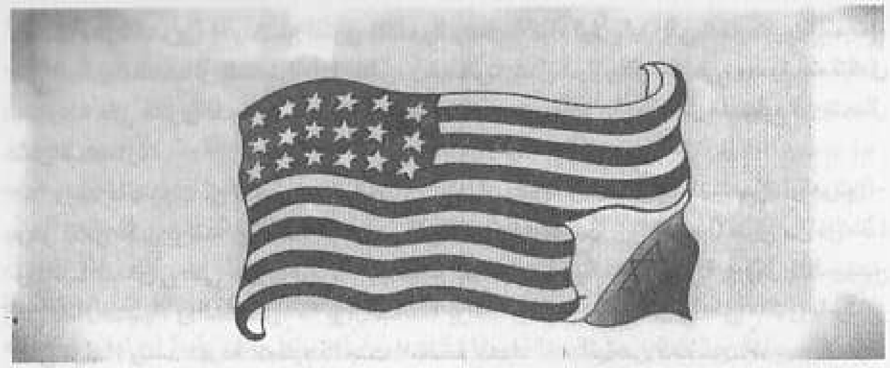

لأولاد العلم الأمريكي إلى الأبد، ليست نقوداً ولا سلطاناً ولكن شيئاً قيمته أكثر مئات المرات من هذه التفاهات: تصيبنا، أن نرى مشهداً لأمة من المستعبدين المنهكين المضطهدين تحصل على حريتها بفضلنا، إنه نصيب من الفخر، الذكرى الذهبية للعمل الصالح، لقد كانت اللعبة في أيدينا، ولو كنا لعبناها على الطريقة الأمريكية لكان على ديوي أن يبحر عائداً من مانيلا بمجرد أن دمر الأسطول الأسباني، بعد أن يضع علامة على الساحل تضمن حماية الممتلكات والأرواح الأجنبية من الفلبينيين، وتحذر «القوى» من أن أي تعرض للأبطال الفلبينيين سوف يعد عملاً عدائياً ضد الولايات المتحدة، فالقوى لا يمكن أن تتجمع حتى على غرض سيء، ومن ثم لم يكن أحد ليخالف هذه العلامة.

كان يمكن أن يبحث ديوي عن مصالحه في مكان آخر، وأن يترك الجيش الفلبيني الكفء ليحاصر الحامية الأسبانية القليلة حتى ينهكها الجوع ثم تطرد إلى بلادها وأن يترك للمواطنين الفلبينيين أن يختاروا نظام الحكم الذي يفضلونه، وأن يتعاملوا مع «الإخوة» وما استولوا عليه من ممتلكات وفقاً للأفكار الفلبينية عن النزاهة والعدالة أفكارهم التي دخلت في اختبارات عدة وثبت أنها نظم لا تقل سمواً عن تلك السائدة في أوروبا أو أمريكا.

ولكننا لعبنا على طريقة شامبرلين، وأضعنا فرصة أن نضيف كوبا جديدة وفعلاً محترماً آخر إلى سجل أفعالنا الطيبة.

وكلما فحصنا الخطة أكثر وجدناه سيضر بتجارتنا أكبر الضرر، وقد وصل الشخص الجالس في الظلمات إلى شبه يقين أنه: «ثمة شيء غريب في الأمر، غريب وغير مفهوم، لابد وأن هناك أمريكتين، إحداهما تحرر الأسير، والأخرى تسلب حرية الخارج من الأسر لتوه، وتفتعل معه معركة دون أي أساس، ثم تقتله لتأخذ أرضه».

والواقع أن الشخص الجالس في الظلمات يقول مثل هذه الأشياء، وعلينا من أجل التجارة أن نقنعه أن ينظر إلى قضية الفلبين بشكل أكثر ملاءمة، يجب أن نرتب له آراءه، وأعتقد أننا قادرون على ذلك، فقد رتب السيد شامبرلين رأي إنجلترا في قضية جنوب أفريقيا، وفعل ذلك

ببراعة ونجاح، فقد قدم الحقائق - بعض الحقائق - وشرح لهؤلاء الناس الذين يثقون فيه معنى تلك الحقائق، فعل ذلك عن طريق الإحصائيات، وهي طريقة جيدة، فكان يقول «إذا ضربنا 2 في 2 يكون الناتج 14، وإذا طرحنا 2 من 9 يتبقى لدينا 35»، إن الأرقام مؤثرة، بإمكان الأرقام أن تقنع حتى النخبة.

والآن فإن خطتي أكثر جرأة من خطة السيد شامبرلين، وإن كانت نسخة منها، دعنا نتكلم بصراحة أكثر من صراحة السيد تشامبرلين، ونقدم الحقائق كلها بوقاحة دون أن نخفي شيئاً، ثم نشرحها بعد ذلك على طريقة السيد تشامبرلين، وهذه الصراحة الوقحة سوف تدهش الشخص الجالس في الظلمات وتربكه، ومن ثم سوف يقتنع بالتفسيرات دون أن يجد عقله الوقت الكافي للتفكير، دعنا نقول له:

« القضية واضحة: ففي أول مايو استطاع ديوي أن يدمر الأسطول الأسباني، ومن ثم عاد الأرخبيل إلى أيدي أصحابه الأصليين، شعب الفلبين، وقد وصل تعداد جيشهم إلى 30000 رجل، وكانت لديهم الكفاءة أن يمحوا الحامية الأسبانية الصغيرة أو أن يحاصروها حتى تتضور جوعاً وتخرج من البلاد، وبعدها كان يمكن للشعب أن يختار نظام الحكم كما يحلو له، وكانت تقاليدنا تتطلب أن يضع ديوي علامة التحذير ثم ينصرف، ولكن سيد اللعبة ترائى له أن يفكر في خطة أخرى، الخطة الأوروبية، وبدأ يتصرف على أساسها، وكانت تتطلب أن يرسل جيشاً، في الظاهر ليساعد الأبطال الوطنيين في أن يضعوا اللمسة الأخيرة لكفاحهم الطويل والشجاع من أجل الاستقلال، ولكنه في الحقيقة يسعى إلى أن يستلب أرضهم ويحتفظ بها لنفسه، وكل ذلك من أجل التقدم والحضارة، ثم تطورت الخطة مرحلة بعد مرحلة وبشكل مرض، فدخلنا في حلف عسكري مع الفلبينيين الذين لا يشكون في نياتنا، وحوطوا مانيلا أرضاً وبمساعدتهم العظيمة تم الاستيلاء على الموقع بما عليه من الحامية التي بلغ

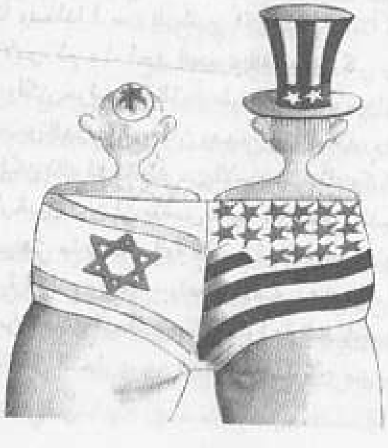

عددها ثمانية أو عشرة آلاف أسباني، الأمر الذي لم نكن لنحققه دون مساعدة في ذلك الوقت، ببراعة حصلنا على مساعدتهم، وكنا نعرف أنهم يحاربون من أجل استقلالهم، وأنهم يكافحون منذ عامين، وكنا نعرف أنهم يعتقدون أننا أيضاً نحارب من أجل ذات الهدف السامي، تماماً كما حاربنا من أجل استقلال كوبا - وتركناهم يفكرون بهذه الطريقة حتى وقعت مانيلا في أيدينا وأصبح بإمكاننا أن نستمر دون مساعدتهم، وعليه فقد أظهرنا لهم وجهنا الحقيقي، بالطبع اندهشوا في البداية، كان ذلك أمراً طبيعياً، اندهشوا وأصابهم الإحباط، الإحباط والأسى، فبالنسبة لهم بدا الأمر «لا أمريكياً» ليس من صفاتنا وغريب على تقاليدنا الراسخة، وكان ذلك أمراً طبيعياً أيضاً، فقد كنا نلعب على الطريقة الأمريكية أمام الناس، أما بيننا وبين أنفسنا فكنا نلعب على الطريقة الأوروبية، وتمت الخطة تقريباً بإحكام، بإحكام شديد، وأربكهم ذلك، لم يستطيعوا أن يفهموا الأمر، فقد كنا أصدقاء حميمين بل متعاطفين إلى أقصى الحدود مع هؤلاء الوطنيين السذج! ونحن بأنفسنا الذين عدنا بزعيمهم وبطلهم وأملهم و«واشنطنهم» «أجوينالدو» من المنفى، عدنا به على متن سفينة حربية، تحت ضيافة العلم الأمريكي وحمايته المقدسة، عدنا به وأرجعناه إلى شعبه، وتلقينا عميق امتنانهم في مقابل ذلك، نعم كنا ودودين معهم وأسعدنا قلوبهم بطرق عديدة! فأعرناهم البنادق والذخيرة، وقدمنا لهم النصح، وصاحبناهم صحبة طيبة، ووضعنا مرضانا وجرحانا تحت رعايتهم الكريمة، وعهدنا إلى أيديهم الأمينة الإنسانية بأسرانا الأسبان، وحاربنا معهم جنباً إلى جنب ضد «العدو المشترك» (وهو الاسم الذي أطلقناه نحن)، وأثنينا على شجاعتهم، وأثنينا على كياستهم، وأثنينا على رحمتهم، وأثنينا على سلوكهم الكريم المهذب، واستعرنا منهم الخنادق، واستعرنا مناصب عليا كانوا قد استولوا عليها من الأسبان من قبل، ودللناهم، وكذبنا عليهم، أعلنا رسمياً أن قواتنا من المشاة والبحرية جاءت لكي تمنحهم حريتهم وتطرد الأسبان الأشرار، و«استعبطناهم» واستغللناهم حتى لم نعد نحتاجهم، وعندها رمينا العظم بعد أن أكلنا اللحم، فاحتفظنا بالمناصب التي سلبناها منهم، ويوماً بعد يوم حركنا إحدى قواتنا ودخلنا أرض الوطنيين فكرة ذكية لأننا كنا في حاجة إلى مشكلة، وهذه الخطوة ستتكفل بالأمر، ثم جاء أحد الجنود الفلبينيين كي يمر في الأرض ولم يكن لأي أحد الحق في أن يمنعه، ولكن حراسنا أطلقوا عليه الرصاص، واشتعل غضب الوطنيين، ودون أن ينتظروا موافقة «أجيونالدو» الذي كان بعيداً عن البلاد، ردوا على ذلك برفع السلاح، ولم يوافق أجيونالدو ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً، وكان ما نريده - من أجل التقدم والحضارة - هو الأرخبيل دون أن ينغص علينا الوطنيون الذين يكافحون من أجل الاستقلال حياتنا، وكانت الحرب هي ما نحتاج إليه فتشبثنا بالفرصة، إنها قضية السيد تشامبرلين ثانية - على الأقل من ناحية الدافع والنية - ولعبنا اللعبة بدهاء مثلما لعبها هو نفسه».

عند هذه النقطة من إعلان الحقائق بكل صراحة للشخص الجالس في الظلمات، علينا أن نلقي ببعض كلمات التملق التجاري عن نعمة الحضارة - من باب التغيير وإنعاش الروح - ثم نستكمل حكايتنا:

«وبعد أن استولينا نحن والوطنيون على مانيلا، انتهت ملكية أسبانيا للأرخبيل وسيادتها عليه طمست وانمحت ولم يعد لها أي ذرة من وجود، حينها وردت بخاطرنا تلك الفكرة المقدسة المضحكة حول شراء كل من هذين الشبحين من أسبانيا! (لا خوف من الاعتراف بذلك أمام الشخص الجالس في الظلمات حيث إنه لن يصدق - كما لن يصدق أي رجل عاقل - هذا الأمر)، وبعد شراء هذين الشبحين مقابل عشرين مليون تعاقدنا أيضاً على أن نحمي «الإخوة» وتجمعاتهم، واعتقدنا أننا اتفقنا أيضاً على أن ننشر الجذام والجدري وإن كان ذلك غير مؤكد، ولكن لا يهم، فالأشخاص الجالسون في الظلام الذين ابتلوا بـ«الإخوة» لن تشغلهم الأمراض الأخرى.

«وبعد أن تم التصديق على المعاهدة، خضعت مانيلا، وأصبح شبحانا في أمان، ولم نعد في حاجة إلى أجيونالدو وملاك الأرخبيل، فافتعلنا حرباً وها نحن نطارد حليف أمريكا ومضيفها(11) عبر الغابات والمستنقعات منذ ذلك الحين».

وعند هذه النقطة من الحكاية سوف يكون من المحبذ أن نتفاخر قليلاً بإنجازاتنا الحربية، وبطولاتنا في الميدان، كي نجعل أداءنا لا يقل عن أداء إنجلترا في جنوب أفريقيا، وإن كنت أعتقد أن من الأفضل ألا نؤكد على ذلك بشكل زائد عن اللزوم، يجب أن نتوخى الحذر، يجب بالطبع أن نقرأ تلغرافات الحرب على «الشخص» كي نستكمل صراحتنا، ولكن يمكننا أن نضفي عليها جواً من المرح، وذلك سوف يخفف قليلاً من فصاحتها الجافة، ونبرة البهجة الواضحة فيها، وقبل أن نقرأ عليه رؤوس الرسائل التالية التي نشرت في 18 نوفمبر عام 1900 يكون من الأفضل أن نتدرب عليها مع أنفسنا أولاً حتى نصل إلى الطريقة المثلى في قراءتها والتي تكسبها نكهة الخفة واللطف:

نفاذ صبر الإدارة من العمليات العدائية المحمية!
حرب حقيقية على الأبواب ضد الثوار الفلبينيين!
لن تأخذنا بهم رحمة
تبني خطة كيتشنر

يعرف كيتشنر كيف يتعامل مع المعارضين الذين يحاربون من أجل منازلهم وحرياتهم، ويجب علينا أن نقول إننا نقلد كيتشنر فحسب، وليست لدينا أية مصالح قومية في الأمر برمته سوى أن نحصل على إعجاب «عائلة الأمم الكبيرة»، والتي اشترى لنا سيد اللعبة المعظم فيها مكاناً في الصف الخلفي.

بالطبع يجب ألا نغامر ونتجاهل تقارير الجنرال ماك آرثر، أوه... لماذا يطبعون هذه الأشياء المحرجة؟، يجب أن نتلعثم ونحن نقرأها حتى يتشتت انتباههم فلا يدققوا فيها:

في أثناء الأشهر العشرة الأخيرة بلغت خسائرنا 268 قتيلاً و750 جريحاً وبلغت خسائر الفلبين ثلاثة آلاف ومائتين وسبعة وعشرين قتيلاً و694 جريحاً.

يجب أن نكون مستعدين للإمساك بزمام الشخص الجالس في الظلمات وإلا سيفلت من

المعونات الغربية وهم لا غنى عنه

أيدينا عقب هذه الاعترافات، ويقول: يا إلهي، هؤلاء «الزنوج» لا يقتلون الجرحى، والأمريكيون يذبحون جرحاهم!».

يجب أن نعيده إلى رشده بأن نتملقه وأن ندلله وأن نؤكد له أن طرق العدالة الإلهية هي الأفضل، وأننا لا نستطيع أن نجد فيها نقيصة، وبعد ذلك نوضح له أننا لسنا سوى مقلدين ولسنا مجددين، ويجب أن نقرأ له هذه الفقرة من الخطاب الذي أرسله أحد الجنود الأمريكيين في الفلبين إلى أمه، والذي نشرته جريدة Public Opinion في ديكورا في أيوا حيث يصف في هذه الفقرة نهاية معركة انتصر فيها الأمريكيون:

«لم نترك أحدًا منهم على قيد الحياة، وكان عندما يسقط أحدهم جريحًا نغرس حرابنا في جسده».

والآن بعد أن نكون قد وضعنا كافة الحقائق بين يدي الشخص الجالس في الظلمات، علينا أن نعيده إلى رشده ثانية، وأن نشرح له هذه الأمور، علينا أن نقول له:

«قد تبدو هذه الأمور محل شك، ولكن الواقع غير ذلك، بالطبع كنا نكذب عليكم، ولكن ذلك كان لأغراض سلمية، كنا نخونكم، ولكن قد يخرج الخير الحقيقي من أفعال سيئة في ظاهرها، لا ننكر أننا سحقنا شعبًا مخدوعًا كان يثق بنا، وانقلبنا على الضعيف الذي لا صديق له والذي وضع كامل ثقته فينا، وفرمنا جمهورية عادلة وذكية ومنظمة، وطعنًا حليفنا في ظهره وصفعنا مضيفنا على وجهه، واشترينا خيالاً من عدو لم يكن يمتلكه كي يبيعه، وسطونا على صديق لم يخنًا فجردناه من أرضه ومن حريته، ودعونا شبابنا النظيفين كي يحملوا بندقية «ماسكيت» سيئة السمعة ويقوموا بأعمال السلب والنهب تحت العلم الذي اعتاد أن يخافه السلابون والنهابون بدلاً من أن يتبعوه، وأفسدنا شرف أمريكا وسودنا وجهها أمام العالم،

ولكن كل ذلك كان من أجل الأفضل، نعرف ذلك، ونعرف أيضًا أن زعيم كل دولة في العالم المسيحي وتسعين في المائة من المشرعين في دول العالم أعضاء ليس في الكنيسة فحسب ولكن في «الوعد بنعمة الحضارة»، وكل هذه الأخلاق والمثل العليا والعدالة التي تحوط العالم أجمع لا يمكن أن تفعل شيئًا غير صائب أو غير عادل أو غير كريم أو غير نظيف، فهي تعرف ما تسعى إليه، لذلك لا تحمل همًا فكل الأمر على ما يرام».

والآن سيقتنع الشخص بهذا الكلام، سترى بنفسك، ومن ثم ستعود تجارتنا إلى ما كانت عليه، وسيرفع سيد اللعبة إلى المكان الخالي في ثالوث أمتنا المقدس، وسيجلس الثلاثة على عروشهم السامية، على مر العصور في ذاكرة الناس وكل منهم يحمل شعار الخدمة التي أداها للأمة: واشنطن (12) سيف الحرية، ولينكولن (13) محطم أغلال العبودية والمعلم» (14) مصلح أغلال العبودية.

سوف يعطي ذلك التجارة دفعة جديدة رائعة، وسترى.

وكل شيء الآن ملائم، كل شيء تمامًا كما تتمناه، فقد حصلنا على الأرخبيل، وسوف لن نتخلى عنه أبدًا، كما أن لدينا كل الحق أن نأمل في أن تتاح لنا الفرصة قريبًا للتملص من اتفاقية الكونجرس مع كوبا ونعطيها شيئًا أفضل في مقابل ذلك، فهي بلدة غنية وقد بدا الكثيرون منا في الاعتقاد أن هذه الاتفاقية كانت خطأ رومانسيًا، ولكن الآن – في هذه اللحظة – الوقت مناسب تمامًا للقيام ببعض أعمال الإصلاح المفيدة، أعمال سوف ترفع من شأننا وتجعلنا نستريح ونقطع السنة النميمة، لا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا مأزومون بسبب زينا العسكري، فهو أحد مصادر فخرنا، وهو مرتبط بشرفنا، وهو مرتبط بأعمال عظيمة ونبيلة، ونحن نحبه، ونقدره، ولذلك تزعجنا تلك المهمة التي يسعى إليها، وعلمنا – الذي هو مصدر فخر آخر، بل أهم تلك المصادر، لقد عبدناه عبادة، وعندما كنا نراه – يرفرف فوق أراض أخرى أجنبية ويلوح لنا بالتحية – كنا نحبس أنفاسنا، ونرفع قبعاتنا، ولا نستطيع الكلام للحظة حيث يدور بخاطرنا ما يمثله لنا هذا العلم وأي قيم عليا كان يرمز لها، في الحقيقة يجب أن نجد حلاً لهذه الأمور، يجب ألا يظل العلم هناك ولا الزي أيضًا، فنحن لا نحتاجهما هناك، يمكننا أن نتصرف بشكل آخر، فقد استطاعت إنجلترا أن تتصرف في موضوع الزي ونستطيع ذلك نحن أيضًا، يجب أن نرسل جنودًا، لا مفر من ذلك، ولكن بإمكاننا أن نرسلهم متنكرين، إنها الطريقة التي استخدمتها إنجلترا في جنوب أفريقيا، وحتى السيد تشامبرلين نفسه يفخر بزي إنجلترا المحترم، فيجعل جنوده هناك يرتدون زيًا تنكريًا قبيحًا وكريهًا من قماش يشبه ذلك الذي تصنع منه أعلام الحجر الصحي، والتي ترفع لتحذر الأصحاء أن يبتعدوا عن المرض القذر والموت الكريه، وهذا القماش يسمى الكاكي، بإمكاننا أن نستخدمه فهو خفيف ومريح وغريب ويخدع العدو، فلن يتصور العدو أن مثل ذلك الزي يخفي خلفه جنديًا.

أما بالنسبة للعلم الذي يجب أن يرفع في مقاطعة الفلبين فمن السهل صناعته، يمكننا أن نحصل على علم خاص، كل ولاياتنا لها أعلام خاصة: يمكننا أن نحتفظ بعلمنا الأصلي مع تلوين الخطوط البيضاء باللون الأسود، واستبدال النجوم بجماجم وعظام متقاطعة.

ولا نحتاج إلى لجنة مدنية هناك، فحيث إن تلك اللجنة لا نفوذ لها فيجب عليها أن تخترع نفوذاً، وهذا عمل لا يستطيع أي شخص القيام به، عمل يحتاج إلى خبير، وعلينا ألا نرسل السيد كروكير، فنحن لا نريد شخصاً يمثل الولايات المتحدة ولكن شخصاً يمثل اللعبة.

وبمساعدة هذه التعديلات المقترحة يمكن أن تحدث طفرة في التقدم والحضارة في البلدة، وأن نسحب إليها كل الأشخاص الذين يجلسون في الظلمات، وبذلك نستعيد تجارتنا رائجة كما كانت من قبل.

3

من ووتر جيت إلى ريجان

ديفيد فروم

ت: عبير الفخراني

عكف الأمريكيون على مدى ثلاثين عاماً على دراسة وتسجيل وتحليل مرحلة الستينيات، وعلى النقيض تماماً تجاهلوا السبعينيات وأداروا لها ظهرهم وكأن شيئًا ما لم يحدث. «يبدو وكأنه لم يحدث شيء» It seemed like nothing happened هو عنوان إحدى الدراسات القليلة عن تلك الفترة، وبالرغم أن المؤلف يحاول أن يبرهن على أنه في الحقيقة قد حدث الكثير إلا أن عنوان كتابه أكثر دقة في تجسيد ما يعتقده الأمريكيون.

فوصف فترة السبعينيات بأنها زمن خال من الأحداث، يعتبر أمرًا شديد الغرابة، فبكل الصور كان ذلك العقد مزدحماً بالصدمات والتراجيديا: مذبحة اللاعبين الإسرائيليين التي نفذها فلسطينيون في أوليمبياد ميونيخ، وحظر البترول العربي، واستقالة الرئيس، والركود الاقتصادي عام 74 – 1975 والذي كان الأسوأ من نوعه منذ الكساد العظيم، والانسحاب من فيتنام الجنوبية ومحاولتان لاغتيال الرئيس، وموجة الجرائم الأسوأ في التاريخ الأمريكي، والانفجار الشديد في أنشطة العدالة والتشريع، والصعود غير المسبوق في احتياج الحكومة في أوقات السلم إلى القطاع الاقتصادي الخاص.

كيف يمكن وصف ذلك بأنه لا شيء؟ في المرتبة الأولى: رجال الإعلام والترفيه الذين يقررون ما يعد أمرًا مهماً لابد وأنهم يفكرون بطريقة خاصة جداً. فالمظاهرات والمسيرات التي قامت في الجنوب في فترة الستينيات، والتي طالبت بالحقوق المدنية تعتبر شيئًا مهماً بالنسبة لهم. لكن على العكس من ذلك لم يعتبروا مظاهرات الشمال، المساوية لسابقتها في الستينيات والتي كانت ضد ركوب الأوتوبيسات في منتصف السبعينيات أمرًا مهماً.

والنزعة المثالية التي جذبت عشرات الألوف من الشباب إلى أوجني ماكارثي Eugene Ma-carthy عام 1968 تعد شيئًا مهماً، ولكن المثالية التي جذبت أعداداً كبيرةً من الشباب إلى حملات رونالد ريجان في 1976 و 1980 تعتبر بالنسبة لهم أيضاً لا شيء.

في المرتبة الثانية: حوادث السبعينيات الأكثر مأساوية: قضية البنتاجون، الووتر جيت، إباحة الإجهاض، كان لرجال الإعلام طريقة غريبة في التأثير في ذاكرة الستينيات، وهذا حدث بسبب سياسات غريبة أنشأتها فترة الستينيات.

وعندما نشير إلى أحداث ونزاعات مهمة، فنحن نستخدم عادة كلمات وليس أرقاماً مصمتة، فنقول الصفقة الجديدة وليس الثلاثينيات. والمرحلة التقدمية وليس العقد الثاني من القرن العشرين، ونقول إعادة البناء وليس عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر. نفعل ذلك لأننا ندرك أن هذه النزاعات والأحداث أشعلتها قضايا خاصة أو برامج أو أيديولوجيات وهذه أسماء القضايا التي تم حسمها.

ففترة الستينيات لم تتبع هذا النموذج، حيث سيكون من السخافة أن نطلق عليها «المجتمع العظيم» وإذا لم يكن المجتمع العظيم فماذا سيكون إذن؟ لم يتوصل أي شخص إلى التسمية المناسبة وكيف يمكن إيجادها فالقوانين التي مررها نشطاء فترة الستينيات أكثر من مجرد ظروف وقتية. فبلا شك نحن نؤمن بأن الموسيقى كانت أصدق تعبير عن فترة الستينيات، التي يصعب التعبير عنها ببرامج أو أفكار أو كلام شفهي. فالستينيات كما كتب عنها أحد النشطاء الديمقراطيين أخيراً، ريتشارد جودوين «احتوت على وعد ونبوءة بإمكانيات كثيرة وثورة من الطاقة الراسخة» إن فترة الستينيات من الصعب جداً أن تحدد النقطة التي انتهت إليها. فإذا كانت هذه المشاعر التي كانت خليطا من الآمال الطوباوية والغموض غير الواضح الذي وصفه جودوين، استمرت ليتم التعبير عنها في 1974 فمن الصعب تجنب التفكير في أن عام 1974 يعتبر فعلاً امتداداً للستينيات، ويبدو في الحقيقة أنهم وجدوا أنه من المستحيل إنكار أن شغب ذلك العام في سياتل ولندن ليس فعلاً امتداداً للستينيات.

على أية حال آخر وأهم التفسيرات «للاشيء» الخاص بفترة السبعينيات» أن أهم إنجازات تلك الفترة لم تكن أحداثًا صالحة للعرض على شاشة التليفزيون، لكنها تميل إلى أنها ليست اغتيالات، ولكن صنع قرار لناخبين جدد يساندون الجمهوريين أكثر من الديمقراطيين، وليست أعمال شغب ولكن هجرة ملايين من الشمال الشرقي إلى الجنوب والغرب. ربما تكون إحدى أكثر النتائج التي ترتبت على هذه الاتجاهات انهيار معدل المواليد.

ففي عام 1971 قامت مدرسة برين ماور – Bryn Mawr إحدى المدارس الراقية بالقرب من فيلادلفيا– بإجراء استقصاء على الطالبات اللاتي تخرجن من المدرسة منذ خمس سنوات، وسجلن 75٪ من العينة أكثر من سبعة أطفال، و1975 قامت المدرسة باستقصاء آخر ولكن هذه المرة سجلت العينة ثلاثة أطفال فقط. ففي عام 1970 كان معدل المواليد في الولايات المتحدة مثل أي مجتمع في العالم المتقدم فعلياً أكثر من المستوى المطلوب لاستقرار السكان. اليوم لا يوجد مجتمع واحد متقدم يجدد نفسه – التعداد السكاني في أمريكا يتزايد فقط من خلال الهجرة. من الناحية الجدلية أسهم السياسيون من مختلف الأحزاب في انحدار معدل المواليد من خلال رفع الضرائب وتخفيض الأجور، لكن هذا الأمر في الحقيقة يعكس مرجعية الأمريكيين أنفسهم.

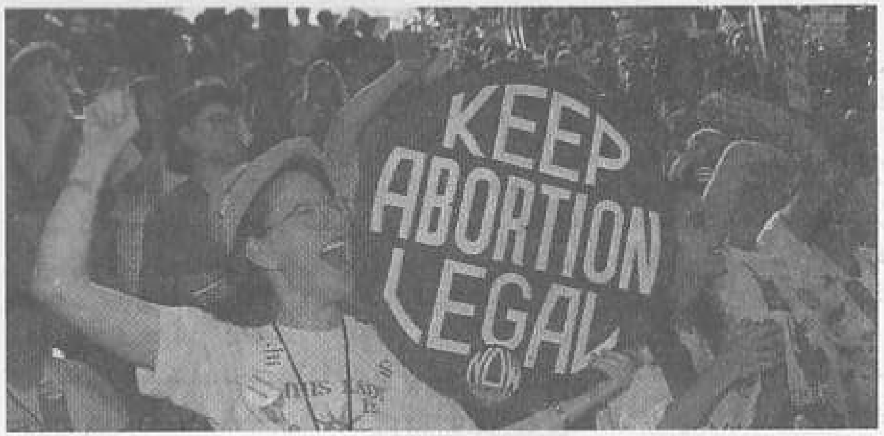

تشريع للإجهاض.. تصاريح لا يجب احتذائه

في أواخر 1967 كان 40٪ من الأمريكيين البالغين يرون أن أربعة أطفال هو العدد المثالي للعائلة، في بداية 1973 اعتقد 20٪ منهم فقط في ذلك.

إعادة التفكير الحادة في مزايا العائلة الكبيرة التي ربما تأثرت بالخوف البيئي الذي حفزته وسائل الإعلام في هذه السنوات. ولكن القائمين على شئون البيئة نادرًا ما يقنعون الناس بالتوقف عن أية عادة يحبونها. فالناس ربما يفزعون من الإنجاب خاصة أنه ليس على رأس أولوياتهم، فالأطفال يعوقون طموح المرأة في العمل ويتداخلون مع رغبات الزوجين الشخصية ويتحكمون في رحلاتهم الاستكشافية، وربما أسوأ شيء أنهم يشعرون المرء بأنه كبير في السن، فذات مرة وعد جيري روبين أو ربما هدد قائلاً «نحن لن نكبر أبدًا وسنظل تحت العشرين إلى الأبد».

المجتمعات التي ليست عندها أطفال تنضج بشكل تدريجي فالأمريكي متوسط العمر عنده 38 عامًا، في أوائل السبعينيات كان عمره 28 عامًا، في القرن الماضي كان عمره 21 عامًا.

فأمريكا في منتصف عمرها يفسر الكثير من أسباب هبوط معدلات الجريمة وكيفية ارتفاع عوائد المضاربات في الثروة، والشباب المستهتر أصبح أكثر نضوجًا، كما يفسر كيف أصبح الجينز الأزرق والكاكي بأسعار مناسبة.

هؤلاء الذين يتجنبون الأطفال حتى يحافظوا على شبابهم يجدون الآن أنفسهم على الجانب الأكبر من التوتر المتزايد على المال. بالفعل يدفع معظم الأمريكيين في سن العمل أكثر من 15٪ من دخلهم لمساندة برنامجين لرعاية وحماية المسنين. وكانوا يدفعون عند بداية هذين البرنامجين 2٪، ثم 12٪ عام 1977.

باستثناء الإصلاحات المفاجئة لهذين البرنامجين يتوقع أن يدفع الأمريكان عام 2040 20٪ أو أكثر وهذا قبل ضرائب الدخل التي تدعم الحكومة الفيدرالية.

السياسة الأمريكية كان يقودها دائمًا العداء بين جماعات المصالح، الصراع بين القرية

والمدينة، والشمال والجنوب، والفلاح ضد عامل المصنع، والكاثوليكي ضد البروتستانتي، والعامل ضد صاحب العمل، وانتشر خلال التسعينيات الصراع بين الرجل والمرأة، فلماذا لا يكون الصراع بين الصغار والكبار أيضًا وربما يدخل المال الصراع.

الذين يتجنبون الأطفال للحفاظ على شبابهم يشكلون المجتمع ليتناسب مع الكبار. وقد عبر الرئيس كلينتون عن موقفه عام 2000 بقوله إن الولايات المتحدة يجب أن تصنع لنفسها هدفًا قوميًا وهو أن تصبح أكثر الأمم الصناعية أمانًا، هل يمكن أن يكون هناك روح متوسط العمر أكثر من ذلك.

لكن كيف يشعر الشباب الذين ولدوا في الثمانينيات والتسعينيات عن الحياة في بلد شعارها الأمان أولاً، مجتمع تحت إشراف عبوات الفيتامين، وإشارات التحذير والسيطرة على السجائر والكحوليات والطعام غير الصحي.

في الماضي حث الكبار الشباب على الاتجاه إلى الغرب، واليوم أصبح الغرب مخاطرة وهذا ما حذر منه آل جور نائب الرئيس، كما أسست ثورة النساء نفسها، كما لاحظت جلوريا ستنيم، بنجاح أن صديقاتها من النساء غيرن الرجال الذين أرادوا يومًا أن يتزوجوهم وكذلك الشباب السابقون أصبحوا مشغولين بتجديد مجتمعهم داخل شرنقة آمنة، وبلا شك إنهم بمجرد أن ينتهوا منها سيعزفون الأغاني المثيرة المعارضة وسيريدون العودة إلى 1968 ويعلون أصواتهم أعلى وأعلى ولكنهم لن يكونوا المعارضين الذين سيعرفون العالم الحديث. كل هذا سيكون نتيجة لقرارات اتخذوها في حياتهم الخاصة خلال السنوات الحرجة في الفترة من 1970 إلى 1980.

الهوامش

1- فرين أو Phrune إحدى محظيات اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت تتكسب من جمالها وعملت كموديل، وحين وقفت أمام المحاكمة بتهمة التجديف قطعت ثوبها وأظهرت صدرها مما أثر في القضاة أكبر الأثر فحكموا ببراءتها. (المترجم)

2- الملاكمون أو الـ Boxer متمردون صينيون رفعوا السلاح عام 1900 وكانوا يهدفون إلى طرد كل الأجانب من البلاد، وهذا الاسم أطلقه الأجانب على جماعة سرية صينية كانت عرفت باسم «إي هو شوان» أي «قبضات الحق والوحدة»، وكانوا يمارسون طقوس الملاكمة والجمباز حيث كانوا يعتقدون أن ذلك يمنحهم قوى خارقة ويحمي أجسادهم ضد الرصاص. (المترجم)

3- اللعب هنا على الجناس الصوتي بين «تيل» بمعنى نيل و«تيل» بمعنى العملة الصينية. (المترجم)

4- الهنود الحمر الذين عاشوا في نيبراسكا حتى القرن التاسع عشر. (المترجم)

5- ويليام ماكنلي (1843- 1914) الرئيس رقم 25 للولايات المتحدة. (المترجم)

6- جوزيف شامبرلين (1836- 1914) أصبح وزير خارجية بريطانيا لشئون المستعمرات عام 1895 ثم سافر إلى جنوب أفريقيا. (المترجم)

7- اي أصدروا أصواتًا شديدة الحدة (بالعامية المصرية). (المترجم)

8- مقاطعة جنوب افريقيا السابقة وكانت تحتل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد. (المترجم)

9- بول سانفورد ميثيون (1845- 1932) قائد عسكري بريطاني هزمه البورز في موقعة ماجر سفونتاين عام 1899 خلال الحرب في جنوب أفريقيا. (المترجم)

10- البـــوررز Boers هم سكان جنوب افريقيا الذين ينحدرون من أصول ألمانية او بروتستانتية فرنسية، خاصة الذين سكنوا ترانسفال قديماً، والاسم الشائع لأحفادهم الآن «الأفريكانيون». (المترجم)

11- في الأصل «ضيفها» ورأينا أن المعنى بهذه الصورة يستقيم أكثر. (المترجم)

12- جورج واشنطن (1732- 1799) أول رئيس للولايات المتحدة. (المترجم)

13- إبراهام لنكولن (1809- 1865) الرئيس رقم 16 للولايات المتحدة. (المترجم)

The Master -14 (المترجم)

لوحة: للفنان الأمريكي لي موليسان 1988

المسهمون في العدد

راوية عبد العظيم: مصر ، المدير العام للعصور الجديدة ، مدير سينا للنشر التى قدمت عديداً من كتابات المفكرين، المصريين والعرب بالإضافة إلى العصور الجديدة.

مهدى مصطفى : مصر، شاعر، له : رحيل م.م، 1988، «وتنداري» 1993، مدير تحرير مجلة القاهرة. المحرر العام لـ «العصور الجديدة.»

فكري حسن: مفكر وشاعر مصري أستاذ الحضارة الإنسانية والآثار والتاريخ المصري القديم في جامعة لندن في إنجلترا وجامعة واشنجطن ستيت بامريكا . ورئيس جمعية التراث المصري الحضاري ونائب رئيس رابطة الأثريين العالمية. وعضو لجنة اليونسكو للماء والحضارة. ورئيس تحرير الدورية العلمية «آثار أفريقيا» وعضو هيئة تحرير دوريات علمية وعربية وعالمية خاصة بالآثار والتاريخ وعلوم المناخ القديم. من أعماله أشعار الحب في مصر القديمة.

علاء اللامي: أحد أهم الكتاب العراقيين يعيش في سويسرا له «نصوص مضادة دفاعاً عن العراق» شارك المفكر العراقي الراحل هادي العلوي في بعض الأبحاث خاصة كتاب «المرئي واللامرئي».

فيصل صالح الخيري : فلسطين، باحث في التراث الإنساني عامة والعربي خاصة، ورئيس مركز إحياء التراث الفكرى الفلسطيني تحت التأسيس، وقد أثارت أبحاثه عديداً من النقاشات.

محمد يوسف: شاعر مصري، ومدير تحرير مجلة التقدم العلمي بالكويت، ويقيم منذ سنوات في الكويت وهو من جيل الستينيات وله عديد من الدواوين.

احمد عز الدين: شاعر مصري، وباحث وكاتب في الشئون السياسية والإستراتيجية.

محمد عرابي: فنان تشكيلي مصري، اقام عديداً من المعارض وله تجربة في التصوير بالكمبيوتر ويعد رائداً في هذا المجال ويشغل موقع استاذفي كلية الفنون الجميلة جامعة المنيا.

بيير بورديو: مفكر فرنسي، من اهم كتبه «مقدمة في نظرية الأدب» وقد نقله إلى العربية، إبراهيم فتحي.

محمد عبدالشفيع عيسى: كاتب وباحث مصري، له العديد من الدراسات، استاذ في معهد التخطيط.

عادل الآلوسي: كاتب وباحث عراقي وأستاذ جامعي.

الن جينسبرج: شاعر امريكي شهير، توفى 1997 اسس شعرية «البيت» ودعى إلى قصيدة تشبه الكلام العادي، ومن دواوينه (عواء) و(امريكا) و(قادش) والغريب انه لم يدرج في موسوعة الشعراء الامريكين ولم يحصل على جائزة بوليتزر.

مارتن لوثر كينج (الابن): هو ابن الزعيم مارتن لوثر كينج داعية حقوق الإنسان الامريكي والذي اغتيل بسبب آرائه.

طارق ابو الحسن : طبيب وكاتب مصري وباحث في العقائد والأفكار القديمة.

هنري لورانس: باحث فرنسي مهتم بقضايا الشرق الأوسط. له: المملكة المستحيلة فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث.

إنياسيو رامونيه: باحث فرنسي.

لويك فاكان: باحث فرنسي.

عادل سمارة : مفكر اقتصادي، أردني، له العديد من الأبحاث.

براين جارث: باحث فرنسي.

طلعت الشايب:مترجم مصري، ترجم «المثقفون» و«الخوف من المرايا» و«الحمامة»، و«صدام الحضارات»، و«فتاة عادية»، و«حدود الحرية».

إيف ديزاليه: باحث فرنسي.

يسري خميس: شاعر وكاتب مصري، وأستاذ في كلية الطب البيطري، جامعة القاهرة.

اشرف الصباغ:باحث مصري يقيم في موسكو.

علاء شاهين: مترجم وقاص لبناني، يقيم في القاهرة.

إيهاب عبدالحميد:قاص ومترجم مصري.

مارك توين: كاتب أمريكي.

ديفيد فروم: كاتب أمريكي.

ارثر هيرمان: استاذ التاريخ في جامعة «جورج ماسون» الامريكية ومنسق برنامج الحضارة الغربية.

قسيمة اشتراك

اسم المشترك : ....

البلد : ....

العنوان : ....

الفاكس والتليفون : ....

١-الاشتراك السنوي داخل مصر (الأفراد) : ٩٠ تسعون جنيهاً مصرياً شاملاً البريد.

٢- الاشتراك السنوي داخل مصر (المؤسسات) : ١٨٠ مائة وثمانون جنيهاً مصرياً شاملاً البريد.

٣- الاشتراك السنوي في البلاد العربية (الأفراد) : ١٠٠ مائة دولار امريكي شاملاً اجور الشحن.

٤- الاشتراك السنوي في البلاد العربية (المؤسسات) : ٢٠٠ مائتا دولار امريكي شاملاً اجور الشحن.

٥-الاشتراك السنوي في أوروبا وأمريكا واستراليا وروسيا والصين : ٣٠٠ ثلاثمائة دولار امريكي شاملاً أجور الشحن.

* تقبل الاشتراكات سواء كانت نقداً أم شيكاً مصرفياً أم حوالة بريدية وباسم :العصور الجديدة للنشر والتوزيع

١٢ شارع جمال الدين ابو المحاسن – جاردن سيتي – القاهرة – ج . م . ع – تلفاكس : ٧٩٦٤٠٩٨ – ٧٩٥٩١٣٣
12, Gamal Eldeen Abou Elmahasen st. Garden City - Cairo - Egypt - Tel & Fax : 7959133 - 7964098
email : ALOUSOUR@INTOUCH.COM.

المقاولون العرب

عثمان أحمد عثمان وشركاه

حول العالم

الشركة تنتشر فى ٢٩ دولة
فى قارات أفريقيا وأسيا وأوربا
ويبلغ حجم اعمالها اكثر من ٦ مليارات جنية

Villar
فيلار
Chopard
GENEVE
فيرست مول ٣٥ ش مراد – الجيزة (٠٢)٥٦٩٩٠٥٦
المهندسين ١٥ ش سليمان أباظة (٠٢)٣٣٨٦٨٦٥
مركز التجارة العالمى ١١٩١ كورنيش النيل (٠٢)٥٧٨٠٩٠٢
الإسكندرية زهران مول سموحة (٠٣)٤٢٤٨١٥٠